(٥) أحمر أسود

تفسير سورة الأنفال

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ
بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ
رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾

[الأنفال: ١-٤].

(٦) أحمر أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلۡأَنفَالِۖ - وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ - يَتَوَكَّلُونَ - يُنفِقُونَ - وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾	الغنائم – ما يغنمه المسلمون من الكفار
﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾	خافت قلوبهم – خشعت – تواضعت – سكنت
﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾	يعتمدون (في قضاء أمورهم كلها على الله)
﴿يُنفِقُونَ﴾	يخرجون
﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾	الجنة



تعريف الأنفال

س: اذكر المراد بالأنفال بشيء من التفصيل.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنها الغنائم عمومًا التي يغنمها المسلمون من الكفار، وهذا قول جمهور العلماء[1].

الثاني: أن المراد بالأنفال الزيادات التي يعطيها الإمام لبعض المحاربين دون غيرهم.

وهذا اختيار الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثالث: أن الأنفال ما شذَّ من المشركين عمومًا وانتقل إليهم من غير حرب كالفرس الذي يشذ منهم إلى المسلمين من غير قتال أو العبد، أو الأمة، أو أي متاع من الكفار يشذ إلى المسلمين بغير قتال، وهذا القول قول عطاء وغيره، وقد صح عن عطاء.

القول الرابع: أنها الخمس (خمس الغنيمة) فالغنيمة تقسم خمسة، والمراد بالأنفال خُمسها، وهذا القول قول مالك، عزاه إليه الشنقيطي في أضواء البيان.

القول الخامس: أن المراد بالأنفال خمس الخمس فالغنيمة تُقسم خمسة أخماس، وأحد هذه الأخماس يُقسم إلى خمسة، والأربعة أخماس للمجاهدين، والخمس الخامس يقسم إلى خمسة أخماس أحدها لله والرسول بمعنى أننا إذا افترضنا أن الغنيمة كانت مائة مثلًا، فأربعة أخماسها (٨٠) للمجاهدين، والعشرون المتبقية تقسم إلى خمسة، أحد أقسامها لله والرسول، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾.

---

(١) نقله عنهم غير واحدٍ منهم الشنقيطي في أضواء البيان.

هـذا، وكمـا أسـلفت فـإن رأي الجمهـور أن المـراد بالأنفـال الغنـائم، ولكـن يُعكر على هـذا بـأن يقـال، كيـف قيـل: قـل الأنفـال لله والرسـول، وقيـل أيضًـا: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾؟!!

وجوابـه أن يُقـال إن الآيـة الأولـى نسـخت بالثانيـة، أي: أن السـؤال كـان أولًا عن الأنفال فأخبروا أن الأمر فيها لله والرسـول يقضـي الله فيهـا بمـا يشـاء ويحكم فيها بما يريد، ثم بيَّن بعد ذلك قضـاءه فيهـا بـأن قـال: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فعلى هذا قد يُقال إن الثانية نسـخت الأولـى أي: أن قوله: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ نسـخ قولـه: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾.

أو يكون قد بيَّن ووضَّحه، والله أعلم.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في هذه المسألة:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في معنى ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾ التي ذكرها الله في هذا الموضع.

فقال بعضـهم: هـي الغنـائم، وقـالوا: معنـى الكـلام: يسـألك أصـحابك، يـا محمد، عن الغنائم التي غنمتها أنت وأصحابك يوم بدر، لمن هـي؟ فقـل: هـي لله ولرسوله.

وأورد عددًا من الآثار بذلك، ثم قال:

وقال آخرون: ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين، من عَبْـد أو دابة، وما أشبه ذلك.

وأورد بسندٍ صحيح عن عطاء: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾، قال: هي ما شذّ مـن المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو أمـة أو متـاع أوثَقَـل، فهـو للنبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يصنع فيه ما شاء.

وبسندٍ صحيح عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلا سأل ابن عباس عن ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، فقال ابن عباس: الفرس من النَّفَل، والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضًا. ثم قال الرجل: ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُحْرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مَثَلُ صَبِيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟

وفي رواية أخرى أيضًا عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر رضي الله عنه إذا سئل عن شيء قال: «**لا آمرك ولا أنهاك**». ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه عليه السلام إلا زاجرًا آمرًا، محللا محرمًا - قال القاسم: فسلِّط على ابن عباس رجل يسأله عن: ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفّل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَل هذا، مثل صبيغ الذي ضربه عمر حتى سالت الدماء على عقبيه- أو على رجليه؟ فقال الرجل: أمّا أنت فقد انتقم الله لعمر منك.

وقال آخرون: «النفل»، الخمس الذي جعله الله لأهل الخُمُس.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى: ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، قولُ من قال: هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سَهْمه على حقوقهم من القسمة، وإما مما وصل إليه بالنفل، أو ببعض أسبابه، ترغيبًا له، وتحريضًا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين. وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من أنه الفرس والدرع ونحو ذلك، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أن ذلك ما عاد من المشركين إلى المسلمين من عبد أو فرس، لأن ذلك أمره إلى الإمام، إذا لم يكن ما وصلوا

إليه بغلبة وقهر، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام، وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب، لأن «النفل» في كلام العرب، إنما هو الزيادة على الشيء، يقال منه: «نفَّلتك كذا»، و«أنفلتك»، إذا زدتك.

و﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾، جمع «نَفَل»، ومنه قول لبيد بن ربيعة:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

فإذ كان معناه ما ذكرنا، فكل من زيد من مقاتلة الجيش على سهمه من الغنيمة- إن كان ذلك لبلاء أبلاه، أو لغناء كان منه عن المسلمين- بتنفيل الوالي ذلك إيّاه، فيصير حكم ذلك له كالسلب الذي يسلبه القاتل، فهو منفل ما زيد من ذلك، لأن الزيادة نَفَلٌ، والنَّفَل وإن كان مستوجِبَهُ في بعض الأحوال لحق، ليس هو من الغنيمة التي تقع فيها القسمة. وكذلك كل ما رُضِخ لمن لا سهم له في الغنيمة، فهو«نفل»، لأنه وإن كان مغلوبًا عليه، فليس مما وقعت عليه القسمة.

فالفصل -إذ كان الأمر على ما وصفنا- بين «الغنيمة» و«النفل»، أن «الغنيمة» هي ما أفاء الله على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر، نفَّل منه منفِّل أو لم ينفل، و«النفل»: هو ما أعطيه الرجل على البلاء والغَنَاء عن الجيش على غير قسمة.

أما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فأورد ما أخرجه البخاري من طريق سعيد بن جبير قال: مكث لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر[1].

(١) البخاري (٤٦٤٥).

وأورد ابن كثير أيضًا ما قدمته من طريق القاسم بن محمد عن ابن عباس ثم قال ابن كثير:

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وأورد أقوالًا قدمناها ثم أورد ما أخرجه الإمام أحمد[1] بسنده إلى سعد بن مالك (وهو سعد بن أبي وقاص) قال: قلت: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي! قال: رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيئا؟ قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾.

وأورد أيضًا ما أخرجه الطيالسي ومسلم[2] وغيرهما من حديث سعد قال: نزلت في أربع آيات: أصبت سيفا يوم بدر، فأتيت النبي ﷺ فقلت: نَفِّلْنِيه. فقال: «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته»، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

اختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال:

الأول: أن المراد بها خصوص ما شذ عن الكافرين إلى المؤمنين، وأخذ بغير حرب كالفرس والبعير يذهب من الكافرين إلى المسلمين، وعلى هذا

---

(١) أحمد (١/ ١٧٨) وسنده حسن.

(٢) مسلم (١٧٤٨)، والطيالسي (٢٠٨)، واللفظ أعلاه لفظ مسلم، وهو قريب من لفظ الطيالسي.

(١٢) أحمر
أسود

التفسير فالمراد بالأنفال هو المسمى عند الفقهاء فيئا، وهو الآتي بيانه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: ٦]، وممن قال بهذا القول عطاء بن أبي رباح.

الثاني: أن المراد بها الخمس وهو قول مالك.

الثالث: أن المراد بها خمس الخمس.

الرابع: أنها الغنيمة كلها وهو قول الجمهور.

الخامس: أن المراد بها أنفال السرايا خاصة وممن قال به الشعبي، ونقله ابن جرير عن علي بن صالح بن حي، والمراد بهذا القول: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش.



الجمع بين قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾
وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾

س: على قول من قال إن الأنفال هي الغنائم، وهم الجمهور فكيف الجمع بين قوله تعالى: (قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ)، وبين قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ..﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك وجوهٌ:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية، ناسخٌ لقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، وقد نقل القول بالنسخ عن الجمهور[١].

الثاني: أنه ليس بناسخ إنما هو بيانٌ لحكم الله ورسوله، فأولا قيل يسألونك

(١) انظر هذا النقل عند القرطبي وفي أضواء البيان.

(١٣) أحمر
أسود

عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول يصنع الله فيها ما يشاء ويأمر رسوله فيها بما يريد، ثم أوضح الله ﷻ مراده فيها بقوله: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فقال بعضهم: إنها ناسخة من وجه، منسوخة من وجه، وذلك أن الغنائم كانت حراما في شرائع الأنبياء المتقدمين فنسخ الله ذلك بهذه الآية وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول ﷺ ثم نسخ ذلك بقوله ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ وقال آخرون المراد بالأنفال شيئان:

أحدهما: ما يجعله الرسول ﷺ لطائفة من شجعان العسكر ومتقدميه يستخرج به نصحهم ويحرضهم على القتال.

والثاني: ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روي عن ابن عمر قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فغنمنا إبلا فأصاب كل واحد منا اثنا عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا فعلى هذا هي محكمة لأن هذا الحكم باق إلى وقتنا هذا.

وقال الطبري رحمه الله:

واختلفوا فيها: أمنسوخة هي أم غير منسوخة؟

فقال بعضهم: هي منسوخة. وقالوا: نسخها قوله: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، الآية.

وقال آخرون: هي محكمة، وليست منسوخة، وإنما معنى ذلك: ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ ﴾، وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة، وللرسول، يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيه.



(١٤) أحمر
أسود

س: هل قسم رسول الله ﷺ غنائم بدر؟

ج: نعم قسمها رسول الله ﷺ، ويشهد لذلك حديث علي: كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنَ الْمَغْنَمِ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَعْطَانِي شَارِفًا مِنَ الْخُمُسِ يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَنِيَ، بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاعَدْتُ رَجُلًا صَوَّاغًا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ يَرْتَحِلُ مَعِيَ. فَنَأْتِي بِإِذْخِرٍ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ مِنَ الصَّوَّاغِينَ. فَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرْسِي. فَبَيْنَا أَنَا أَجْمَعُ لِشَارِفَيَّ مَتَاعًا مِنَ الْأَقْتَابِ وَالْغَرَائِرِ وَالْحِبَالِ. وَشَارِفَايَ مُنَاخَانِ إِلَى جَنْبِ حُجْرَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ. وَجَمَعْتُ حِينَ جَمَعْتُ مَا جَمَعْتُ. فَإِذَا شَارِفَايَ قَدِ اجْتُبَّتْ أَسْنِمَتُهُمَا وَبُقِرَتْ خَوَاصِرُهُمَا، وَأُخِذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا. فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ مِنْهُمَا. قُلْتُ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ قَالُوا: فَعَلَهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ فِي شَرْبٍ مِنَ الْأَنْصَارِ. غَنَّتْهُ قَيْنَةٌ وَأَصْحَابَهُ. فَقَالَتْ فِي غِنَائِهَا: أَلَا يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النِّوَاءِ. فَقَامَ حَمْزَةُ بِالسَّيْفِ. فَاجْتَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا. فَأَخَذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا. فَقَالَ عَلِيٌّ: فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ. قَالَ: فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَجْهِيَ الَّذِي لَقِيتُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاللهِ! مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ. عَدَا حَمْزَةُ عَلَى نَاقَتَيَّ فَاجْتَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا. وَهَا هُوَ ذَا فِي بَيْتٍ مَعَهُ شَرْبٌ. قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرِدَائِهِ فَارْتَدَاهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي. وَاتَّبَعْتُهُ أَنَا وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ. حَتَّى جَاءَ الْبَابَ الَّذِي فِيهِ حَمْزَةُ. فَاسْتَأْذَنَ. فَأَذِنُوا لَهُ. فَإِذَا هُمْ شَرْبٌ. فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فَعَلَ. فَإِذَا حَمْزَةُ مُحْمَرَّةٌ عَيْنَاهُ. فَنَظَرَ حَمْزَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ إِلَى رُكْبَتَيْهِ. ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى سُرَّتِهِ. ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ. فَقَالَ حَمْزَةُ: وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي؟ فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ ثَمِلٌ. فَنَكَصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَقِبَيْهِ

(١٥) أحمر
أسود

الْقَهْقَرَى. وَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ[١].



س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾.

ج: أورد العلماء لهذه الآية أسبابًا للنزول، ويبدو أن الصحيح منها سببان، ولا مانع من أن تتعدد أسباب النزول للآية الواحدة، فيحدث أمرٌ من الأمور ثم يحدث آخر فتنزل الآية فيها جميعها.

أما سبب النزول الأول: فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه[٢] من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت فيَّ أربع آيات...

وذكر الحديث الذي تقدم قريبًا.

وله سياق آخر عند الترمذي: من طريق أَبِي بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ جِئْتُ بِسَيْفٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ قَدْ شَفَى صَدْرِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ نَحْوَ هَذَا هَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ فَقَالَ: هَذَا لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، فَقُلْتُ: عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا مَنْ لَا يُبْلِي بَلَائِي فَجَاءَنِي الرَّسُولُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فَقَالَ: «إِنَّكَ سَأَلْتَنِي وَلِيس لِي وَإِنَّهُ قَدْ صَارَ لِي وَهُوَ لَكَ» قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ الْآيَةَ.

قَالَ الترمذي بعد إخراجه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ رَوَاهُ سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ عَنْ مُصْعَبِ بن سعد أَيْضًا[٣].

---

(١) البخاري (٣٠٩١)، ومسلم (١٩٧٩)، واللفظ لمسلم.
(٢) مسلم (١٧٤٨).
(٣) ذلك احترازٌ عن الكلام الموجود في أبي بكر بن عياش ولكن له طرق أخر عن عاصم عند الطبري وغيره.

(١٦) أحمر
أسود

أما سبب النزول الثاني فأخرجه أحمد[١]، وفي سنده مقال، إلا أنه فيما يبدو والله أعلم يُحسَّن لشواهده من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا فَالْتَقَى النَّاسُ فَهَزَمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ، فَأَكَبَّتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْوُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَا يُصِيبُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً، حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ: نَحْنُ حَوَيْنَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ، وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا، نَحْنُ نَفَيْنَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا، نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَخِفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً وَاشْتَغَلْنَا بِهِ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَوَاقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

قلت (مصطفى): وفي سنده انقطاع، ولكن له شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «**مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ مِنَ النَّفَلِ كَذَا وَكَذَا**» قَالَ: فَتَقَدَّمَ الْفِتْيَانُ وَلَزِمَ الْمَشْيَخَةُ الرَّايَاتِ فَلَمْ يَبْرَحُوهَا فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ الْمَشْيَخَةُ: كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ لَوْ انْهَزَمْتُمْ لَفِئْتُمْ إِلَيْنَا فَلَا تَذْهَبُوا بِالْمَغْنَمِ وَنَبْقَى فَأَبَى الْفِتْيَانُ وَقَالُوا جَعَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ يَقُولُ: فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ فَكَذَلِكَ أَيْضًا

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٤) والطبري وغيرهما.

فَأَطِيعُونِي فَإِنِّي أَعْلَمُ بِعَاقِبَةِ هَذَا مِنْكُمْ[(١)].



س: عن أي شيء من شؤون الأنفال سأل المؤمنون نبيهم ﷺ؟

ج: السؤال عن الأنفال كيف تُقسَّم؟ وعلى من تُقسَّم؟ والله أعلم.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي عن قولان:

أحدهما: أنها زائدة، والمعنى: يسألونك الأنفال؛ وكذلك قرأ سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وأُبيُّ بن كعب، وأبو العالية: «يسألونك الأنفال» بحذف «عن».

والثاني: أنها أصل، والمعنى: يسألونك عن الأنفال لمن هي، أو عن حكم الأنفال؛ وقد ذكرنا في سبب نزولها ما يتعلق بالقولين. وذُكر أنهم إنما سألوا عن حكمها؛ لأنها كانت حراما على الأمم قبلهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإذْ كان ذلك معنى «النفل»، فتأويل الكلام: يسألك أصحابك، يا محمد، عن الفضل من المال الذي تقع فيه القسمة من غنيمة كفار قريش الذين قتلوا ببدر، لمن هو؟ قل لهم يا محمد: هو لله ولرسوله دونكم، يجعله حيث شاء.



س: هل كانت الغنائم حلالًا للأمم من قبلنا؟

ج: لم تحل الغنائم إلا لأمة محمد ﷺ ونبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ ففي الصحيحين[(٢)] من

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٩)، والطبري عند تفسير الآية المذكورة (١٥٦٦٥)، وفي غيره، والبيهقي (٦/ ٢٩١) وغيرهم.

(٢) البخاري (٤٣٨)، ومسلم (حديث ٥٢١) واللفظ له.

(١٨) أحمر
أسود

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي. كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي. وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا. فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ. وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ».

وفي الصحيحين(١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ. وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا. وَلَا آخَرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا. قَالَ: فَغَزَا فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ. أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ. وَأَنَا مَأْمُورٌ. اللَّهُمَّ! احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا. فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ. قَالَ: فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا. فَأَقْبَلَتْ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ. فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ. فَقَالَ: فِيكُمْ غُلُولٌ. فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ فَبَايَعُوهُ فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ. فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ فَبَايَعَتْهُ. قَالَ: فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ. أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ. قَالَ: فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ، فَأَقْبَلَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ. فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَطَيَّبَهَا لَنَا».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١﴾؟

(١) البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – فخافوا الله واجعلوا نبيكم وبين عذابه وقاية، وأصلحوا فيما بينكم وبين إخوانكم، وأصلحوا بين إخوانكم وبعضهم البعض وأطيعوا الله فيما أمركم به، وأطيعوا رسوله ﷺ إن كنتم صادقين في إيمانكم، وإن كنتم كاملي الإيمان وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فخافوا الله أيها القوم، واتقوه بطاعته واجتناب معاصيه، وأصلحوا الحال بينكم.

واختلف أهل التأويل في الذي عنى بقوله: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾.

فقال بعضهم: هو أمر من الله الذين غنموا الغنيمة يوم بدر، وشهدوا الوقعة مع رسول الله ﷺ إذ اختلفوا في الغنيمة: أن يردَّ ما أصابوا منها بعضُهم على بعض.

وقال آخرون: هذا تحريج من الله على القوم، ونهيٌ لهم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة وغيره.

وأما قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، فإن معناه: وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال، إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم، فقد بين لكم وجوهه وسبله، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، يقول: إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم، كما:

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

الأنفال هي الغنائم التي ينفلها اللّه لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول اللّه ﷺ عنها، فأنزل اللّه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ كيف تقسم وعلى من

(٢٠) أحمر
أسود

تقسم؟

﴿ قُلِ ﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم اللّه ورسوله. بل عليكم إذا حكم اللّه ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما. وذلك داخل في قوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه..

﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل..فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع -من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر،.والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة اللّه ورسوله،.كما أن من لم يطع اللّه ورسوله فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته للّه ورسوله، فذلك لنقص إيمانه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه قسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أم بالتقوى والإصلاح، أي كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء: اللهم أصلح ذات البين، أي الحال التي يقع بها الاجتماع. فدل هذا على التصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، أو

مالت النفوس إلى التشاح؛ كما هو منصوص في الحديث. وتقدم معنى التقوى، أي اتقوا الله في أقوالكم، وأفعالكم، وأصلحوا ذات بينكم. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الغنائم ونحوها. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا. وقيل: ﴿إِن﴾ بمعنى «إذْ».



بعض صفات أهل الإيمان وأعمالهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم– إنما المؤمنون الذين هم كاملوا الإيمان هم الذين إذا ذكر الله أمامهم خافت قلوبهم وخشعت وخضعت وذلت وانكسرت، فحملهم هذا على تقوى الله ﷻ باتقاء محارمه وبفعل ما يرضيه ولا يُسخطه، وكذا فالمؤمنون هؤلاء من صفاتهم أنهم إذا تليت عليهم آيات الله ازدادوا تصديقًا ويقينًا بأنها من عند الله فزادتهم التلاوة إيمانًا وتصديقًا، وهم في كل أمورهم يعتمدون على الله، قد علموا أن الأمر كلَّه وبيد الله فأنزلوا بالله ﷻ حوائجهم ولم يعتمدوا على أحدٍ سواه وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله، ويترك اتباعَ ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وَجِل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفَرَقًا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقًا. وذلك هو زيادة ما تلى عليهم من آيات الله إيَّاهم إيمانًا «وعلى ربهم يتوكلون»، يقول: وبالله يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماضٍ، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا

فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وكقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم -أو قال: يهم بمعصية- فيقال له: اتق الله فيجل قلبه.

وقوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.



زيادة الإيمان ونقصانه

س: هل الإيمان يزيد وينقص، اذكر بعض الأدلة على ذلك؟

ج: نعم يزيد وينقص، وقد قدمت الأدلى على ذلك في عدة مواطن من هذا التفسير، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] إلى غير ذلك.

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول الشرح البخاري، ولله الحمد والمنة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ومن صفات أهل الإيمان الكُمُل في إيمانهم أنهم يقيمون الصلاة، وذلك سيتأتي بالمحافظة على أدائها في أوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها وسائر أركانها وواجباتها، وكذا فإنهم يدعون إلى الصلاة ويرغبون فيها ويحثون على فعلها، وكذا فإن نفعهم يتعدى للآخرين، فإن من صفاتهم بذل الخير وإنفاق المعروف، المفروض منه وغير المفروض فيشمل الزكوات المفروضة، والصدقات المتنفل بها وكذا يشمل المال المبذول في عقيقة المولود والأضاحي، وكذا فإنه يشمل صور الإهداء للآخرين والإحسان إلى الجيران، وكذلك ولائم العرس ونحو ذلك، فضلًا عن ما يبذل في إطعام المساكين وجبر الخواطر المنكسرة، وإقالة العثرات والإعانة على نوائب الحق.

فهؤلاء المتصنعون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان لهم مغفرة عند ربهم، يغفر الله ذنوبهم، ورزق كريم حلال طيب وهو دخول الجنة.

وبنحو هذا قال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(٢٥) أحمر
أسود

يقول تعالى ذكره: الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها، وينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله أن ينفقوها فيه، من زكاة وجهاد وحج وعمرة ونفقةٍ على من تجب عليهم نفقته، فيؤدُّون حقوقهم -«أولئك»، يقول: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال- «هم المؤمنون»، لا الذين يقولون بألسنتهم: «قد آمنا» وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقًا، لا يقيمون صلاة ولا يؤدُّون زكاة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

في تأويل قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾، لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم= ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، وهي مراتب رفيعة.

ثم اختلف أهل التأويل في هذه «الدرجات» التي ذكر الله أنها لهم عنده، ما هي؟

فقال بعضهم: هي أعمال رفيعة، وفضائل قدّموها في أيام حياتهم.

وقال آخرون: بل ذلك مراتب في الجنة.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، يقول: وعفو عن ذنوبهم، وتغطية عليها -﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، قيل: الجنة- وهو عندي: ما أعد الله في الجنة لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى.

(٢٦) أحمر
أسود

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

وقال مقاتل بن حَيَّان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة في قوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقوله: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

﴿وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك في قوله: ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفلُ أنه فُضّل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل علّيين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء»، قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «**بلى، والذي نفسي بيده**

رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها. ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيمانهم،.والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق اللّه وحقوق عباده. وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها،.وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه،.وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب اللّه تعالى والتأمل لمعانيه.ثم ذكر ثواب المؤمنين حقا فقال: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم. ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعد اللّه لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة اللّه التامة.

---

(١) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٢٨) أحمر
أسود

لفتة

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. ونظير هذه الآية ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]. وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب. والوجل: الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض. وقد جمع الله بين المعنيين في قوله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله. فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم؛ فمن كان مستنا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا؛ والجنون فنون. روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: «**سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا**».

فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث. وروى الترمذي وصححه عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. الحديث. ولم يقل: زعقنا ولا رقصنا ولا زفنا ولا قمنا.



(٣٠) أحمر
أسود

قصة غزوة بدر

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦
وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ
ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾

[الأنفال: ٥-٨].

(٣١) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ - وَتَوَدُّونَ - غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ - يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ - وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ - وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾؟
ج:

الكلمة	معناها
﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾	إحدى الفرقتين من فرق المشركين، الفرقة التي فيها التجارات والمتاع، وهي فرقة أبي سفيان، والفرقة الأخرى فرقة أبي جهل وما معه من الجند
﴿وَتَوَدُّونَ﴾	تحبون - ترغبون
﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾	غير ذات السلاح، والمراد العير (الإبل التي عليها التجارات)
﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾	ليظهر الحق، وهو الإسلام ويُعليه بكلماته التي تكلم بها قبل أن يخلق الخلق، وأيضًا بأوامره لكم
﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾	يهلك الكافرون
﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾	يمحو الشرك



س: قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ التشبيه فيه راجع إلى ماذا؟ أعني (الكاف) في قوله: (كما) ما هو الجالب لها؟.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن أهل الإيمان يجادلونك في الأنفال وفي تقسيمها كما جادلوك يوم بدر، فقال بعضهم: إننا خرجنا للعير ولم نخرج للنفير، خرجنا لملاقاة عير أبي سفيان ولم نخرج للقتال.

الثاني: أن تقوى الله ﷻ وإصلاح ذات البين فيه خيرٌ لكم وإن كنتم لا تشعرون، كما كان في خروجكم يوم بدر خيرٌ لكم وأنتم لا تشعرون.

الثالث: أن بعضهم خرج يوم بدر من بيته وهو كاره للخروج من أصله، وكان في الخروج خير، وكذا لما دعوا للقتال إذ فريق منهم كاره كما كان كارهًا للخروج وفي القتال أيضًا خيرٌ لكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه «الكاف» التي في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾، وما الذي شُبِّه بإخراج الله نبيه ﷺ من بيته بالحق.

فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. وقالوا: معنى ذلك: يقول الله: وأصلحوا ذات بينكم، فإن ذلك خير لكم، كما أخرج الله محمدًا ﷺ من بيته بالحقّ، فكان خيرًا له.

وأورد بسندٍ صحيح عن عكرمة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١﴾ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، الآية، أي: إن هذا خيرٌ لكم، كما كان إخراجك من بيتك بالحق خيرًا لك.

(٣٣) أحمر
أسود

وقال آخرون: معنى ذلك: كما أخرجك ربك، يا محمد، من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم يكرهون القتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم.

وأورد من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قال: كذلك أخرجك ربك.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف أهل العربية في ذلك.

فقال بعض نحويي الكوفيين: ذلك أمر من الله لرسوله ﷺ أن يمضي لأمره في الغنائم، على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العِير وهم كارهون.

وقال آخرون منهم: معنى ذلك: يسألونك عن الأنفال مجادلةً، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: «أخرجتنا للعِير، ولم تعلمنا قتالا فنستعدَّ له».

ثم قال:

وقال آخرون منهم: هي بمعنى القسم. قال: ومعنى الكلام: والذي أخرجك ربّك.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال في ذلك بقول مجاهد، وقال: معناه: كما أخرجك ربك بالحقّ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين، لأن كلا الأمرين قد كان، أعني خروج بعض من خرج من المدينة كارهًا، وجدالهم في لقاء العدو وعند دنوِّ القوم بعضهم من بعض، فتشبيه بعض ذلك ببعض، مع قرب أحدهما من الآخر، أولى من تشبيهه بما بَعُد عنه.

(٣٤) أحمر
أسود

وأوضح الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ كلام عكرمة بقوله:

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة -وهم النفير؛ النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم -فكان عاقبة، كراهتكم للقتال -بأن قدَّره لكم، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد -رَشَدًا وهدى، ونصرا وفتحا، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].



س: قوله تعالى: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ كارهون ماذا؟

ج: قيل كارهون للخروج، فلما دعاهم رسول الله ﷺ للخروج لملاقاة عير أبي سفيان تباطؤوا وكرهوا الخروج.

وقيل: كارهون للقتال، قالوا: خرجنا نريد العير، ولم نخرج نريد القتال. والله أعلم.



س: ما المراد بالحق الذي جادلوا فيه إذ الله قال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؟

ج: قال بعض العلماء:

إن المراد بالحق هو ما أمرك الله به، فبعدما تبين لهم أنك لن تفعل إلا ما أمرك الله به جادلوا في ذلك.

وقال آخرون من أهل العلم: إن المراد بالحق هو القتال خاصة، أي:

(٣٥) أحمر
أسود

يجادلونك في القتال، قتال المشركين بعد ما تبين لهم أنك ماض فيه، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾: تبين لهم أنك لا تأمرهم بشيء إلا بإذن الله.

وقيل: من بعد ما تبين لهم أن الله ﷻ وعدهم إما بالظفر بالعير أو الظفر على عدوهم من أهل مكة.

هذا، وهناك قولٌ للسدي ينبغي أن يُعرض عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وأن هؤلاء هم المشركون.

ولا أرى هذا الوجه صحيحًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – كأن هؤلاء الذين يجادلونك في القتال، لما أخبرتهم أنك ستقاتل كأنهم سائرون في طريق الموت لا محالة، وهم ينظرون أنهم يسيرون في طريق الهلاك بظنهم، أي: تصوروا أنهم سيموتون لا محالة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾، فإن معناه: كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدوّ، من كراهتهم للقائهم إذا دعوا إلى لقائهم للقتال، ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإذ يعدكم الله يا أهل الإيمان على لسان

(٣٦) أحمر
أسود

نبيكم ﷺ فيما أوحاه الله ﷻ إليه أن الله ﷻ سيغنمكم إحدى الطائفتين من أهل الشرك إما أن تغنموا عير أبي سفيان بما فيها وما عليها وإما أن تغنموا أهل الشرك الذي جاءوا لقتالكم عند بدر بقتلهم وأسرهم وأخذ أسلحتهم ومتاعهم، ولكنكم يا أهل الإيمان ترغبون في الغنيمة التي ليست فيها قتال، ولا تصابون فيها بأذى، ترغبون أن تغنموا عير أبي سفيان التي ليس فيها قتال، ولكن الله ﷻ يريد أن ترتفع كلمة الحق، يريد أن يحقَّ الإسلام ويُعليه، ويجعل كلمة الله هي العليا، ويجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وذلك ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره التي أمركم بها من القتال وأيضًا بما قدَّره الله وقضاه في سابق علمه، وكذا يريد الله ﷻ أن يهلك أهل الكفر بقتل ساداتهم وكبراءهم، فهذا خير لكم من العير، يريد الله ﷻ أن يقطع دابر أهل الكفر وأهل الجحود والنكران لوحدانية الله ليظهر الحق ويُعليه ويجعل الإسلام هو الأعلى، وكلمة المسلمين هي العليا ليُعبد الله ﷻ وحده، ولا يشرك به شيء، وكذا لتبطل عبادة الأصنام والأوثان، وتضمحل رغم أنف أهل الكفرو الإجرام، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ ﴾، يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنع عيرهم.

وقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾، يقول: إن ما معهم غنيمة لكم، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ ﴾، يقول: وتحبون أن تكون تلك الطائفة التي ليست لها شوكة - يقول: ليس لها حدٌّ، ولا فيها قتال- أن تكون لكم. يقول: تودُّون أن تكون لكم

العيرُ التي ليس فيها قتال لكم، دون جماعة قريش الذين جاءوا لمنع عيرهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ.

وأصل «الشوكة» من «الشوك».

وأورد من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس، كُلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سُقت من حديث بدر، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشأم، ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفِّلكموها! فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا. وكان أبو سفيان يستيقن حين دنا من الحجاز ويتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفًا على أموال الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان: «أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعِيرك»! فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة. وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديًا يقال له «ذَفِرَان»، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه، نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناسَ، وأخبرهم عن قريش. فقام أبو بكر رضوان الله عليه، فقال فأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض إلى حيث أمرك الله، فنحن معك، والله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، [سورة المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت

وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! فوالذي بعثك بالحق، لئن سرت بنا إلى بَرْك الغِمَاد = يعني: مدينة الحبشة = لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه! فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ثم دعا له بخيرٍ، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس!= وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عَدَدَ الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: «يا رسول الله، إنا برآء من ذِمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا»، فكأن رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نُصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم= قال: فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل! قال: فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضته لخُضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلّ الله أن يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله! فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدًا».

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾، قال: الطائفتان إحداهما أبو سفيان بن حرب إذ أقبل بالعير من الشأم، والطائفة الأخرى أبو جهل معه نفر من قريش. فكره المسلمون الشوكة والقتال، وأحبوا أن يلقوا العير، وأراد الله ما أراد.

وقال في تأويل قوله: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يحق الإسلام ويعليه، ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، يقول: بأمره إياكم، أيها المؤمنون، بقتال الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة، والمال وقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يقول: يريد أن يَجُبَّ أصل الجاحدين توحيدَ الله.

وقال في تأويل قوله: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين، كيما يحق الحق، كيما يُعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعزّ الإسلام، وذلك هو «تحقيق الحق» = ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، يقول ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، هم المشركون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لعير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خَف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقَنَّع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض: أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يَعدهُ إحدى الطائفتين: إما العير وإما النَّفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم قال أيضًا:

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليُظَفِّركم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ﴿إِحْدَى﴾ في موضع نصب مفعول ثان. ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في موضع نصب أيضا بدلا من ﴿إِحْدَى﴾. ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي تحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد. والشوكة: السلاح. والشوك: النبت الذي له حد؛ ومنه رجل شائك السلاح، أي حديد السلاح. ثم يقلب فيقال: شاكي السلاح. أي تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي أن يظهر الإسلام. والحق حق أبدا، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي

بوعده؛ فإنه وعد نبيه ذلك في سورة «الدخان» فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان: ١٦] أي من أبي جهل وأصحابه. وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. [التوبة: ٣٣]. وقيل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ ﴿إِحْدَى﴾ في موضع نصب مفعول ثان. ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في موضع نصب أيضا بدلا من ﴿إِحْدَى﴾. ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي تحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد. والشوكة: السلاح. والشوك: النبت الذي له حد؛ ومنه رجل شائك السلاح، أي حديد السلاح. ثم يقلب فيقال: شاكي السلاح. أي تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي أن يظهر الإسلام. والحق حق أبدا، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بوعده؛ فإنه وعد نبيه ذلك في سورة «الدخان» فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان: ١٦] أي من أبي جهل وأصحابه. وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. [التوبة: ٣٣]. وقيل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بأمره؛ إياكم أن تجاهدوهم. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستأصلهم بالهلاك. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويعزه. ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الكفر. وإبطاله إعدامه؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.



(٤٢) أحمر
أسود

الله يعلم ونحن لا نعلم

س: كثيرًا ما يكره الشخص أمرًا، وفي الحقيقة أنه يحمل له كل خير، وكذا يحب أمرًا وهو يحب أمرًا وهو يحمل له الشر دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلى على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

وقوله تعالى في حديث الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنفال: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

وقد كان في اختيار الله كلَّ خير.



(٤٣) أحمر
أسود

قَالَ اللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا
ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ
أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ١٣ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾

[الأنفال: ٩-١٤].

(٤٤) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ - فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ - مُرْدِفِينَ - عَزِيزٌ - يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ - أَمَنَةً مِّنْهُ - لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ - رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ - وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ - وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ - فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ - بَنَانٍ - شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.
ج:

الكلمة	معناها
﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾	تستجيرون بربكم – تطلبون منه النصر والغوث
﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾	فأجابكم – أجاب دعاءكم
﴿مُرْدِفِينَ﴾	متتابعين
﴿عَزِيزٌ﴾	لا يغلب
﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾	يلقى عليكم النعاس
﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾	أمانًا من الله ﷻ
﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾	ليطهركم من الحدث ومن الجنابة
﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾	وساوس الشيطان
﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾	يقوي قلوبكم وعزائمكم، يصبركم على لقاء عدوكم – يجعل قلوبكم ثابتة مطئمة
﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾	يثبت بالمطر أقدامكم على الأرض أرض القتال
﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾	فاضربوا الرقاب والرؤوس
﴿بَنَانٍ﴾	أطراف الأصابع، والمفاصل

(٤٥) أحمر
أسود

﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾	خالفوا أمر الله وأمر رسوله واختاروا طريقًا غير طريق الله ﷻ، فكانوا في شقٍّ وأوامر الله ﷻ في شقٍّ آخر



(٤٦) أحمر
أسود

شهود الملائكة بدرًا وقتالها مع المؤمنين

س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

ج: سبب نزولها ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم[1] وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَنَيِّفٌ وَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ! أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي؟ اللَّهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» قَالَ: فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ عز وجل وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ وَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: واذكروا حالكم إذ تستغيثون ربكم، تطلبون منه الغوث والنصر على الأعداء، وتستجيرون به من عدوكم فأجاب ربكم دعاءكم وأخبركم أنه سيمدكم بألف ملك من الملائكة متتابعين يتبع بعضهم بعضًا.

ولقد كان النبي ﷺ في بداية الغزوة – غزوة بدر – نظر إلى المشركين ونظر إلى أصحابه فوجد أصحابه ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين وهم ألف

(١) أحمد (١/ ٣٠)، ومسلم (١٢/ ٨٤).

وزيادة فاستقبل القبلة، ودعا ربه ﷻ، وفيه أنه استقبل القبلة ثم مد يديه عليه رداؤه وإزاره ثم قال: **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردَّاه – ألبسه – ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك... الحديث.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود قال[1]:

شَهِدْتُ مِنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ يَعْنِي قَوْلَهُ.

ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال[2]:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ**»، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ. فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، حين تستغيثون ربكم، فـ«إذْ» من صلة «يبطل».

ومعنى قوله: ﴿تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾، تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ فأجاب دعاءكم، بأني ممدكم بألف من الملائكة يُرْدِف بعضهم بعضًا، ويتلو بعضهم بعضًا.

---

(١) البخاري (٣٩٥٢).
(٢) البخاري (٣٩٥٣).

س: اذكر بعض الوارد في شهود الملائكة غزوة بدر؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

وما أخرجه مسلم(١) من حديث ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَر رضي الله عنهما قَالَ -في قصة بدر-: فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ.

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**» فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ.

وأخرج البخاري(٢) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «**هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ**».

وعند البخاري(٣) أيضًا أَنَّ جِبْرِيلَ قَال لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ**

(١) مسلم (١٧٦٣).
(٢) البخاري (٣٩٩٥).
(٣) البخاري (٣٩٩٢).

(٤٩) أحمر
أسود

فِيكُمْ؟» قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ما جعل الله ﷻ الإمداد بالملائكة وكونهم يردف بعضهم بعضًا إلا بشارات لكم يا أهل الإيمان وطمأنينة لقلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، لا من عند الملائكة، إن الله عزيز لا يغلبه غاب، ولا يمنعه من مراده مانعٌ، حكيم فيما يشرع، وحكيم في كل شيء، فكل شيء يجري بحكمة منه ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لم يجعل الله إردافَ الملائكة بعضها بعضًا وتتابعها بالمصير إليكم، أيها المؤمنون، مددًا لكم – ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ ﴾ لكم، أي: بشارة لكم، تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم – ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، يقول: ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم –﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، يقول: وما تنصرون على عدوكم، أيها المؤمنون، إلا أن ينصركم الله عليهم، لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر الله لكم، لأن ذلك بيده وإليه، ينصر من يشاء من خلقه= ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ يقول: إن الله الذي ينصركم، وبيده نصرُ من يشاء من خلقه= ﴿عَزِيزٌ﴾، لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، لأنه خلقه= ﴿ حَكِيمٌ ﴾، يقول: حكيم في تدبيره ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا خَلل.

(٥٠) أحمر
أسود

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ الآية أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [محمد: ٤-٦] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] فهذه حكم شَرَعَ الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدَّبُور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليمّ، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ ﴾ [القصص: ٤٣] وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قَتْلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم

وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب -لعنه الله- بالعَدَسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد، ورجموه حتى دفنوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. والمراد الإمداد. ويجوز أن يكون الإرداف. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة؛ أي لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة. والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة.



س: هل باشرت الملائكة قتالًا يوم بدر؟ أم أن نزولها كان فقط تثبيتًا لأهل الإيمان؟

ج: نعم قد باشرت قتالًا، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

وما تقدم من حديث ابن عباس وفيه:... وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ.. الحديث، وقد تقدم قريبًا.



فضل من شهد بدرًا

س: اذكر شيئًا من الوارد في فضل من شهد بدرًا؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم[1] من حديث عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبَا مَرْثَدٍ، وَالزُّبَيْرَ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ... فذكر الحديث – في قصة حاطب –وفيه:

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ: «**أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟**» فَقَالَ: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

وأخرج البخاري[2] من حديث معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ**».



---

(١) البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).
(٢) البخاري (٣٩٩٢).

(٥٣) أحمر
أسود

ومن فضل الله على المؤمنين يوم بدر
(النعاس)

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم- واذكروا يا أهل الإيمان نعمة الله ﷻ عليكم يوم بدر وقد أصابتكم الهموم والغموم من كثرة أعدائكم وقوة شوكتهم وقلة عددكم وعُددكم فعند ذلك ألقى الله ﷻ عليكم النعاس، وهو السّنة الخفيفة، فأذهب الله بذلك عنكم الهموم والغموم، وكثيرًا ما يكون الشخص مهمومًا مغمومًا فتأخذه سنةٌ خفيفة، ويعتريه نعاس خفيف فيفيق منه، وقد أذهب الله كل همومه وكل غمومه، وقد قدمت شيئًا من الأقوال في ذلك في تفسير سورة آل عمران عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾، «إذ يغشيكم النعاس»، ويعني بقوله: ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾، يلقي عليكم النعاس = ﴿أَمَنَةً﴾ يقول: أمانًا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وكذلك النعاس في الحرب أمنة من الله ﷻ.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن أبي رزين، عن عبد الله قال: النعاس في القتال، أمنةٌ من الله ٥، وفي الصلاة من الشيطان.



س: هل هذا النعاس الذي أصاب أصحاب رسول الله ﷺ كان يوم بدرٍ أم أنه كان يوم أُحد؟

ج: هذا الذي في سياقهذه الآيات كان يوم بدر بلا شكٍّ فسياق الآيات في شأن غزوة بدر.

وأيضًا فقد أصاب النعاس فريقًا من أصحاب النبي ﷺ يوم أُحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ هذا، وقد أخرج البخاري[١] في صحيحه من حديث أبي طلحة قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ.

وأخرج أبو يعلى وغيره بإسناد صحيح إلى حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرُ الْمِقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ[٢].

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف.

وقال أيضًا:

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة

(١) البخاري (٤٥٦٢).
(٢) انظر مسند أبي يعلى (١/ ٢٤٢)، وأحمد (٥/ ١٢٥)، وابن حبان (١٦٩٠)، والطبراني (١٥٧٧٧)، وهنالك لم يُذكر النعاس.

مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [الشرح: ٥، ٦].



وكذا من فضل الله على المؤمنين إنزال المطر

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – واذكروا نعمة الله عليكم يا أهل الإسلام إذ أنزل الله عليكم يوم بدر من السماء ماءً لتغتسلوا به من جنابةٍ أصابتكم، ومن حدث ألم بكم ومن وسخ أصاب أبدانكم، وهذا الماء طش من السماء أصابهم يوم بدر، وقد صح ذلك عن سعيد بن المسيب والشعبي[١].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم– ويُذهب الله ﷻ بهذا المطر الذي أنزله عليكم من السماء وساوس الشيطان، وذلك، والله أعلم أنهم قد أصابت بعضهم جنابة ليلة بدر، ولم يكن هنالك ماءٌ يغتسلون به من الجنابة، وقد خصرتهم صلوات، فقالوا: كيف نصنع ونحن على جنابة؟ وكيف نقابل أعداءنا ونحن على جنابة، فوسوس لهم الشيطان بذلك وساوس كثيرة، فأنزل الله ﷻ الماء من السماء فاغتسلوا به وتوضؤوا منه، وأذهب الله عنهم بذلك رجز الشيطان ووساوس الشيطان.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾، فإن ذلك مطرٌ

---

(١) وهذا مرسل فسعيد والشعبي تابعيان.

أنزله الله من السماء يوم بدر ليطهر به المؤمنين لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنِبِين على غير ماء. فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر. فذلك ربطه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء، فلبَّدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئةً من الله ﷻ لنبيه عليه السلام وأوليائه، أسبابَ التمكن من عدوهم والظفر بهم.

وأورد بإسنادٍ فيه مقالٌ عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ -يعني: حين سار إلى بدر- والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَعْصَة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلُّون مُجْنِبِين! فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدوابّ، فساروا إلى القوم، وأمدّ الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنِّبةً، وميكائيل في خمسمائة مجنبةً.

وبإسنادٍ آخر أشد ضعفًا: عن ابن عباس قوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾، وذلك أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين مُحْدِثين، حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المسلمون، وملئوا الأسقية، وسقوا الرِّكاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين

القوم رَملة، فبعث الله عليها المطر، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدام.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أي: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «**بل منزل نزلته للحرب والمكيدة**». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك.

وأورد ما أخرجه ابن إسحاق في السيرة من طريق عروة بن الزبير قال(١): بعث الله السماء -وكان الوادي دهسا -فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته.

---

(١) قلت (مصطفى): وهذا مرسل.

(٥٨) أحمر
أسود

* هذا، وقد قال ابن زيد – كما روي عند الطبري ذلك بسندٍ صحيح: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الذي ألقى في قلوبكم ليس لكم بهؤلاء طاقة.



ومن فضل الله أيضًا على المؤمنين يوم بدر

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

ج: المراد – والله أعلم – يثبت قلوبكم ويقويها لمجاهدة أعداء الله، ويقذف فيها الطمأنينة والثبات وعدم الخوف من مجالدة الأعداء وكذا يُصبركم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

ج: جمهور المفسرين على أن المراد بذلك ويثبت الله ﷻ الأقدام، أقدام المؤمنين عند القتال، فكان بالأرض رمل فلما نزل المطر تماسك حتى يستطيع المسلمون الكرَّ عليه وكذا التحرك السريع بسهولة ويسر.

قال غير واحد من العلماء: أطفأ الله بالمطر الغبار والتبدت به الأرض، وطابت به نفوسهم، وثبتت به أقدامهم.

هذا، وقد ذكر البعض أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أنه ﷻ يفرغ عليهم الصبر وينزله عليهم فيثبتون لعدوهم.

وانتقد الطبري هذا القول بشدة إذ قال:

وقد زعم بعض أهل العلم بالغريب من أهل البصرة، أن مجاز قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، ويفرغ عليهم الصبر وينزله عليهم، فيثبتون لعدوهم.

وذلك قولٌ خِلافٌ لقول جميع أهل التأويل من الصحابة والتابعين، وحَسْبُ قولٍ خطأً أن يكون خلافًا لقول من ذكرنا، وقد بينا أقوالهم فيه، وأن

(٥٩) أحمر
أسود

معناه: ويثبت أقدام المؤمنين بتلبيد المطر الرمل حتى لا تسوخ فيه أقدامهم وحوافر دوابِّهم.



كيفية تثبيت الملائكة للمؤمنين

س: كيف كان تثبيت الملائكة للذين آمنوا؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد أن الملائكة كانت تقوي عزائم أهل الإيمان فأحيانًا يتكلمون كلامًا يسمعه أهل الإيمان، حاصله أن أحدهم يقول سمعت المشركين يقولون لئن حمل علينا هؤلاء المؤمنون لننكشفن ولنهزمن فيتقوى المؤمنون بذلك، وبنحو هذه الكلمات.

الثاني: أن المراد قاتلوا مع الذين آمنوا ووازروهم، وقد تقدم ما يفيد شهود الملائكة بدرًا.

الثالث: أن الملائكة كانت تتراءى لأهل الإيمان وتتقدمهم فيتشجعون بذلك.

الرابع: أن الملائكة كانت تتراءى لأهل الكفر تخوِّفهم وتُذعرهم فينكشون ويهربون.

الخامس: أن الملائكة كانت تتنزل وتنزل الرحمة والسكينة على أهل الغيمان فيثبتون لقتال الأعداء.

السادس: أن الملائكة لما تنزلت هرب الشيطان عند ذلك، وقال لأتباعه: إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.

السابع: أن الملائكة كانت تقذف السكينة –بإذن الله– في قلوب أهل الإيمان.

(٦٠) أحمر
أسود

وبنحو هذا قال بعض أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، أنصركم، ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يقول: قوُّوا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين.

وقد قيل: إن تثبيت الملائكة المؤمنين، كان حضورهم حربهم معهم.

وقيل: كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم.

وقيل: كان ذلك بأن الملك يأتي الرجلَ من أصحاب النبي ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم= يعني المشركين= يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن! فيحدِّث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم. قالوا: وذلك كان وحي الله إلى ملائكته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال؛ فكان الملك يسير أمام الصف في، صورة الرجل ويقول: سيروا فإن الله ناصركم. ويظن المسلمون أنه منهم؛ وقد تقدم في «آل عمران» أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم. فكانوا يرون رؤوسا تندر عن الأعناق من غير ضارب يرونه. وسمع بعضهم قائلا يسمع قوله ولا يرى شخصه: أقدم حيزوم.
وقيل: كان هذا التثبيت ذكر رسول الله ﷺ للمؤمنين نزول الملائكة مددا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه -تعالى وتقدس وتبارك وتمجد -أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

(٦١) أحمر
أسود

قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم.

وأورد بعض كلام الطبري المتقدم.



س: الرعب الذي يقذفه الله في قلوب أعدائه من أعظم أسباب هزيمتهم وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن أهل الكفر إذا قذف الرعب في قلوبهم ضعفت عزائمهم وانهارت قواهم، وفروا لأتفه الأسباب.

ولقد قال النبي ﷺ: «نُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر»[(١)].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: فاضربوا الأعناق، وهي الرقاب قالوا: وكلمة فوق زائدة.

الثاني: فاضربوا الرؤوس.

الثالث: فاضربوا على الأعناق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: أن الله أمر المؤمنين، مُعَلِّمَهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف: أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل. وقوله: ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، محتمل أن يكون مرادًا به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مرادًا له: من فوق جلدة الأعناق، فيكون معناه: على

(١) البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد تقدم، وله عدة طرق عن رسول الله □.

الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صح قول من قال، معناه: الأعناق. وإذا كان الأمر محتملا ما ذكرنا من التأويل، لم يكن لنا أن نوجِّهه إلى بعض معانيه دون بعض، إلا بحجة يجب التسليم لها، ولا حجة تدلّ على خصوصه، فالواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحابَ نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدرًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة.

وقيل: معناه: ﴿ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ أي: على الأعناق، وهي الرقاب. قاله الضحاك، وعطية العوفي.

ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾.

ج: المعنى – والله أعلم- واضربوا منهم أطراف الأصابع والأرجل، وكذا اضربوا المفاصل والأصابع عمومًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ﴾فإن معناه: واضربوه أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم.

و«البنان»: جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، ومن ذلك

قول الشاعر:

أَلا لَيْتَنِي قَطَّعْتُ مِنْهُ بَنَانَةً وَلاقَيْتُهُ فِي الْبَيْتِ يَقْظَانَ حَاذِرَا

يعني بـ«البنانة» واحدة «البنان».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم- ذلك الذي أمرناكم به يا أهل الإيمان من قتال أهل الكفر والضرب فوق الأعناق، وضرب كل بنانٍ منهم، ذلك لكونهم خالفوا أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ فكانوا في شقٍّ، وأوامر الله ورسوله في شقٍّ آخر، ومن يخالف أمر الله ورسوله فإن الله يعاقبه عقابًا شديدًا فالله شديد العقاب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، هذا الفعل من ضرب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق وضرب كل بنان منهم، جزاءٌ لهم بشقاقهم الله ورسوله، وعقاب لهم عليه.

ومعنى قوله: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فارقوا أمرَ الله ورسوله وعصوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان.

ومعنى قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ومن يخالف أمرَ الله وأمر رسوله ففارق طاعتهما، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ له. وشدة عقابه له: في الدنيا، إحلالُه به ما كان يحلّ بأعدائه من النقم، وفي الآخرة، الخلودُ في نار جهنم،

وحذف «له» من الكلام، لدلالة الكلام عليها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق -وهو مأخوذ أيضا من شق العصا، وهو جعلها فرقتين - ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه.



وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم- ذلكم العقاب الذي أمرنا أهل الإيمان بإنزاله بكم يا أهل الكفر هو عقابكم في الدنيا فذوقوه، وفي الآخرة أعد لأهل الكفر عذاب هو أعظم ألا وهو عذاب النار.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا العقابُ الذي عجلته لكم، أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله، في الدنيا، من الضرب فوق الأعناق منكم، وضرب كل بنان، بأيدي أوليائي المؤمنين، فذوقوه عاجلا واعلموا أن لكم في الآجل والمعاد عذابَ النار.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ هذا خطاب للكفار أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.



(٦٥) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ
١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ
بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن
تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ
وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا
تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا
يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢
وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ﴾
[الأنفال: ١٥-٢٣]

(٦٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿زَحْفًا - فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ - مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ - مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ - بَآءَ - ٱلْمَصِيرُ - وَمَا رَمَيْتَ - وَلِيُبْلِيَ - بَلَآءً - حَسَنًا - ذَٰلِكُمْ - مُوهِنُ - كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ - تَسْتَفْتِحُوا - ٱلْفَتْحُ - فِئَتُكُمْ - وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ - ٱلدَّوَآبِّ - ٱلصُّمُّ - ٱلْبُكْمُ﴾.
ج:

الكلمة	معناها
﴿زَحْفًا﴾	متقاربين منكم شيئًا فشيئًا جماعات
﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾	فلا تجعلوا ظهوركم لهم وتفروا أمامهم هاربين
﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾	ينحرف ويميل ليقاتل – يفر ليصنع مكيدة بأهل الكفر – ينحرف لجهة أخرى ليتمكن من قتال العدو بصورة أقوى
﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾	مُنضمًا إلى جماعة مؤمنة وإلى فئة ينصرهم وينصرونه على أهل الكفر
﴿بَآءَ﴾	رجع
﴿ٱلْمَصِيرُ﴾	الحال والمكان الذي يصير إليه
﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾	وما ريمت سهمك، وما رميت التراب الذي رميته والحصباء التي أصابت وجوه الكفار فانهزموا
﴿وَلِيُبْلِيَ﴾	ليُنعم – ليتفضل

(بَلَآءً حَسَنًا)	نعمة حسنة ونعمة عظيمة، وهي نصرهم وفوزهم كذلك بدرجات المؤمنين في جنات النعيم، ونيلهم الفضل الذي أعد للمجاهدين، ولمن شهد بدرًا منهم
(ذَٰلِكُمْ)	هذا الأمر الذي حدث، وتلك النعمة التي أنعم الله بها عليكم
(مُوهِنُ)	مُضعف
(كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ)	مكر الكافرين
(تَسْتَفْتِحُواْ)	تطلبوا الفتح وهو القضاء بينكم وبين أهل الإيمان، والحكم بينكم وبينهم، وقيل: المراد النصر
(ٱلْفَتْحُ)	القضاء – الحكم – (قيل: النصر)
(فِئَتُكُمْ)	جماعتكم
(وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ)	ولا تنصرفوا عنه، ولا تبتعدوا عنه
(ٱلدَّوَآبِّ)	ما يدب على الأرض من المخلوقات
(ٱلصُّمُّ)	الذين لا يسمعون الحق
(ٱلْبُكْمُ)	الذين لا يتكلمون بالحق



(٦٨) أحمر
أسود

التحذير من الفرار من الزحف

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾.

ج: المعنى يا أهل الإيمان، يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبقدر الله خيره وشره، يا هؤلاء إذا كنتم في قتالٍ مع عدوكم ورايتم أهل الكفر مقبلين عليكم يدنون ويقتربون منكم شيئًا فشيئًا فلا تفروا ولا تهربوا ولا تجعلوا ظهوركم إليهم، ومن يفر ويهرب ويجعل ظهره لهم فقد ارتكب كبيرة عظيم وذنبًا عظيمًا، ورجع بغضب من الله ﷻ عليه ومصيره إلى جهنم وبئس المصير الذي يصير إليه والحال التي يأوي إليها.

هذا إلا إذا كان هذا الذي ولى دبره للكافرين إنما صنع الذي صنع وانحرف كي يتمكن من القتال بصورة أقوى وينزل بالعدو هزيمةً ونكايةً، أو كان هذا الذي ولى الدبر إنما صنع ذلك لينضم إلى فئة مؤمنة يقوِّيها ويتقوى بها، ويناصرها وتناصره، فهذا ليس عليه من جناح ولا من إثم في صنيعه الذي صنع، والله تعالى أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في القتال، ﴿زَحۡفٗا﴾، يقول: متزاحفًا بعضكم إلى بعض، و«التزاحف»، التداني والتقارب، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، يقول: فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم عليهم، ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾، يقول: ومن يولهم منكم ظهره ، ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ﴾، يقول: إلا مستطردًا لقتال عدوه،

يطلب عورةً له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو: إلا أن يوليهم ظهره متحيزًا إلى فئة، يقول: صائرًا إلى حَيِّز المؤمنين الذين يفيئون به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعون به معهم إليهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، يقول: فقد رجع بغضب من الله، ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾، يقول: ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، يقول: وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى متوعدًا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدي.

وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها.

﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل**

مال اليتيم، والتَّوَلِّي يوم الزحف، وقَذْفِ المحصنات الغافلات المؤمنات»[(١)].

ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَقَدۡ بَآءَ ﴾ أي: رجع ﴿ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ ﴾ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده: ﴿ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر اللّه تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان،ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض، ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين اللّه، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهابا للكافرين.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ ﴾ أي: رجع ﴿ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ ﴾ أي: مقره ﴿ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فارا، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز

---

(١) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز،فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح،وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز،ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد – في هذه الحال –أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه – على هذا – لا يتصور الفرار المنهي عنه،وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

يقول تعالى – لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون.



س: وضح سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾.

ج: أخرج أبو داود بسندٍ صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلت في يوم بدر: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾[1].



س: هل هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ هل هي خاصة بيوم بدر، وأما بعده فلا بأس أن يفر الشخص؟

ج: الذي أراه صوابًا – والله أعلم – أنها ليست خاصة بأهل بدر بل هي عامة، وليس هناك دليل صحيح فيما علمت يجوز الفرار من العدو عند الزحف لغير الأمور المكورة في الآية: ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾

(١) أبو داود (٢/ ٣٤٩).

فالآية عامة، والله أعلم.

هذا، وإن كان هناك عددٌ كبير من أهل العلم يرون أن هذه الآية خاصة بيوم بدر.

وقد أورد الطبري وغيره عدة آثار بذلك.

وكثيرٌ منها أسانيدها صحيحة، فأورد بأسانيد صحيحة عن أبي نضرة، وأبي سعيد الخدري، ونافع، وقتادة، ومن وجوهٍ عن عمر وغيرهم أن هذه خاصة بيوم بدر.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قولُ من قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدو، أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرفٍ القتال، أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتالٍ منهزمًا بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه.

وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ، وله في غير النسخ وجه، إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر يقطع العذر، أو حجة عقل، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بعد أن أورد بعض الأحاديث في التحذير من الفرار من الزحف.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة؛ لأنه -

يعني الجهاد -كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: [إنما] المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وحجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»(١).

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر، وإن كان سبب النزول فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.



س: هل هذه الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ منسوخة؟

ج: ليس هناك دليلٌ صريح على النسخ، وإن كان من العلماء من قال: بأنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾، وهذا ليس بصريح في النسخ وسيأتي الحديث عن هذه الآية إن شاء الله، ومنهم من قال إن الله ﷻ لم يعنف الذين فروا يوم حنين، إنما قال واصفًا حالهم ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ [التوبة: ٢٥]، من غير تعنيف، وهذا أيضًا ليس بصريح في النسخ.

(١) مسلم (١٧٦٣).

وقال آخرون أيضًا: إن الله عفا عن الذين فروا يوم أحد، وهذا كله ليس بصريح في النسخ بل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] دليل على أنهم أذنبوا والله تعالى أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾. وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بينه الله تعالى في آية أخرى، وليس في الآية نسخ. والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات** - وفيه - **والتولي يوم الزحف**» وهذا نص في المسألة. وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنفوا. وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف عن الكثرة؛ على ما يأتي بيانه.



س: هل الفرار من الزحف يُخلِّد فاعله في النار؟

ج: الفرار من الزحف كبيرةٌ من الكبائر موبقةٌ من الموبقات السبع، ولكن لا يخلد صاحبه في النار، بل قد يغفره الله ﷻ، إذ الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ[١]: «**حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ، فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ، مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا**

(١) البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا.

وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا. فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا. مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا».



النصر من عند الله والتسديد من عند الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أنكم يا أهل الإيمان، وإن قتلتم في الظاهر أهل الكفر يوم بدر، فحقيقة الأمر أنكم لم تقتلوهم ولكن الله وفقكم لقتلهم وأعانكم على ذلك، وما كنتم تطيقون وقتالهم ولكن الله أعانكم على ذلك ووفقكم له وسددكم، فإذا تُركتم وشأنكم لم تفكروا في قتالهم وإذا قاتلتموهم لم تستطيعوا قتلهم، ولكن الله الذي وفق لذلك، فمن ثَمَّ فالله قتلهم وإن كنتم في الظاهر قد باشرتم قتلهم.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾: فأنت يا رسول الله وإن رميت في الظاهر، لكن الذي سدَّد رميتك هو الله ﷻ، وقد اختلف في هذه الرمية، فقيل: إنها رمية رسول الله ﷺ بسهمه في صدور أعداء الله فالذي سدد رمية

رسول الله ﷺ هو الذي ﷻ؛ وقيل: إن الرمية هي قبضة من تراب وحصى قذف بها رسول الله ﷺ في وجوه المشركين فأوصلها الله إلى وجوههم وكانت سببًا في هزيمتهم وانكشافهم، وقد وردت بذلك عدة آثار وفي كلٍّ منها مقال.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ فحاصل معناه: ولينعم الله ﷻ على عباده المؤمنين بنعمة عظيمة حسنة، وهي إدخالهم الجنات والفوز بمراتب المجاهدين.

ثم يخبر الله ﷻ عباده بأنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ولكل شيء، و﴿عَلِيمٌ﴾ بنواياهم وصنيعهم وبكل شيء

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي حدث، وأيضًا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مُضعفُ مكرهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، فقاتل أعداء دينه معه من كفار قريش: فلم تقتلوا المشركين، أيها المؤمنون، أنتم، ولكن الله قتلهم.

وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، إذ كان جل ثناؤه هو مسبِّب قتلهم، وعن أمره كان قتالُ المؤمنين إياهم. ففي ذلك أدلُّ الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صُنْعٌ به وَصَلوا إليها.

وكذلك قوله لنبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾، فأضاف الرميَّ إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي، إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرميَّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمسبِّب

(٧٧) أحمر
أسود

الرمية لرسوله.

فيقال للمنكرين ما ذكرنا قد علمتم إضافة الله رَمْيِ نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه، بعد وصفه نبيَّه به، وإضافته إليه، وذلك فعلٌ واحد، كان من الله تسبيبه وتسديده، ومن رسول الله ﷺ الحذفُ والإرسال، فما تنكرون أن يكون كذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة: من الله الإنشاء والإنجاز بالتسبيب، ومن الخلق الاكتسابُ بالقُوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولا إلا ألزموا في الآخر مثله.

وأورد الطبري عدة آثار عن عدد من الصحابة والتابعين:

مفادها أن النبي ﷺ أخذ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

وهذه الآثار قد تصح بمجموعها إلى رسول الله ﷺ

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾، فإنّ معناه: وكي ينعم على المؤمنين بالله ورسوله بالظفر بأعدائهم، ويغنّمهم ما معهم، ويكتبت لهم أجور أعمالهم وجهادهم مع رسول الله ﷺ.

وذلك «البلاء الحسن»، رمي الله هؤلاء المشركين، ويعني ب«البلاء الحسن»، النعمة الحسنة الجميلة، وهي ما وصفت وما في معناه.

وقال:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧﴾، يعني: إن الله سميع، أيها المؤمنون، لدعاء النبي ﷺ، ومناشدته ربه، ومسألته إياه إهلاكَ عدوه وعدوكم، ولقِيلكم وقيل جميع خلقه، ﴿عَلِيمٞ﴾، بذلك كله، وبما فيه صلاحكم وصلاح عباده، وغير ذلك من الأشياء، محيط به، فاتقوه وأطيعوا أمرَه وأمر رسوله.

(٧٨) أحمر
أسود

وقال في تأويل قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، هذا الفعل من قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم، وإمكانهم من قتلهم وأسرهم= فعلنا الذي فعلنا، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾، يقول: واعلموا أن الله مع ذلك مُضْعِف، ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، يعني: مكرهم، حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحق، أو يُهْلَكوا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥] يعلم -تبارك وتعالى- أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر[١]، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها وقال: «**شاهت الوجوه**»[١]. ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة

(١) و(١) أخرجه الطبراني (٣٠٥٨) بسندٍ فيه مقال.

إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال [تعالى] ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت.

ثم أورد الآثار التي ذكرها الطبري في إثبات رمي النبي ﷺ حصيات في وجوه القوم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ أي: ليُعَرّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

ثم قال:

وقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مُصَغِّرًا أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو اللّه، ويناشده في نصرته،ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها اللّه إلى وجوههم،فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها،فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.

يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك - حين رميت التراب - أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا. ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: إن اللّه تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال،ولكن اللّه أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرا حسنا وثوابا جزيلا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها،فيقدر على العباد أقدارا موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلا بحسب نيته وعمله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النصر من اللّه لكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقا بهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ اختلفوا في معنى إضافة قتلهم إليه على أربعة أقوال:

أحدها: أنه قتلهم بالملائكة الذين أرسلهم. والثاني: أنه أضاف القتل إليه لأنه تولى نصرهم. والثالث: لأنه ساقهم إلى المؤمنين وأمكنهم منهم. والرابع: لأنه ألقى الرعب في قلوبهم.

وفي قوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى وما ظفرت أنت ولا أصبت ولكن الله أظفرك وأيدك، قاله أبو عبيدة.

والثاني: وما بلغ رميك كفا من تراب أو حصى أن تملأ عيون ذلك الجيش الكثير، إنما الله تولى ذلك؛ قاله الزجاج.

والثالث: وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ذكره ابن

(٨١) أحمر
أسود

الأنباري.

قولـه تعـالى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ أي: ليـنعم علـيهم نعمـة عظيمة بالنصر والأجر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لدعائهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ قال الزجاج: موضعه رفع؛ والمعنى: الأمر ذلكـم. وقال غيره: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسـن. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي: واعلموا أن الله. والذي ذكرناه في فتح «أنَّ» في قولـه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ هو مذكور في فتح «أن» هذه.



استفتاح المشركين يوم بدر

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: إن تطلبوا من الله ﷻ يا أهل الشرك، أن يحكم بينكم وبين أهل الإيمان، فقد جآءكم حكم الله ﷻ وقضاؤه فيكم بما أحلَّه بكم يوم بدر، وما أصابكم يومها، وذلك أن أهل الشرك كانوا قد طلبوا من الله أن يحكم بينهم وبين أهل الإسلام وأن ينتقم من الظالم من الفريقين، وقد قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ فكان القرآن حقًّا من الله فأتاهم العذاب الأليم.

وقد قال كثير من المفسرين: إن أبا جهل استفتح، أي: طلب القضاء والحكم من الله قائلًا: (اللهم أيُّنا كان أفجر لك وأقطع للرحم فأحنه اليوم) فكان هو الأفجر والأقطع للرحم.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: وإن تنتهوا عن شرككم يا أهل الشرك فانتهاؤكم وإقلاعكم عن الشرك خيرٌ لكم، وإن تعودوا لشرككم واستفتاحكم نعد لتعذيبكم، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئًا، ولو كثر عددها، وأن الله مع المؤمنين ينصره ويؤيدهم ويقويهم.

* وبمثل ما ذكرت قال أكثر أهل العلم بالتفسير.

وإن كانت هناك أقوالٌ أُخر أراها مرجوحة ومنها: أن قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ خطابٌ لأهل الإيمان معناه: إن تطلبوا من الله الفتح (النصر) يا أهل الإيمان، على عدوكم فقد جاءكم الفتح (النصر)، وإن تنتهوا عن اختلافاتكم في شأن الغنائم فهو خير لكم، وإن تعودوا للاختلاف في الغنائم نعد لتوبيخكم.

وقول ثالث: حاصله أن قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ خطاب لأهل الإيمان، إن تطلبوا النصر فقد جاءكم وما سوى ذلك من الآية وهو قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ ..﴾ لأهل الشرك.

وأرى والله أعلم أن هذين القولين، الثاني والثالث ضعيفان، والأصوب هو القول الأول، وبه – كما أسلفت – قال أكثر العلماء.

وها هي بعض أقوالهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يقول تعالى ذكره للمشركين الذين حاربوا رسول الله ﷺ ببدر: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾، يعني: إن تستحكموا الله على أقطع الحزبين للرحم، وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه، فقد جاءكم حكم الله، ونصرُه المظلوم على الظالم، والمحق على المبطل.

وأورد بعض الآثار بذلك، منها ما تقدم من سبب نزول الآية.

ومنها ما ورد عن السدي بسندٍ حسن عن السدي: قال: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة، أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: «اللهم انصر أعز الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين»! فقال الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾، يقول: نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ ، قال: إن تستفتحوا العذاب، فعُذِّبوا يوم بدر. قال: وكان استفتاحهم بمكة، قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، [سورة الأنفال: ٣٢]. قال: فجاءهم العذاب يوم بدر. وأخبر عن يوم أحد: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإنه يقول: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾، يا معشر قريش، وجماعة الكفار، عن الكفر بالله ورسوله، وقتال نبيه ﷺ والمؤمنين به، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، في دنياكم وآخرتكم، ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾، يقول: وإن تعودوا لحربه وقتاله وقتال اتباعه المؤمنين، ﴿نَعُدْ﴾، أي: بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر.

وقوله: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، يقول: وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم، ولن تغني عنكم عند عودي لقتلكم بأيديهم وسَبْيكم وهزمكم ﴿فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، يعني: جندهم وجماعتهم من المشركين، كما لم يغنوا عنهم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئًا، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول جل ذكره: وأن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم، ينصرهم عليهم، أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُغَيْر؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أَقْطَعُنَا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة -وكان ذلك استفتاحا منه- فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله،

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ كقوله: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السدي: ﴿ وَإِن تَعُودُوا ﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ، والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أيها المشركون، أي: تطلبوا من اللّه أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين.

﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ حين أوقع اللّه بكم من عقابه، ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين ﴿ وَإِن تَنتَهُوا ﴾ عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنه ربما أمهلتم، ولم يعجل لكم النقمة. ﴿ وَإِن تَعُودُوا ﴾ إلى الاستفتاح وقتال حزب الله المؤمنين ﴿ نَعُدْ ﴾ في نصرهم عليكم.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا ﴾ أي: أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون وتقاتلون، معتمدين عليهم، شَيئا وأن الله مع الْمؤمنين.

ومن كان اللّه معه فهو المنصور وإن كان ضعيفا قليلا عدده، وهذه المعية التي أخبر اللّه أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان.

فإذا أديل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر اللّه

به من كل وجه، لما انهزم لهم راية [انهزاما مستقرا] ولا أديل عليهم عدوهم أبدا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ شرطه وجوابه. وفيه ثلاثة أقوال: يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا: اللهم أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما. وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنصرة العير. وقيل: قاله أبو جهل وقت القتال. وقال النضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وهو ممن قتل ببدر. والاستفتاح: طلب النصر؛ أي قد جاءكم الفتح ولكنه كان للمسلمين عليكم. أي فقد جاءكم ما بان به الأمر، وانكشف لكم الحق. ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أي عن الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ أي إلى هذا القول وقتال محمد. ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصر المؤمنين. ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي عن جماعتكم ﴿شَيْـًٔا﴾. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي في العدد.

الثاني: يكون خطابا للمؤمنين؛ أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وإن ﴿ تَنتَهُوا۟ ﴾ أي عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾. و﴿وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾ أي إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم. كما قال: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية.

والقول الثالث: أن يكون ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ خطابا للمؤمنين، وما بعده للكفار. أي وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر. القشيري: والصحيح أنه خطاب للكفار؛ فإنهم لما نفروا إلى نصرة العير تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدينين.

المهدوي: وروي أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أي يستنصرون.

قلت: ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وبفتحها عطف على قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أو على قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ والمعنى: ولأن الله؛ والتقدير لكثرتها وأن الله. أي من كان الله في نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت.



س: هل صح لهذه الآية الكريمة: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ..﴾ سبب نزول؟

ج: نعم صح لها سبب نزول، وهو ما أخرجه الطبري وغيره بسند صحيح عن الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير[1] قال: كان المستفتح يوم بدر ابا جهل، قال: «اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة!»، فأنزل الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾.



الحث على طاعة الله ورسوله والتحذير من المخالفة

س: وضح معنى هذه الآيات المباركات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم–: يا أهل الإيمان أطيعوا الله ورسوله فامتثلوا ما أمركم به الله ﷻ وما أمركم به رسوله ﷺ إذ هو مبلغٌ عن الله ﷻ،

(١) وعبد الله بن ثعلبة مختلف في صحبته.

(٨٨) أحمر
أسود

وانتهوا عما نهاكم الله ﷻ عنه، وعن ما نهاكم عنه رسوله ﷺ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ ولا تعرضوا عن طاعته وامتثال أمره، فطاعة رسول الله من طاعة الله ﷻ فلا تعرضوا عن طاعة الله ورسوله وأنتم تسمعون الآيات بما فيها من أوامر بطاعته، وبما فيها من مواعظ وزواجر وبما فيها من ترغيب وترهيب، وأدلةٍ وبراهين ولا تكونوا كأهل الكفر القائلين سمعنا ما قلتم ولكننا عصيناك وخالفناك، بل اسمعوا أنتم وأطيعوا.

أما قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أي: شر المخلوقات التي تدب على الأرض ﴿الصُّمُّ﴾ عن الحق الذين يسمعون الحق ولا يمتثلون له ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا يتكلمون بالحق ولا يقرون به ولا يفهمونه، وليس المراد: صمم الأذان الذي يعتري بعض الناس في الدنيا، وليس المراد الأخرس الذي لا يتكلم، إنما كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ فمعناه: ولو علم الله ﷻ فيهم خيرًا لأسمعهم سماعًا ينتفعون به وينزجرون به، ومن ثَمَّ يؤمنون ويصدقون، ولأفهمهم، ولكنهم لا خير فيهم، فمن ثَمَّ فلو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، أي: حتى لو أفهمهم المراد لأعرضوا عنه وانصرفوا معرضين مُدبرين وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، يقول: ولا تدبروا عن رسول الله ﷺ مخالفين أمره ونهيه، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أمره إياكم ونهيه، وأنتم به مؤمنون.

وقال في تأويل قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفة رسول الله ﷺ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا ﴾، بآذاننا، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾، يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم الله، إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بأذانهم، بمنزلة من لم يسمعها. يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراض عن أمر رسول الله، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعونه بآذانكم، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم، ويقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا ﴾، وهم عن الاستماع لها والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمَعُها.

وقال في تأويل قوله: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

يقول تعالى ذكره: إنّ شر ما دبَّ على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكُصون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾، وليس بالأصم في الدنيا ولا بالأبكم، ولكن صمّ القلوب وبُكمها وعُميها! وقرأ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الحج: ٤٦].

وقال في تأويل قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية، وفي معناها.

فقال بعضهم: عني بها المشركون. وقال: معناه: أنهم لو رزقهم الله الفهم لما أنزله على نبيه ﷺ، لم يؤمنوا به، لأن الله قد حكم عليهم أنهم لا يؤمنون.

وقال آخرون: بل عنى بها المنافقون.

ثم قال الطبري:

فتأويل الآية إذًا: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله ﷻ حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ**:**

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، ﴿ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ قيل: المراد المشركون. واختاره ابن جرير.

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ﴾.

أي: عن سماع الحق ﴿ ٱلۡبُكۡمُ ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء

خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال في الآية الأخرى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدار من قريش. روي عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أي: أفهمهم ﴿ لَتَوَلَّواْ ﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك، ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ عنه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل: الحجج والبراهين؛ إسماع تفهم. ولكن سبق علمه بشقاوتهم

أي لو أفهمهم لما آمنوا بعد علمه الأزلي بكفرهم. وقيل: المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ. الزجاج: لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه. ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إذ سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما.

﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة اللّه، وطاعة رسوله. ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب اللّه، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه،فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاها اللّه ولا رسوله،فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.

يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر،وهم ﴿ ٱلصُّمُّ ﴾ عن استماع الحق ﴿ ٱلۡبُكۡمُ ﴾ عن النطق به. ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ ﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم،فهؤلاء شر عند اللّه من جميع الدواب، لأن اللّه أعطاهم أسماعا وأبصارا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة اللّه، فاستعملوها في معاصيه وعدموا - بذلك - الخير الكثير،فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية.

فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية،والسمع الذي نفاه اللّه عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب،وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة اللّه تعالى عليهم بما سمعوه من آياته،وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته.

﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ لَتَوَلَّواْ ﴾ عن الطاعة ﴿ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه،وهذا دليل على أن اللّه تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير

فيه، الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده..وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.



الكفار شرٌ من الدواب

س: الكفار شرٌّ من الدواب، اذكر ما يدل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.
[الأنفال: ٢٢]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.
[الأنفال: ٥٥]

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٤].



قَالَ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ
٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ
أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ
سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

[الأنفال: ٢٤-٢٩]

(٩٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ - لِمَا يُحْيِيكُمْ - يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ - تُحْشَرُونَ - فِتْنَةً - خَآصَّةً - يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ - فَـَٔاوَىٰكُمْ - وَأَيَّدَكُم - أَمَٰنَٰتِكُمْ - فُرْقَانًا - وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾	أجيبوا – اسمعوا وأطيعوا
﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾	لما فيه حياتكم
﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾	يمنع المرء من التصرف في قلبه
﴿تُحْشَرُونَ﴾	تُجمعون (يوم القيامة)
﴿فِتْنَةً﴾	بلاء واختبار – عقوبة ومصيبة
﴿خَآصَّةً﴾	بخصوصهم
﴿يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾	يقتلكم الناس – يختطفونكم لقتلكم
﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾	فجعل لكم مأوى تأوون إليه
﴿وَأَيَّدَكُم﴾	نصركم ووازركم
﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾	عموم الأمانات التي رحملكم الله إياها والتكاليف التي كلفكم بها، والأمانات التي استأمنكم عليها الخلق
﴿فُرْقَانًا﴾	ما تفرقون به بين الحق والباطل – نصرًا

(٩٦) أحمر
أسود

(وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)	يمحو عنكم ذنوبكم – يسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها

مزيدٌ من الحث على طاعة الله ورسوله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

ج: إيضاحه - والله أعلم-: يا أهل الغيمان أجيبوا ربكم ﷻ وامتثلوا أمره وانتهوا عما نهاكم عنه، وكذا أجيبوا رسوله إذا دعاكم لما فيه حياتكم، والذي به حياتهم هو طاعة الله ورسوله، وكذا الذي به حياتهم ثباتهم على إيمانهم وإسلامهم والذي فيه حياتهم هو الحق الذي جآءهم به رسول الله ﷺ من عند الله ﷻ، أما كون الإسلام فيه حياتهم فلقول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

ومن الدليل على أن المراد بأن الذي يحيينا هو الطاعة؛ طاعة الله ورسوله، ما أخرجه البخاري[١] من حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَمَرَّ بِي النبي ﷺ فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟ أَلَمْ يَقُلْ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾**». ثُمَّ قَالَ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ**». فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجَ، فَذَكَرْتُ لَهُ - وَقَالَ مُعَاذٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعَ حَفْص بن عاصم، سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بِهَذَا وَقَالَ: هِيَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السَّبْعُ الْمَثَانِي.

أما قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فحاصل معناه: واعلموا أنه لا تسلط لأحد على قلب نفسه إنما ذلك لله ﷻ هو الذي يصرف القلوب كيف يشاء ويقلبها كيف أراد، فلا

---

(١) البخاري (٤٦٤٧).

يستطيع الكافر أن يؤمن إلا بإذن الله، ولا يستطيع المؤمن أن يكفر إلا بإذن الله، ولا يستطيع أن يطيع إلا بإذن الله، ولا يستطيع أن يعصى إلا بإذن الله، ولا يستطيع أن يحب ولا أن يبغض إلا بإذن الله، فلذا فبادروا بالطاعة، فإن المعصية سبب لصرف القلب عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، هذا، وقد أخرج مسلم[١] في صحيحه من حديث حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً. بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا. فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا. ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ! أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ. وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَجَلُهُ. فَيَقُولُ رَبُّكَ: مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ! رِزْقُهُ. فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ. وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ. ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ. فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ».

وعند أحمد من حديث النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ[٢] الْكِلَابِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ». وَكَانَ يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ». قال: «وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ ﷻ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ».

وأورد الطبري رحمه الله أقوالًا في تفسير الآية الكريمة وقال:

وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبرٌ من الله ﷻ أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو

(١) مسلم (٢٦٤٥).
(٢) المسند (٤/ ١٨٢).

قلب أن يُدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يَعِي به شيئًا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن «الحول بين الشيء والشيء»، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبَه إدراكَه سبيلٌ.

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: «يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان»، وقول من قال: «يحول بينه وبين عقله»، وقول من قال: «يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه»، لأن الله ﷻ إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما مُنِع إدراكه به على ما بيَّنتُ.

غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عم بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، الخبرَ عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة للّه وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا اللّه ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية اللّه تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة للّه وللرسول فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فإياكم أن تردوا أمر اللّه أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه

إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن اللّه يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك.

قلت: وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: وأنه إليه تجمعون يوم القيامة، يجمع أولكم وآخركم فيقضي بينكم بالحق ويكافؤ المُحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، فإن معناه: واعلموا، أيها المؤمنون، أيضًا، مع العلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه: أنّ الله الذي يقدر على قلوبكم، وهو أملك بها منكم، إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوفّيكم جزاء أعمالكم، المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم هو ورسوله أن تضيعوه، وأن لا تستجيبوا لرسوله إذا دعاكم لما يحييكم، فيوجب ذلك سَخَطَه، وتستحقوا به أليم عذابه حين تحشرون إليه.



العذاب قد يعم الظالمين ومن سكت عن ظلمهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

ج: واحذروا يا أهل الإيمان ابتلاءً واختبارًا وعقابًا لا يحلُّ بالظالمين فقط، بل يعم فينزل بهم وبمن سكت على صنيعهم، واعلموا أن الله ﷻ شديدٌ عقابه لمن خالف أمره وارتكب معاصيه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾، أيها المؤمنون، ﴿فِتۡنَةً﴾، يقول: اختبارًا من الله يختبركم، وبلاء يبتليكم، ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾، هذه الفتنة التي حذرتكموها ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وهم الذين فعلوا ما ليس لهم فعله، إما إجْرام أصابوها، وذنوب بينهم وبين الله ركبوها. يحذرهم جل ثناؤه أن يركبوا له معصية، أو يأتوا مأثمًا يستحقون بذلك منه عقوبة.

وقال:

وأما قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، فإنه تحذير من الله، ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾، يقول: اعلموا، أيها المؤمنون، أن ربكم شديد عقابه لمن افتُتن بظلم نفسه، وخالف أمره، فأثم به.

هذا، وقد ورد عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عدة وجوه[١] أنه قال: قرأت هذه الآية زمانًا، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتۡنَةً﴾، أي: اختبارًا ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمها حيث لم تدفع وترفع.

وقال السعدي في تفسيره:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره،وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره،وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من

(١) وهذه تصح بمجموعها عن الزبير.

المعاصي والظلم مهما أمكن.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.



س: الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك الله ﷻ أن يعمهم بالعقاب، اذكر بعض الأدلة على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾.

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ أي: اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

وأخرج البخاري من[2] حديث النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»**.

وأخرج الترمذي[3] بسندٍ صحيح من أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا**

---

(١) فتح القدير (٢/ ٢٩٩).
(٢) البخاري (٢٤٩٣).
(٣) الترمذي (٢١٦٨).

الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ».

وقد ورد هذا الحديث موقوفًا على أبي بكر، والموقوف والمرفوع كلاهما صحيح، والله أعلم(١).

وأخرج البخاري(٢) من طريق أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يَضْرِبُهُ فَيَقْتُلُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النساء: ٩٧].

وأخرج البخاري(٣) من حديث عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ»**. قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **«يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»**.

وأخرج البخاري(٤) من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما يقول: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ»**.

وأخرج مسلم(٥) في صحيحه من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: عَبَثَ(٦) رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَامِهِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ.

---

(١) وانظر الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة، (تأليفي) فهنالك خرَّجته وبينت ما فيه، وكذلك انظر المنتخب بتحقيقي (حديث ١).

(٢) البخاري (٧٠٨٥).

(٣) البخاري (٢١١٨).

(٤) البخاري (٧١٠٨)، ومسلم (٢٨٧٩).

(٥) البخاري (٢٨٨٤).

(٦) قال النووي رحمه الله (شرح مسلم ٥/ ٧٣٣): عبث هو بكسر الباء: قيل: معناه اضطرب بجسمه، وقيل: حرك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه.

فَقَالَ: «الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْتِ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ. قَالَ: «نَعَمْ فِيهِمْ الْمُسْتَبْصِرُ(١) وَالْمَجْبُورُ(٢) وَابْنُ السَّبِيلِ(٣) يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمْ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ».



ومن فضل الله على المؤمنين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: واذكروا يا أهل الإيمان حالكم وأنتم بمكة، وأنتم قليلون ضعفاء تخافون أن تقتلوا وأن تغتالوا وأن تسلب أموالكم وتستباح بيضتكم، وأهل الشرك من أهل مكة وغيرهم يحيطون بكم يريدون قتلكم وإذلالكم فجعل الله لكم مأوى تأوون إليه، ومن مدينة رسول الله ﷺ التي هاجروا إليها، وتفضل عليكم بنصره يوم بدر، وفي غير ذلك أيضًا، ووسع عليكم في الأرزاق فرزقكم من الطيبات والغنائم التي طيبها لكم، اذكروا ذلك لعلكم تقدموا شكرًا لخالقكم على ما منَّ به عليكم من النعم وأنعم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

---

(١) (المستبصر): هو المستبين لذلك القاصد للمقاتلة.
(٢) (المجبور) هو المكره.
(٣) (ابن السبيل) المراد هنا سالك الطريق معهم وليس منهم.
قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وفي هذا الحديث من الفقه: التباعد من أهل الظلم، والتحذير من مجالستهم ومجالستهم البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا يناله ما يعاقبه به.
وفيه أن من كثر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا تذكيرٌ من الله ﷻ أصحابَ رسول الله ﷺ، ومناصحة. يقول: أطيعوا الله ورسوله، أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمرَه وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يهوِّنه عليكم بطاعتكم إياه، ويعجِّل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم، ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ ﴾، يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾، يقول: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾، يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبًا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، قال: كان هذا الحي من العرب أذلَّ الناس ذلا وأشقاهُ عيشًا، وأجوعَه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينَه ضلالا مكعومين، على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه. من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يوكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرَّ منهم منزلا حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسَّع به في الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس. فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: «عُني بذلك مشركو قريش»، لأن المسلمين لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبل الهجرة من غيرهم، لأنهم كانوا أدنى الكفار منهم إليهم، وأشدَّهم عليهم يومئذ، مع كثرة عددهم، وقلة عدد المسلمين.

وأما قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾، فإنه يعني: آواكم المدينة.

وكذلك قوله: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾، بالأنصار.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى ممتنا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فجعل لكم بلدا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ اللّه على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا.



التحذير من الخيانة

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٧ ﴾ سبب نزول.

ج: لم أقف لها على سبب نزول صحيح، وإن كانت قد وردت بذلك بعض الأسانيد لكنها لا تصح. والله أعلم، ومن أشهر ذلك – مع كونه لا يصح إسناده ما أخرجه الطبري في تفسيره من طريق الزهري قال:

قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾، قال: نزلت في أبي لبابة، بعثه رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقه: إنه الذَّبح= قال الزهري: فقال، أبو لبابة: لا والله، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموتَ أو يتوب الله عليَّ! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خر مغشيًّا عليه، ثم تاب الله عليه. فقيل له: يا أبا لبابة، قد تِيبَ عليك! قال: والله لا أحُلُّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يَحُلّني. فجاءه فحله بيده. ثم قال أبو لبابة: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت بها الذنب، وأن أنخلع من مالي! قال: «يجزيك الثلث أن تصدَّق به.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله، وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأيِّ ذلك كان يجب التسليم له بصحته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – يا أهل الإيمان لا تخونوا الله ﷻ بنقضكم ما أخذه عليكم في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وبمخالفة أمره، ولا تظهروا إيمانًا وتبطنوا كُفروا، وكذا لا تخونوا رسول الله ﷺ فتظهرون له من الأمر ما لا تبطنونه، وتقولون له قولًا، ولا تفوا به، ويكلفكم بأمور فتقرونه ثم تخالفونه، وكذا لا تخونوا الأمانات التي ائتمنتم عليها، وهذا يشمل كل التكاليف الشرعية التي كلفكم الله سابقًا، وكلفكم بها رسول الله ﷺ، وكذا فإنه يشمل الأمانات التي يأتمنكم عليها الناس، وأنتم تعلمون أن خيانة الأمانات عارٌ وخزيٌ وفضيحة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبيه ﷺ: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ ﴾، وخيانتهم الله ورسوله، كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمانَ في الظاهر والنصيحةَ، وهو يستسرُّ الكفر والغش لهم في الباطن، يدلُّون المشركين على عورتهم، ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلفوا في تأويل قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾. فقال بعضهم: لا تخونوا الله والرسول، فإن ذلك خيانة لأمانتكم وهلاك لها. وقال آخرون: معناه: لا تخونوا الله والرسول، ولا تخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.

وقال أيضًا:

واختلف أهل التأويل في معنى: الأمانة، التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾.

فقال بعضهم: هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله.

وقال آخرون: معنى «الأمانات»، ههنا، الدِّين.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: «وتخونوا أماناتكم» دينكم، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، قال: قد فعل ذلك المنافقون، وهم يعلمون أنهم كفار، يظهرون الإيمان. وقرأ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [سورة النساء: ١٤٢]. قال: هؤلاء المنافقون، أمنهم الله ورسوله على دينه، فخانوا، أظهروا الإيمان وأسرُّوا الكفر.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذن: يا أيها الذين آمنوا، لا تنقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه، ولا رسوله من واجب طاعته عليكم، ولكن أطيعوهما فيما أمراكم به ونهياكم عنه، لا تنقصوهما، ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾، وتنقصوا أديانكم، وواجب أعمالكم، ولازمَها لكم، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أنها لازمة عليكم، وواجبة بالحجج التي قد ثبتت لله عليكم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم اللّه عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها اللّه على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا فمن أدى

(١١٠) أحمر
أسود

الأمانة استحق من اللّه الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائنا للّه وللرسول ولأمانته، منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – واعلموا يا أهل الإيمان إنما أموالكم التي رزقكم الله إياها، وأولادكم الذي رزقكم الله إياها، كل هذا فتنة وبلاء واختبار وامتحان، فاعملوا في كل ذلك بطاعة الله ولا تشغلنكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله ولا تقدموها على طاعة الله ورسوله، ولا تخونوا الأمانات من أجل أولادكم وأموالكم، وكذا فاعلموا أن الله ﷻ عنده أجرٌ عظيم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: واعلموا، أيها المؤمنون، أنما أموالكم التي خوَّلكموها الله، وأولادكم التي وهبها الله لكم، اختبارٌ وبلاء، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، يقول: واعلموا أن الله عنده خيرٌ وثواب عظيم، على طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، في أمولكم وأولادكم التي اختبركم بها في الدنيا. وأطيعوا الله فيما كلفكم فيها، تنالوا به الجزيل من ثوابه في معادكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئا، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

ثم قال:

وفي الصحيح[(١)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه**».

بل حب رسول الله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح[(٢)] أنه ﷺ، قال: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين**».

بعض صور الافتتان بالمال والولد

---

(١) رواه البخاري (حديث ١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحه (رقم ٦٧)-(٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البخاري (حديث ١٤).

س: اذكر بعض صور الافتتان بالمال والولد؟

ج: من ذلك أن الشخص قد ينشغل بهما عن طاعة الله فيترك الصلاة من أجل تجاراته، ويترك موالاة المؤمنين من أجل تجاراته وأمواله ويترك ذكر الله من أجل انشغاله بالمال، وقد يسعى في اكتساب المال من الحرام تكاثرًا وتفاخرًا وتباهيًا، وقد يسعى للرشوة المحرمة من أجل تنمية ماله، وقد يُرابي بماله إلى غير ذلك من صور الافتتان بالمال وكذا الولد قد ينشغل به عن الجهاد في سبيل الله كما قال المخلفون من الأعراب: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وقد ينتصر لولده الظالم وقد يتباهى بالولد في غير موطن التباهي، وقد يتكاثر ببنيه لظلم العباد، وقد يتخلف بسبب أبنائه عن الإنفاق في سبيل الله، وقد يسعى لاكتساب المال المحرم لأبنائه إلى غير ذلك من صور الافتتان بالولد.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – يا أهل الإيمان إن اتقيتم الله ﷻ، جعلتم بينكم وبين عذابه وقاية بمراقبتكم له في السر والعلن وبطاعتكم له فيما أمر وبانتهائكم عما نهاكم عنه يجعل لكم فرقانًا تفرقون به بين الحق والباطل، يجعل لكم بصيرة تبصرون بها الحقائق، ويجعل لكم نصرًا على أعدائكم، ومخرجًا من ضوائقكم، ونجاة مما تخشون أن يحل بكم، وكذا يكفر عنكم سيئاتكم يمحها عنكم، ويعفو عنها ويتجاوز ويصفح، ويغفر لكم عموم ذنوبكم، فيسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها، والله صاحب الفضل الواسع العظيم الذي من العفو والمغفرة والصفح، والذي من فسيح الجنان المُعدة

لأهل التُّقى والإيمان، والذي منه النصر والإعزاز في الدنيا والآخرة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، إن تتقوا الله بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وترك خيانته وخيانة رسوله وخيانة أماناتكم ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ يقول: يجعل لكم فصلا وفرْقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين، بنصره إياكم عليهم، وإعطائكم الظفر بهم، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، يقول: ويمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم بينكم وبينه، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، يقول: ويغطيها فيسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، يقول: والله الذي يفعل ذلك بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه بفعله ذلك وفعل أمثاله. وإنّ فعله جزاءٌ منه لعبده على طاعته إياه، لأنه الموفق عبده لطاعته التي اكتسبها، حتى استحقّ من ربه الجزاء الذي وعدَه عليها.

وأورد ابن كثير أقوالًا في تفسير الفرقان ثم قال:

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلا بين الحق والباطل.

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه -وهو محوها- وغفرها: سترها عن الناس -سببًا لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذا اتقى العبد ربه - وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه - وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا. قال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال: مخرجا، ثم قرأ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب اللّه على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا،فذكر هنا أن من اتقى اللّه حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب،وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

وقال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قال مقيده: عفا الله عنه قول الجماعة المذكورة: إن المراد بالفرقان المخرج يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾ والقول بأنه

النجاة أو النصر، راجع في المعنى إلى هذا، لأن من جعل الله له مخرجًا أنجاه ونصره، لكن الذي يدل القرآن واللغة على صحته في تفسير الآية المذكورة هي قول ابن إسحاق، لأن الفرقان مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأريد به الوصف أي الفارق بين الحق والباطل، وذلك هو معناه في قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [الفرقان: ١]، أي الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٤]، وقوله: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾، ويدل على أن المراد بالفرقان هنا: العلم الفارق بين الحق والباطل. قوله تعالى في الحديد: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ ﴾ [الحديد: ٢٨].

لأن قوله هنا: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ يعني: علمًا وهدى تفرقون به بين الحق والباطل، ويدل على أن المراد بالنور هنا الهدى، ومعرفة الحق قوله تعالى فيمن كان كافرًا فهداه الله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجعل النور المذكور في الحديد: هو معنى الفرقان المذكور في الأنفال كما ترى. وتكفير السيئات والغفران المرتب على تقوى الله في آية الأنفال، كذلك جاء مرتبًا أيضًا عليها في آية الحديد، وهو بيان واضح كما ترى.



(١١٦) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ
وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ
سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۙ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ وَإِذۡ
قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ
فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ
ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ
إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ
ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ
٣٥ ﴾

[الأنفال: ٣٠-٣٥].

(١١٧) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿يَمۡكُرُ بِكَ - لِيُثۡبِتُوكَ - أَسَٰطِيرُ - يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ - أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ - مُكَآءٗ - وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَمۡكُرُ بِكَ﴾	يتآمر عليك
﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾	ليقيدوك - ليحبسوك ويسجنوك - وقيل: ليسحروك
﴿أَسَٰطِيرُ﴾	قصص وحكايات الأولين وما سطره الأولون من الحكايات
﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾	يمنعون أهل الإسلام من الصلاة فيه والطواف بالكعبة
﴿أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾	أهله وأنصاره
﴿مُكَآءٗ﴾	صفيرًا
﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾	تصفيقًا



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم– واذكر يا رسول الله نعمة عليك وحفظي لك إذ يتآمر عليك أهل الكفر بسجنك وحبسك، وكذا يتآمرون لقتلك وأمر إخراجك من بلدك، فقد جلسوا يتآمرون فيما يفعلونه برسول الله ﷺ فمن قائل نحبسه، أو من قائل نُخرجه من البلاد، ومن قائل نقتله ونستريح منه، وهكذا دار أقوالهم، وهكذا كان تآمرهم ومكرهم، فيكيدون لرسول الله ﷺ بهذه المكايد ولكن الله ﷻ يمكر بهم ويستدرجهم فحفظك الله يا رسول الله وسلمك من شرورهم ومن كيدهم ومكرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وأورد الطبري في تفسيره من طريق:

محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال وحدثني الكلبي[١]، عن زاذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس: أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم مني رأيٌ ونصحٌ. قالوا: أجل، ادخل! فدخل معهم، فقال: انظروا إلى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يُواثبكم في أموركم بأمره. قال: فقال قائل: احبسوه في وَثاق، ثم تربصوا به ريبَ المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم! قال: فصرخ عدوُّ الله الشيخ النجدي فقال: والله، ما هذا

(١) الكلبي ضعيف جدًّا.

لكم برأي! والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم! قالوا: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذَ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرَض العرب، لتجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم! قالوا: صدق والله! فانظروا رأيًا غير هذا! قال: فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلامًا وَسيطا شابًّا نَهْدًا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القولُ ما قال الفتى، لا أرى غيره! قال: فتفرقوا على ذلك وهم مُجْمعون له، قال: فأتى جبريل النبيَّ ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه تلك الليلة، وأذِن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال»، يذكره نعمه عليه، وبلاءه عنده: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وأنزل في قولهم: «تربصوا به ريبَ المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾، [سورة الطور: ٣٠]. وكان يسمى ذلك اليوم: «يوم الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي.

وقال الطبري في تفسير الآية الكريمة:

فتأويل الكلام إذًا: واذكر، يا محمد، نعمتي عندك، بمكري بمن حاول المكرَ بك من مشركي قومك، بإثباتك أو قتلك أو إخراجك من وطنك، حتى استنقذتك منهم وأهلكتهم، فامض لأمري في حرب من حاربك من المشركين، وتولى عن إجابة ما أرسلتك به من الدين القيم، ولا يَرْعَبَنَّك كثرة عددهم، فإن ربّك خيرُ الماكرين بمن كفر به، وعبد غيره، وخالف أمره ونهيه.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ آثارًا في هذا الصدد، منها أثرًا عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بُنَيَّة؟» قالت: يا أبت، وما لي لا أبكي، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجْر يتعاقدون باللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك. فقال: «**يا بنية، ائتني بوَضُوء**». فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «**شاهت الوجوه**». فما أصاب رجلا منهم حَصَاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا[1].

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة.



(١) الحاكم (٣/ ١٥٧)، وابن حبان (١٦٩١)، وانظر أحمد (١/ ٣٠٣)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٤٠)، وغيرهم؛ وهذا يحسن لشواهده، والله أعلم.

(١٢١) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ج: هذا بيان لحال أهل الشرك عند تلاوة القرآن عليهم وبيان لقولهم فيه وموقفهم منه، فإنهم إذا تليت عليهم آيات هذا الكتاب العزيز قالوا: قد سمعنا ما تلوته وقلته، ونحن قادرون على أن نقول مثله، وما هذه الذي تذكره إلا خرافات وحكايات وقصص سطرها الذين سبقونا.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آياتِ كتاب الله الواضحةَ لمن شرح الله صدره لفهمه، قالوا جهلا منهم، وعنادًا للحق، وهم يعلمون أنهم كاذبون في قيلهم، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾، الذي تُلِي علينا، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، يعني: أنهم يقولون: ما هذا القرآن الذي يتلى عليهم إلا أساطير الأولين.

و«الأساطير» جمع «أسطر»، وهو جمع الجمع، لأن واحد «الأسطر» «سطر»، ثم يجمع «السطر»، «أسطر» و«سطور»، ثم يجمع «الأسطر» «أساطير» و«أساطر».

وقد كان بعضُ أهل العربية يقول: واحد «الأساطير»، «أسطورة».

وإنما عنى المشركون بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، إنْ هذا القرآن الذي تتلوه علينا، يا محمد، إلا ما سطَّره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم! كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بني آدم، وأنه لم يوحِه الله إليه.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال: قتل النبيُّ من يوم بدر صبرًا: عقبةَ بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث. وكان

المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول! فأمر النبي ﷺ بقتله، فقال المقداد: أسيري! فقال رسول الله ﷺ: «**واللهم اغْنِ المقداد من فضلك!** » فقال المقداد: هذا الذي أردت! وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾، الآية(١).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن كفر قريش وعُتُوِّهم وتمرُّدهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا. وإنما هذا قول منهم يَغُرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم.

وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث -لعنه الله -كما قد نص على ذلك سعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّيّ، وابن جُرَيج وغيرهم؛ فإنه -لعنه الله -كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رُسْتم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصا؟

وأورد آثارًا ثم قال:

ومعنى: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم

(١) ولكنه مرسل؛ لأن سعيد بن جبير تابعيٌّ لم يدرك رسول الله ﷺ ولم يدرك الواقعة.

في الآيــة الأخــرى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقــان: ٥، ٦].أي: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١ ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم،وإلا فقد تحداهم اللّه أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون اللّه، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم.

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع،وقد علم أنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ ﴾.

قد بينا قبل هذا الآيات المصرحة بكذبهم، وتعجيز الله لهم عن الإتيان بمثله. فلا حاجة إلى إعادتها هنا، وقوله هنا في هذه الآية عنهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١ ﴾ رد الله عليهم كذبهم وافتراءهم هذا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾ وما أنزله عالم السر في السموات والأرض فهو بعيد جدًا من أن يكون أساطير الأولين، وكقولــه: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [النحل: ١٠٣] إلى غير ذلك من الآيات.



(١٢٤) أحمر
أسود

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

س: من القائل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ بِنَصْرِهِۦ..﴾ الآية، وما سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِنَصْرِهِۦ..﴾؟

ج: أخرج البخاري ومسلم[١] من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ...﴾ إلى آخر الآية، فعلى ذلك فقائل ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ هو أبو جهل بن هشام، وقد وردت روايات مرسلة، تقوى بمجموعها تفيد أن قائل ذلك أيضًا هو النضر بن الحارث بن كلدة أخرج هذه الروايات الطبري من وجوه مرسلة متعددة، ولا يمنع أن يقول ذلك عددٌ من المشركين.

وللآية الكريمة سبب نزول آخر: وهو ما ورد عن ابن عباس ﵄ من كون المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون: لبيك لا شريك لك لبيك فيقول فيقول النبي ﷺ: «قَدْ قَدْ!» فيقولون: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»، ويقولون: «غفرانك، غفرانك!»، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾. فقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبيّ الله، والاستغفار. قال: فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال: فهذا عذاب الآخرة. قال: وذاك عذاب الدنيا.

ولا أمانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة.

---

(١) البخاري (٤٦٤٩)، ومسلم (٢٩٧٦).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أن أهل الشرك من جهلهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ يعنون القرآن والإسلام والحق الذي جاء به النبي ﷺ، ورسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أنت أنزلته، وأرسلت هذا الرسول إلينا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هكذا قالوا بجهلهم ولقلة علمهم، ولو قالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه لكان خيرًا لهم وأقوم وأوفق.

ثم بيَّن الله ﷻ سبب عدم تعذيبهم بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ أي: أن المانع من إنزال العذاب عليهم وجودك بين ظهرانيهم بمكة.

وكذا ثَمَّ مانع آخر أن منهم من كان يستغفر فكان يعلم قبح ما هو عليه فيستغفر، وكان بعضهم يطوفون بالبيت ويستغفرون، فهذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقد أورد الطبري من طريق أبي حذيفة قال، حدثنا عكرمة، عن أبي زميل، عن ابن عباس: إن المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون: «لبيك، لبَّيك، لا شريك لك»، فيقول النبي ﷺ: «قَدْ قَدْ!» فيقولون: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»، ويقولون: «غفرانك، غفرانك!»، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. فقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبيّ الله، والاستغفار. قال: فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، قال: فهذا عذاب الآخرة. قال: وذاك عذاب الدنيا.

(١٢٦) أحمر
أسود

هذا، ومن أهل العلم من قال: إن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ أي: وما كان الله معذبهم إذا استغفروا، ولكنهم لم يستغفروا فلذا حلَّ بهم العذاب بعد خروج النبي ﷺ من بين أظهرهم.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واذكر، يا محمد، أيضًا ما حلّ بمن قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾، إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم= وكان ذلك العذاب، قتلُهم بالسيف يوم بدر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: تأويله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، أي: وأنت مقيم بين أظهرهم. قال: وأنزلت هذه على النبي ﷺ وهو مقيم بمكة. قال: ثم خرجَ النبي ﷺ من بين أظهرهم، فاستغفر من بها من المسلمين، فأنزل بعد خروجه عليه، حين استغفر أولئك بها: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾. قال: ثم خرج أولئك البقية من المسلمين من بينهم، فعذّب الكفار.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كان الله ليعذب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم، يا محمد، حتى أخرجك من بينهم، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وهؤلاء المشركون، يقولون: «يا رب غفرانك!»، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول. قالوا: وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، في الآخرة.

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، يا محمد، وما كان الله معذب المشركين وهم يستغفرون أي: لو استغفروا. قالوا: ولم يكونوا يستغفرون، فقال جل ثناؤه إذ لم يكونوا يستغفرون: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا

يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، قال: إن القوم لم يكونوا يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عُذِّبوا. وكان بعض أهل العلم يقول: هما أمانان أنزلهما الله: فأما أحدهما فمضى، نبيُّ الله. وأما الآخر فأبقاه الله رحمة بين أظهركم، الاستغفارُ والتوبةُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: وما كان الله ليعذبهم وهم يُسلمون. قالوا: و«استغفارهم»، كان في هذا الموضع، إسلامَهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإسلام.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كان الله ليعذب المشركين وهم يستغفرون. قالوا: ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قولُ من قال: تأويله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾، يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أخرجك من بين أظهرهم، لأنّي لا أهلك قرية وفيها نبيها، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرُّون عليه، فهم للعذاب مستحقون، كما يقال: «ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليّ»، يراد بذلك: لا أحسن إليك، إذا أسأت إليّ، ولو أسأت إليّ لم أحسن إليك، ولكن أحسن إليك لأنك لا تسيء إليّ. وكذلك ذلك، ثم قيل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، بمعنى: وما

شأنهم، وما يمنعهم أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرون الله من كفرهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ هذا من كثرة جهلهم وعُتُوِّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾[ص: ١٦]، ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ [المعارج: ١-٣]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ابن عباس: كانوا يقولون في الطواف: غفرانك. والاستغفار وإن وقع من الفجار يدفع به ضرب من الشرور والإضرار. وقيل: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم. أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره؛. قاله الضحاك وغيره. وقيل: إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام. أي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقيل: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي في أصلابهم من يستغفر الله.

روي عن مجاهد أيضا. وقيل: معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ لو استغفروا. أي لو استغفروا لم يعذبوا. استدعاهم إلى الاستغفار.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿ هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

فمنذ قالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون،فلو عاجلهم اللّه بالعقاب لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رءوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون اللّه [تعالى فلهذا] قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعد ما انعقدت أسبابه.



س: على أي وجه نصب: ﴿ٱلْحَقَّ﴾؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القراء على نصب ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على خبر ﴿كَانَ﴾. ودخلت ﴿هُوَ﴾ للفصل.

ويجوز ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ بالرفع ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ قال الزجاج: ولا أعلم أحدا قرأ بها. ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ولكن القراءة سنة، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية.



الاستغفار لرفع البلاء

س: الاستغفار سبب لرفع البلاء والعذاب دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وقوله تعالى في شأن يونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]. إلى غير ذلك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ج: المعنى –والله أعلم–: وما المانع من نزول العذاب على هؤلاء المشركين وهم مع شركهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام، ويصدون الناس عنه وعن الإيمان والإسلام، فهم أهلٌ للعذاب ولكن لكل أجل كتاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ فمحتمل أمرين:

أحدهما: وما كانوا أولى الناس بالمسجد الحرام بل الأولى به المتقون الذين اتقوا الشرك وخافوا الله وعبدوه حق عبادته.

والثاني: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: وما كانوا أولياء الله ﷻ من دون الناس، بل أولياء الله هم المتقون كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: ولكن أكثر أهل الشرك لا يعلمون أن أولى الناس بالله هم المتقون، وأن أولى الناس بالمسجد الحرام هم المتقون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء المشركين إلا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم يكونوا أولياء الله، ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ﴾، يقول: ما أولياء الله، ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، يعني: الذين يتقون الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون، بل يحسبون أنهم أولياء الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتل صناديدهم وأسرت سُراتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد.

قال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

(١٣٢) أحمر
أسود

وأورد ما أخرجه ابن جرير وأبو حاتم بإسناد حسن: عن عكرمة والحسن البصري قالا قال في «الأنفال»: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ ﴾ فنسختها الآية التي تليها: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فقوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر.

وما أخرجه ابن أبي حاتم إذ قال: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

قال ابن كثير:

وقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨ ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

ثم قال: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أي شيء يمنعهم من عذاب اللّه،

وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصا صدهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ ﴾ أي: المشركون ﴿ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى اللّه، أي: أولياء اللّه. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. ﴿ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ وهم الذين آمنوا باللّه ورسوله، وأفردوا اللّه بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا غيرهم أولى به.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – وما كان صلاة المشركين التي يتقربون بها إلى الله ﷻ ويزعمون أنها تنجيهم ويتعبدون الله بها عند الكعبة البيت العتيق إلا ﴿مُكَآءٗ ﴾ تصفيرًا ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ ﴾ تصفيقًا، إذا كانت هذه صلواتهم فكيف بباقي عبادتهم، فذوقوا يا هؤلاء، يا أهل الشرك العذاب بكفركم الذي كان يصدر منكم في دنياكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء المشركين إلا يعذبهم الله، وهم يصدون عن المسجد الحرام الذي يصلون لله فيه ويعبدونه، ولم يكونوا لله أولياء، بل أولياؤه الذين يصدونهم عن المسجد الحرام، وهم لا يصلون في المسجد الحرام، ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾، يعني: بيت الله العتيق، ﴿إِلَّا مُكَآءٗ ﴾، وهو الصفير.

ثم قال:.. وأما التصدية فإنها التصفيق. وأورد آثارًا بذلك.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فإنه يعني العذابَ الذي وعدهم به بالسيف يوم بدر. يقول للمشركين الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، حين أتاهم بما استعجلوه من العذاب، ﴿فَذُوقُوا۟﴾، أي اطعموا، وليس بذوق بفم، ولكنه ذوق بالحسِّ، ووجود طعم ألمه بالقلوب. يقول لهم: فذوقوا العذابَ بما كنتم تجحدون أن الله معذبكم به على جحودكم توحيدَ ربكم، ورسالةَ نبيكم ﷺ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني أن اللّه تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة،فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر،وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي: صفيرا وتصفيقا، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها،فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟».

فبأي: شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم اللّه به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم أورثهم اللّه بيته الحرام، ومكنهم منه،وقال لهم بعد ما مكن لهم فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وقال هنا ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.



(١٣٥) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ
تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ
٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ
فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩ وَإِن
تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠ ﴾

[الأنفال: ٣٦-٤٠].

(١٣٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ لِيَمِيزَ - ٱلْخَبِيثَ - ٱلطَّيِّبِ - فَيَرْكُمَهُۥ - سَلَفَ - سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ - لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ - مَوْلَىٰكُمْ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ لِيَمِيزَ ﴾	ليفصل – ليجعل هذا في مكان وهذا في مكان
﴿ٱلْخَبِيثَ ﴾	قيل: المال الخبيث الحرام، وقيل: الكافر
﴿ٱلطَّيِّبِ ﴾	قيل: المال الحلال، وقيل: المراد المؤمن
﴿فَيَرْكُمَهُۥ ﴾	يجعل بعضه فوق بعض
﴿سَلَفَ ﴾	مضى
﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾	طريقة الله ونقمته بالمكذبين الأولين
﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾	لا يكون شرك – لا يكون عذاب وبلاء
﴿مَوْلَىٰكُمْ ﴾	متولي أموركم ومعينك



إنفاق أهل الكفر للصد عن سبيل الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – إن أهل الكفر الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ وأنكروا رسالة النبي محمد ﷺ وكذبوا بالقرآن هؤلاء ينفقون أموالهم ليصرفوا الناس عن طاعة الله وعن الإيمان به وعن توحيده، وعن الإسلام، فيعطونها غيرهم ليحاربوا بها المسلمين ويشترون بها سلاحًا لحرب الإسلام وأهله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أي: يوم القيامة يندمون أشد الندم على ما بذلوا من مالٍ في حرب الله ورسوله وصد الناس عن دينهم، ثم إنهم في الدنيا سيغلبون ولن يتوقف الأمر على كونهم يغلبون، بل سيحشرون إلى جهنم والعياذ بالله.

أما قوله تعالى ذكره: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ فمن العلماء من قال الخبيث المال الخبيث، والطيب المال الطيب، فالمال الخبيث الذي أتى من الحرام في الغالب ينفق في الوجوه المحرمة التي فيها الصد عن سبيل الله، والمال الطيب ينفق في طاعة الله. كذا قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: بل الخبيث الكافر، والطيب المؤمن، فبالجهاد والإنفاق يتبين المؤمن من الكافر فنفقة الكافر في المعصية والصد عن سبيل الله، ونفقة المؤمن في طاعة الله ﷻ والدعوة إلى دينه فالمؤمن يعرف بجهاده لإعلاء كلمة الله وبإنفاقه في هذا السبيل كذلك، والكافر يُعرف بإنفاقه في الصد عن سبيل الله.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ فأكثر العلماء نزلوا ذلك على الكفار يلقى بعضهم فوق بعض في النار فيتراكمون فيها فيجعلهم الله في جهنم على هذا النحو المذكور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا دنياهم وأخراهم.

ومن العلماء من قال: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: المال الخبيث الذي أُنفق في معصية الله يُجعل بعضه على بعض في النار لتعذيب أصحابه به، والله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقوَّوا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ليصدّوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم، ﴿حَسْرَةً﴾، يقول: تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله، لأن الله مُعْلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحيّ، فحُرِب ماله وذهبَ باطلا في غير دَرَك نفع، ورجع مغلوبًا مقهورًا محروبًا مسلوبًا. وأما الهالك، فقتل وسُلب، وعُجِّل به إلى نار الله يخلُد فيها، نعوذ بالله من غضبه.

وأورد الطبري عدة آثار مفادها أن أبا سفيان بن حرب، وكان آنذاك كافرًا[(١)] هو الذي كان ينفق هذه النفقة ليصد عن سبيل الله.

وهذه الآثار، وإن كان جلُّها مراسيل ولا تخلو من مقالٍ إلا أنها، ولكثرتها قد تحسن بمجموع طرقها.

منها ما أورد عن ابن إسحاق قال، حدثنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، [وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث بعض الحديث عن يوم أحد. وقد اجتمع حديثهم كله فيما سقت من الحديث عن يوم أحد، قالوا: أو من قاله منهم: لما أصيب] يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القليب، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعِيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كان له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وَتَرَكم وقتل خيارَكم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأرًا بمن أصيب منا! ففعلوا. قال: ففيهم، كما ذكر عن ابن عباس، أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي ما قلنا، وهو أن يقال: إن الله أخبرَ عن الذين كفروا به من مشركي قريش، أنهم ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله.

---

(١) ولكن أسلم كما هو معلوم.

لم يخبرنا بأيّ أولئك عَنى، غير أنه عم بالخبر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾. وجائز أن يكون عَنَى المنفقين أموالهم لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وجائز أن يكون عنى المنفقين منهم ذلك ببدر، وجائز أن يكون عنى الفريقين. وإذا كان ذلك كذلك، فالصواب في ذلك أن يعمّ كما عم جل ثناؤه الذين كفروا من قريش.

وقال في تأويل قوله: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: يحشر الله هؤلاء الذين كفروا بربهم، وينفقون أموالهم للصدّ عن سبيل الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم، وهم أهل الخبث، كما قال وسماهم «الخبيث»، وبين المؤمنين بالله وبرسوله، وهم «الطيبون»، كما سماهم جل ثناؤه. فميَّز جل ثناؤه بينهم بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جناته، وأنزل أهل الكفر نارَه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فيحمل الكفار بعضهم فوق بعض، ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾، يقول: فيجعلهم ركامًا، وهو أن يجمع بعضهم إلى بعض حتى يكثروا، كما قال جل ثناؤه في صفة السحاب: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ [سورة النور: ٤٣]، أي مجتمعًا كثيفًا، وكما:-

وقوله: ﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾ يقول: فيجعل الخبيث جميعًا في جهنم، فوحَّد الخبر عنهم لتوحيد قوله: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ﴾، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فجمع، ولم يقل: «ذلك هو الخاسر»، فردَّه إلى أول الخبر.

ويعني بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، الذين كفروا، وتأويله: هؤلاء الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ويعني بقوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

الذين غُبنت صفقتهم، وخسرت تجارتهم. وذلك أنهم شَرَوْا بأموالهم عذابَ الله في الآخرة، وتعجَّلوا بإنفاقهم إياها فيما أنفقوا من قتال نبيّ الله والمؤمنين به، الخزيَ والذلَّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد أن أورد ما مفاده أنها نزلت في أبي سفيان، قال: وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تُجْدِ شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُعْلِن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قُتِل منهم أو مات، فإلى الخِزْي الأبدي والعذاب السَّرْمَدِيّ؛ ولهذا قال: ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء وقال السُّدِّي: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يس: ٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين،

وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقون في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك؛ ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ونظيرتها في براءة أيضا.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ليتميز الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، ﴿ فَيَرْكُمَهُۥ ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ [النور:٤٣] أي: متراكما متراكبا، ﴿ فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

معنى ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي المؤمن من الكافر. وقيل: هو عام في كل شيء، من الأعمال والنفقات وغير ذلك.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي لام ليميز قولان:

أحدهما: أنها متعلقة بقوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾ قاله ابن الانباري.

والثاني: أنها متعلقة بقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ قاله ابن جرير الطبري.

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال السدي، ومقاتل: يميز المؤمن من الكافر.

والثاني: ليميز العمل الطيب من العمل الخبيث، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: ليميز الإنفاق الطيب في سبيله من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان، قاله ابن زيد، والزجاج.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يجمع بعضه فوق بعض، وهو قوله: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾. قال الزجاج: الركم أن يجعل بعض الشيء على بعض. يقال: ركمت الشيء أركمه ركما؛ والركام: الاسم؛ فمن قال: المراد بالخبيث: الكفار، فإنهم في النار بعضهم على بعض، ومن قال: أموالهم فله في ذلك قولان:

أحدهما: أنها ألقيت في النار ليعذب بها أربابها كما قال تعالى ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

والثاني: أنهم لما عظموها في الدنيا، أراهم هوانها بالقائها في النار كما تلقى الشمس والقمر في النار، ليرى من عبدهما ذُلَّهما.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – قل يا رسول الله لأهل الجحود والنكران، وأهل الكفر والعصيان، لهؤلاء المشركين إن ينتهوا عما هم عليه من الكفر والعناد والتكذيب والشقاق يغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم وشركهم

فالإسلام يجب ما قبله، وإن يعودوا إلى ما هم عليه من الكفر والقتال والصبر عن سبيل الله وعداء أهل الإسلام، فقد مضت سنة الله وطريقته في المكذبين من أمثالهم فلينظروا إلى سنة الله ﷻ فيمن مضى من أمثالهم، لقد أنزل الله بهم النكال وأحلَّ بهم العقاب.

وقال بعض العلماء: إن المراد بسنة الأولين ما أحلَّه الله بأمثالهم يوم بدر.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُل ﴾، يا محمد، ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾، من مشركي قومك، ﴿إِن يَنتَهُواْ ﴾، عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله، وقتالك وقتال المؤمنين، فينيبوا إلى الإيمان ، يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ ﴾، يقول: وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر، فقد مضت سنتي في الأولين منهم ببدر، ومن غيرهم من القرون الخالية، إذ طغوا وكذبوا رسلي ولم يقبلوا نصحهم، من إحلال عاجل النِّقَم بهم، فأحلّ بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك، مثل الذي أحللت بهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سَلَف، أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح، من حديث أبي وائل عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أَحْسَن في الإسلام، لم**

يُؤاخَذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر»[١].

وفي الصحيح أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها».

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ أي: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدي ومحمد بن إسحاق: أي: يوم بدر.



فتح أبواب التوبة أمام التائبين

س: أبواب التوبة دومًا تفتح حتى يتوب من شاء، وحتى يرجع من أراد الرجوع إلى الله دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

وقوله تعاليف في شأن الذين فتنوا المؤمنين وألقوهم في الأخاديد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

وفتح بابُ التوبة لقطاع الطرق إذ قال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

(١) البخاري (٦٩٢١).

وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ..﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات.

هذا، وقد قال القرطبي رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ...﴾:

قال ابن العربي: هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على الخلق؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصي والمآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبدا توبة ولا نالتهم مغفرة. فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقرب لدخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا. وفي صحيح مسلم: أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأل هل له من توبة فقال: لا توبة لك فقتله فكمل به مائة؛ الحديث. فانظروا إلى قول العابد: لا توبة لك؛ فلما علم أنه قد أيأسه قتله، فعل الآيس من الرحمة. فالتنفير مفسدة للخليفة، والتيسير مصلحة لهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ عن كفرهم وذلك بالإسلام للّه وحده لا شريك له.

﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من الجرائم ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ إلى كفرهم

وعنادهم ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندين، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون،فهذا خطابه للمكذبين.



من معاني الفتنة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -: وقاتلوا يا أهل الإيمان أهل الكفر حتى لا تكون في الأرض فتنة، وقيل الفتنة الشرك، وصرف الناس عن الإيمان إلى الكفر، وهذه أعظم الفتن ومن معاني الفتنة الصرف والتحويل، أي: وقاتلوهم حتى لا ينصرف الناس من الإيمان والإسلام إلى الكفر والشرك.

وقيل: الفتنة هنا البلاء والعذاب، فالمعنى: وقاتلوهم؛ لأنهم إذا استمروا على كفرهم نزل بالأرض بلاء وعذاب، إذا لم تقاتلوهم وتأخذوا على أيديهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ أي: وينتهي الشرك بالله ويكون الدين في الأرض، هو التوحيد الخالص، وعند ذلك يعبد الله ﷻ وحده لا يشرك به معه غيره، فإن انتهى هؤلاء الكفار عن شركهم وكفرهم وقتالهم بالباطل فإن الله ﷻ مطلعٌ عليهم وعالم بهم وبنواياهم وسيكرم أهل طاعته والإنابة إليه وسينتقم من أهل الظلم وأهل الكفر والجحود والنكران والغش والخداع، أما قوله تعالى ذكره: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي: وإن أعرضوا عن الاستجابة للإسلام ولم يؤمنون ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ يا أهل الإيمان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ﴾ متولي

أمركم ومعينكم وناصركم فهو ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ نعم من تولى الأمور و﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي ينصر عباده المؤمنين.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: وإن يعد هؤلاء لحربك، فقد رأيتم سنتي فيمن قاتلكم منهم يوم بدر، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، وهو «الفتنة»، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، يقول: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصةً دون غيره.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، فإن معناه: فإن انتهوا عن الفتنة، وهي الشرك بالله، وصارُوا إلى الدين الحق معكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول: فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في دين الإسلام، لأنه يبصركم ويبصر أعمالكم، والأشياء كلها متجلية له، لا تغيب عنه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

وقد قال بعضهم: معنى ذلك، فإن انتهوا عن القتال.

قال أبو جعفر: والذي قلنا في ذلك أولى بالصواب، لأن المشركين وإن انتهوا عن القتال، فإنه كان فرضًا على المؤمنين قتالهم حتى يسلموا.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن أدبر هؤلاء المشركون عما

دعوتموهم إليه، أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله، وترك قتالكم على كفرهم، فأبوا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم، فقاتلوهم، وأيقنوا أنّ الله معينكم عليهم وناصركم ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾، هو لكم، يقول: نعم المعين لكم ولأوليائه ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، وهو الناصر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٣].

وفي الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ قال لأسامة -لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله -فقال لأسامة: «**أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذا. قال: «**هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟**»، وجعل يقول ويكرر عليه: «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

---

(١) البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(١٥٠) أحمر
أسود

وأورد ابن كثير عددًا من الآثار عن السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ مؤداها حتى يُقال لا إله إلا الله، ولا يكون مع الإسلام دين ثم قال بعد أن أوردها.

ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ**».

وفي الصحيحين[2] عن أبي موسى الأشعري قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رِيَاءً، أيُّ ذلك في سبيل الله، ﷻ؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ﷻ**».

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شرك وصد عن سبيل اللّه، ويذعنوا لأحكام الإسلام، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين اللّه الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الطاعة وأوضعوا في الإضاعة ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية. ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

---

(١) البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).
(٢) البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

ومن كان اللّه مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان اللّه عليه فلا عِزَّ له ولا قائمة تقوم له.

هذا، وقد وردت عدة آثار عند تفسير هذه الآية الكريمة منها:

ما أخرجه البخاري(١) **من طريق نافع عن ابن عمر؛** أن رجلا جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الآية [الحجرات: ٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أُعَيَّر بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أُعَيَّر بالآية التي يقول الله، ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر الآية [النساء:٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلا وكان الرجل يُفتن في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُه -وأشار بيده -وهذه ابنته أو: بنته -حيث ترون.

ثم أورد البخاري بسنده إلى سعيد بن جُبَيْر قال: خرج علينا -أو: إلينا - ابن عمر، رضي الله عنهما، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك(٢).

ومنها ما أخرجه الطبري من طريق عروة بن الزبير:(٣) أن عبد الملك بن

---

(١) البخاري (٤٦٥٠).
(٢) البخاري (٤٦٥١).
(٣) وهذا مرسلٌ.

مروان كتبَ إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعم النبيُّ! ونعم السيد! ونعم العشيرة! فجزاه الله خيرًا، وعرّفنا وجهه في الجنة، وأحيانَا على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليها. وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يَبْعُدوا منه أوّلَ ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم. وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك ناسٌ، واشتدّوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةً شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له «النجاشي»، لا يُظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك [صلاح]، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يَتْجَرون فيها، ومساكن لِتِجَارهم يجدون فيها رَفاغًا من الرزق وأمنًا ومَتْجَرًا حسنًا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة، وخاف عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث ذلك سنوات يشتدُّون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومَنَعتهم. فلما رأوا ذلك، استرخوْا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه. وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قِبَل أرض الحبشة، مخافتَها، وفرارًا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال. فلما

استُرْخي عنهم، ودخل في الإسلام من دخل منهم، تُحُدِّث باسترخائهم عنهم. فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه قد استُرْخِيَ عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون. فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون، ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة. فلما رأت ذلك قريش ذلك، تذامرَتْ على أن يفتنوهم ويشتدّوا عليهم، فأخذوهم، وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جَهْدٌ شديد. وكانت الفتنة الآخرة. فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم رسول الله ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسولَ الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم على أنّا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا. فاشتدت عليهم قريش عند ذلك. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله فيها: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾.



(١٥٤) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا
عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ
بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ
قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ
أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

[الأنفال: ٤١-٤٤].

(١٥٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ - ٱلۡجَمۡعَانِ - بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا - بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ - وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ - لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ - وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾	اليوم الذي فرَّق من الله فيه بين الحق والباطل ونصر أهل الحق وخذل أهل الباطل
﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾	جمع الكفار وجمع المؤمنين
﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾	ناحية الوادي القريبة من المدينة
﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾	ناحية الوادي القريبة من مكة، والبعيدة عن المدينة
﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾	ركب أبي سفيان، العير التي تحمل التجارات التي أتى بها أبو سفيان من الشام، وقيل: الإبل التي كانت تحمل متاع الرسول وأصحابه
﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾	ليكفر ويهلك بكفره من هلك وهو على بصيرة بأنه على ضلال، ويؤمن من آمن فيحيا بالغيمان، من هو على بصيرة بأنه على الحق، وبأن القرآن من عند الله



الفرق بين الغنيمة والفيء

س: ما المراد بالغنيمة وما المراد بالفيء؟

ج: الظاهر – والله أعلم – أن المراد بالغنائم ما يغنمه المسلمون من الكفار بعد هزيمة الكفار وبعد حربهم.

أما الفيء فهو ما أفاء الله به على أهل الإسلام من أهل الكفر بدون قتال.

وأحيانًا يطلق الفيء على الغنيمة وتطلق الغنيمة على الفيء بحسب ما يقتضيه المقام والسياق، والله أعلم.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ﴾ اختلفوا، هل الغنيمة والفيء بمعنى واحد أم يختلفان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما يختلفان، ثم في ذلك قولان. أحدهما: أن الغنيمة ما ظهر عليه من أموال المشركين، والفيء: ما ظهر عليه من الأرضين، قاله عطاء بن السائب.

والثاني: أن الغنيمة ما أخذ عنوة والفيء ما أخذ عن صلح قاله سفيان الثوري وقيل بل الفيء ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال المهادنة والصلح وما هربوا عنه.

والثاني: أنهما واحد، وهما كل ما نيل من المشركين، ذكره الماوردي. وقال الزجاج: الأموال ثلاثة أصناف؛ فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب، فقد سماه الله تعالى: أنفالًا وغنائم؛ وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب، فقد سماه فيئًا؛ وما خرج من أموال المسلمين، كالزكاة، والنذر، والقرب، سماه: صدقة. وأما قوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ فالمراد به: كل ما وقع عليه اسم الشيء، قال مجاهد: المخيط من الشيء.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

اعلم أولًا أن أكثر العلماء: فرقوا بين الفيء والغنيمة فقالوا: الفيء: هو ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر، كفيء بني النضير الذين نزلوا على حكم النَّبي ﷺ ومكنوه من أنفسهم وأموالهم يفعل فيها ما يشاء لشدة الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم، ورضي لهم ﷺ أن يرتحلو بما يحملون على الإبل غير السلاح، وأما الغنيمة: فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر، وهذا التفريق يفهم من قوله: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم ﴾ الآية مع قوله: ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾ فإن قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ الآية: ظاهر في أنه يراد به بيان الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه كما ترى.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ﴾ الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، ومن ذلك قول الشاعر:

وقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخر:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ... أنى توجه والمحروم محروم

والمغنم والغنيمة بمعنى؛ يقال: غنم القوم غنما. وأعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ﴾ مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر. ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص على ما بيناه، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع. وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأموال باسمين: غنيمة وفيئا. فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم

بالسعي وإيجاف الخيل والركاب يسمى غنيمة. ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفا. والفيء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف. كخراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم. ونحو هذا قال سفيان الثوري وعطاء بن السائب. وقيل: إنهما واحد، وفيهما الخمس؛ قاله قتادة. وقيل: الفيء عبارة عن كل ما صار للمسلمين من الأموال بغير قهر. والمعنى متقارب.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾.

ج: قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ فإنه مرادٌ به: كل ما وقع عليه اسم ﴿شَيۡءٖ﴾، فما خوّله الله المؤمنين من أموال من غلبوا على ماله من المشركين، مما وقع عليه القسم، حتى الخيط والمخيط، كما.



س: هل قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ على عمومه أم أنه يدخله الخصوص، واستثنيت منه أشياء؟

ج: بل هو مخصوص، خصَّ واستثنيت منه أشياء.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لم يختلف العلماء أن قوله: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ ليس على عمومه، وأنه يدخله الخصوص، فمما خصصوه بإجماع أن قالوا: سلب المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام. وكذلك الرقاب، أعني الأسارى، الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، على ما يأتي بيانه. ومما خص به أيضا الأرض. والمعنى: ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسبي. وأما الأرض فغير

(١٥٩) أحمر
أسود

داخلة في عموم هذه الآية، لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال: (لولا آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر). ومما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «منعت العراق قفيزها ودرهمها ومنعت الشام مدها ودينارها" الحديث. قال الطحاوي: «منعت» بمعنى ستمنع، فدل ذلك على أنها لا تكون للغانمين، لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم، ولو كانت الأرض تقسم ما بقي لمن جاء بعد الغانمين شيء. والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] بالعطف على قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]. قال: وإنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع. وقال الشافعي: كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قل أو كثر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم، إلا الرجال البالغين فإن الإمام فيهم مخير أن يمن أو يقتل أو يسبي. وسبيل ما أخذ منهم وسبي سبيل الغنيمة. واحتج بعموم الآية. قال: والأرض مغنومة لا محالة، فوجب أن تقسم كسائر الغنائم. وقد قسم رسول الله ﷺ ما أفتتح عنوة من خيبر. قالوا: ولو جاز أن يدعى الخصوص في الأرض جاز أن يدعى في غير الأرض فيبطل حكم الآية.

❊ ❊ ❊

استحقاق القاتل سلب القتيل

س: اذكر ما يدل على أن من قتل قتيلًا فله سلبه؟

ج: من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنْ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ أَضْلَعَ

(١) البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا. قَالَ: فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا. فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ. ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**» قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ. فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**» قَالَا: لَا. فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ**» وَكَانَا مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ.

وأخرج البخاري ومسلم(١) من حديث أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يوم حُنَيْنٍ: فَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ؛ ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَمْرُ اللهِ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**». فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ. ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**». فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ. ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ مِثْلَهُ فَقُمْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟**» فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: صَدَقَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَسَلَبُهُ عِنْدِي، فَأَرْضِهِ عَنِّي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: لَاهَا اللهِ إِذًا لَا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللهِ

---

(١) البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١).

وَرَسُولِهِ ﷺ يُعْطِيكَ سَلَبَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَأَعْطَاهُ، فَبِعْتُ الدِّرْعَ فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا، فِي بَنِي سَلِمَةَ، فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ.



س: هل يشترط حتى يأخذ من قتل قتيلًا في المعركة سلب القتيل أن يأذن الإمام له بذلك، بمعنى إذ قتل مسلمٌ كافرًا بعينه في المعركة فأخذ غنيمته هل له أن يأخذها دون إذن الإمام أم أنه يلزم أنه يأذن له الإمام بأخذها؟

ج: قال الشنقيطي في ذلك (أضواء البيان):

واعلم أن العلماء اختلفوا في استحقاق القاتل السلب، هل يشترط فيه قول الإمام: « **من قتل قتيلًا فله سلبه!** » أو يستحقه مطلقًا قال الإمام ذلك أو لم يقله؟

وممن قال بهذا الأخير: الإمام أحمد، والشافعي، والأوزاعي، والليث، وإسحاق، وأبو عبيد، وأبو ثور، والطبري، وابن المنذر.

وممن قال بالأول: الذي هو أنه لا يستحقه إلا بقول الإمام: « من قتل قتيلًا » الخ الإمام أبو حنيفة، ومالك، والثوري.

وقد قدمنا عن مالك وأصحابه: أن قول الإمام ذلك: لا يجوز قبل القتال، لئلا يؤدي إلى فساد النية، ولكن بعد وقوع الواقع، يقول الإمام: من قتل قتيلًا... الخ.

واحتج مالك، وأبو حنيفة، ومن وافقهما بأدلة:

منها: قوله ﷺ في حديث سلمة بن الأكوع، المتفق عليه في قصة قتل معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن عفراء الأنصاريين لأبي جهل يوم بدر. فإن فيه « ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه، فقال: «**أيكما قتله؟!**»، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح اهـ.

قالوا: فتصريحه ﷺ في هذا الحديث، المتفق عليه، بأن كليهما قتله، ثم تخصيص أحدهما بسلبه، دون الآخر، صريح في أن القاتل لا يستحق السلب، إلا بقول الإمام: إنه له، إذ لو كان استحقاقه له بمجرد القتل لما كان لمنع معاذ بن عفراء وجه، مع أن النَّبي ﷺ صرح بأنه قتله مع معاذ بن عمرو، ولجعله بينهما.

ومنها: ما رواه الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، عن عوف بن مالك قال: قتل رجل من حمير، رجلًا من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد، وكان واليًا عليهم، فأتى رسول الله ﷺ، عوف بن مالك فأخبره. فقال لخالد: «**ما منعك أن تعطيه سلبه**» قال: استكثرته يا رسول الله، قال: «**ادفعه إليه**»، فمر خالد بعوف فجر بردائه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ؟ فاستغضب فقال: لا تعطه يا خالد، لا تعطيها خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي، إنما مثلكم ومثلهم، كمثل رجل استرعى إبلًا، أو غنمًا فرعاها، ثم تحين سقيها فأوردها حوضًا فشرعت فيه، فشربت صفوه، وتركت كدره، فصفوه لكم وكدره عليهم.

وفي رواية عند مسلم أيضًا: عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة، في غزوة مؤتة، ورافقني مددي من اليمن، وساق الحديث عن النبي ﷺ بنحوه، غير نه قال في الحديث: قال عوف بن مالك: فقلت: يا خالد، أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل، قال بلى، ولكني استكثرته، هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفي رواية عن عوف أيضًا، عند الإمام أحمد وأبي داود قال خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، ورافقني مددي من أهل اليمن، ومضينا فلقينا جموع الروم، وفيهم رجل على فرس له، أشقر، عليه سرج مذهب. وسلاح

مذهب. فجعل الرومي يفري في المسلمين. فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه. فخر وعلاه فقتله. وحاز فرسه. وسلاحه. فلما فتح الله ﷻ للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد.

فأخذ السلب. قال عوف: فأتيته. فقلت: يا خالد أما علمت أن رسول الله ﷺ. قضى بالسلب للقاتل. قال. بلى ولكن استكثرته. قلت: لتردنه إليه، أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه، قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ، فقصصت عليه قصة المددي، وما فعل خالد، وذكر بقية الحديث بمعنى ما تقدم اه.

فقول النَّبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح: « لا تعطه يا خالد » دليل على أنه لم يستحق السلب بمجرد القتل، إذ لو استحقه به، لما منعه منه النَّبي ﷺ.

ومنها: ما ذكره ابن أبي شيبة، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن الأسود بن قيس، عن بشر بن علقمة قال: بارزت رجلًا يوم القادسية، فقتلته، وأخذت سلبه، فأتيت سعدًا، فخطب سعد أصحابه، ثم قال: هذا سلب بشر ابن علقمة لهو خير من اثني عشر ألف درهم، وإنا قد نفلناه إياه.

فلو كان السلب للقاتل قضاء من النَّبي ﷺ، لما أضاف الأمراء ذلك التنفيل إلى أنفسهم باجتهادهم، ولأخذه القاتل دون أمرهم، قاله القرطبي.

قال مقيده – عفا الله عنه–: أظهر القولين عندي دليلًا، أن القاتل لا يستحق السلب إلا بإعطاء الإمام. لهذه الأدلة الصحيحة، التي ذكرنا فإن قيل: هي شاهدة لقول إسحاق: إن كان السلب يسيرًا فهو للقاتل، وإن كان كثيرًا خمس.

فالجواب: أن ظاهرها العموم مع أن سلب أبي جهل لم يكن فيه كثرة زائدة، وقد منع منه النَّبي ﷺ معاذ ابن عفراء.

مصارف الخُمس

س: قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أين تصرف الأربعة أخماس الأخرى؟

ج: هذه تصرف للمجاهدين، أي: الأربعة أخماس الأخرى تقسم بين المجاهدين.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

اعلم أن جماهير علماء المسلمين على أن أربعة أخماس الغنيمة للغزاة الذين غنموها، وليس للإمام أن يجعل تلك الغنيمة لغيرهم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿غَنِمْتُم﴾، فهو يدل على أنها غنيمة لهم فلما قال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ علمنا أن الأخماس الأربعة الباقية لهم لا لغيرهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١] أي ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعًا، فكذلك قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي وللغانمين ما بقي، وهذا القول هو الحق الذي لا شك فيه.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

أجمع العلماء على أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة فأما الخمس الخامس فكيف يقسم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يقسم منه لله وللرسول ولمن ذكر في الآية وقد ذكرنا أن هذا مما انفرد به أبو العالية وهو يقتضي أن يقسم على ستة أسهم.

والثاني: أنه مقسوم على خمسة أسهم: سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل على ظاهر الآية وبه قال الجمهور.

والثالث: أنه يقسم على أربعة أسهم: فسهم الله ﷻ، وسهم رسوله عائد على ذوي القربى لأن رسول الله ﷺ لم يكن يأخذ منه شيئًا وهذا المعنى رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.



س: كيف يُجاب على ما صنعه النبي ﷺ تخصيص بعض القوم يوم حنين بعطاء أكثر من غيرهم كأبي سفيان والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس وغيرهم؟

ج: أجاب الشنقيطي على ذلك بقوله:

وأما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر، وهو أن النَّبي ﷺ استطاب نفوس الغزاة عن الغنيمة ليؤلف بها قلوب المؤلفة قلوبهم لأجل المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ويدل على ذلك أنه ﷺ لما سمع أن بعض الأنصار قال: يمنعنا ويعطي قريشًا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، جمعهم النَّبي ﷺ، وكلمهم كلامه المشهور البالغ في الحسن، ومن جملته أنه قال لهم: « ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم » إلى آخر كلامه، فرضي القوم، وطابت نفوسهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظًا، وهذا ثابت في الصحيح.

قلت: هذا، ومن العلماء من قال إن النبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من الخمس الذي له ﷺ.



س: لماذا لم تُقسَّم مكة لما فتحها النبي ﷺ؟

ج: قال الشنقيطي جوابًا على ذلك:

ومن أظهر الأجوبة عما وقع في فتح مكة، أن مكة ليست كغيرها من البلاد، لأنها حرام بحرمة الله من يوم خلق السماوات والأرض إلى يوم القيامة، وإنما أحلت له ﷺ ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده، وما كان بهذه المثابة، فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمة العظيمة.

(١٦٦) أحمر
أسود



س: الخمُسم الخامس المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ كيف يصنع به؟

ج: يُقسم بين من ذكرهم الله تعالى إذ قال: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.



س: قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ستةٌ فهل الخمس يقسم إلى ستة أقسام قسم لله ﷻ، ثم قسم للرسول، وقسم لذي القربى، وقسم لليتامى، وقسم للمساكين، وقسم لابن السبيل أم ماذا؟

ج: ذهب أكثر العلماء إلى أنه يُقسم إلى خمسة أقسام فقط، أي: القسم الخامس يقسم إلى خمسة أقسام فقط أي: أن كل قسم منها يكون بالنسبة للغنيمة الكلية يمثل واحدًا من خمسة وعشرين قسمًا.



س: إذا كان القسم الخامس إنما يقسم خمسة أقسام فقط، فما توجيه القول بأن المذكورين ستة؟

ج: لأهل العلم هنا أقوال:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مفتاح كلام، بمعنى أن كل شيء لله ﷻ وذكر الله ﷻ هنا استفتاح كلام للتبرك، فعلى هذا فالأقسام خمسة للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

القول الثاني: أن الإمام قبل أن يقسم الخمس الخامس يضرب بيده فيه فيأخذ قبل تقسيمه شيئًا منه فيضعه للكعبة ثم يقسم الباقي إلى خمسة أقسام

سهم للرسول، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

القول الثالث: أن خمس الله ورسوله واحد، أي: سهم واحد.

القول الرابع: أن الواو زائدة في قوله لله وللرسول كالواو في قوله فلما أسلما وتلّه للجبين، فيكون المعنى فإن لله خمسه، وبيانه للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

القول الخامس: أن الخمس يُقسم على ستة فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله ﷻ، وهذا راجع إلى القول الثاني الذي ذكرناه لكن بتحديد الذي يجعل للكعبة بأنه السدس، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

أورد الطبري بإسناد صحيح عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن عن قول الله ﷻ: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ قال: مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف العلماء في كيفية قسم الخُمس على أقوال ستة:

الأول: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة، فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله. والثاني لرسول الله ﷺ. والثالث لذوي القربى. والرابع لليتامى. والخامس للمساكين، والسادس لابن السبيل. وقال بعض أصحاب هذا القول: يرد السهم الذي لله على ذوي الحاجة.

الثاني: قال أبو العالية والربيع: تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد، وتقسم الأربعة على الناس، ثم يضرب بيده على السهم الذي عزله فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة، سهم للنبي ﷺ، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم

للمساكين، وسهم لابن السبيل.

الثالث: قال المنهال بن عمرو: سألت عبدالله بن محمد بن علي وعلي بن الحسين عن الخمس فقال: هو لنا. قلت لعلي: إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقال: أيتامنا ومساكيننا.

الرابع: قال الشافعي: يقسم على خمسة. ورأى أن سهم الله ورسوله واحد، وأنه يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية.

الخامس: قال أبو حنيفة: يقسم على ثلاثة: اليتامى والمساكين وابن السبيل. وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته، كما ارتفع حكم سهمه. قالوا: ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد، وأرزاق القضاة والجند، وروي نحو هذا عن الشافعي أيضا.

السادس: قال مالك: هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطي منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. وبه قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا. وعليه يدل قوله ﷺ: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم**». فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا، وإنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم، لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجا لمالك: قال الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٥] وللرجل جائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. وذكر النسائي عن عطاء قال: خمس الله وخمس رسوله واحد، كان رسول الله ﷺ يحمل منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

(١٦٩) أحمر
أسود

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وروى عبد الوارث: «خُمْسَهُ» بسكون الميم. وفي المراد بالكلام قولان:

أحدهما: أن نصيب الله مستحق يصرف إلى بيته قال أبو العالية كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم فيقسم أربعة بين الناس ثم يجعل من السهم الخامس للكعبة وهذا مما انفرد به أبو العالية فيما يقال.

والثاني: أن ذكر الله هاهنا لأحد وجهين أحدهما لأنه المتحكم فيه والمالك له والمعنى فان للرسول خمسة ولذي القربى كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ والثاني: أن يكون المعنى إن الخمس مصروف في وجوه القرب إلى الله تعالى وهذ قول الجمهور فعلى هذا تكون الواو زائدة كقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: ١٠٣] المعنى ناديناه ومثله كثير.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

والتحقيق أن نصيب الله جل وعلا، ونصيب الرسول ﷺ واحد، وذكر اسمه جل وعلا استفتاح كلام للتعظيم.

هذا، وقد استدل الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ للقول بأن خمس الله ﷻ وخمس رسوله ﷺ واحد بحديث رواه البيهقي[(١)] فقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرى، وهو يعرض فرسًا، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «**لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش**». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «**لا ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم**».

---

(١) البيهقي (٦/ ٣٢٤).

وأورد عدة آثار عن السلف تفيد أن خمس الله ورسوله واحد.

وأورد أيضًا حديثًا ضعيف الإسناد من حديث المقدام بن معد يكرب عن عبادة بن الصامت مرفوعًا، وفي سنده ضعف.



س: ما يخص رسول الله ﷺ من الخمس المذكور في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ...﴾ ماذا يصنع به رسول الله ﷺ؟

ج: ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن النبي ﷺ كان يضعه في المصالح العامة للمسلمين، وكان له أن يصطفي شيئًا منه لنفسه صلوات الله وسلامه عليه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

وعن عمرو بن عبسة، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير. ثم قال: «**ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**» رواه أبو داود، والنسائي[(١)].

فإذا عرفت أن التحقيق أن الخمس في حياة النَّبي ﷺ. يقسم خمسة أسهم، لأن اسم الله ذكر للتعظيم، وافتتاح الكلام به، مع أن كل شيء مملوك له جل وعلا، فاعلم أن النَّبي ﷺ كان يصرف نصيبه، الذي هو خمس الخمس، في مصالح المسلمين. بدليل قوله في الأحاديث التي ذكرناها آنفًا. «**والخمس مردود عليكم**»، وهو الحق.

ويدل له ما ثبت في الصحيح: من أنه كان يأخذ قوت سنته من فيء بني النضير، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

---

(١) أبو داود (٢٧٥٥).

سهم للّه ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن اللّه جعله له ولرسوله، واللّه ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد اللّه. فإذا لم يعين اللّه له مصرفا، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد كان للنبي ﷺ من المغانم شيء يصطفيه لنفسه عبدًا أو أمة أو فرسًا أو سيفًا أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وأورد الحافظ ابن كثير بعض الأحاديث بذلك وقال:

وعن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كانت صفية من الصّفي. رواه أبو داود في سننه[1].

وروى أيضًا بإسناده، والنسائي أيضًا عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «**من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي وسهم الصّفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله**». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ[2].

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا قول مالك وأكثر

(١) أبو داود (٢٩٩٤).
(٢) أبو داود (٢٩٩٩)، والنسائي (٧/ ١٣٤).

السلف، وهو أصح الأقوال.



سهم رسول الله ﷺ بعد الموت

س: ماذا يُصنع بسهم رسول الله ﷺ بعد موته؟

ج: ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أن سهم رسول الله ﷺ ينتقل بعد حماته إلى الخليفة من بعده ينفقه في مصالح المسلمين العامة.

وذهب بعض العلماء إلى سقوط سهم النبي ﷺ بوفاته.

وذهب بعضهم إلى أنه يرجع إلى أهل بيته أي: إلى ذوي القربى.

وثمَّ أقوال أُخر.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضا في الذي كان يناله عَلَيْهِ السَّلَامُ من الخمس، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. روى هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة جماعة، وجاء فيه حديث مرفوع[(١)].

وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى

---

(١) وكأنه يشير على ما ورد من طريق الوليد بن جميع عن أبي الطفيل: لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطعم الله نبيًّا طعمة ثم قبضة كانت للذي يلي بعده» فلما وليت رايت أن أرده على المسلمين.
أخرجه البيهقي (٦/ ٣٠٣) السنن الكبرى.

والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

وأما بعد وفاته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه. فإن بعض العلماء يقول بسقوط نصيبه بوفاته.

وممن قال بذلك: أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واختاره ابن جرير.

وزاد أبو حنيفة سقوط سهم ذوي القربى أيضًا: بوفاته ﷺ.

والصحيح أن نصيبه ﷺ باق، وأن إمام المسلمين يصرفه فيما كان يصرفه فيه رسول الله ﷺ من مصالح المسلمين.

وقال بعض العلماء يكون نصيبه ﷺ لمن يلي الأمر بعده، وروي عن أبي بكر، وعلي وقتادة، وجماعة، قال ابن كثير: وجاء فيه حديث مرفوع.

قال مقيده: - عفا الله عنه - والظاهر أن هذا القول راجع في المعنى إلى ما ذكرنا أنه الصحيح، وأن معنى كونه لمن يلى الأمر بعده، أنه يصرفه فيما كان يصرفه فيه ﷺ، والنَّبي قال: « **والخمس مردود عليكم** » وهو واضح كما ترى.

ولا يخفى أن كل الأقوال في نصيب النَّبي ﷺ بعد وفاته. راجعة إلى شيء واحد. وهو صرفه في مصالح المسلمين.

وقد كان الخلفاء الراشدون المهديون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يصرفونه فيما كان يصرفه فيه ﷺ.

وكان أبو بكر، وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يصرفانه في الكراع والسلاح.

وقال الشنقيطي أيضًا:

وأما قول بعض أهل البيت. كعبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم: بأن الخمس كله لهم دون غيرهم، وأن المراد باليتامى، والمساكين: يتاماهم، ومساكينهم، وقول من زعم أنه بعد النَّبي ﷺ، يكون لقرابة الخليفة الذي يوليه المسلمون، فلا يخفى ضعفهما، والله تعالى أعلم.

وقال ابن الجوزي رحمه الله (زاد المسير):

فأما سهم الرسول الله ﷺ، فإنه كان يصنع فيه ما بيَّنّا.

وهل سقط بموته، أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: لم يسقط بموته، وبه قال أحمد، والشافعي في آخرين. وفيما يُصنَع به قولان: **أحدهما:** أنه للخليفة بعده، قاله قتادة.

والثاني: أنه يُصْرَفُ في المصالح، وبه قال أحمد، والشافعي.

والثاني: أنه يسقط بموته كما يسقط الصفيُّ، فيرجع إلى جملة الغنيمة، وبه قال أبو حنيفة.

وأورد الطبري رأيًا آخر في المسألةى واختاره فقال:

والصواب من القول في ذلك عندنا، أن سهم رسول الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمس مقسوم على أربعة أسهم، على ما روي عن ابن عباس: للقرابة سهم، ولليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأن الله أوجبَ الخمس لأقوام موصوفين بصفات، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين. وقد أجمعوا أنّ حق الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم. فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم، كما غير جائز أن تخرج بعض السهمان التي جعلها الله لمن سماه في كتابه بفقد بعض من يستحقه، إلى غير أهل السهمان الأخَر.

تعريف (ذوي القربى)

(١٧٥) أحمر
أسود

س: من هم ذوو القربى الذين قال الله في شأنهم: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾؟

ج: ذهب جمهور العلماء[١] إلى أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

ومن الدليل على ذلك ما أخرجه البخاري[٢] من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطَيْتَ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَتَرَكْتَنَا، وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ**» قَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي يُونُسُ وَزَادَ قَالَ جُبَيْرٌ: وَلَمْ يَقْسِمْ النَّبِيُّ ﷺ لِبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، وَلَا لِبَنِي نَوْفَلٍ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ وَالْمُطَّلِبُ إِخْوَةٌ لِأُمٍّ. وَأُمُّهُمْ عَاتِكَةُ بِنْتُ مُرَّةَ. وَكَانَ نَوْفَلٌ أَخَاهُمْ لِأَبِيهِمْ.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنهم بنو هاشم فقط وذلك لما أخرجه مسلم[٣] أَنَّ نَجْدَةَ[٤] كَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ عَنْ خَمْسِ خِلَالٍ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْلَا أَنْ أَكْتُمَ عِلْمًا[٥] مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ، كَتَبَ إِلَيْهِ نَجْدَةُ أَمَّا بَعْدُ:... وَعَنْ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ... وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ الْخُمْسِ لِمَنْ هُوَ؟ وَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ هُوَ لَنَا فَأَبَى عَلَيْنَا قَوْمُنَا ذَاكَ.

قلت (مصطفى): وقد وردت في هذا الحديث (في بعض طرقه) زيادة فيها ضعف، بعد قوله: (فأبى علينا ذلك قومنا) وهي: وقالوا قريش كلها ذوو قربى، زادها أبو معشر وهو ضعيف.

(١) نقل هذا عن الجمهور الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) البخاري (٣١٤٠).
(٣) مسلم (١٨١٢).
(٤) وهو نجدة الحروري.
(٥) ذلك لأن نجدة كان من الخوارج.

هذا وهناك من قال: قريش كلها ذوو قربى.

قلت (مصطفى): والذي عليه الجمهور، هو ما تقدم من أن ذوي القربى الذين يُخرج لهم الخمس هم بنو هاشم وبنو المطلب كما ورد في الحديث، والله أعلم، وهذه بعض الأقوال في ذلك.

قال الشنقيطي (في أضواء البيان):

أما ذو القربى: فهم بنو هاشم، وبنو المطلب. على أظهر الأقولا دليلًا، وإليه ذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، ومسلم بن خالد.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية [وفي أول الإسلام] ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّة للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل -وإن كانوا أبناء عمهم -فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالئوا بطون قريش على حرب الرسول؛ ولهذا كان ذَمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

جَزَى الله عَنَّا عبدَ شمس ونَوفلا ... عُقُوبة شرٍّ عاجل غير آجلِ
بميزان قِسْط لا يَخيس شَعِيرة ... لهُ شاهدٌ مِنْ نَفْسه غير عائلِ
لقد سَفُهت أحلامُ قوم تَبَدَّلوا ... بني خَلَف قَيْضا بنا والغَيَاطِلِ
ونحنُ الصَّميم من ذؤابة هاشم ... وآل قُصَي في الخُطُوب الأوائلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي [بن نوفل] مشيت أنا وعثمان بن عفان – يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس –إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وَهُم منك بمنزلة واحدة، فقال: «**إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد**»[(١)].

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.



س: هل سهم ذوي القربى باق بعد وفاة رسول الله ﷺ؟

ج: نعم باق بعد وفاة رسول الله ﷺ ولا يسقط.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وجمهور العلماء على أن نصيب ذوي القربى باق، ولم يسقط بموته ﷺ.



س: هل ذوو القربى الإغنياء يأخذون من الخمس، أم أن الخمس (أعني خمس الخمس) لا يعطى إلا لفقرائهم؟

ج: الجمهور من العلماء على أنه يشترك فيه غنيهم وفقيرهم؛ لأن الله ﷻ لم يقيد بالفقراء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

وجمهور العلماء القائلين بنصب القرابة على أنه يقسم على جميعهم. ولم يترك منهم أحد خلافًا لقوم.

والظاهر شمول غنيهم. خلافًا لمن خصص به فقراءهم، لأنه ﷺ لم يخصص به فقراءهم، بخلاف نصيب اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

---

(١) تقدم تخريجه.

فالظاهر أنه يخصص به فقراؤهم، ولا شيء لأغنيائهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. وأضافه اللّه إلى القرابة دليلا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.



س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهل اليتامى الأغنياء لهم من الغنيمة نصيب أم أن هذا خاص باليتامى الفقراء فحسب؟

ج: **أما اليتامى:** فهم من مات آباؤهم وهم دون البلوغ، والظاهر، والله أعلم، أن اليتيم الغني يدخل فيهم أيضًا؛ لأن الله ﷻ لم يقيد اليتامى بالفقراء، وأيضًا للمواساة فيدخل في اليتامى أبناء من قتلوا في المعارك.

أما المساكين: فهم الذين لا تكفيهم الأموال التي تدخل عليهم، أي: لا تكفيهم دخولهم.

أما أبناء السبيل: فهم الغرباء الذين انقطعت بهم النفقة ولا يجدون مالًا يرجعون به إلى أهاليهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما «اليتامى»، فهم أطفال المسلمين الذين قد هلك آباؤهم.

و«المساكين»، هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين.

و«ابن السبيل»، المجتاز سفرًا قد انقُطِع به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: يتامى المسلمين. واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر، أو المريد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل اللّه لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده.



س: هل هذا الخمس الذي ذكره الله تبارك وتعالى إذ قال: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يُقسم بالتساوي بين من ذكرهم الله جل ذكره أم أنه لا يشترط التساوي في ذلك؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه يلزم التساوي وهذا القول أحوط.

والثاني: أنه لا يلزم، وأن الآية كآية الصدقات، إذ الله قال: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا ...﴾ فلا يلزم تقسيم الزكاة بالتساوي بين الأصناف الثمانية.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

وبعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى.

وهذا رأيٌ لمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الشنقيطي (في أضواء البيان):

ومذهب الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أمر خمس الغنيمة موكول إلى نظر الإمام واجتهاده. فيما يراه مصلحة، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطي القرابة باجتهاده، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها: ويقول مالك هذا: قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا، وعليه يدل قوله ﷺ: «**مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**»، فإنه لم يقسمه أخماسًا، ولا أثلاثًا، وإنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم. لأنهم من أهم من يدفع إليه.

قال الزجاج: محتجًا لمالك، قال الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٥].



أداء الخمس من الإيمان

س: اذكر ما يدل على أن الخمس من الدين؟

ج: يدل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا هَذَا الْحَيَّ مِنْ رَبِيعَةَ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ، فَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْخُذُ بِهِ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، قَالَ: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانِ بِاللهِ شَهَادَةِ**

(١) البخاري (٣٠٩٥)، ومسلم (١٩٩٧).

(١٨١) أحمر
أسود

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - وَعَقَدَ بِيَدِهِ - وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا لِلَّهِ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ».



مزيدٌ من الحديث عن غزوة بدر

وضح معنى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- أقروا يا أهل الإسلام بتقسيم الغنائم على النحو الذي ذكرناه لكم واعملوا فيها بما أمرناكم به إذ قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ...﴾، أقروا بذلك واعملوا فيها بما بيَّن الله لكم إن كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته وأقررتم بما جاءكم به نبيه ﷺ، وإن كنتم آمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان اليوم الذي فرَّق الله ﷻ فيه بين الحق والباطل فنصر أهل الحق، ورفع رايتهم وهزم أهل الباطل وشتت شملهم، وفرق جمعهم في ذلكم اليوم الذي التقى فيه الجمعان، جمع أهل الإيمان، وجمع إبليس الذي قد كان جمع، وهو جمع المشركين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبو جهل ابن هشام وغير هؤلاء.

والله على كل شيء قدير، ومن بيان شيء قدرته كون نصركم وأنتم أذلة ضعفاء أقل عددًا وأقل عدة وسلاحًا.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أيقنوا أيها المؤمنون، أنما غنمتم من شيء فمقسوم القسم الذي بينته، وصدِّقوا به إن كنتم أقررتم بوحدانية الله وبما أنزل الله على عبده محمد ﷺ يوم فَرَق بين الحق والباطل ببدر، فأبان فَلَج المؤمنين

وظهورَهم على عدوهم، وذلك ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾، جمعُ المؤمنين وجمعُ المشركين، والله على إهلاك أهل الكفر وإذلالهم بأيدي المؤمنين، وعلى غير ذلك مما يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾، لا يمتنع عليه شيء أراده.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس[1]: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «**وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم..**» الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان.

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا:

وقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فَرَق به بين الحق والباطل ببدر ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه.

وأورد بإسناد صحيح[2] عن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسعَ عشرةَ - أو: سبع عشرة -مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة

(١) البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).
(٢) وعزاه لعبد الرزاق، ولكنه مرسل كما هو واضح.

وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الألف والتسعمائة.

فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وأورد يثار أُخر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قال الزجاج عن فرقة: المعنى فأعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، فـ(إن) متعلقة بهذا الوعد. وقالت فرقة: إن (إن) متعلقة بقوله ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾. قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح، لأن قوله ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق (إن) بقوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ على هذا المعنى، أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ (ما) في موضع خفض عطف على اسم الله ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل، وهو يوم بدر. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ حزب الله وحزب الشيطان. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وجعل اللّه أداء الخمس على وجهه شرطا للإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم «بدر» الذي فرق اللّه به بين الحق والباطل. وأظهر الحق وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم باللّه، وبالحق الذي أنزله اللّه على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم- وذاكروا يوم الفرقان الذي نصركم الله فيه وأعزَّكم وخذل عدوكم، اذكروا ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: كان منزلكم للقتال عند جانب الوادي الأقرب إلى المدينة، وأهل الكفر ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ بجانب الوادي الأقصى من المدينة والأقرب إلى مكة، والركب ركب أبي سفيان أسفل منكم هنالك تجاه البحر وعلى ساحله، وقد جمع الله بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد، فلو كنتم تواعدتم لتخلفتم إذا سمعتم بكثرة أعداءكم وكثرة عِددِهم وعُددهم، ولكن الله جمعكم بعدوكم على غير ميعاد ليقضي أمرًا كان مفعولًا لينصر الإسلام وأهله ويُحلَّ العقاب بالشرك وأهله ويُقتل من قُتل من أهل الشرك، وكان أمر الله كائنًا متحققًا لا محالة.

فعلنا ذلك بهم وأنزلنا بأهل الشرك عقابنا، ونصرنا الإسلام وأهله حتى تتبين الحقائق وتظهر، فيظهر أن الله ناصر دنيه ومعلي كلمته ومخذل أهل الشرك والباطل، ذلك ليبقى من بقي على الكفر، وهو على بصيرة بأنه كافر وأنه مبطل، ويؤمن من أمن وهو يعلم أنه على الحق، وإن الله لسميع لأقوال العباد سميع لكل شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم وبكل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أيقنوا، أيها المؤمنون، واعلموا أن قسم الغنيمة على ما بيَّنه لكم ربكم، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده يوم بدر، إذ فرق بين الحق والباطل من نصر رسوله، ﴿إِذۡ أَنتُم﴾، حينئذ، ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، يقول: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾، يقول: وعدوكم من المشركين نزولٌ بشَفير الوادي الأقصى إلى مكة، ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، يقول: والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾، وهما شفير الوادي. كان نبيُّ الله بأعلى الوادي، والمشركون أسفلَه، ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، يعني: أبا سفيان، انحدر بالعير على حوزته، حتى قدم بها مكة.

وبإسناد حسن عن السدي قال: ذكر منازل القوم والعير فقال: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾، والركب: هو أبو سفيان، ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، على شاطئ البحر.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾.

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعاد منكم ومنهم، ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾، لكثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم، ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾، وذلك القضاء من الله، كان نصره أولياءه من المؤمنين بالله ورسوله، وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر.

وأورد بإسناد صحيح[(١)] **عن عمير بن إسحاق قال:** أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السُّقَاة. قال: ونَهَدَ الناسُ بعضهم لبعض.

وقال في تأويل قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ولكن الله جمعهم هنالك، ليقضي أمرًا كان مفعولا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

وهذه اللام في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ مكررة على «اللام» في قوله: ﴿لِّيَقْضِىَ﴾، كأنه قال: ولكن ليهلك من هلك عن بينة، جَمَعكم.

ويعني بقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، ليموت من مات من خلقه، عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، يقول: وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أُثبتت له وظهرت لعينه فعلمها، جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾، فإن معناه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، أيها المؤمنون، ﴿لَسَمِيعٌ﴾، لقولكم وقول غيركم، حين يُري الله نبيه في منامه ويريكم، عدوكم في أعينكم قليلا وهم كثير، ويراكم عدوكم في أعينهم قليلا ﴿عَلِيمٌ﴾، بما تضمره نفوسكم، وتنطوي عليه قلوبكم، حينئذ وفي كل حال.

يقول جل ثناؤه لهم ولعباده: فاتقوا ربكم، أيها الناس، في منطقكم: أن تنطقوا بغير حق، وفي قلوبكم: أن تعتقدوا فيها غيرَ الرُّشد، فإن الله لا يخفى

---

(١) ولكنه مرسل.

عليه خافية من ظاهر أو باطن.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أي أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة. أو يكون المعنى: واذكروا إذ أنتم. والعدوة: جانب الوادي. وقرئ بضم العين وكسرها، فعلى الضم يكون الجمع عدى، وعلى الكسر عدى، مثل لحية ولحى، وفرية وفرى. والدنيا: تأنيث الأدنى. والقصوى: تأنيث الأقصى. من دنا يدنو، وقصا يقصو. ويقال: القصيا، والأصل الواو، وهي لغة أهل الحجاز قصوى. فالدنيا كانت مما يلي المدينة، والقصوى مما يلي مكة. أي إذ أنتم نزول بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى. ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ يعني ركب أبي سفيان وغيره. كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة. وقيل: هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقا من الله ﷻ لهم، فذكرهم نعمه عليهم. ﴿وَٱلرَّكْبُ ﴾ ابتداء ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ ظرف في موضع الخبر. أي مكانا أسفل منكم. وأجاز الأخفش والكسائي والفراء ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي أشد تسفلا منكم. والركب جمع راكب. ولا تقول العرب: ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل. وحكى ابن السكيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال راكب وركب إلا للذي على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب. والركب والأركب والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال، عن ابن فارس. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ﴾ أي لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقلتكم، فإنكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم فوفق الله ﷻ لكم. ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدين. واللام في ﴿لِّيَقْضِىَ ﴾ متعلقة بمحذوف. والمعنى: جمعهم ليقضي الله، ثم

كررها فقال: ﴿يَهْلِكَ﴾ أي جمعهم هنالك ليقضي أمرا. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع. ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ في موضع نصب عطف على ليهلك. والبينة إقامة الحجة والبرهان. أي ليموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة. وكذلك حياة من يحيا. وقال ابن إسحاق: ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره، ويؤمن من آمن على ذلك. وقرئ «من حيي» بياءين على الأصل. وبياء واحدة مشددة، الأولى قراءة أهل المدينة والبزي وأبي بكر. والثانية قراءة الباقين، وهي اختيار أبي عبيد، لأنها كذلك وقعت في المصحف.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُم ﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أي: البعيدة التي من ناحية مكة، ﴿وَٱلرَّكْبُ ﴾ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ﴾.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفي حديث كعب بن مالك قال[(١)]: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رُوَمان، عن عروة بن الزبير قال[(٢)]: وبعث رسول الله ﷺ -حين دنا من بدر -عليَّ بن أبي طالب، وسعدَ بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سُقَاةً لقريش: غلاما لبني سعيد بن العاص، وغلاما لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سُقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجَوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالا نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدَقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالا هم وراء هذا الكَثيب الذي ترى بالعدوة القصوى -والكثيب: العَقَنْقَل -فقال لهما رسول الله ﷺ: «**كم القوم؟**» قالا كثير. قال: «**ما عدَّتهم؟**» قالا ما ندري. قال: «**كم ينحَرُون كل يوم؟**» قالا يوما تسعًا، ويوما عشرًا، قال رسول الله ﷺ: «**القوم ما بين التسعمائة إلى الألف**». ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**» قالا عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخْتري بن هشام، وحكيم بن حِزَام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمَعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا

(١) البخاري (٣٩٥١).
(٢) وهذا مرسل مع أنه حسن الإسناد إلى عروة.

الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**».

وقال ابن كثير أيضًا:

قال محمد بن إسحاق، رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم[1]: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونُنيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، فقال: وإن تكن الأخرى فتَجلسَ على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد -والله- تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به. فبُنِيَ له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد. وبَسْطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرًا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿يَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحۡيَىٰ

(١) وهذا أيضًا مرسل.

﴿مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة في قصة الإفك: فيَّ هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

وقال السعدي $:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، وهم بعدوته أي: جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم واد واحد.

﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم أو لهم، يصدفكم عن ميعادكم .

﴿وَلَٰكِن﴾ اللّه جمعكم على هذه الحال ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدرا في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليكون حجة وبينة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذر عند اللّه.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقينا، بما أرى اللّه الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب.

﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ﴾ سميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والضمائر والسرائر، والغيب والشهادة.

وكان اللّه قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عددا قليلا فبشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وتثبتت أفئدتهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – واذكر يا رسول الله نعمتي عليك وعلى أصحابك ليلة بدر إذ أن الله سبحانه وتعالى أراك رؤيا منامية، رأيت فيها وأنت نائم أهل الشرك الذين ستحاربهم، ورأيتهم وعددهم قليل فقويت بذلك نفسك، وأخبتر بذلك أصحابك فقويت هممهم ونفوسهم وتجرأوا لقتال عدوهم ولو أراكهم الله كثيرًا، لاختلفتم فيما بينكم وتنازعتم بسبب كثرة عددهم، ولجبنتم عن لقائهم، ولكن الله ﷻ سلَّم من المخالفة والفشل والجبن، إنه عليم بدواخل الصدور، وما يفكر فيه عباده، وعليم بما يصلحهم وما ينفعهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن الله، يا محمد، سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدوك وعدوهم ﴿فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾، يقول: يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم، واجترأوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا، لفشل أصحابك، فجبنوا وخاموا، ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تُجنُّه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب.

وقال في اختياره لتفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ ما ذكره إذ قال:

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي ما قاله ابن عباس، وهو أن الله سلم القومَ -بما أرى نبيه ﷺ في منامه- من الفشل والتنازع، حتى قويت قلوبهم، واجترأوا على حرب عدوهم. وذلك أن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ عَقِيب قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، فالذي هو أولى بالخبر عنه، أنه سلمهم منه جل ثناؤه، ما كان مخوفًا منه لو لم يُرِ نبيه ﷺ من قلة القوم في منامه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلا ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تجنه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم عن الحرب. ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ اختلفتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي سلمكم من المخالفة. ابن عباس: من الفشل. ويحتمل منهما. وقيل: سلم أي أتم أمر المسلمين بالظفر.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – واذكر أيضًا يا رسول الله نعم الله عليك وعلى أصحابك عند لقاء العدو في اليقظة فقد رايتم أهل الكفر أيضًا في أعينكم قليلًا

حتى تتجرأوا عليهم، وأيضًا فقد قلَّل الله ﷻ عدوكم في نظر أهل الكفر وأعين حتى لا ينسحبوا قبل القتال، بل تجرأوا لقتلكم، كل ذلك ليمكنكم الله من قتلهم والظفر بهم، وهذا أمرٌ قدَّره الله ولا بد أن يتحقق، وإلى الله ترجع أمور الخلائق كلها، وهو الذي يُدِّبر للمؤمنين أمرهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾، إذ يري الله نبيه في منامه المشركين قليلا وإذ يريهم الله المؤمنين إذ لقوهم في أعينهم قليلا وهم كثير عددهم، ويقلل المؤمنين في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم.

وقوله: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، يقول جل ثناؤه: قلّلتكم أيها المؤمنون، في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلا حتى يقضي الله بينكم ما قضى من قتال بعضكم بعضًا، وإظهاركم، أيها المؤمنون، على أعدائكم من المشركين والظفر بهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعلَه وبالغًا فيه أمرَه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾، يقول جل ثناؤه: مصير الأمور كلها إليه في الآخرة، فيجازي أهلها على قدر استحقاقهم المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وهذا أيضًا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

(١٩٥) أحمر
أسود

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلَّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منها حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

قلت (مصطفى): وارجع إلى تفسيري التسهيل عند قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ...﴾.



قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا
لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ
وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ
وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا
غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ
ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ
إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ
فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾

[الأنفال: ٤٥-٤٩].

(١٩٧) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ فِئَةً - وَلَا تَنَٰزَعُواْ - فَتَفۡشَلُواْ - وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ - بَطَرٗا - وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ - وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ - مُحِيطٞ - زَيَّنَ - جَارٞ لَّكُمۡۖ - تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ - نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ - غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ - يَتَوَكَّلۡ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(فِئَةً ﴾	جماعة (من أهل الشرك)
(وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾	ولا تختلفوا
(فَتَفۡشَلُواْ ﴾	فتضعفوا وتجبنوا
(وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾	تذهب قوتكم ويذهب النصر عنكم
(بَطَرٗا ﴾	جحودًا للحق، وإنكارًا له – استعانة بنعم الله على معاصيه
(وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾	مرآءة للناس – كي يراهم الناس
(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾	يمنعون الناس من الدخول في دين الله
(مُحِيطٞ ﴾	أحاط بهم علمًا وبأعمالهم
(زَيَّنَ ﴾	حسَّن
(جَارٞ لَّكُمۡۖ ﴾	ناصرٌ لكم – أجيركم
(تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ ﴾	رأى كل فئةٍ الفئة الأخرى
(نَكَصَ عَلَىٰ	رجع هاربًا، ولى هاربًا

(١٩٨) أحمر
أسود

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾	جرأ هؤلاء المسلمين على القتال دينهم الإسلام (هو الذي أوردهم هذا المورد)
﴿يَتَوَكَّلۡ﴾	يعتمد



(١٩٩) أحمر
أسود

الثبات والإكثار
من ذكر الله عند لقاء العدو

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ج: هذا توجيه لأهل الإيمان بالله ﷻ وبيان لما يصنعون عند لقاء عدوهم، يقول تعالى ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ ﴾ جماعة من أهل الكفر في القتال ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ أمامهم ولا تجبنوا ولا تفروا، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ تفوزون بمطلوبكم وتهزمون عدوكم وتنتصرون عليه، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمركم به ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ ولا تختلفوا ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ فتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ وتذهب قوتكم وتتفرقوا، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ على لقاء عدوكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يؤيدهم ويقويهم وينصرهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا تعريفٌ من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به، السيرةَ في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائهم النصرة عليهم والظفر بهم. ثم يقول لهم جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ﴾ جماعة من أهل الكفر بالله للحرب والقتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا عنهم ولا تولوهم الأدبار هاربين، إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة منكم ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾، يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾،

يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصرَ والظفر عليهم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضِّراب بالسيوف.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: أطيعوا، أيها المؤمنون، ربّكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾، يقول: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾، يقول: فتضعفوا وتجبنوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وهذا مثلٌ. يقال للرجل إذا كان مقبلا ما يحبه ويُسَرّ به «الريح مقبلةٌ عليه»، يعني بذلك: ما يحبه، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص:

كَمَا حَمَيْنَاكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطَبٍ وَالفَضْلُ لِلقَوْمِ مِنْ رِيحٍ وَمِنْ عَدَدِ

يعني: من البأس والكثرة.

وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل.

﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، يقول: اصبروا مع نبيّ الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾، يقول: اصبروا فإني معكم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾.

ثبت في الصحيحين[1]، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**». ثم قام النبي ﷺ وقال: «**اللهم، مُنزل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**».

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضا فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه -ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة، مع قلة عَدَدهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبُوش وأصناف السودان والقبْط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى عَلَتْ كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في

(١) البخاري (٢٩٣٣) وفي غير موضع، ومسلم (١٧٤٢).

مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي جماعة ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء. وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم.

قلت: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله ﷻ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ [آل عمران: ٤١]. ولرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾. وقال

قتادة: افترض الله جل وعز ذكره على عباده، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف. وحكم هذا الذكر أن يكون خفيا، لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحدا. فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن، لأنه يفت في أعضاد العدو.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصة موطن الحرب، كما قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم.

﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لقتالها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر اللّه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم،فالصبر والثبات والإكثار من ذكر اللّه من أكبر الأسباب للنصر.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال.

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ أي: تجبنوا ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة اللّه ورسوله.

﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ نفوسكم على طاعة اللّه ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له.

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة»؟

ج: هذا حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ، أخرجه الطبراني[(١)] وفيه رجل لم يسم وله طرق أُخر فيها ضعف. والله أعلم.



التحذير من الكبر والرياء

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ولا تكونوا يا أهل الإيمان عند خروجكم لقتال عدوكم، وكذا لا تكونوا في عموم أحوالكم منكرين للحق جاحدين لله، مستعينين بنعم الله على معصيته مرآئين للناس تبتغون وجوههم ومرضاتهم صادين الناس عن طاعة الله ﷻ، فالمعنى: ولا تكونوا يا أهل الإسلام كأهل الشرك بالله الذي خرجوا يوم بدر من ديارهم، وهم للحق جاحدين وهم منكرون لوحدانيته الله ﷻ، خرجوا لنصرة صاحبهم أبي سفيان وللمحافظة على العير، فلما سلَّم الله لهم العير، وقيل لهم: ارجعوا فقد سلمت عيركم وتجارتكم أصروا على الذهاب إلى بدر مرآءة للناس مع جحودهم الحق، وهم في ذات الوقت صادين الناس عن دخول الإسلام وسلوك طريق الهداية، قائلين لن نرجع حتى نأتي بدرًا نشرب عندها الخمور، وتعزف علينا القيان وتغني لنا وتسمع بنا العرب فلا تزال تخشانا وتهابنا أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: والله عالم بهم لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، قادرٌ عليهم كذلك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

(١) الطبراني في الكبير (٥/ ٢١٣).

(٢٠٥) أحمر
أسود

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا تقدُّمٌ من الله جل ثناؤه إلى المؤمنين به وبرسوله، أن لا يعملوا عملا إلا لله خاصة، وطلب ما عنده، لا رئاء الناس، كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلبَ رئاء الناس. وذلك أنهم أخبروا بفَوْت العِير رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: «انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها!»، فأبوا وقالوا: «نأتي بدرًا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القِيان، وتتحدث بنا العرب فيها»، فَسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا.

وأورد بإسناد صحيح[1] عن عروة قال: كانت قريش قبل أن يلقاهم النبي ﷺ يوم بدر، قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه: إنا قد أجزنا القوم، وأن ارجعوا. فجاء الركب الذين بعثهم أبو سفيان الذين يأمرون قريشًا بالرجعة بالجُحفة، فقالوا: «والله لا نرجع حتى ننزل بدرًا، فنقيم فيه ثلاث ليالٍ، ويرانا من غَشِينا من أهل الحجاز، فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا». وهم الذين قال الله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، والتقوا هم والنبيّ ﷺ، ففتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المؤمنين منهم.

وأورد من طريق ابن إسحاق - في حديث ذكره- قال، حدثني محمد بن مسلم، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا، عن ابن عباس قال: لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عِيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا! فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع

---

(١) ولكنه مرسل لأن عروة تابعي.

حتى نرد بدرًا، وكان «بدر» موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثًا، وننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

وأورد بإسناد حسن[1] عن قتادة: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾، قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله يوم بدر، خرجوا ولهم بَغْي وفخر. وقد قيل لهم يومئذ: «ارجعوا، فقد انطلقت عيركم، وقد ظفرتم». قالوا: «لا والله، حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا!». قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذ: «**اللهم إنّ قريشًا أقبلت بفخرها وخيلائها لتحادَّك ورسولك!**».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذًا: ولا تكونوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، في العمل بالرياء والسمعة، وترك إخلاص العمل لله، واحتساب الأجر فيه، كالجيش من أهل الكفر بالله ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطرًا ومراءاة الناس بزّيهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، يقول: ويمنعون الناس من دين الله والدخول في الإسلام، بقتالهم إياهم، وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان بالله، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، من الرياء والصدِّ عن سبيل الله، وغير ذلك من أفعالهم، ﴿مُحِيطٌ﴾، يقول: عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيء، وذلك أن الأشياء كلها له متجلّية، لا يعزب عنه منها شيء، فهو لهم بها معاقب، وعليها معذِّب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) ولكنه مرسل.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿ بَطَرًا ﴾ أي: دفعا للحق، ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل – لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا –فقال: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي؛ ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل اللّه من أراد سلوكه، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة. فليكن قصدكم في خروجكم وجه اللّه تعالى وإعلاء دين اللّه، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط اللّه وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل اللّه القويم الموصل لجنات النعيم.

تزيين الشيطان لأهل الباطل
باطلهم وتمثل الشيطان بسراقة بن مالك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم– واذكر يا رسول الله واذكروا يا أهل الإيمان وقتًا زيَّن الشيطان لأهل الشرك أعمالهم، وهذا يوم بدر زين لهم خروجهم للقتال وحسَّنه لهم، وكان الخوف قد تسرب إليهم وترددوا، قال كثيرٌ من أهل العلم، وذلك لأنه كانت بينهم وبين بعض قبائل العرب إحنٌ وحروبٌ، وكانوا يخشون من قبيلة بني بكر أن تأتيهم من الخلف وتقاتلهم.

قال كثير من أهل العلم فتمثَّل لهم الشيطان: وتبدَّى لهم في صورة سراقة بن ماللك وقال لهم: لا تخشوا بأس بني بكر فإني أحظفكم منهم، وأدفع عنكم شرهم فسيروا وفرغوا أنفسكم لقتال محمد وأصحابه، فأنا لكم جارٌ ولن يغلبكم أحدٌ من الناس فلما تراءت الفئتان فئة المسلمين، وفئة الكفار، رأت كل فئةٍ منهم الفئة الأخرى، وتنزل جبريل عليه السلام وعليه أداة الحرب رآه الشيطان فولى هاربًا مدبرًا متخليًا عن أصحابه قائلًا: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني الملائكة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن يهلكني الآن ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالفه وكفر به.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

أورد الطبري رحمه الله عدة آثار في تفسيره منها ما هو ضعيف الإسناد إلى قائله، ومنها ما هو صحيح الإسناد إلى قائله لكنه مرسل، ولكن في جملتها تصحح وتؤكد أن إبليس تمثل لأهل الشرك وتبدى لهم في صورة سراقة بن

(٢٠٩) أحمر
أسود

مالك بن جعشم وطمأنهم وقال: إني جارٌ لكم ثم بعد ذلك لما رأى جبريل والملائكة نكص على عقبيه متبرًا منهم، من هذه الآثار، أثر ابن عباس[(١)] قال: جاء إبليس يوم بدر في جُنْد من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾. فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولَّوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع. إبليس يده فولَّى مدبرًا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، تزعم أنك لنا جار؟ قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾، وذلك حين رأى الملائكة.

ومنها أثر بإسناد حسن[(٢)] عن السدي قال: أتى المشركين إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكنانيّ الشاعر، ثم المدلجي، فجاء على فرس، فقال للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾! فقالوا: ومن أنت؟ قال: أنا جاركم سراقة، وهؤلاء كنانة قد أتوكم!

ومنها أثر عن عروة بن الزبير[(٣)] قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر - يعني من الحرب- فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجيّ، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: «أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه»! فخرجوا سراعا.

---

(١) وهو ضعيف الإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) ولكنه مرسل.
(٣) ولكنه مرسل.

وأثر أيضًا بإسناد حسن عن قتادة[(١)] قال: ذُكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لا يَدَيْ له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلَم، وتبرأ منهم عند ذلك.

وأثر عن طلحة بن عبيد الله بن كريز[(٢)]، وهو من التابعين أنّ رسول الله ﷺ قال: ما رؤي إبليس يومًا هو فيه أصغرُ، ولا أحقرُ، ولا أدحرُ، ولا أغيظُ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب، إلا ما رأى يوم بدر! قالوا: يا رسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل يَزَعُ الملائكة.

وبإسناده عن الحسن في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ قال: رأى جبريل معتجرًا ببُرْدٍ، يمشي بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام، ما رَكبَ.

وغير ذلك من الآثار، وكذا أورد ابن كثير رحمه الله وغيره عددٌ كبير من الآثار تدور حول هذا المعنى، وهي بلا شك ولكثرتها تصحح المعنى المذكور، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

فتأويل الكلام: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾، في هذه الأحوال، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم، أيها المؤمنون، لحربكم وقتالكم وحسَّن ذلك لهم وحثهم عليكم، وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من بني آدم، فاطمئنوا وأبشروا، ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾، من كنانة أن تأتيكم من ورائكم فمعيذكم،

---

(١) ولكنه مرسل.
(٢) ولكنه مرسل.

أجيركم وأمنعكم منهم، فلا تخافوهم، واجعلوا حدَّكم وبأسكم على محمد وأصحابه، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾، يقول: فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، يقول: رجع القهقري على قفاه هاربًا.

يقال منه: «نكص ينكُص وينكِص نكوصًا»، ومنه قول زهير:

هُمْ يَضْرِبُونَ حَبِيكَ البَيْضِ إِذْ لَحِقُوا   لا يَنْكُصُونَ، إِذَا مَا اسْتُلْحِمُوا وَحَمُوا

وقال للمشركين: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، يعني أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددًا للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم، إني أخاف عقاب الله، وكذب عدوُّ الله، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية: حسَّن لهم -لعنه الله- ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

وأورد ابن كثير جملة من الآثار، وقال بعد إيراده أثر قتادة المتقدم:

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ

لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال السعدي في تفسيره:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ حسّنها في قلوبهم وخدعهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدَّى لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفا شديدا و﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ أي: ولى مدبرا. ﴿وَقَالَ ﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾. ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: أن الله ﷻ سميع عليم لأقوال أهل النفاق ومرضى القلوب وهم الذين أسلموا وفي قلوبهم شك وفي قلوبهم ريبٌ، هؤلاء، وأولئك المنافقون قالوا يوم بدر لما رأوا عدد المسلمين قليلًا وكذا رأوا عُددهم قليلة قالوا غرَّ هؤلاء (يعنون المسلمين) ﴿دِينُهُمْ﴾ أي: أن الذي جرأ هؤلاء المسلمين وأوردهم هذا المورد الذي سيقتلون فيه ويُبادون، الذي غرَّهم للقتال هو دينهم الذي هم عليه، الذي هو من وجهة نظر المنافقين ومرضى القلوب، ليس بدينٍ حق، لكن الله ﷻ ثبت أهل الإيمان، وحثهم على حسن التوكل عليه والاعتماد عليه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعتمد على الله في شؤونه كلها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب وكذا فهو غالبٌ على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع ﷻ وفيما يقضي.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾، في هذه الأحوال، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾، وكرّ بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾، على قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يعني: شك في الإسلام، لم يصحَّ يقينهم، ولم تُشرح بالإيمان صدورهم، ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، يقول: غر هؤلاء الذين يقاتلون المشركين من أصحاب محمد ﷺ من أنفسهم، دينُهم، وذلك الإسلام.

وذُكر أن الذين قالوا هذا القول، كانوا نفرًا ممن كان قد تكلم بالإسلام من مشركي قريش، ولم يستحكم الإسلام في قلوبهم.

وأورد بإسناد صحيح عن عامر (وهو الشعبي)[(١)]: في هذه الآية: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾، قال: كان ناسٌ من أهل مكة تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾.

وبإسناد حسن عن قتادة قوله: عن قتادة قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾، قال: رأوا عصابة من المؤمنين تشرّدت لأمر الله. وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: «**والله لا يُعبد الله بعد اليوم!**»، قسوة وعُتُوًّا.

وأورد آثارًا أُخر وقال:

وأما قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، فإن معناه: ومن يسلم أمره إلى الله، ويثق به، ويرض بقضائه، فإن الله حافظه وناصره، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾، لا يغلبه شيء، ولا يقهره أحد، فجارُه منيع، ومن يتوكل عليه مكفيٌّ.

وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم، أن يفوِّضوا أمرهم إليه، ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوأهم، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ غير مغلوب، فجاره غير مقهور ﴿حَكِيمٌ ﴾، يقول: هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم، لا يدخل تدبيره خلل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى:

وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: يعتمد على جنابه، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان، ﴿حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

---

(١) ولكنه مرسل.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قيل: المنافقون: الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. والذين في قلوبهم مرض: الشاكون، وهم دون المنافقين، لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية. قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفين: غر هؤلاء دينهم. وقيل: هما واحد، وهو أولى. ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤] وهما لواحد.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قِلَّتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ أي: أوردهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها،يقولونه احتقارا لهم واستخفافا لعقولهم، وهم - واللّه - الأخِفَّاءُ عقولا الضعفاء أحلاما.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام،فإن المؤمن المتوكل على اللّه، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا باللّه تعالى،وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه،ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه اللّه عليه، وعلم أنه على الحق، وأن اللّه تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه، مطمئن القلب لا فزعا ولا جبانا.ولهذا قال ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب قوته قوة. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ
شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى
ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

[الأنفال: ٥٠-٥٩].

(٢١٧) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يَتَوَفَّى - وَأَدْبَارَهُمْ - عَذَابَ الْحَرِيقِ - قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ - كَدَأْبِ - فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ - حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ - شَرَّ الدَّوَابِّ - تَثْقَفَنَّهُمْ - فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ - يَذَّكَّرُونَ - فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ - سَبَقُوا - يُعْجِزُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(يَتَوَفَّى ﴾	تقبض أرواحهم عند استيفاء آجالهم
(وَأَدْبَارَهُمْ ﴾	ظهورهم – أعجازهم – استاههم
(عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾	العذاب المُحرق
(قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾	اكتسبتم من الذنوب والمعاصي والكفر –جرائمكم التي ارتكبتموها
(كَدَأْبِ ﴾	كعادة – كشأن
(فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)	فعاقبهم الله بسبب ذنوبهم بأخذهم بالعذاب الشديد
(حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)	حتى يتحولوا من شكرٍ وطاعة إلى جحود وعصيان ونكران
(شَرَّ الدَّوَابِّ)	شر ما دبَّ على الأرض من الخلائق
(تَثْقَفَنَّهُمْ)	تجدنهم – تتمكن منهم وتأسرهم

(٢١٨) أحمر
أسود

﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾	فاجعلهم عبرةً وعظةً ونكالًا لغيرهم فبدِّد بهم من خلفهم، واجعل غيرهم يتفرقون ولا يفكرون في نقض العهد
﴿يَذَّكَّرُونَ﴾	يتعظون – يعتبرون
﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾	اطرح إليهم العهد وأخبرهم أنك تحللت من العقد الذي بينك وبينهم بسبب بوادر الخيانة التي ظهرت منهم حتى تستوي أنت وهم في العلم بأن بعضكم لبعض حرٌ
﴿سَبَقُوٓاْ﴾	سبقونا ولن ندركهم ولن نفديهم فأتونا فلن نقدر على إلحاق العذاب بهم
﴿يُعۡجِزُونَ﴾	لا يغلبوننا، ولن نعجز عنهم



حال الكفار عند قبض أرواحهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ولو ترى يا عبد الله حال الكفار عندما تتوفاهم الملائكة، عندما تقبض الملائكة أرواحهم لرايت أمرًا عظيمًا تقشعر منه الجلود والأبدان، إنهم يضربونهم ضربًا شديدًا عند قبض الأرواح، وسواء كان هذا يوم بدر يوم قبضت الملائكة أرواح أهل الكفر أو كان في غير يوم بدر، فإن الملائكة تضرب الكفار عند الاحتضار ضربًا شديدًا على الوجود والأدبار ومن الأمام ومن الخلف وعلى الظهور والأستاه (جمع است)، ومما يؤيد هذا الضرب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ..﴾ [الأنعام: ٩٣].

وكما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٢٧].

أما الأدبار فقال غير واحد: إنها الظهور.

وقال كثيرون: إنها الأستاه (جمع است) ولكن الله حيي كريم يُكنِّي عنها بالأدبار.

هذا، ثم إن الملائكة أيضًا تبشرهم بالنار عند الاحتضار فتقول لهم: وذوقوا العذاب المحرق، ذلك العذاب، وذلك الضرب، وذاك التبشير بعذاب الحريق، كل ذلك بسبب ما قدمته أيديكم بما اقترفتموه من الذنوب والآثام وبما اجترحتموه من الجرائم، فربكم يجازيكم بأعمالكم ولا يظلمكم شيئًا.

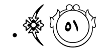
وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو تعاين، يا محمد، حين يتوفى الملائكةُ أرواحَ الكفار، فتنزعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم.

وأورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عدد من العلماء في تفسير قوله: ﴿وَأَدۡبَـٰرَهُمۡ﴾ قال: وأستاههم ولكن كريم يُكنِّي.

ثم قال: وفي الكلام محذوف، استغني بدلالة الظاهر عليه من ذكره، وهو قوله: «ويقولون»، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، حذفت «يقولون»، كما حذفت من قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ [سورة السجدة: ٢١]، بمعنى: يقولون: ربنا أبصرنا.

وقال في تأويل قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل الملائكة لهؤلاء المشركين الذين قتلوا ببدر، أنهم يقولون لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم: «ذوقوا عذاب الله الذي يحرقكم»، هذا العذاب لكم، ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أي: بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار، واجترحتم من معاصي الله أيام حياتكم، فذوقوا اليوم العذابَ، وفي معادكم عذابَ الحريق؛ وذلك لكم بأن الله ﴿لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، لا يعاقب أحدًا من خلقه إلا بجرم اجترمه، ولا يعذبه إلا بمعصيته إياه، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه.

وفي فتح «أن» من قوله:(وأن الله)، وجهان من الإعراب:

أحدهما: النصبُ، وهو للعطف على «ما» التي في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾،

بمعنى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وبأن الله ليس بظلام للعبيد، في قول بعضهم، والخفض، في قول بعضٍ.

والآخر: الرفع، على ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ﴾، وذلك أن الله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيعا منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

وهذا السياق -وإن كان سببه وقعة بدر- ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ وفي سورة القتال مثلها وتقدم في سورة الأنعام [عند] قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهرًا. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما [جاء] في حديث البراء: إن ملك الموت -إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة- يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ أي: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي

لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند[1] مسلم، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من رواية أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**».



سنن الله عَزَّ وَجَلَّ في الظالمين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – شأن هؤلاء الكفار وعادتهم كشأن آل فرعون وعادتهم فآل فرعون جآءهم رسول الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكذبوه فانتقمنا منهم، وهؤلاء المشركون جآءهم رسول الله محمد ﷺ فكذبوه فانتقمنا منهم. فقوم فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله وجحدوها فأخذهم الله بالعذاب الشديد بسبب ذنوبهم وهؤلاء المشركون كذلك إن الله قوي لا يمنعه مما يريد مانع، ولا يغلبه غالب ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأهل التكذيب والجحود والنكران، وبنحوه قال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فِعْلُ هؤلاء المشركون من قريش الذين قتلوا ببدر، كعادة قوم فرعون وصنيعهم وفعلهم وفعل من كذّب بحجج الله ورسله من الأمم الخالية قبلهم، ففعلنا بهم كفعلنا بأولئك.

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

وقد بينا فيما مضى أن «الدأب»، هو الشأن والعادة.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾، يقول: فعاقبهم الله بتكذيبهم حججه ورسله، ومعصيتهم ربهم،

كما عاقب أشكالهم والأمم الذين قبلهم ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾، لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه رادٌّ، يُنْفِذ أمره، ويُمضي قضاءه في خلقه ﴿شَدِيدُ﴾ عقابه لمن كفر بآياته وجحد حُججه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله. ﴿ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ [أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.



زوال النعم بالمعاصي

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ذلك الذي صنعناه بالمشركين من أهل مكة وما أحللناه بهم من القتل والأسر يوم بدر بعد أن كانوا آمنين ببلادهم مطمئنين ليس ظُلمًا منا لهم ولكننا لا نغيِّر نقمتنا على قومٍ ونقلبها عليهم نقمةً في غالب الأحوال إلا إذا غيَّروا حالهم من طاعة إلى كفرٍ وعصيان إذا جآءتهم نعمنا فشكروها حفظناها عليهم وزدناهم منها، وإذا كفروا بها وجحدوا

أخذناهم بالعذاب، والله سميع لاقوال خلقه ولحركاتهم عليهم بنواياهم وبكل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم، وفعلنا ذلك بهم، بأنهم غيَّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعاثه رسولَه منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم، وتكذيبهم له، وحربهم إياه، فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى علينا وعصى أمرنا.

وأورد بإسنادٍ حسن عن السدي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، يقول: «نعمة الله»، محمد ﷺ، أنعم به على قريش، وكفروا، فنقله إلى الأنصار.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: لا يخفى عليه شيء من كلام خلقه، يسمع كلام كلّ ناطق منهم بخير نطق أو بشرٍّ ، ﴿عَلِيمٌ﴾، بما تضمره صدورهم، وهو مجازيهم ومثيبهم على ما يقولون ويعملون، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد: ١١].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه اللّه بالأمم المكذبين وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم،فإن الله لم يك مغيرا

نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرا. ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة اللّه ويبدلوها كفرا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

وللّه الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به،ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تعليل. أي هذا العقاب، لأنهم غيروا وبدلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسعة، والأمن والعافية. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] الآية. وقال السدي: نعمة الله عليهم محمد ﷺ فكفروا به، فنقل إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي ذلك الأخذ والعقاب بأن الله ﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ ﴾ بالكفران وترك الشكر قال مقاتل: والمراد بالقوم هاهنا أهل مكة أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ثم بعث فيهم محمدا ﷺ فلم يعرفوا المنعم عليهم فغير الله ما بهم.

وأوضح الشنقيطي في أضواء البيان بقوله:

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه. وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ

(٢٢٦) أحمر
أسود

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ ﴾ [النساء: ٧٩] إلى غير ذلك من الآيات.



دفع إشكال

س: كيف يجمع بين الآية الكريمة وبين ما يحدث للصالحين من ابتلاءات؟

ج: هذه الابتلاءات التي تحدث للصالحين إنما تحدث لرفعة الدرجات ولإعلاء المقامات بصبرهم عليهم ورضاهم بقضاء الله ﷻ والله أعلم.



س: ما فائدة التكرير في قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ... ﴾؟

ج: أجاب بعض العلماء بأن هذا ليس بتكرير

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ليس هذا بتكرير؛ لأن الأوّل للعادة في التكذيب، والثاني: للعادة في التغيير، وباقي الآية بين.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – شأن هؤلاء إذ غيَّرنا عليهم نعمنا فبعد أن كانوا في أمنٍ وأمانٍ ويتخطف الناس من حولهم وبعد أن كانت بلادهم يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفروا بذلك ولم يشكروا النعم بل كذبوا خير رسول

أرسل إليهم، لذا فإننا أحللنا بهم العذاب، وأنزلنا بهم النكال كعادتنا في آل فرعون وفي الأمم المكذبة كقوم عادٍ وثمود وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين وغير هؤلاء لما كذبوا بآيات ربهم أهلكهم الله ﷻ بذنوبهم وأغرق آل فرعون، وكل هذه الأمم المكذبة التي أهلكها الله كانت ظالمة بشركها بالله وبتكذيبها المرسلين فَبُدِّلت نعم الله عليهم إلى نقم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: غير هؤلاء المشركون بالله، المقتولون ببدر، نعمةَ ربهم التي أنعم بها عليهم، بابتعاثه محمدًا منهم وبين أظهرهم، داعيًا لهم إلى الهدى، بتكذيبهم إياه، وحربهم له ، ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾، كسنة آل فرعون وعادتهم وفعلهم بموسى نبي الله، في تكذيبهم إياه، وقصدهم لحربه، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبة رسلَها وصنيعهم ، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾، بعضًا بالرجفة، وبعضًا بالخسف، وبعضا بالريح ، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾، في اليم ، ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾، يقول: كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله، من تكذيبهم رسلَ الله والجحود لآياته، فكذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر، إذ غيروا نعمة الله عندهم، بالقتل بالسيف، وأذللنا بعضهم بالإسار والسِّبَاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ حين جاءتهم ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كل بحسب جرمه.

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم اللّه، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه،فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل اللّه بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.



التصرف مع أهل الكفر من ناقضي العهود والمواثيق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – إن شرَّ من دب على الأرض من المخلوقات هم أهل الكفر الذين لا يؤمنون بآيات الله بل ويكذبونها ويجحدونها هؤلاء الذين تعاهدهم العهود وتواثقهم المواثيق فلا تمرَّ مرة إلا وهم ينقضون العهود والمواثيق ولا يخافون الله ولا يوقرون حدوه، ولا يتقون عقوبة نقض والميثاق فإذا مكنك الله ﷻ منهم وظفرت بهم فأنزل بهم أشد العقاب وأليم العذاب حتى يتعظ غيرهم بهم، وحتى يكونوا عبرة لغيرهم وعظةً فلا يجترأ غيرهم على نقض العهود والمواثيق معك ففي قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي نكِّل بهم من بعدهم، أي: اجعلهم نكالًا وعبرة وعظة يتعظ بها غيرهم أي: افعل بهم فعلًا تفرق به من خلفهم فلا يجتمعون على نقض

عهدك الذي عاهدتهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن شر ما دبّ على الأرض عند الله، الذين كفروا بربهم، فجحدوا وحدانيته، وعبدوا غيره، ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾، يقول: فهم لا يصدِّقون رسلَ الله، ولا يقرُّون بوحيه وتنزيله.

وقال القول في تأويل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾، يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربًا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد، ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ﴾، عهودهم ومواثيقهم كلما عاهدوك وواثقوك، حاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتقون الله، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم.

وقال في تأويل قوله: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإما تلقيَنَّ في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد مرة من قريظة، فتأسرهم، ،

﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾، يقول: فافعل بهم فعلا يكون مشرِّدًا مَن خلفهم من نظرائهم، ممن بينك وبينه عهد وعقد.

و«التشريد»، التطريد والتبديد والتفريق.

وإنما أمِرَ بذلك نبيُّ الله ﷺ أن يفعل بالناقض العهد بينه وبينهم إذا قدر عليهم فعلا يكون إخافةً لمن وراءهم، ممن كان بين رسول الله ﷺ وبينه عهد، حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية من نقض العهد.

وأورد الطبري عدة آثار: في معنى قوله: ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ مفردها ما ذكرناه (نكِّل بهم من ورآءهم) وعظْ بهم من سواهم من الناس.

وأورد أثر السدي وفيه(١): ﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ ﴾، يقول: نكل بهم من خلفهم، مَنْ بعدهم من العدوّ، لعلهم يحذرون أن ينكُثوا فتصنع بهم مثل ذلك.

وأثرًا عن ابن زيد بإسناد صحيح: ﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ ﴾، قال: أخفهم بما تصنع بهؤلاء. وقرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾، فإن معناه: كي يتعظوا بما فعلت بهؤلاء الذين وصفت صفتهم، فيحذروا نقضَ العهد الذي بينك وبينهم خوفَ أن ينزل بهم منك ما نزل بهؤلاء إذا هم نقضوه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام.

﴿ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ

---

(١) وسنده إلى السدي حسن.

خَلْفَهُمْ ﴾ أي: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة، ومعناه: غَلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصنع بهم مثل ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ نظيره ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢]. ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي لا يخافون الانتقال. «ومن» في قوله: «منهم» للتبعيض، لأن العهد إنما يجري مع أشرافهم ثم ينقصونه. والمعني بهم قريظة والنضير، في قول مجاهد وغيره. نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم اعتذروا فقالوا: نسينا، فعاهدهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثانية فنقضوا يوم الخندق.

وقال في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتذكرون بوعدك إياهم. وقيل: هذا يرجع إلى من خلفهم، لأن من قتل لا يتذكر أي شرد بهم من خلفهم من عمل بمثل عملهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ ۞ إِنَّ ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين، لئلا يسري

داؤهـم لغيرهم، ولهذا قال: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ ﴾ أي: تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به، عبرة لمن بعدهم ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي من خلفهم ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم،وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرا لمن عملها أن لا يعاودها.

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر – ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر – أنه إذا أُعْطِيَ عهدا لا يجوز خيانته وعقوبته.



نبذ العهود لمن ظهرت منه بوادر الغدر والخيانة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨) ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإما ترَيَّن يا رسول الله من المشركين بوادر الخيانة والغدر وتظهر أمارات ذلك منهم وتظهر علاماته فرد إليهم الأمان والعهد الذي أخذوه منك، وقل لهم لا أمان لكم مني ولا إمضاء للعهد الذي بيني وبينكم فقد نقضتموه بما ظهر منكم من علامات النقض والخيانة ومن أماراتها فلم أعد أقبل قولكم لي أنت منا في أمان، وقد ظهر منكم علامات الخيانة، وكذا لا تنتظروا مني أمانًا فها أنا ذا أخبركم أن العهد الذي بيني وبينكم قد أُلغي بما بدر منكم من بواد النقض فلا عهد لي عندكم ولا عهد لكم عندي.

أخبرهم بذلك يا رسول الله حتى يستوي علمك وعلمهم في هذا الباب

فيعلم كلٌّ منكم أنه حربٌ على الآخر.

أخبرهم بذلك فإن الله ﷻ لا يحب الخائنين الناقضين للعهود والمواثيق.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾، يا محمد، من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد، أن ينكث عهد. وينقض عقده، ويغدر بك، وذلك هو «الخيانة» والغدر، ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾، يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنتَ وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾، الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به فيحاربه، قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد.

فإن قال قائل: وكيف يجوز نقضُ العهد بخوف الخيانة، و«الخوف» ظنٌّ، لا يقين؟

قيل: إن الأمر بخلاف ما إليه ذهبت، وإنما معناه: إذا ظهرت أمارُ الخيانة من عدوك، وخفت وقوعهم بك، فألق إليهم مقاليد السَّلم وآذنهم بالحرب. وذلك كالذي كان من بني قريظة إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ ومحاربتهم معهم، بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسولَ الله ﷺ على المسالمة، ولن يقاتلوا رسولَ الله ﷺ. فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك، موجبًا لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم. فكذلك حكم كل قوم أهل موادعةٍ للمؤمنين، ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذي ظهرَ لرسول الله ﷺ وأصحابه من قريظة منها، فحقٌّ

على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء، ويؤذنهم بالحرب.

ومعنى قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سِلْم.

وأورد الطبري عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وقال:

وكذلك هذه المعاني متقاربة، لأن «العدل»، وسط لا يعلو فوق الحق ولا يقصّر عنه، وكذلك «الوسط» عدل، واستواء علم الفريقين فيما عليه بعضهم لبعض بعد المهادنة، عدل من الفعل ووسط.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خِيَانَةً ﴾ أي: نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: عهدهم ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَاضْـرِبْ وُجُـوهَ الغُـدر للأعْـداء حتـى يجيبـوك إلـى السـواء

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن العربي: فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة. فالجواب من وجهين: أحدهما - أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين، كما قد يأتي الرجاء بمعنى العلم، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]. الثاني - إذا

ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التمادي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة. وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبي ﷺ إلى أهل مكة عام الفتح، لما إذا اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم. والنبذ: الرمي والرفض.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة،بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة.

﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم. ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ بل يبغضهم أشد البغض،فلا بد من أمر بيِّنٍ يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ ﴾ وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – ولا يحسبن الذين كفروا، جحدوا وحدانية الله

وكذبوا رسوله لا يحسبن هؤلاء أنهم سبقونا فلن ندركهم بعذابنا ولن يلحقهم بأسنا، كلا بل إنهم لن يُعجزوننا، لن نعجز عن تعذيبهم ولن نعجز عن إدراكهم ولن يغلبونا.

هذا، وقد قرأ بعض أهل العلم (ولا تحسبن) بالتاء، وجعل الخطاب فيها لرسول الله ﷺ، أو للمؤمنين عمومًا، فالمعنى: لا تحسبن يا رسول الله أن أهل الكفر سبقونا فلن ندركهم بعذابنا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أو أورد القراءتين:

والصواب من القراءة في ذلك عندي، قراءة من قرأ: (لا تَحْسَبَنَّ)، بالتاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ﴾، بكسر الألف من «إنهم»، ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾، بمعنى: ولا تحسبن أنت، يا محمد، الذين جحدوا حجج الله وكذبوا بها، سبقونا بأنفسهم ففاتونا، إنهم لا يعجزوننا، أي: يفوتوننا بأنفسهم، ولا يقدرون على الهرب منا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمَّد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤] أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا اللّه وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، واللّه لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها.



الوفاء بالعهود
حتى مع الكفار والتحذير من نقضها

س: هل يجب الوفاء بالعهود وعدم الغدر مع الكفار؟

ج: نعم يجب الوفاء بالعهود والمواثيق حتى مع أهل الكفر ما دامت بوادر الخيانة لم تظهر منهم، ومن الأدلة على ذلك العمومات الواردة في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

* وكقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

* وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد: ٢٠].

* وكقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٤].

وأخرج الإمام أحمد بسندٍ صحيح[1] عَنْ أَبِي الْفَيْضِ عَنْ سُلَيْم بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كَانَ مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ بِأَرْضِ الرُّوم وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَمَدٌ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُمْ فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ، فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلَّنَّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**» فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَرَجَعَ؛ وَإِذَا الشَّيْخُ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رضي الله عنه.

هذا، وقد قدمت طائفة كبيرة من الأدلة الواردة في هذا الباب في أول سورة المائدة فارجع إليها إن شئت.



(١) أحمد (٤/ ١١١).

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ
ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن
شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن
يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن
مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ
أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن
مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ
ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ

(٢٤٠) أحمر
أسود

مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا
طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم
مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن
قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

[الأنفال: ٦٠-٧١].

(٢٤١) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ - يُوَفَّ إِلَيْكُمْ - وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ - جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ - حَسْبَكَ ٱللَّهُ - أَيَّدَكَ - وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ - حَرِّضِ - لَّا يَفْقَهُونَ - يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ - عَرَضَ ٱلدُّنْيَا - كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾	الخيل المربوطة المُعدة للجهاد
﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾	تثابون عليه يوم القيامة ويخلف الله عليكم أيضًا – إن شاء – في الدنيا
﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾	لا تبخسون شيئًا من حقوقكم
﴿جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾	مالوا إلى المسالمة والمهادنة والموادعة والمصالحة



التحريض على تسلح المسلمين واستعدادهم بما استطاعوا من السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وأعدوا يا أهل الإسلام كل قوةٍ تستطيعون إعدادها، وكذا احتبسوا الخيول واجعلوها مُعدةٍ للغزو في أي وقت وحين، واجعلوها معدة للدفاع كذلك لإرهاب أعداء الله ﷻ وأعدائكم، لتخويفهم وخزيهم، وقذف الرعب في قلوبهم حتى لا يُفكروا في غزوكم ولا في النيل منكم ولا في الغدر بكم، وكذا ترهبون بهذه القوة قومًا آخرين غير الأعداء الظاهرين لكم، ترهبون به قومًا لا تعلمونهم، فإذا رأوا قوتكم حاضرة مُعدةٌ جاهزة، وإذا رأوا خيولكم مرتبطة مستعدة للقتال والغزو والدفاع قُذف الرعب في قلوبهم فكفاكم الله بذلك شرهم، هذا واعلموا أن ما تنفقونه من أموالكم في هذا الباب، باب إعداد العدة للقتال في سبيل الله يوف إليكم ويجازيكم الله به، ولا تُبخسون شيئًا مما أنفقتموه، ولا من ثوابه.

هذا، وقد ورد عن رسول الله ﷺ[(١)] أنه قال وهو على المنبر ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، وليس معنى هذا أن القوة تنحصر في الرمي، إنم المراد أن أغلب القوة الرمي وأفضلها الرمي، وهذا يشمل كل صور الرمي التي منها القذف بالصواريخ والرمي بالطائرات والدبابات، والرمي بالرصاص والرمي بالسهام والنبال وكل صور الرمي.

هذا، وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٥٦)، ومسلم (١٩١٧) وغيرهم.

دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فقال بعض أهل العلم: إنهم بنو قريظة، وقال آخرون: إنهم الفرس (أهل فارس)، وقال آخرون: إنهم المنافقون، وقال آخرون: إنهم الجن.

والصواب من القول: أنهم قوم لا نعلمهم في الظاهر والله ﷻ أعلم بهم.

وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾، لهؤلاء الذين كفروا بربهم، الذين بينكم وبينهم عهد، إذا خفتم خيانتهم وغدرهم، أيها المؤمنون بالله ورسوله ، ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، يقول: ما أطقتم أن تعدّوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم، من السلاح والخيل، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، يقول: تخيفون بإعدادكم ذلك عدوَّ الله وعدوكم من المشركين.

وقال:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوّون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين، من السلاح والرمي وغير ذلك، ورباط الخيل،ولا وجه لأن يقال: عني بـ «القوة»، معنى دون معنى من معاني «القوة»، وقد عمَّ الله الأمر بها.

فإن قال قائل: فإن رسول الله ﷺ قد بيَّن أن ذلك مرادٌ به الخصوص بقوله: «**ألا إن القوة الرمي**»؟

قيل له: إن الخبر، وإن كان قد جاء بذلك، فليس في الخبر ما يدلّ على أنه مرادٌ بها الرمي خاصة، دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة، لأنه إنما قيل في الخبر: «**ألا إن القوة الرمي**»، ولم يقل: «دون غيرها»، ومن «القوة» أيضًا السيف والرمح والحربة، وكل ما كان معونة على قتال

المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم. هذا مع وهاء سند الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ[(١)].

وأما قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾، فإن قول من قال: عنى به الجن، أقربُ وأشبهُ بالصواب، لأنه جل ثناؤه قد أدخل بقوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾، الأمرَ بارتباط الخيل لإرهاب كل عدوٍّ لله وللمؤمنين يعلمونهم، ولا شك أن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لهم، لعلمهم بأنهم مشركون، وأنهم لهم حرب. ولا معنى لأن يقال: وهم يعلمونهم لهم أعداءً: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾، ولكن معنى ذلك إن شاء الله: ترهبون بارتباطكم، أيها المؤمنون، الخيلَ عدوَّ الله وأعداءكم من بني آدم الذين قد علمتم عداوتهم لكم، لكفرهم بالله ورسوله، وترهبون بذلك جنسًا آخر من غير بني آدم، لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم، الله يعلمهم دونكم، لأن بني آدم لا يرونهم. وقيل: إن صهيل الخيل يرهب الجن، وأن الجن لا تقرب دارًا فيها فرس.

فإن قال قائل: فإن المؤمنين كانوا لا يعلمون ما عليه المنافقون، فما تنكر أن يكون عُنِي بذلك المنافقون؟

قيل: فإن المنافقين لم يكن تروعهم خيل المسلمين ولا سلاحهم، وإنما كان يَرُوعهم أن يظهر المسلمون على سرائرهم التي كانوا يستسرُّون من الكفر، وإنما أمر المؤمنون بإعداد القوة لإرهاب العدو، فأما من لم يرهبه ذلك، فغير داخل في معنى من أمر بإعداد ذلك له المؤمنون. وقيل: «لا تعلمونهم»، فاكتفي لـ «العلم»، بمنصوب واحد في هذا الموضع، لأنه أريد: لا

(١) وما أدري مراد الطبري بقوله: (مع وهاء سند الخبر) فإن كان يقصد حديث: (ألا إن القوة الرمي) فهو ثابت صحيح في صحيح مسلم، وغيره.

تعرفونهم، كما قال الشاعر:

فَــــإِنَّ اللهَ يَعْلَمُنِــــي وَوَهْبًــــا   وَأَنَّـــا سَـــوْفَ يَلْقَـــاهُ كِلانَـــا

وقـــال في تأويـــل قولـــه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما أنفقتم، أيها المؤمنون، من نفقة في شراء آلة حرب من سلاح أو حراب أو كُرَاع أو غير ذلك من النفقات، في جهاد أعداء الله من المشركين يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدَّخر لكم أجوركم على ذلك عنده، حتى يوفِّيكموها يوم القيامة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، يقول: يفعل ذلك بكم ربكم، فلا يضيع أجوركم عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

وأورد عددًا من الأحاديث وقال: وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي: تخوفون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور.

وأورد حديثًا ضعيفًا في أن الذين لا نعلم هم الجن، ثم قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ ...﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كان يكفي، فلم خص الرمي والخيل بالذكر؟ قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها التي عقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وأشد العدة وحصون الفرسان، وبها يجال في الميدان، خصها بالذكر تشريفا، وأقسم بغبارها تكريما. فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ [العاديات: ١] الآية. ولما كانت السهام من أنجع ما يتعاطى في الحروب والنكاية في العدو وأقربها تناولا للأرواح، خصها رسول الله ﷺ بالذكر لها والتنبيه عليها. ونظير هذا في التنزيل، ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ومثله كثير.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا إن القوة الرَّمْيُ**» ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال،ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها،حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم،ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغبا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل اللّه، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئا.



فضل الخيل

س: اذكر بعض الوارد في فضل الخيل واحتباسها في سبيل الله؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري[(١)] من حديث عُرْوَةَ البَارِقِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ».

وما أخرجه البخاري ومسلم[(٢)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنِوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ».

فَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ الْحُمُرِ فقَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاذَّةَ الْجَامِعَةَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].



(١) البخاري (٢٨٥٠).

(٢) البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

المصالحات مع الكفار عند الاحتياج إليها

س: وضح معنى قوله تعالى: (﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – وإن مال هؤلاء المشركون إلى المصالحة والموادعة والمهادنة فأجبهم إلى طلبهم واعتمد على الله ﷻ في شؤونك كلها إنه هو السميع لأقوالك وأقوالهم العليم بنواياك ونواياهم وكذا سميع لكل ما يسمع وعليم بكل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإما تخافنّ من قوم خيانة وغدرًا، فانبذ إليهم على سواء وآذنهم بالحرب، ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾، وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحربَ، إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بموادعة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾، يعني بذلك: إن الله الذي تتوكل عليه، «سميع»، لما تقول أنت ومن تسالمه وتتاركه الحربَ من أعداء الله وأعدائك عند عقد السلم بينك وبينه، وما يشترط كل فريق منكم على صاحبه من الشروط، «العليم»، بما يضمره كل فريق منكم للفريق الآخر من الوفاء بما عاقده عليه، ومن المضمر ذلك منكم في قلبه، والمنطوي على خلافه لصاحبه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن

استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ ﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلۡمِ ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ ﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلۡمِ ﴾ أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلا على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضا، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له،.فصار هذا السلم عونا للمسلمين على الكافرين.



س: هل هذه الآية الكريمة منسوخة: (﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا بِأَنفُسِهِمْ..﴾ منسوخة؟

ج: اختلف العلماء في ذلك، فقال بعضهم: إنها منسوخة بآية براءة: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وقال آخرون: بل محكمة، ثم إن منهم من نزلها على أهل الكتاب، إذا جنحوا إلى المصالحة ودفعوا الجزية.

ومنهم من قال بعمومها إذا احتاج المسلمون إلى ذلك، فقد يأتي على المسلمين زمنٌ يحتاجون فيها إلى مهادنةٍ ومصالحة مع أهل الكفر لضعف قوى أهل الإيمان، أو لتقوية شوكتهم أو لغير ذلك، فحينئذٍ إذا مالوا للصلح فلا جناح عليهم، وها هي بعض أقوال العلماء في ذلك.

أورد الطبري بإسنادٍ صحيح لغيره عن قتادة: قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾، إلى الصلح، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، قال: وكانت هذه قبل «براءة»، وكان نبي الله ﷺ يوادع القوم إلى أجل، فإما أن يسلموا، وإما أن يقاتلهم، ثم نسخ ذلك بعد في «براءة» فقال: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، [سورة التوبة: ٣٦]، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يقولوا «لا إله إلا الله» ويسلموا، وأن لا يقبلَ منهم إلا ذلك. وكلُّ عهد كان في هذه السورة وفي غيرها، وكل صلح يصالح به المسلمون المشركين يتوادعون به، فإن «براءة» جاءت بنسخ ذلك، فأمر بقتالهم على كل حال حتى يقولوا: «لا إله إلا الله».

وتعقب الطبري هذا بقوله:

فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله، من أن هذه الآية منسوخة، فقولٌ لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل.

وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره على أن الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه. فأما ما كان بخلاف ذلك، فغير كائنٍ ناسخا.

وقول الله في براءة: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، غير نافٍ حكمُه حكمَ قوله. ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾، لأن قوله: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾، إنما عني به بنو قريظة، وكانوا يهودًا أهلَ كتاب، وقد أذن الله جل ثناؤه للمؤمنين بصلح أهل الكتاب ومتاركتهم الحربَ على أخذ الجزية منهم.

وأما قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ فإنما عُني به مشركو العرب من عبدة الأوثان، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم. فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضًا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفًا، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن العربي: وبهذا يختلف الجواب عنه، وقد قال الله ﷻ: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥]. فإذا كان المسلمون على عزة وقوة ومنعة، وجماعة عديدة، وشدة شديدة فلا صلح، كما قال:

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح، لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه. وقد صالح رسول الله ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم. وقد صالح الضمري وأكيدر دومة وأهل نجران، وقد هادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده. وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرعناها سالكة، وبالوجوه التي شرحناها عاملة.



الحث على التوكل على الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإن يُرد هؤلاء الذين جنحوا للسلم وطلبوا المصالحة والمهادنة والمسالمة أن يخدعوك بصنيعهم هذا فتوكل على الله واعتمد عليه في شؤونك كلها فهو الذي قواك بنصره الذي نصرك يوم بدر وفي غيرها، وقواك كذلك بأهل الإيمان من الأنصار وغيرهم، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن يرد، يا محمد، هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة، وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم، خداعَك والمكرَ بك ، ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، يقول: فإن الله كافيكهم وكافيك خداعَهم إياك، لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان، ومتضمِّنٌ أن يجعل كلمته العليا

وكلمة أعدائه السفلى ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾، يقول: الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه ، ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يعني بالأنصار.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ أي بأن يظهروا لك السلم، ويبطنوا الغدر والخيانة، فاجنح فما عليك من نياتهم الفاسدة. ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك الله، أي يتولى كفايتك وحياطتك. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ... فحسبك والضحاك سيف مهند

أي كافيك وكافي الضحاك سيف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي قواك بنصره. يريد يوم بدر. ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال النعمان بن بشير: نزلت في الأنصار.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: كافيك وحده.



الله هو الذي يؤلف بين القلوب

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم- فإن كافيك الله ﷻ وناصر فهو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين وجمع بين قلوب المؤمنين بعد أن كانت متفرقة متشتتةً متباعدةً متباغضةً كالذي كان بين الأوس والخزرج من الأنصار من القتال

والتباعد والتباغض، فجمع الله بين قلوب هؤلاء وقلوب أولئك، وما كان هذا بوسعك فلو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم وجمع بينها إنه عزيز لا يُغلب حكيم فيما يصنع ويشرع، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يريد جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾، وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيَّرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداء.

وقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لو أنفقت، يا محمد، ما في الأرض جميعا من ذهب ووَرِق وعَرَض، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيْلك، ولكن الله جمعها على الهدى فأتلفت واجتمعت، تقوية من الله لك وتأييدًا منه ومعونة على عدوك. يقول جل ثناؤه: والذي فعل ذلك وسبَّبه لك حتى صاروا لك أعوانًا وأنصارًا ويدًا واحدة على من بغاك سوءًا هو الذي إن رام عدوٌّ منك مرامًا يكفيك كيده وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره، وتوكل عليه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، يقول: إن الله الذي ألف بين قلوب الأوس والخزرج بعد تشتت كلمتهما وتعاديهما، وجعلهم لك أنصارًا، ﴿عَزِيزٌ﴾، لا يقهره شيء، ولا يردّ قضاءه رادٌّ، ولكنه ينفذ في خلقه حكمه. يقول: فعليه فتوكل، وبه فثق، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبير خلقه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الصحيحين[(١)] أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي**» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

وأورد ابن كثير[(٢)] رحمه الله تعالى بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة اللّه،فلو أنفقت ما في الأرض جميعا من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿مَّآ

(١) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).
(٢) وعزاه لعبد الرزاق.

أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا اللّه تعالى.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين. وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ يعني الأوس والخزرج وهم الأنصار كانت بينهم عداوة في الجاهلية فألف الله بينهم بالإسلام وهذا من أعجب الآيات لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة فلو أن رجلا لطم رجلا لقاتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثأره فآل بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه.



الله الذي يحفظ ويُسلِّم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – يا أيها النبي كافيك الله ﷻ وحافظك وناصرك، وكذا فإنه ﷻ كافي وحافظ وناصر أتباعك من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٢-١٧٣].

هذا رأي الأكثرين من العلماء في تأويل الآية، بينما ذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: حسبك أيضًا من اتبعك من المؤمنين، أي: وناصرك بعد الله أتباعك المؤمنين، والقول الأول أصح وأسلم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾، وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله. يقول لهم جل ثناؤه: ناهضوا عدوكم، فإن الله كافيكم أمرهم، ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم، فإن الله مؤيدكم بنصره.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾، قال: يا أيها النبي حسبك الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين، إنّ حسبك أنت وهم، الله.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فـ«مـنْ» قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾، على هذا التأويل الذي ذكرناه عن الشعبي، نصب، عطفا على معنى «الكاف» في قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ لا على لفظه، لأنها في محل خفض في الظاهر، وفي محل نصب في المعنى، لأن معنى الكلام: يكفيك الله، ويكفي من اتبعك من المؤمنين.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ قيل: المعنى حسبك الله، وحسبك المهاجرون والأنصار. وقيل: المعنى كافيك الله، وكافي من تبعك، قال الشعبي وابن زيد. والأول عن الحسن. واختاره النحاس وغيره. فـ «مَن» على القول الأول في موضع رفع، عطفا على اسم الله تعالى. على معنى: فإن

حسبك الله وأتباعك من المؤمنين. وعلى الثاني على إضمار. ومثله قوله ﷺ: «يكفينيه الله وأبناء قيلة». وقيل: يجوز أن يكون المعنى ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ حسبهم الله، فيضمر الخبر. ويجوز أن يكون «مَن» في موضع نصب، على معنى: يكفيك الله ويكفي من اتبعك.

وقال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أي حسبك الله، وحسبك أيضًا من اتبعك من المؤمنين.

وممن قال بهذا. والحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبي، وقال بعض العلماء: هو في محل خفض بالعطف على الضمير الذي هو الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه، فالمعنى حسبك الله أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبي، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشاف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعل الإيتاء لله ورسوله، كما قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعل الحسب مختصًا به وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]؟ فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٢] ففرق بين الحسب والتأييد فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث افردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٢٩] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: حسبك الله وحسب من اتبعك هذا قول أبي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن زيد ومقاتل والأكثرون.

والثاني: حسبك الله ومتبعوك قاله مجاهد وعن الشعبي كالقولين.

وأجاز الفراء والزجاج الوجهين وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون ثم أسلم عمر فصاروا أربعين فنزلت هذه الآية قال أبو سليمان الدمشقي هذا لا يحفظ والسورة مدنية باجماع والقول الأول أصح.



س: اذكر سبب نزول قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ج: سبب نزولها ما أخرجه البخاري[1] في صحيحه من طريق عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ فَجَاءَ

(١) البخاري (٤٦٥٣).

التَّخْفِيفُ فَقَالَ: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قَالَ: فَلَمَّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ الْعِدَّةِ نَقَصَ مِنْ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خُفِّفَ عَنْهُمْ.



س: في قوله تعالى: ﴿ضَعْفًاۚ﴾ قراءتان.

ج: إيضاحهما (ضُعفًا) بضم الضاد، والأخرى ﴿ضَعْفًاۚ﴾ بفتحها، وصحح الوجهين الطبريُّ.

وأورد وجهًا ثالثًا وعزاه لبعض المدنيين ولم يجنح إليه وهو (ضُعفاء) وحكم على هذه الأخيرة بالشذوذ.



تحريض المؤمنين على القتال

س: ما صورة تحريض المؤمنين على القتال؟

ج: لذلك صور منها: تذكيرهم بفضل الجهاد في سبيل الله، وتذكيرهم بفضل الشهادة في سبيل الله، ومن ذلك تقدمه بين يديهم للجهاد ابتغاء وجه الله والبذل والعطاء في سبيل الله ولذلك صور متعددة أُخر. وبالله التوفيق.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – يا أيها النبي حُثْ المؤمنين على القتال

ورغِّبهم فيه وأرشدهم إليه وبيِّن لهم فضائله، حثهم على القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وأخبرهم أن الله ﷻ معينهم وناصرهم، فإن يكن منهم عشرون صابرون محتسبون يرجون ثواب الله ويبتغون وجهه ولا يفرون إذا القتوا بعدوهم فإنهم يغلبوا مائتين من أهل الكفر، وإن يكن منهم مائة يغلبوا ألفًا من أهل الكفر، ذلك بأن أهل الكفر لا يفقهون حقيقة ما هم منه، ولا يفقهون لماذا يقاتلون ولا يفقهون ما عند الله من الثواب لمن جاهد في سبيله ولا يفقهون لكونهم ينكرون البعث والثواب والعقاب.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ...﴾ هذا إخبارٌ من الله ﷻ بأن العشرين يغلبوا مائتين، ولكنه أمرٌ من الله ﷻ أي أنه أمر في صدرة الخبر، والمعنى إذا كنتم عشرون لا تفروا من مائتين، وإن كنتم مائة لا تفروا من ألفٍ من أهل الكفر بل قاتلوهم واطلبوهم لقتالهم، فإن الله ناصركم فحاصل الأمر أن الواحد لا يفر في الحرب من العشرة من الكفار، قالوا: ثم نُسخ هذا الأمر بالية التي بعده، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أن الواحد بعد أن كان مكلفًا بقتال العشرة من الكفار، وبعد أن كان العشرون مأمورون بجهاد مئتين من الكفار، والمئةُ المؤمنة مكلفةٌ بالثبات أمام ألف من الكفار، بل وبطلبهم خفف هذا، وأصبح المؤمن مكلفًا باثنين فقط وبجهاد الاثنين فقط، أي: أن العدو إذا كان عدده يربو على ضعف عدد المسلمين فإن المسلمين لا يطالبون بمواجهته آنذاك ولا يُطالبون ولا يكلفون بطلبه لقتاله.

فقوله تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ يؤيد أن الخبر الأول كان معناه الأمر ثم نسخ هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ..﴾.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ...﴾ تضمن أمرًا وبشارةً لأهل الإيمان فنسخ الأمر وبقيت البشارة.

أما قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فمفاده أن النصر من عند الله، ولن تنتصروا يا أهل الإيمان بقوتكم ولا بعددكم ولا عُددكم إنما النصر من الله، وبإذن الله.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يؤيدهم ويرعاهم وينصرهم ويقويهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

أخرج البخاري[١] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ فَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ فَقَالَ سُفْيَانُ[٢] غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنْ لَا يَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الْآيَةَ. فَكَتَبَ أَنْ لَا يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ.

وَزَادَ سُفْيَانُ مَرَّةً: نَزَلَتْ ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ: وَأُرَى الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾، حُثَّ متبعيك ومصدِّقيك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلا، ﴿صَـٰبِرُونَ﴾، عند لقاء

---

(١) البخاري (٤٦٥٢).

(٢) سفيان أحد رجال الإسناد، فسند البخاري حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان بن عمرو عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

العدو، ويحتسبون أنفسهم ويثبتون لعدوهم، ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾، من عدوهم ويقهروهم، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ﴾، عند ذلك ﴿يَغۡلِبُوٓاْ﴾، منهم ﴿أَلۡفٗا﴾، ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، يقول: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب، لأنهم لم يفقهوا أن الله مُوجبٌ لمن قاتل احتسابًا، وطلب موعود الله في الميعاد، ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم. ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم فقال لهم: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾، يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفًا، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ﴾، عند لقائهم للثبات لهم، ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ منهم، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ﴾ منهم، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ يعني: بتخلية الله إياهم لغلبتهم، ومعونته إياهم، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، لعدوهم وعدو الله، احتسابًا في صبره، وطلبًا لجزيل الثواب من ربه، بالعون منه له، والنصر عليه.

وأورد الطبري عددًا من الآثار ثم قال:

وهذه الآية -أعني قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾، - وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر. يدلّ على ذلك قوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾، فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل. ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف، وكان ندبًا، لم يكن للتخفيف وجه، لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوتَ للعشرة من العدو. وإذا لم يكن التشديد قد كان له متقدِّمًا، لم يكن للترخيص وجه، إذ كان المفهوم من الترخيص إنما هو بعد التشديد. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن حكم قوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾، ناسخ لحكم قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن

يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. وقد بينا في كتابنا «البيان عن أصول الأحكام»، أن كل خبر من الله وعد فيه عباده على عمل ثوابًا وجزاء، وعلى تركه عقابًا وعذابًا، وإنْ لم يكن خارجًا ظاهرُه مخرج الأمر، ففي معنى الأمر، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ أي: حثهم وذمر عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**». فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**» فقال: بخ بخ، فقال: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «**فإنك من أهلها**» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى مُبَشِّرًا للمؤمنين وآمرا: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

وأورد أثر ابن عباس الذي قدمناه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد

---

(١) مسلم (١٩٠١).

ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد اللّه للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها.وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة اللّه وإظهار دينه، والذب عن كتاب اللّه، وحصول الفوز الأكبر عند اللّه،.وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه اللّه على العباد فقال: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن اللّه يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن اللّه أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

ثم إن اللّه خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من

الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، إذا غلب على ظنهم الضرر، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر لازم وأمر محتم، ثم إن اللّه خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر.وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك. فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر اللّه به من النصر لهذا العدد القليل.



س: اذكر سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٦٧﴾.. ﴾.

ج: أخرج الحاكم في المستدرك بسندٍ حسن[1]:

(١) الحاكم (٢/ ٣٢٩)، ومسلم (١٢/ ٨٧).

عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك فخل سبيلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قال: فلقي النبي ﷺ عمر قال: «**كاد أن يصيبنا بلاء في خلافك**».

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت: على شرط مسلم.



الحكم في الأسرى

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

ج: هذا عتابٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وما كان قد صدر منهم يوم بدر من قبولهم الفدية من أهل الشرك فيقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي: ما كان ينبغي لنبي ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ أي: يتخذ أسرى ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتى يكثر من القتل، قتل الأسرى المشركين، أتريدون بقبولكم الفدية من المشركين وترك قتلهم متاع الحياة الدنيا الزائل، والله يريد لكم ثواب الآخرة، والله عزيز لا يغلب حكيم فيما يشرع.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما كان لنبي أن يحتبس كافرًا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمنّ.

و«الأسر» في كلام العرب: الحبس، يقال منه: «مأسورٌ»، يراد به: محبوس.

ومسموع منهم: «أَبَاله الله أَسْرًا».

وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبيه محمد ﷺ، يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسرًا.

يقال منه: «أثخن فلان في هذا الأمر»، إذا بالغ فيه. وحكي: «أثخنته معرفةً»، بمعنى: قتلته معرفةً.

﴿تُرِيدُونَ﴾، يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿تُرِيدُونَ﴾، أيها المؤمنون، ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، بأسركم المشركين، وهو ما عَرَض للمرء منها من مال ومتاع. يقول: تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطُعْمها، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾، يقول: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعدّ للمؤمنين وأهل ولايته في جناته، بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض. يقول لهم: فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، يقول: إن أنتم أردتم الآخرة، لم يغلبكم عدوّ لكم، لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب، وأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره أمرَ خلقه.

وأورد الطبري عدة آثار في هذا الصدد.

وأخرج مسلم[١] في صحيحه حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ... فذكر الحديث وفيه:

---

(١) مسلم (١٧٦٣).

فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟**» قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ(1)، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ) وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾، الآية، قال: أراد أصحاب نبيّ الله ﷺ يوم بدر الفداءَ، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. ولعمري ما كان أثخن رسول الله ﷺ يومئذ! وكان أول قتال قاتله المشركين.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أخرجه أحمد(2) من حدي عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

---

(1) في رواية أحمد (١/ ٣٠-٣١): وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.

(2) أحمد (٣/ ٢٤٣) وسنده صحيح.

استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «**إن الله قد أمكنكم منهم**» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس**». فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله، عز وجل: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية.

وقال السعدي رحمه الله:

هذه معاتبة من اللّه لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء،. وكان رأي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم.

فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور اللّه ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد اللّه، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم،.فما دام لهم شر وصولة، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فإذا أثخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم.

يقول تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

(٢٧٢) أحمر
أسود

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك.

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قال المفسرون: معنى الآية: ما كان لنبي أن يحبس كافرا قدر عليه للفداء أو المن قبل الإثخان في الأرض. وكانت غزاة بدر أول قتال قاتله رسول الله ﷺ ولم يكن قد أثخن في الأرض بعد.

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو المال وكان أصحاب النبي ﷺ قد فادوا يومئذ بأربعة آلاف أربعة آلاف وفي قوله ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ قولان:

أحدهما: يريد لكم الجنة قاله ابن عباس.

والثاني: يريد العمل بما يوجب ثواب الآخرة ذكره الماوردي.

وقال ابن الجوزي أيضًا:

وقد روي عن ابن عباس و مجاهد في آ خرين أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤]، وليس للنسخ وجه لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قلة فلما كثروا واشتد سلطانهم نزلت الآية الأخرى ويبين هذا قوله ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ سبب نزول؟

ج: أخرج الطبري وغيره بسندٍ صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما أحلت الغنائم لأحدٍ سُودِ الرؤوس من قبلكم، كانت تنزل نارٌ من

السماء وتأكلها، حتى كان يوم بدر، فوقع الناس في الغنائم، فأنزل الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ ﴾، حتى بلغ، ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – لولا أن الله ﷻ كتب عليكم يا أهل بدر أن لا يعذبكم بسبب صنيعكم الذي صنعتموه لمسكم بسبب ما أخذتموه من الفدية عذاب عظيم، أي لمسكم بسبب قبولكم الفتنة عذاب عظيم.

وقال بعض أهل العلم: لولا كتاب من الله سبق بإحلال الغنائم، لكن لمسكم بسبب قبولكم الفدية عذاب عظيم، وثم قأقوال آخر.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في هذه ذلك:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾، يقول: لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ، بأن الله مُحِلٌّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصرًا دينَ الله، لنالكم من الله، بأخذكم الغنيمة والفداء، عذاب عظيم.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن الحسن في قوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية، قال: إن الله كان مُطْعِم هذه الأمة الغنيمةَ، وإنهم أخذوا الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤمروا به. قال: فعاب الله ذلك عليهم، ثم أحله الله.

وفي رواية أخرى بإسناد صحيح أيضًا عن الحسن في قول الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية، وذلك يوم بدر، وأخذ أصحاب النبي ﷺ المغانمَ والأسارى قبل أن يؤمروا به، وكان الله تبارك وتعالى قد كتب في أم الكتاب: «المغانم والأسارى حلال لمحمد وأمته»، ولم يكن أحله لأمة قبلهم، وأخذوا المغانم وأسروا الأسارى قبل أن ينزل إليهم في ذلك، قال الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾، يعني في الكتاب الأول. أن المغانم والأسارى حلال لكم ، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾.

وأورد سبب النزول الذي أشرت إليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الطبري رحمه الله:

وقال آخرون: معنى ذلك: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر، أن لا يعذبهم، لمسهم عذاب عظيم.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: عن قتادة قوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾، كان سبق لهم من الله خير، وأحلّ لهم الغنائم.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد: ابن زيد في قوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾، لمسكم فيما أخذتم من الغنائم يوم بدر قبل أن أحلها لكم. فقال: سبق من الله العفو عنهم والرحمة لهم، سبق أنه لا يعذب المؤمنين، لأنه لا يعذب رَسوله ومن آمن به وهاجر معه ونصره.

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾، أن لا يؤاخذ أحدًا بفعل أتاه على جهالة ، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، ما قد بيناه قبلُ. وذلك أن قوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾، خبر عامٌّ غير محصور على معنى دون معنى، وكل هذه

المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت، مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمة، وذلك: ما عملوا من عمل بجهالة، و إحلال الغنيمة، والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم. وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لأن يخصّ من ذلك معنى دون معنى، وقد عم الله الخبر بكل ذلك، بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه.

واستشهد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ لصحة ما ذهب إليه الطبري بأدلة، فقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر أن المراد: (لولا كتاب من الله سبق لهذه الأمة بإحلال الغنائم):

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين[1]، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة**».

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا**»[2].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم:

---

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) الطبري، والترمذي (٣٠٨٥)، وقد أشرت إليه قريبًا، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، من حديث الأعمش.

إن شاء قتل -كما فعل ببني قريظة -وإن شاء فادى بمال -كما فعل بأسرى بدر -أو بمن أسر من المسلمين -كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ في معناه خمسة أقوال:

أحدها: لولا أن الله كتب في أم الكتاب أنه سيحل لكم الغنائم لمسكم فيما تعجلتم من المغانم والفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذاب عظيم، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. وقال أبو هريرة: تعجَّل ناس من المسلمين فأصابوا الغنائم، فنزلت الآية.

والثاني: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب من أتى ذنبا على جهالةٍ لعوقبتم روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، وقال ابن اسحاق: سبق أن لا أعذب إلا بعد النهي ولم يكن نهاهم.

والثالث: لولا ما سبق لأهل بدر أن الله لا يعذبهم، لعُذِّبتم، قاله الحسن، وابن جبير، وابن أبي نجيح، عن مجاهد.

والرابع: لولا كتاب من الله سبق من أنه يغفر لمن عمل الخطايا ثم علم ما عليه فتاب، ذكره الزجاج.

والخامس: لولا القرآن الذي اقتضى غفران الصغائر، لعُذِّبتم، ذكره الماوردي. فيخرج في الكتاب قولان:

أحدهما: أنه كتاب مكتوب حقيقة. ثم فيه قولان: أحدهما: أنه ما كتبه الله

(٢٧٧) أحمر
أسود

في اللوح المحفوظ. والثاني: أنه القرآن.

والثاني: أنه بمعنى القضاء.



إباحة الغنائم لأمة محمد ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – فكلوا يا أهل الإسلام، يا أصحاب رسول الله ﷺ مما غنمتموه يوم بدر، وغيره حلالًا فقد أحللنا لكم الغنائم، كلوه في حال كونه طيبًا مباحًا مستساغًا ليس بحرام ولا بخبيث واتقوا الله بمراعاة حدوده ولزوم شرعه، إن الله غفور لما صدر منكم، وغفور لذنوب كذلك، غفور لعباده يغفر لهم رحيم بهم في عدم إنزاله العذاب عليهم ورحيم بهم في إحلال الغنائم لهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر: ﴿ فَكُلُواْ ﴾، أيها المؤمنون، ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾، من أموال المشركين، ﴿حَلَٰلًا ﴾، بإحلاله لكم، ﴿طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾، يقول: وخافوا الله أن تعودوا، أن تفعلوا في دينكم شيئا بعد هذه من قبل أن يُعْهَد فيه إليكم، كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة، وأخذتموهما من قبل أن يحلا لكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وتأويل الكلام: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾.

ويعني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، لذنوب أهل الإيمان من عباده، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يحلها لأمة قبلها.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكرا لنعم اللّه عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب،.ويغفر لمن لم يشرك به شيئا جميع المعاصي.

﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالا طيبا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٠﴾؟

ج: هذا في أسارى بدر من أهل الشرك الذين أسرهم المسلمون يوم بدر. قال بعضهم لما طُلب منه الفداء، قال: إني كنت مُسلمًا ولكني أكرهت على الخروج معكم، وكان من هؤلاء القائلين بهذا العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ لما أُسر وطُلب منه الفداء قال: إني كنت مُسلمًا، وقد وردت بذلك عدة آثار، وإن كان في أسانيدها مقال، إلا أنها تصح بمجموعها، والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الذي أسرتموهم يوم بدر ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإسلامًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ يؤتكم ويعوِّض عليكم بأفضل مما أُخذ منكم من المال،

ولذا فقد أصبح العباس ﵁ من أهل الثراء بعد ذلك، وفضلًا عن ذلك ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما ارتكبتموه من الكفر والعناد وقتال رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم إذ فتح لكم باب التوبة والإنابة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري ﵀:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي، قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، يقول: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾، من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جُرْمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب عباده إذا تابوا، ﴿رَّحِيمٌ﴾، بهم، أن يعاقبهم عليها بعد التوبة.

وذُكر أن العباس بن عبد المطلب كان يقول فيَّ نزلت هذه الآية.

قلت (مصطفى): وأورد الطبري وابن كثير عدة آثار تدل على أن العباس قال ذلك، وإن كان – كما أسلفت يها مقال – لكنها قد تصح بمجموع طرقها عند بعض أهل العلم.

فقد ذكر الطبري من خمسة وجوه عن ابن عباس ما مفاده أن العباس قال ذلك.

وأورد ابن كثير وجوهًا أُخر تؤيد ذلك.

ومما أورد الطبري قول:

ابن عباس، قال: قال العباس: فيّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبدًا، كلهم

تاجر، مالي في يديه[١].

ومن وجه آخر عند الطبري أيضًا، وفيه مقالٌ:

ابن عباس قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، وكان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله خَصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا: أني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبدًا، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله.

وأورد الطبري بإسناد حسن[٢]: عن قتادة قوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ لما قدم عليه مالُ البحرين ثمانون ألفًا، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ شاكيًا ولا حرم سائلا وما صلى يومئذ حتى فرّقه، وأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي، فأخذ. قال: وكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وكما أسلفت فهنالك وجوه أُخر عن ابن عباس بهذا المعنى.

وأورد ابن كثير بسندٍ فيه مقال عن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلما! فقال رسول الله ﷺ: «**الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنيْ أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر**» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها:

(١) وفي سنده ضعف من وجوه.
(٢) ولكنه مرسل.

إن أصبتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبَني: الفضل، وعبد الله، وقُثم». قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغيرُ أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني: عشرين أوقية من مال كان معي فقال؟ رسول الله ﷺ: «**لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك**». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله، ﷻ فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٠﴾ قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدا، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ.

وأخرج البخاريم معلقًا[1]: قال وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنَ طَهْمَانَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ عَنْ أَنَسٍ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَ: «**انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ**» فَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِي إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا، قَالَ: «**خُذْ**» فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: أْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ، قَالَ: «**لَا**» قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «**لَا**» فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ. فَقَالَ: فَمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ. قَالَ: «**لَا**» قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «**لَا**» فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ، فَمَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقال[2] يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين

(١) البخاري (معلقًا/ ٣٦٥١).
(٢) وانظر الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٩).

ثمانين ألفا، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ. قال: فنثرت على حصير ونودي بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائما على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عددٌ ولا وزنٌ، ما كان إلا قَبْضًا، [قال] وجاء العباس بن عبد المطلب يحثى في خَميصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه -أو: نابه -وقال له: «أعدْ من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول -وهو منطلق -: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ ﴾ الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ مائلا على ذلك المال، حتى ما بقي منه درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول اللّه ﷺ،فلما طلب منه الفداء، ادَّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء،فأنزل اللّه تعالى جبرا لخاطره ومن كان على مثل حاله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾ أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله، خيرا وأكثر مما أخذ منكم.

﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة وقد أنجز اللّه وعده للعباس وغيره، فحصل له – بعد ذلك – من المال شيء كثير،حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم– إن يُرد بعض هؤلاء الذين قالوا: إنا كنا مسلمين بعض أن وقعوا في الأسر، عن يريدوا بهذا القول خيانتك وخداعك، فهذا شأنهم فقد خانوا الله من قبل، فأمكنك الله منهم يوم بدر، وجعلك مُمكنًا من رقابهم تقتلهم وتأسرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بقلوب العباد وبما تنطوي على صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وفي كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم، ﴿خِيَانَتَكَ﴾، أي الغدر بك والمكرَ والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلافَ ما في نفوسهم، ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، يقول: فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر، وأمكن منهم ببدر المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه سواهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ ﴾ أي: بالإسار يوم بدر، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾ أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك. وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرا مما خرج عنهم ويغفر لهم

(٢٨٤) أحمر
أسود

ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم». وجمع خيانة خيائن، وكان يجب أن يقال: خوائن لأنه من ذوات الواو، إلا أنهم فرقوا بينه وبين جمع خائنة. ويقال: خائن وخوان وخونة وخانة.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾ يعني إن أراد الأسراء خيانتك بالكفر بعد الإسلام ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ إذ كفروا به قبل أسرهم وقال ابن زيد فقد خانوا بخروجهم مع المشركين.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾ في السعي لحربك ومنابذتك، ﴿ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل بكفايتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.



النوايا الصالحة سبب في الخير

س: الله سبحانه وتعالى يثبت على ما في القلوب من خير دلِّل على ذلك؟

ج: من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾.

وقوله تعالى في شأن أصحاب النبي ﷺ وما كان من أمرهم يوم الحديبية: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا ..﴾. [الفتح: ١٧، ١٨]

وقوله ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» والحب محله القلب كما هو معلوم إلى غير ذلك من الأدلة.



قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا
لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ
ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ
كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ
ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥ ﴾

[الأنفال: ٧٢-٧٥].

(٢٨٧) أحمر
أسود

شيءٌ من فضائل المهاجرين والأنصار

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم- إن الذين آمنوا بالله ﷻ وصدقوا رسول الله ﷺ فشهدوا الا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ثم هاجروا لإقامة دينهم، ولإعلاء كلمة الله ﷻ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله، وهؤلاء هم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ ﴾ والذين استقبلوا هؤلاء المهاجرين في بلادهم وآووهم إليهم وناصروهم، وقاتلوا معهم لإعلاء كلمة الله، وهم الأنصار، هؤلاء الأنصار، وأولئك المهاجرون بعضهم أولياء بعض، بعض أنصارٌ لبعض، وبعضهم أتباع لبعض وأعوان لبعضهم البعض على أهل الشرك والكفر. هذا قول، وثمَّ قولٌ آخر حاصله أن قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ يرث بعضهم بعضًا دون قراباتهم الذين لم يسلموا، فكان في أولى أمر الهجرة، ولما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كان المهاجري يرث الأنصاري دون ي رحمه وكانوا يتوارثون بالأخوة التي أتى النبي ﷺ بينهم.

إذ آخى بين سلمان وأبي الدرداء على سبيل المثال وكذا بين عبد الرمن بن عوف وسعد بن الربيع وغير هؤلاء ثم إن هذا التوارث نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ إلى أي مدينة رسول الله ﷺ ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ ما عليكم يا أهل الإسلام يا من هاجرتم، وما عليكم معشر الأنصار من نصرة هؤلاء الذين لم يهاجروا حتى يهاجروا، فإن هاجروا فلهم

حق النصرة عليكم، وحق التوارث إذ كان التوارث مشروعًا[١]، أما إذا قاتلوا قومًا وطلبوا منكم نصرتهم، وكان بمقدوركم أن تنصروهم فانصروهم وقاتلوا معهم إلا إذا كان من يحاربهم قومٌ بينكم وبينهم عهود فلا تنقضوا العهود ولا المواثيق، والله بعملكم جميعًا بصير، وعليكم رقيب وشاهد، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿وَهَاجَرُوا﴾، يعني: هجروا قومهم وعشيرتهم ودورهم، يعني: تركوهم وخرجوا عنهم، وهجرهم قومهم وعشيرتهم، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: بالغوا في إتعاب نفوسهم وإنصابها في حرب أعداء الله من الكفار، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: في دين الله الذي جعله طريقا إلى رحمته والنجاة من عذابه، ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾، يقول: والذين آووا رسول الله والمهاجرين معه، يعني: أنهم جعلوا لهم مأوًى يأوون إليه، وهو المثوى والمسكن، يقول: أسكنوهم، وجعلوا لهم من منازلهم مساكنَ إذ أخرجهم قومهم من منازلهم، ﴿وَّنَصَرُوا﴾، يقول: ونصروهم على أعدائهم وأعداء الله من المشركين، ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يقول: هاتان الفرقتان، يعني المهاجرين والأنصار، بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان لبعض دون أقربائهم الكفار.

وقد قيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورَّث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة، دون القرابة والأرحام، وأن الله نسخ ذلك

(١) ثم نسخ التوارث الذي كان بين المهاجرين والأنصار وبقيت النصرة.

بعدُ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، [سورة الأنفال: ٧٥، وسورة الأحزاب: ٦].

وأورد بإسنادٍ فيه مقال عن ابن عباس: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، يعني: في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾، يقول: ما لكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، [سورة الأنفال: ٧٥، وسورة الأحزاب: ٦]، في الميراث، فنسخت التي قلبها، وصار الميراث لذوي الأرحام.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: (والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا)، إلى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ قال: لبث المسلمون زمانا يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجر شيئًا، فنسخ ذلك بعد ذلك، فألحق الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦]، أي: من أهل الشرك، فأجيزت الوصية، ولا ميراث لهم، وصارت المواريث بالملل، والمسلمون يرث بعضهم بعضًا من المهاجرين والمؤمنين، ولا يرث أهل ملتين.

وبإسناد حسن عن السدي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، في الميراث، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾، وهؤلاء الأعراب، ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، في الميراث، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يقول: بأنهم مسلمون، ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، في

الميراث ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ ، ثم نسختها الفرائض والمواريث، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾. الذين توارثوا على الهجرة ، ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ ، فتوارث الأعرابُ والمهاجرون.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. الذين صدقوا بالله ورسوله ، ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ ﴾. قومهم الكفار، ولم يفارقوا دارَ الكفر إلى دار الإسلام ، ﴿مَا لَكُم ﴾، أيها المؤمنون بالله ورسوله. المهاجرون قومَهم المشركين وأرضَ الحرب ، ﴿ مِّن وَلَٰيَتِهِم ﴾، يعني: من نصرتهم وميراثهم.

وقد ذكرت قول بعض من قال: «معنى الولاية، ههنا الميراث»، وسأذكر إن شاء الله من حضرني ذكره بعدُ.

﴿مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ ﴾، قومَهم ودورَهم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ، يقول: إن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا ، ﴿فِي ٱلدِّينِ ﴾ ، يعني: بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين، ﴿فَعَلَيۡكُمُ ﴾، أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار، ﴿ٱلنَّصۡرُ إِلَّا ﴾ أن يستنصروكم ، ﴿ عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ ﴾ ، يعني: عهد قد وثَّق به بعضكم على بعض أن لا يحاربه ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾، يقول: والله بما تعملون فيما أمركم ونهاكم من ولاية بعضكم بعضًا، أيها المهاجرون والأنصار، وترك ولاية من آمن ولم يهاجر ونصرتكم إياهم عند استنصاركم في الدين، وغير ذلك من فرائض الله التي فرضها عليكم ، ﴿بَصِيرٞ ﴾، يراه ويبصره، فلا يخفى عليه من ذلك ولا من غيره شيء.

(٢٩١) أحمر
أسود

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري(١)، عن ابن عباس.

قلت (مصطفى): لفظ البخاري بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ «وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ» قَالَ: كَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْأَنْصَارِيُّ الْمُهَاجِرِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قَالَ: نَسَخَتْهَا ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ الآية. [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ

(١) البخاري (٦٧٤٧).

وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك.

وقال:

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم ﴾ [قرأ حمزة: «ولايتهم» بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدِّلالة والدَّلالة] ﴿ مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

ووأورد ما أخرجه مسلم[(١)] من حديث بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرا على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال -أو: خلال- فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي

(١) أحمد (٥/ ٣٥٢)، ومسلم (١٧٣١).

يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ ﴾ يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ ﴾ أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به. وقد تقدم معنى الهجرة والجهاد لغة ومعنى. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ معطوف عليه. وهم الأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، وانضوى إليهم النبي ﷺ والمهاجرون. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ رفع بالابتداء. ﴿بَعۡضُهُمۡ ﴾ ابتداء ثان ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ خبره، والجميع خبر ﴿ إِنَّ ﴾. قال ابن عباس: ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في الميراث، فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر فنسخ الله ذلك بقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ الآية. أخرجه أبو داود. وصار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين. ولا يتوارث أهل ملتين شيئا. ثم جاء قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها**» على ما تقدم بيانه في آية المواريث. وقيل: ليس هنا نسخ، وإنما معناه في النصرة والمعونة، كما تقدم في «النساء». ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ابتداء والخبر ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ ﴾ وقرأ يحيى

بن وثاب والأعمش وحمزة ﴿من وِلايتهم﴾ بكسر الواو. وقيل هي لغة. وقيل: هي من وليت الشيء، يقال: ولي بين الولاية. ووال بين الولاية. والفتح في هذا أبين وأحسن، لأنه بمعنى النصرة والنسب. وقد تطلق الولاية والولاية بمعنى الإمارة.

وقال: قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم. إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليه، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته. ابن العربي: إلا أن يكونوا أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم. كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد. الزجاج: ويجوز ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ بالنصب على الإغراء.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا عقد موالاة ومحبة، عقدها اللّه بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل اللّه، وتركوا أوطانهم للّه لأجل الجهاد في سبيل اللّه،وبين الأنصار الذين آووا رسول اللّه ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم،فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ ﴾ فإنهم قطعوا

ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال،فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء.لكنهم ﴿ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ ﴾ والقتال معهم،وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ ﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ يعني الأنصار آووا رسول الله وأسكنوا المهاجرين ديارهم ونصروهم على أعدائهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: في النصرة. والثاني: في الميراث.

قال المفسرون: كانوا يتوارثون بالهجرة وكان المؤمن الذي لم يهاجر لا يرث قريبه المهاجر وهو معنى قوله ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – وأهل الكفر والشرك والجحود لوحدانية الله ﷻ بعضهم أولياء بعض، قيل: بعضهم أعوان لبعض وقيل: بعضهم يرث بعضًا.

أي: أن الولاية فيها قولان:

أحدهما: أنها في التناصر (بعضهم ينصر بعضًا).

والثاني: أنها في التوارث بعضهم يرث بعضًا.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ فهو عائد أيضًا على عموم ما ذكر، وليس فقط ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ...﴾ إنما عائدٌ على ذلك وعلى ما قبله.

أن أهل الإيمان بعضهم يناصر بعضًا وبعضهم عونًا لبعض، وكذا فاعلموا أن أهل الكفر بعضهم يناصر بعضًا وبعضهم يعادون بعضًا إلا تفقهوا هذا يا أهل الإيمان، وإن لم تتناصروا مع المؤمنين وإن لم تفقهوا أن أهل الكفرينافق بعضهم بعضًا فستكن فتنة في الأرض.

نعم ستكون فتنة في الأرض إذا لم يوالي المؤمنون بعضهم بعضًا وسيكون الشر والفساد إذا لم يناصر بعضهم بعضًا.

وكذلك ستكون الفتنة والفصاد في الأرض إذا لم نتحيز عن الشرك وأهله ونعلم أن أهل الكفر ينافق بعضهم بعضًا، سنخدع ونخدع أنفسنا بجهلنا بهذا، وحينئذٍ سنفضي بأسرارنا إلى أهل الشرك وسنواليهم وستفضي تلك الموالاة لهم إلى الفتنة (التي فيها انصراف المسلمين عن دينهم) وستفضي أيضًا إلى الفساد الكبير في الأرض بالتمكين للمشركين.

هذا، والذي قالوا إن المراد التوارث قالوا: إلا تتركوا الكفار يرث بعضهم بعضًا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير والله أعلم.

وهذه بعض أقوال العلماء فيما ذُكر، وبالله التوفيق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بالله ورسوله، ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾، يقول: بعضهم أعوان بعض وأنصاره، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله.

وقد ذكرنا قول من قال: «عنى بذلك أن بعضهم أحق بميراث بعض من قرابتهم من المؤمنين».

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، قال: كان المؤمن المهاجر والمؤمن الذي ليس بمهاجر، لا يتوارثان وإن كانا أخوين مؤمنين. قال: وذلك لأن هذا الدين كان بهذا البلد قليلا حتى كان يوم الفتح، فلما كان يوم الفتح، وانقطعت الهجرة توارثوا حيثما كانوا بالأرحام. وقال النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»، وقرأ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾.

وأورد أثرًا عن قتادة بذلك.

ثم قال:

وأما قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: إلا تفعلوا، أيها المؤمنون، ما أمرتم به من موارثة المهاجرين منكم بعضهم من بعض بالهجرة، والأنصار بالإيمان، دون أقربائهم من أعراب المسلمين ودون الكفار، ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ﴾، يقول: يحدث بلاء في الأرض بسبب ذلك، ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، يعني: ومعاصٍ لله.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾، إلا تفعلوا هذا، تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون، ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾. قال: ولم يكن رسول الله ﷺ يقبل الإيمان إلا بالهجرة، ولا يجعلونهم منهم إلا بالهجرة.

قال الطبري:

وقال آخرون: معنى ذلك: إلا تَناصروا، أيها المؤمنون، في الدين، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

ثم قال الطبري:

وأولى التأويلين بتأويل قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾، قول من قال: معناه: أن بعضهم أنصار بعض دون المؤمنين، وأنه دلالة على تحريم الله على المؤمن المقامَ في دار الحرب وترك الهجرة، لأن المعروف في كلام العرب من معنى «الوليّ»، أنه النصير والمعين، أو: ابن العم والنسيب. فأما الوارث فغير معروف ذلك من معانيه، إلا بمعنى أنه يليه في القيام بإرثه من بعده. وذلك معنى بعيد، وإن كان قد يحتمله الكلام. وتوجيه معنى كلام الله إلى الأظهر الأشهر، أولى من توجيهه إلى خلاف ذلك.

وإذ كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ أن أولى التأويلين بقوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾، تأويلُ من قال: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين، تكن فتنة في الأرض، إذْ كان مبتدأ الآية من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. بالحث على الموالاة على الدين والتناصر جاء، فكذلك الواجب أن يكون خاتمتها به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

وقوله: ﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ ﴾ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين. ﴿ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما

لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم. قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم: لا يزوجها، إذ لا ولاية بينهما، ويزوجها أهل ملتها. فكما لا يزوج المسلمة إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوجها إلا كافر قريب لها، أو أسقف، ولو من مسلم، إلا أن تكون معتقة، فإن عقد على غير المعتقة فسخ إن كان لمسلم، ولا يعرض للنصراني. وقال أصبغ: لا يفسخ، عقد المسلم أولى وأفضل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها. المعنى: إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون، قاله ابن زيد. وقيل: هي عائدة على التناصر والمؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي. ابن جريج وغيره: وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب، فهو أكد من الأول.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: في الميراث قاله ابن عباس.

والثاني: في النصرة قاله قتادة.

وفي قوله ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ قولان:

أحدهما: أنه يرجع إلى الميراث فالمعنى إلا تأخذوا في الميراث بما

أمرتكم قاله ابن عباس.

والثاني: أنه يرجع إلى التناصر فالمعنى إلا تعاونوا وتتناصروا في الدين قاله ابن جريج. وبيانه: أنه إذا لم يتولَّ المؤمن المؤمن توليًا حقًّا، ويتبرأ من الكافر جدًّا، أدَّى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين. فإذا هجر المسلم أقاربه الكفار، ونصر المسلمين، كان ذلك أدعى لأقاربه الكفار إلى الإسلام وترك الشرك.



س:ما مدى صحة هذا الحديث: (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم)؟

ج: الحديث ثابت في الصحيحين[1] من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ.



تضعيف حديث:
«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»

س: ما مدى صحة هذا الحديث: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»؟

ج: هذا حديث معلول ضعيف على الراجح لديَّ ثم إن فتنة متعقبٌ كذلك[2].



(١) البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).
(٢) وقد أوضحت ذلك بما فيه كفاية بحمد الله في كتابي جامع أحكام النساء.

حديث:
أنا بريء من المسلم يعيش بين ظهراني المشركين

س: ما مدى صحة هذا الحديث وما معناه: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يَعِيشُ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُشْرِكِينَ»[1]؟

ج: أما عن معناه – والله أعلم – فالمراد به أنا غير مسؤول عن أي شيء يحدث للمسلم الذي أثر ترك الهجرة فلم يهاجر وعاش بين المشركين، فإذا أصابه شيء فلست بمسؤول عنه، كما في الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

أما عن صحة الحديث ففي سنده بعض المقال.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾.

ج: هذه بشريات لأهل الإيمان من المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله، وللأنصار، وثناءٌ عليهم، فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ وهم المهاجرون إلى مدينة رسول الله ﷺ لنصرته ولنصرة دينه ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ هؤلاء المهاجرين وأسكنوهم وأكرموا منازلهم ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ الدين ونصروا رسول الله ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ حق الإيمان، فقد حققوا القلو بالعمل، واتبعوا النوايا الصالحة والإيمان الصادق بعمل صالحمع قولٍ صالح، فكانوا جديرين بأن يوصفوا بأنهم المؤمنون حقًّا، ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ وهو الجنة جعلنا الله من أهلها.

---

(١) أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) وغيرهما.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ ﴾، آوَوْا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم، ونصروا دين الله، أولئك هم أهل الإيمان بالله ورسوله حقًّا، لا من آمن ولم يهاجر دارَ الشرك، وأقام بين أظهر أهل الشرك، ولم يغزُ مع المسلمين عدوهم ، ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، يقول: لهم ستر من الله على ذنوبهم، بعفوه لهم عنها ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، يقول: لهم في الجنة مطعم ومشرب هنيٌّ كريم، لا يتغير في أجوافهم فيصير نجْوًا، ولكنه يصير رشحًا كرشح المسك

وهذه الآية تنبئ عن صحة ما قلنا: أن معنى قول الله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، إنما هو النصرة والمعونة، دون الميراث. لأنه جل ثناؤه عقّب ذلك بالثناء على المهاجرين والأنصار والخبر عما لهم عنده، دون من لم يهاجر بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ ﴾، الآية، ولو كان مرادًا بالآيات قبل ذلك، الدلالةُ على حكم ميراثهم، لم يكن عَقِيبَ ذلك إلا الحثّ على إمضاء الميراث على ما أمر. وفي صحة ذلك كذلك، الدليلُ الواضح على أن لا ناسخ في هذه الآيات لشيء، ولا منسوخ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يسأم ولا يمل

لحسنه وتنوعه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من اللّه تمحى بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، ﴿وَ﴾ لهم ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – والذين آمنوا وهاجروا من بعد المهاجرين الأولين، وجاهدوا معكم فأولئك منكم يا أهل الإيمان.

وقيل: هاجروا من بعد صلح الحديبية.

فأولئك منكم يا أهل الإيمان.

وقيل: في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: من بعد ما بينته لكم يا أهل الإيمان من حكم موالاة المؤمنين لبعضهم وحكم موالاة الكافرين لبعضهم، وخطر الإقامة في دين الشرك.

(٣٠٤) أحمر
أسود

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، بالله ورسوله، من بعد تبياني ما بيَّنت من ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضًا، وانقطاع ولايتهم ممن آمن ولم يهاجر حتى يهاجر، ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾، دارَ الكفر إلى دار الإسلام، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ﴾، أيها المؤمنون، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾، في الولاية، يجب عليكم لهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة، مثل الذي يجب لكم عليهم، ولبعضكم على بعض، كما:-

حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثم ردّ المواريث إلى الأرحام ممن أسلم بعد الولاية من المهاجرين والأنصار دونهم، إلى الأرحام التي بينهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ ﴾، أي: بالميراث، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ ﴾ يريد من بعد الحديبية وبيعة الرضوان. وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الأولى. والهجرة الثانية هي التي وقع فيها الصالح، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة. ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا هجرة بعد الفتح**». فبين أن من آمن وهاجر من بعد يلتحق بهم. ومعنى ﴿مِنكُمْ﴾ أي مثلكم في النصر والموالاة.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ سبب نزول؟

ج: أخرج الطيالسي من طريق[1] سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

وفي رواية سماك عن عكرمة مقال، لكن أخرج الطبري بسند صحيح عن عيسى بن الحارث: أن أخاه شريح بن الحارث كانت له سُرِّيَّة، فولدت منه جارية، فلما شبت الجارية زُوِّجت، فولدت غلامًا، ثم ماتت السرِّية، واختصم شريح بن الحارث والغلام إلى شريح القاضي في ميراثها، فجعل شريح بن الحارث يقول: ليس له ميراث في كتاب الله! قال: فقضى شريح بالميراث للغلام. قال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فركب ميسرة بن يزيد إلى ابن الزبير، فأخبره بقضاء شريح وقوله، فكتب ابن الزبير إلى شريح: «إن ميسرة أخبرني أنك قضيت بكذا وكذا»، وقلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وإنه ليس كذلك، إنما نزلت هذه الآية: أنّ الرجل كان يعاقد الرجل يقول: «ترثني وأرثك»، فنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. فجاء بالكتاب إلى شريح، فقال شريح: أعتقها حيتان بطنها! وأبى أن يرجع عن قضائه.

فحسَّن بعض أهل العلم سبب النزول بالطريقين المتقدمين، فالله أعلم.



(١) الطيالسي (٢/ ١٩).

س: من الذين عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾؟

ج: من العلماء من قال إن المراد بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ أن أولي الأرحام هنا هم الذين ذكرهم الله ﷻ في آيات المواريث.

قالوا هؤلاء الذين ذُكروا في آيات المواريث يأخذون أنصبتهم دون غيرهم من الذين كان النبي ﷺ آخى بينهم، أي: أن النبي ﷺ كان قد آخى بين المهاجري والأنصاري فكان المهاجري يرث الأنصاري، والأنصاري يرث المهاجري دون ذوي رحمه، فأنزل الله آية المواريث فنسخت آيةُ المواريث التوارث بالتآخي[١] الذي كان بين المهاجري والأنصاري.

قالوا: فعليه إذا مات المهاجري فالذين يرثونه هم من ذكرهم الله في كتابه الكريم ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ...﴾ إلى غير ذلك من آيات المواريث فيُعطى كل من له نصيب نصيبه، والباقي يرجع لبيت مال المسلمين.

وقال آخرون من أهل العلم: إن المراد بذوي الأرحام العصبات خاصة، والمراد قرابة الأب دون قرابة الأم.

قلت: وليعلم أن النبي ﷺ قال: «**أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**».

وقال فريق ثالث من أهل العلم: إن الآية على عمومها فأوجبوا الميراث لذوي الأرحام إذا لم يوجد وارث بفرض أو تعصيب.

وهناك بعض الاختلافات الأُخر في كيفية توريثهم.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

(١) أي: ما يختص بالتآخي بين المهاجري والأنصاري من الميراث.

لم يعين تعالى في هذه الآية الكريمة المراد بأولي الأرحام. واختلف العلماء في هذه الآية، هل جاء في القرآن ما يبين المراد منها أو لا. فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنها بينتها آيات المواريث. كما قدمنا نظيره في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

قالوا: فلا إرث لأحد من أولي الأرحام غير من عينت لهم حقوقهم في آيات المواريث. وممن قال بهذا زيد بن ثابت، ومالك، والشافعي، والأوزاعي، وأبو ثور، وداود، وابن جرير وغيرهم. وقالوا: الباقي عن نصيب الورثة المنصوص على إرثهم لبيت مال المسلمين، واستدلوا بقوله ﷺ « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

وخرَّج الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث ثم قال:

وقد قال بعض أهل هذا القول: المراد بذوي الأرحام العصبة خاصة، قالوا: ومنه قول العرب وصلتك رحم، يعنون قرابة الأب دون قرابة الأم، ومنه قول قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث:

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

فأطلقت الأرحم على قرابة بني أبيه، والأظهر على القول بعدم التوريث، أن المراد بذوي الأرحام القرباء، الذين بينت حقوقهم بالنص مطلقًا.

وأورد بعض الأحاديث الضعيفة ثم قال:

وقال جماعة من أهل العلم: لا بيان للآية من القرآن، بل هي باقية على عمومها، فأوجبوا الميراث لذوي الأرحام.

وضابطهم: أنهم الأقارب الذين لا فرض لهم ولا تعصيب.

وهم أحد عشر حيزًا:

١- أولاد البنات. ٢- وأولاد الأخوات.
٣- وبنات الإخوة. ٤- وأولاد الأخوة من الأم.
٥- والعمات من جميع الجهات. ٦- والعم من الأم.
٧- والأخوال. ٨- والخالات.
٩- وبنات الأعمام. ١٠- والجد أبو الأم.
١١- وكل جدة أدلت بأب بين أمين، أو بأب أعلى من الجد.

فهؤلاء، ومن أدلى لهم يسمون ذوي الأرحام.

وممن قال بتوريثهم. إذا لم يوجد وارث بفرض أو تعصيب - إلا الزوج والزوجة - الإمام أحمد.

قلت: وذكره الشنقيطي عن عددٍ من أهل العلم وأورد له بعض الاستدلالات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ابتداء. والواحد ذو، والرحم مؤنثة، والجمع أرحام. والمراد بها ههنا العصبات دون المولود بالرحم. ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب: وصلتك رحم. لا يريدون قرابة الأم.

ثم قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

واختلف السلف ومن بعدهم في توريث ذوي الأرحام - وهو من لا سهم له في الكتاب - من قرابة الميت وليس بعصبة، كأولاد البنات، وأولاد الأخوات وبنات الأخ، والعمة والخالة، والعم أخ الأب للأم، والجد أبي الأم، والجدة أم الأم، ومن أدلى بهم. فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام.

وأورد القرطبي أقوالًا أُخر.

قلت: ومحل بسط الخلاف في هذه المسألة أبواب الفقه والفرائض وبالله التوفيق، أما عن تفسير الآية إجمالًا فانظر السؤال الآتي والإجابة عليه.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وأولوا الأرحام الذين قد بُيِّنت أنصبتهم في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسول الله ﷺ وقامت على توريثه الأدلة، هؤلاء أولى بالميراث من المهاجرين والأنصار، بمعنى أن ورثة المهاجري المذكورون في الكتاب والسنة والذين قامت الأدلة على توريثهم أولى بالميراث من الأنصاري الذي كان يرث المهاجري بالمؤاخاة التي آخى بينهم رسول الله ﷺ، وكذا ورثة الأنصاري أولى به من المهاجري، فعليه فنسخ التوارث الذي كان بين المهاجري والأنصاري وبقي التناصر، وبقي التوادد.

أما قوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾ فقيل في معناه: في حكم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، الذيع ند الله، وقيل: بل في القرآن، إذ قد بين الله كلٍّ، أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ نعم عليمٌ ربي بكل شيء، وبالذي ينفع عباده ولذا شرع لهم ما شرع من الأحكام والمواريث التي تنفعهم فلا اعتراض على ما شرع فهو يعلم من خلق ويشرع لهم ما يريد، والله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والمتناسبون بالأرحام، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، في الميراث، إذا كانوا ممن قسم الله له منه نصيبًا وحظًّا، من الحليف والولي، ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾، يقول: في حكم الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من

القضاء ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾، يقول: إن الله عالم بما يصلح عباده، في توريثه بعضهم من بعض في القرابة والنسب، دون الحلف بالعقد، وبغير ذلك من الأمور كلها، لا يخفى عليه شيء منها.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل اللّه. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم .

فهذه الموالاة الإيمانية – وقد كانت في أول الإسلام – لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل اللّه ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض،فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة،وقوله: ﴿ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: في حكمه وشرعه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدْلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن،

وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أو لا وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصِيَّة لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي في المواريث بالهجرة. قال ابن عباس: آخى رسول النبي الله ﷺ بين أصحابه وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الآية فتوارثوا بالنسب.

قوله تعالى ﴿ في كتاب الله ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اللوح المحفوظ.

والثاني: أنه القرآن وقد بين لهم قسمة الميراث في سورة النساء.

والثالث: أنه حكم الله ذكره الزجاج.



(٣١٢) أحمر
أسود

تفسير سورة التوبة

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾
وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم
مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟
ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ
مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

[التوبة: ١-٦].

(٣١٤) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿بَرَآءَةٌ – عَـٰهَدتُّم – فَسِيحُواْ – غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ – مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ – وَأَذَٰنٌ – يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ – بَرِىٓءٌ – تُبْتُمْ – تَوَلَّيْتُمْ – يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ – ٱنسَلَخَ – ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ – وَٱحْصُرُوهُمْ – كُلَّ مَرْصَدٍ – فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ – ٱسْتَجَارَكَ – أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بَرَآءَةٌ﴾	تبرؤ من العهود والمواثيق السابقة – تبرؤ مما سيحدث لهم
﴿عَـٰهَدتُّم﴾	كانت بينكم وبينهم عهود ومواثيق
﴿فَسِيحُواْ﴾	سيروا آمنين مطمئنين مقبلين ومدبرين
﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾	غير فائتين من الله وعقابه – لن تعجزوا ربكم
﴿مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾	مذلٌ ومهين
(وَأَذَٰنٌ)	إعلامٌ وإخبارٌ
(يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ)	يوم النحر، وقيل: يوم عرفة
(بَرِىٓءٌ)	متبرؤ
(تُبْتُمْ)	رجعتم عن الشرك إلى الإسلام والتوحيد
(تَوَلَّيْتُمْ)	أعرضتم عن الإيمان
(يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ)	يعاونوا عليكم أحدًا
(ٱنسَلَخَ)	مضت – انقضت – انتهت

(٣١٥) أحمر
أسود

(ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ)	قيل: إنها الأشهر الحرم الأربعة (ذو القعدة وذو الحجة وشهر الله المحرم ورجب) ولكن انسلاخها يكون بانتهاء شهر الله المحرم وقيل: إنها أشهر الأمان التي قال الله فيها لأهل الشرك ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ أي: من بداية التأذين ببراءة يوم النحر ولمدة أربعة اشهر
(كُلَّ مَرۡصَدٖۚ)	كل مكان ترصدونهم وترقبونهم فيه
(فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ)	فاتركوهم ولا تعترضوهم بسوء
(ٱسۡتَجَارَكَ)	طلب منك أن تجعله في جوارك استأمنك على نفسه طلب منك الأمان كي يسمع القرآن ويتعرف على معانيه
(أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ)	وصلّه إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه



بعض أسماء سورة براءة

س: اذكر بعض أسماء هذه السورة المباركة؟

ج: من أشهر أسمائها، التوبة، وبراءة وهذا كثيرًا ما يحدث في عددٍ من السور تتسمى السورة باسم، وتتسمى أيضًا بمطلعها كسورة السجدة، ويطلق عليها آلم تنزيل، وسورة البينة ويطلق عليها لم يكن، وسورة النبأ، ويطلق عليها (عم) إلى غير ذلك.

ثم إن العلماء ذكروا لهذه السورة أسماء أخر.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

ولها تسعة أسماء: أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة وهذان مشهوران بين الناس. والثالث: سورة العذاب. قاله حذيفة. والرابع: المقشقشة. قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين. قاله المقداد بن الأسود. والسادس: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين. قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة؛ لأنها بعثرت أخبار الناس وكشفت عن سرائرهم. قاله الحاث بن يزيد وابن إسحاق. والثامن: المثيرة؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم. قاله قتادة. والتاسع: الحافرة؛ لأنها حفرت عن قلوب المنافقين. قاله الزجاج.



س: لماذا لم تثبت السملة (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول هذه السورة كما أثبتت في غيرها؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن جبريل عليه السلام لم ينزل بها في هذه السورة.

قال القرطبي رحمه الله بعد أن أورد وجوهًا:... والصحيح أن التسمية لم

تكتب لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ما نزل بها في هذه السورة.

الثاني: وهو راجع في معناه إلى الأول في الجملة أن قصتها شبيهةٌ بقصة سورة الأنفال فاختلفوا هل هما سورة واحدة أم سورتان فميزوا بينهما لقول من قال إنهما سورتان، وحذفوا البسملة لقول من قال إنهما سورة واحدة.

وقد ورد بهذا حديث أخرجه الترمذي وغيره[١] في سنده ضعف من طريق يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتموها في السبع الطّوّل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيءُ دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذْكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحَسبْتُ أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فوضعتها في السبع الطول.

القول الثالث: (من أسباب سقوط البسملة):

أن العرب كان من شأنهم في الجاهلية أنهم إذا كان بينهم وبين قوم عهدٌ فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابًا ولم يكتبوا فيه بسملةٌ، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي والمشركين بعث بها النبي ﷺ علي بن أبي

---

(١) الترمذي (٣٠٨٦)، وأحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود (٧٨٦)...وغيرهم، ويزيد الفارسي ضعيف.

طالب رضي الله عنه فقرأها عليهم في الموسم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة.

القول الرابع: أن البسملة سقطت لما في السورة من تهديد ووعيد وبيانٌ لفضائح أهل الشرك ومخازيهم[١].

الخامس: أن أول سورة براءة نسخ تلاوة فنسخت معه البسملة.

السادس: لكون أهل الشرك ردوا البسملة في صلح الحديبية، فلم تكرر هاهنا. وهنالك أقوال أُخر في هذا الصدد.



براءة آخر من نزل من القرآن

س: هل ورد أن سورة براءة آخر ما نزل من السور؟

ج: نعم قد ورد ما يفيد ذلك أخرج البخاري في صحيحه[٢] بسنده إلى ابي إسحاق؛ قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾، وآخر سورة نزلت براءة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ  ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – هذه براءةٌ من الله ورسوله، أي: تبرؤ من العهود

---

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: لِمَ لَمْ تكتبوا في براءة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: يا بني إن براءة نزلت بالسيف وإن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمان. وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال: لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين.

(٢) البخاري (٤٦٥٤، ٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

التي عاهد رسول الله ﷺ المشركين عليها، فهي إخبارٌ بأن العهود التي عاهد رسول الله ﷺ عليها أهل الشرك منقوضةٌ.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ المراد: الذين عاهدهم رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ هو الذي كان يُبرم العقود والعهود مع أهل الشرك.

والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، هذه براءة من الله ورسوله.

فـ«براءة»، مرفوعة بمحذوف، وهو «هذه»، كما قوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾، [سورة النور: ١]، مرفوعة بمحذوف هو «هذه».

وأورد قولًا آخر ثم علل اختياره الذي ذكره بقوله:

لأن من شأن العرب أن يضمروا لكلِّ معاين نكرةً كان أو معرفةً ذلك المعاين، «هذا» و«هذه»، فيقولون عند معاينتهم الشيء الحسنَ: «حسن والله»، والقبيحَ: «قبيح والله»، يريدون: هذا حسن والله، وهذا قبيح والله، فلذلك اخترت القول الأول.

وقال: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾، والمعنى: إلى الذين عاهد رسول الله ﷺ من المشركين، لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله ﷺ، لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله ﷺ أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقودَ النبي ﷺ على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلِّمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم، فلذلك قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لما كان من عقد رسول الله ﷺ وعهده.

(٣٢٠) أحمر
أسود

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني إلى الذين عاهدهم رسول الله ﷺ لأنه كان المتولي للعقود وأصحابه بذلك كلهم راضون فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنسب العقد إليهم. وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوب إليهم محسوب عليهم يؤاخذون به إذ لا يمكن غير ذلك فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذر فإذا عقد الإمام لما يراه من المصلحة أمرا لزم جميع الرعايا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: هذه براءة من اللّه ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم، ولا ميثاق.

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر، فإن الله يتعين أن يتمم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قال المفسرون والبراءة هاهنا قطع الموالاة، وارتفاع العصمة وزوال الأمان والخطاب في قوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ والمراد رسول الله ﷺ لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة وأصحابه راضون فكأنهم بالرضا عاهدوا أيضا وهذا عام في كل من عاهد رسول الله ﷺ.



س: وضح ما قد يبدو للبعض أن به تعارض أو أن بينه اختلاف، وذلك من قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

فالأُولى أَقَرَّ المشركين فيها أربعة أشهر.

والثانية: أنه يتم إليهم العهد إلى مدته.

والثالثة: أمدها انقضاء الأشهر الحرم فكيف التوفيق؟

ج: للإجابة على هذا وإيضاحه أقول مستعينًا بالله ﷻ:

إن أهل الشرك كانوا من رسول الله ﷺ على أقسام:

* قسمٌ منهم عاهده النبي ﷺ عهودًا توفى للنبي ﷺ بهذه العهود ولم يغدر ولم تظهر منه بوادر الخيانة ولا الغدر، ولم يعاون أحدًا على رسول الله ﷺ، فهذا القسم يفي لهم رسول الله ﷺ بعهدهم وإن كان أمد العهد طويلًا، وهؤلاء، والله أعلم هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

فأمر النبي ﷺ أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

** وقسم ثان لم يعاهده النبي ﷺ أية عهود ولم يعقد معه أية عقو ولم يلتزم لهم بأية التزامات، فهؤلاء أُجِّلوا إلى انقضاء الأشهر الحرم التي نهايتها انتهاء شهر الله المحرم.

قال بعض العلماء: وهم الذين عناهم الله بقوله فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم.

*** وقسم ثالث عاهدهم النبي ﷺ عهودًا لكن أمدها أقل من أربعة أشهر أي: إن وقت الهدنة ينتهي قبل أربعة أشهر فهؤلاء وقت انقضاء العهد معهم فيه قولان:

أحدهما: أن وقت انقضاء عهدهم هو المنصوص عليه في الاتفاقيات، إلا إذا كان الانقضاء في الأشهر الحرم فينتظر بهم إلى انقضاء الأشهر الحرم.

والثاني: أن وقت انقضاء عهدهم يمتد إلى أربعة أشهر، لقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾.

**** أما القسم الرابع من أقسام المشركين فهم قوم من أهل الشرك كان بينهم وبين رسول الله ﷺ معاهدات أمدها ينتهي بعد أربعة أشهر، ولكنهم ظهرت منهم بوادر الخيانة والغدر وظاهروا (أي عاونوا) المشركين على رسول الله ﷺ وسعوا في نقض العهد فهؤلاء يُمهلوا أربعة أشهرٍ كحد أقصى وبعد ذلك يقاتلوا.

ولعل هؤلاء يدخلون في المشار إليهم بقول تعالى في سورة الأنفال، وإما تخافن لله قومٍ خيانةٍ فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

هذا الذي يتراءى لي في هذه الآيات الكريمات المباركات، والله أعلم بالصواب من تأويل كتابه العزيز.

وها هي أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

وقد اختلف أهل التأويل فيمن بَرِئَ الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين، فأذن له في السياحة في الأرض أربعة أشهر.

فقال بعضهم: هم صنفان من المشركين: أحدهما كانت مدة العهد بينه وبين رسول الله ﷺ أقلَّ من أربعة أشهر، وأمْهِل بالسياحة أربعة أشهر =

والآخر منهما: كانت مدة عهده بغير أجل محدود، فقُصِر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يقتل حيثما أدرك ويؤسَرُ، إلا أن يتوب.

وقال آخرون: بل كان إمهالُ الله ﷻ بسياحة أربعة أشهر، مَنْ كان من المشركين بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فأما من لم يكن له من رسول الله عهد، فإنما كان أجله خمسين ليلة، وذلك عشرون من ذي الحجة والمحرم كله. قالوا: وإنما كان ذلك كذلك، لأن أجَل الذين لا عهد لهم كان إلى انسلاخ الأشهر الحرم، كما قال الله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾، الآية [سورة التوبة: ٥]. قالوا: والنداء ببراءة، كان يوم الحج الأكبر، وذلك يوم النحر في قول قوم، وفي قول آخرين يوم عرفة، وذلك خمسون يوما. قالوا: وأما تأجيل الأشهر الأربعة، فإنما كان لأهل العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ من يوم نزلت «براءة». قالوا: ونزلت في أول شوّال، فكان انقضاء مدة أجلهم، انسلاخ الأشهر الحرم. وقد كان بعض من يقول هذه المقالة يقول: ابتداء التأجيل كان للفريقين واحدًا -أعني الذي له العهد، والذي لا عهد له- غير أن أجل الذي كان له عهد كان أربعة أشهر، والذي لا عهد له انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك انقضاء المحرم.

وقال آخرون: كان ابتداء تأخير المشركين أربعة أشهر وانقضاء ذلك لجميعهم، وقتًا واحدًا. قالوا: وكان ابتداؤه يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه انقضاء عشر من ربيع الآخر.

وقال آخرون ممن قال: «ابتداء الأجل لجميع المشركين وانقضاؤه كان واحدًا». كان ابتداؤه يوم نزلت «براءة»، وانقضاء الأشهر الحرم، وذلك انقضاء المحرم.

وأورد الطبري آثارًا لكل قول، وإن كانت هذه الآثار لا تخلو أسانيدها من مقال.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: الأجلُ الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾، إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾، [سورة التوبة: ٤]

فإن ظنّ ظانٌّ أن قول الله تعالى ذكره: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، [سورة التوبة: ٥]، يدلُّ على خلاف ما قلنا في ذلك، إذ كان ذلك ينبئ على أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم، قتْلَ كل مشرك، فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التي تتلو ذلك تبين عن صحة ما قلنا، وفسادِ ما ظنه من ظنّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك، كان له عهد من رسول الله ﷺ، أو لم يكن له منه عهد، وذلك قوله: ﴿ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾، [سورة التوبة: ٧]، فهؤلاء مشركون، وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم، ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم، وترك مظاهرة عدوهم عليهم.

وبعدُ، ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ﷺ: أنه حين بعث عليًّا رحمة الله عليه ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم، أمره فيما أمره أن ينادي به

فيهم: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته»، أوضحُ الدليل على صحة ما قلنا. وذلك أن الله لم يأمر نبيه ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل، أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود. فأما من كان أجل عهده محدودًا، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا فإن رسول الله ﷺ كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورًا. وبذلك بعث مناديه ينادي به في أهل الموسم من العرب.

ثم أورد جملة من الأحاديث والآثار الأُخر منها الصحيح، ومنها الضعيف ثم قال:

فقد أنبأت هذه الأخبار ونظائرها عن صحة ما قلنا، وأن أجل الأشهر الأربعة إنما كان لمن وصفنا. فأما من كان عهده إلى مدة معلومة، فلم يجعل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين لنَقْضِه ومظاهرة أعدائهم عليهم سبيلا فإن رسول الله ﷺ قد وَفَى له بعهده إلى مدته، عن أمر الله إياه بذلك. وعلى ذلك دلّ ظاهرُ التنزيل، وتظاهرت به الأخبار عن الرسول ﷺ.

وأما الأشهر الأربعة، فإنها كانت أجلَ من ذكرنا. وكان ابتداؤها يوم الحج الأكبر، وانقضاؤها انقضاء عشر من ربيع الآخر، فذلك أربعة أشهر متتابعة، جُعِل لأهل العهد الذين وصفنا أمرهم، فيها، السياحةُ في الأرض، يذهبون حيث شاؤوا، لا يعرض لهم فيها من المسلمين أحدٌ بحرب ولا قتل ولا سلب.

فإن قال قائل: فإذا كان الأمر في ذلك كما وصفت، فما وجه قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾، [سورة التوبة: ٥]. وقد علمت أن انسلاخها انسلاخ المحرّم، وقد زعمت أن تأجيل القوم من الله ومن رسوله

(٣٢٦) أحمر
أسود

كان أربعة أشهر، وإنما بين يوم الحجّ الأكبر وانسلاخ الأشهر الحرم خمسون يومًا أكثرُه، فأين الخمسون يومًا من الأشهر الأربعة؟

قيل: إن انسلاخَ الأشهر الحرم، إنما كان أجل من لا عهد له من المشركين من رسول الله ﷺ، والأشهر الأربعة لمن له عهد، إما إلى أجل غير محدود، وإما إلى أجل محدود قد نقضه، فصار بنقضه إياه بمعنى من خِيف خيانته، فاستحقّ النبذ إليه على سواء، غير أنه جُعل له الاستعداد لنفسه والارتياد لها من الأجل الأربعة الأشهر. ألا ترى الله يقول لأصحاب الأشهر الأربعة، ويصفهم بأنهم أهل عهد: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾، ووصف المجعول لهم انسلاخ الأشهر الحرم أجلا بأنهم أهل شرك لا أهل عهد فقال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية؟ ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فأمر بقتل المشركين الذين لا عهد لهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وبإتمام عهد الذين لهم عهد. إذا لم يكونوا نقضوا عهدهم بالمظاهرة على المؤمنين، وإدخال النقص فيه عليهم.

فإن قال قائل: وما الدليل على أن ابتداء التأجيل كان يوم الحج الأكبر، دون أن يكون كان من شوال على ما قاله قائلو ذلك؟

قيل له: إن قائلي ذلك زعموا أن التأجيل كان من وقت نزول «براءة»، وذلك غير جائز أن يكون صحيحًا، لأن المجعول له أجلُ السياحة إلى وقت محدود. إذا لم يعلم ما جُعل له، ولا سيما مع عهد له قد تقدم قبل ذلك بخلافه، فكمن لم يجعل له ذلك، لأنه إذا لم يعلم ما له في الأجل الذي جُعل له وما عليه بعد انقضائه، فهو كهيئته قبل الذي جُعل له من الأجل. ومعلوم أن

(٣٢٧) أحمر
أسود

القوم لم يعلموا بما جُعل لهم من ذلك، إلا حين نودي فيهم بالموسم. و إذا كان ذلك كذلك. صحَّ أن ابتداءه ما قلنا، وانقضاءه كان ما وصفنا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيرا، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة:٤] ولما سيأتي في الحديث: «**ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته**». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورُوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغير واحد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فأما سبب نزولها فقال المفسرون أخذت العرب تنقض عهودا بنتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى بالقاء عهودهم إليهم فأنزل براءة في سنة تسع فبعث رسول الله أبا بكر أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج في تلك السنة وبعث معه صدرا من براءة ليقرأها على أهل الموسم فلما سار دعا رسول الله ﷺ عليا فقال: (اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس بذلك) فخرج علي على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فرجع أبو بكر فقال يا رسول الله أنزل في شأني شيء قال: «**لا ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني أما ترضى أنك كنت صاحبي في الغار وأنك صاحبي على الحوض**» قال بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحج وسار علي ليؤذن ب براءة.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان مؤيدًا قول الطبري...

ويؤيده حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن النَّبي ﷺ، بعثه حين أنزلت « براءة » بأربع:

ألا يطوف بالبيت عريان.

ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.

ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.



س: بداية الأربعة أشهر التي قال الله ﷻ: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تبدء من متى؟

ج: تبدأ منذ أن أُذنَّ في الناس ببراءة، وذلك يوم الحج الأكبر، وسيأتي بيانه هل هو يوم عرفة أم أنه يوم النحر، وهو شهور هلالية عربية كما هو معلوم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – فسيروا في الأرض يا أهل آمنين مطمئنين ذاهبين وآيبين لمدة أربعة اشهر لن تعترضوا بسوء ولن تصابوا من نبينا بمكروه واعلموا أنكم وإن تركناكم هذه المدة وأنتم على كفركم فلن تهربوا من ربكم ولن يعجز عنكم ربكم ﷻ، لن تعجزوه إذا أراد إدراككم، واعلموا أن الله مذلٌّ ومهينٌ لأهل الكفر.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ﴾، فإنه يقول لأهل العهد من الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ قبل نزول هذه الآية: اعلموا، أيها المشركون، أنكم إن سحتم في الأرض، واخترتم ذلك مع كفركم بالله. على

الإقـرار بتوحيـد وتصـديق رسـوله ، ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾، يقـول: غيـر مُفِيتيـه بأنفسكم، لأنكم حيث ذهبتم وأين كنتم من الأرض، ففي قبضته وسلطانه، لا يمنعكم منه وزيرٌ، ولا يحول بينكم وبينه إذا أرادكم بعذاب معقلٌ ولا موئل. إلا الإيمان به وبرسوله. والتوبة من معصيته. يقول: فبادروا عقوبته بتوبة، ودعوا السياحة التي لا تنفعكم.

وأما قولـه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾، يقـول: واعلمـوا أن الله مُـذلُّ الكافرين، ومُورثهم العارَ في الدنيا، والنارَ في الآخرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب أي قل لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر. يقال ساح فلان في الأرض يسيح سياحة وسيوحا وسيحانا ومنه السيح في الماء الجاري المنبسط ومنه قول طرفة بن العبد:

لـو خفـت هـذا منـك مـا نلتنـي　　　　حتـى تـرى خـيلا أمـامي تسـيح



المراد بيوم الحج الأكبر

س: ما المراد بيوم الحج الأكبر؟

ج: ذهب كثيرون من أهل العلم إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وهو يوم العاشر من ذي الحجة، ومن أهل العلم من قال: إنه يوم عرفة، وهذان أقوى الأقوال في الباب وإن كانت هنالك أقوال أُخر لا وجه لها ولم يقل بها ككبير قائل.

أما حجج القائلين بأنها يوم النحر فمنها.

ما أخرجه البخاري[(١)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي الْمُؤَذِّنِينَ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةَ وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

وفي رواية أخرى عند البخاري[(٢)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أيضًا قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى: لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

وأورد الطبري آثارًا أُخرى كثيرة جدًّا في الباب للقائلين بأنه يوم النحر وللقائلين بأنه يوم عرفة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد قال، أخبرنا حيوة بن شريح قال، أخبرنا أبو صخر: أنه سمع أبا معاوية البجليّ من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب ﷺ عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من براءة، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليّ، فقال: قم، يا علي وأدِّ رسالة رسول الله ﷺ ! فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صدرنا، حتى أتينا مِنًى، فرميت الجمرة ونحرتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا خطبة أبي بكر يوم

(١) البخاري (٤٦٥٥).
(٢) البخاري (٣١٧٧).

عرفة، فطفقت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم. فمن ثَمَّ إخال حسبتم أنه يوم النحر، ألا وهو يوم عرفة.

وهذا يمكن أن يجمع به بين الأقوال لكن إن سلم سنده.

وأخرج الإمام أحمد[١] بسندٍ صحيح عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مُحَرَّرِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِبَرَاءَةٌ. فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: كُنَّا نُنَادِي أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَإِنَّ أَجَلَهُ أَوْ أَمَدَهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا مَضَتْ الْأَرْبَعَةُ الْأَشْهُرِ فَإِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَحُجُّ هَذَا الْبَيْتَ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، قَالَ: فَكُنْتُ أُنَادِي حَتَّى صَحِلَ صَوْتِي.

وقال الشعبي: حدثني مُحَرر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب رضي الله عنه، حين بعثه رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صَحل ناديتُ. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك.

قال الطبري: وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لأن الأخبار المتظاهرة في الأجل بخلافه.

وأخرج الإمام أحمد[٢] بسندٍ صحيح عَنْ سِمَاكٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بِبَرَاءَةٌ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَا الْحُلَيْفَةِ قَالَ: «**لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي**» فَبَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١) أحمد (٢/ ٢٩٩).
(٢) أحمد (٣/ ٢٨٣)، ولكن هناك وجوه أخر عن سماك. وأخشى أن يكون اختلافًا على سماك.

(٣٣٢) أحمر
أسود

وعلى كلٍّ فأكثر الأقوال على أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وهذا اختيار الطبري وابن كثير وغيرهما.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة، قولُ من قال: «يوم الحج الأكبر، يوم النحر»، لتظاهر الأخبار عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ أن عليًّا نادى بما أرسله به رسول الله ﷺ من الرسالة إلى المشركين، وتلا عليهم «براءة»، يوم النحر. هذا، مع الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم النحر: أتدرون أيّ يوم هذا؟ هذا يوم الحج الأكبر.

وبعدُ، فإن «اليوم» إنما يضاف إلى المعنى الذي يكون فيه، كقول الناس: «يوم عرفة»، وذلك يوم وقوف الناس بعرفة، و«يوم الأضحى»، وذلك يوم يضحون فيه = «ويوم الفطر»، وذلك يوم يفطرون فيه. وكذلك «يوم الحج»، يوم يحجون فيه، وإنما يحج الناس ويقضون مناسكهم يوم النحر، لأن في ليلة نهار يوم النحر الوقوفُ بعرفة غير فائت إلى طلوع الفجر، وفي صبيحتها يعمل أعمال الحج. فأما يوم عرفة، فإنه وإن كان الوقوف بعرفة، فغير فائت الوقوف به إلى طلوع الفجر من ليلة النحر، والحج كله يوم النحر.

وأما ما قال مجاهد: من أن «يوم الحج»، إنما هو أيامه كلها، فإن ذلك وإن كان جائزًا في كلام العرب، فليس بالأشهر الأعرف في كلام العرب من معانيه، بل أغلبُ على معنى «اليوم» عندهم أنه من غروب الشمس إلى مثله من الغد. وإنما محمل تأويل كتاب الله على الأشهر الأعرف من كلام من نزل الكتابُ بلسانه.



س: وضــح معنــى الآيــة الكريمــة: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإعلام وإخبار من الله ﷻ ورسوله ﷺ بأمر ربه إلى الناس يوم الحج الأكبر – الذي هو يوم النحر على رأي الأكثرين – أن الله ﷻ بريءٌ من أهل الشرك، وكذا رسوله ﷺ بريءٌ من العهود التي كانت بينه وبين أهل الشرك، ولا يوصف رسوله بغدرٍ فقد نبذ إليمك العهود والمواثيق من الآن ولأمدٍ محددٍ حتى تكونوا أنتم وهم على علم بأن بعضكم حربٌ لبعض.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من شرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ من بقائكم على الكفر والشرك ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الإيمان ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ﴾ لن تفوتوا ربكم، ولن يعجز عن إدراككم، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بعذاب مؤلم موجع وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾، فإن معناه: أن الله بريء من عهد المشركين ورسوله، بعد هذه الحجة.

ومعنى الكلام: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس في يوم الحج الأكبر: أن الله ورسوله من عهد المشركين بريئان.

وقال في تأويل قوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾، من كفركم، أيها المشركون، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له – دون الآلهة والأنداد – فالرجوع إلى ذلك

(٣٣٤) أحمر
أسود

﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة ، ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، يقول: وإن أدبرتم عن الإيمان بالله وأبيتم إلا الإقامة على شرككم ، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾، يقول: فأيقنوا أنكم لا تُفِيتون الله بأنفسكم من أن يحلّ بكم عذابه الأليم وعقابه الشديد، على إقامتكم على الكفر، كما فعل بمن قبلكم من أهل الشرك من إنزال نقمه به، وإحلاله العذاب عاجلا بساحته ، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يقول: واعلم، يا محمد، الذين جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم ، ﴿بِعَذَابٍ﴾، موجع يحلُّ بهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتَقَدُّم وإنذار إلى الناس، ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أي: بريء منهم أيضا.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنَّكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نصر اللّه رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار.

فأمر النبي مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن اللّه بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا،

وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة -يوم النحر- ابن عم رسول اللّه ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ أي: مؤلم مفظع في الدنيا بالقتل والأسر، والجلاء، وفي الآخرة، بالنار، وبئس القرار.

أي هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين.



س: لماذا أطلق عليه ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وما المراد بالحج الأكبر؟

ج: لأهل اللعم في ذلك أقوال:

أحدها: لأنه اجتمع فيه عيد المسلمين مع عيد اليهود والنصارى، وحج المسلمين مع حج المشركين.

الثاني: أنه أطلق عليه يوم الحج الأكبر لكون أكثر أعمال الحج فيه، هذا، ومن العلماء من قال الحج الأكبر هو الحج والحج الأصغر هو العمرة.

وثَمَّ قول لا مستند له، وأراه بعيدًا عن الصواب، وهو قول من قال إن الحج الأكبر هو القران، والحج الأصغر هو الإفراد.

قال الطبري رحمه الله:

وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: «الحج الأكبر، الحج»، لأنه أكبر من العمرة بزيادة عمله على عملها، فقيل له: «الأكبر»،

لذلك. وأما «الأصغر» فالعمرة، لأن عملها أقل من عمل الحج، فلذلك قيل لها: «الأصغر»، لنقصان عملها عن عمله.



الوفاء بالعهود حتى مع أهل الشرك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

ج: استثنى من التبرؤ من العهود والإمهال إلى أربعة أشهر أهل الشرك الذين بينهم وبين رسول الله ﷺ عهودٌ ومواثيق أكثر من أربعة أشهر، ومع ذلك فلم تصدر منهم بوادر خيانات ولا غدر فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ما داموا أوفياء بالعهود ولم يتعاونوا مع غيرهم من الكفار عليكم فأتموا إلى هؤلاء عهودهم إلى المدد المتفق عليها معهم أيًّا كانت هذه المدد، إن الله يحب المتقين الذين يتقون الشرك بالله، ويتقون نقص العهود والمواثيق.

وهذه أقوال بعض العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾، إلا من عَهْدِ الذين عاهدتم من المشركين، أيها المؤمنون، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾، من عهدكم الذي عاهدتموهم، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾، من عدوكم، فيعينوهم بأنفسهم وأبدانهم، ولا بسلاح ولا خيل ولا رجال، ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ ﴾، يقول: فَفُوا لهم بعهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ولا تنصبوا لهم حربًا إلى انقضاء أجل عهدهم الذي بينكم وبينهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، يقول: إن الله يحب من اتقاه بطاعته، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾، الآية، قال: هم مشركو قريش، الذين عاهدهم رسول الله ﷺ زمن الحديبية، وكان بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر. فأمر الله نبيه أن يوفي لهم بعهدهم إلى مدتهم، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله، أربعة أشهر، يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته» وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحدا، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ في موضع نصب بالاستثناء المتصل، المعنى: أن الله بريء من المشركين إلا من المعاهدين في مدة عهدهم. وقيل: الاستثناء منقطع، أي أن الله بريء منهم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتموا إليهم عهدهم. وقوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾ يدل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ومنهم من ثبت على الوفاء، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ في نقض عهد من خاس، وأمر بالوفاء لمن بقي على عهده إلى مدته. ومعنى

﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ أي من شروط العهد شيئا. ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾ لم يعاونوا. وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُضُوكُمۡ﴾.

بالضاد معجمة على حذف مضاف، التقدير ثم لم ينقضوا عهدهم. يقال: إن هذا مخصوص يراد به بنو ضمرة خاصة. ثم قال: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ أي وإن كانت أكثر من أربعة أشهر.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئا، ولا عاونوا عليكم أحدا، فهؤلاء أتموا لهم عهدهم إلى مدتهم، قَلَّتْ، أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾.

يفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية: أن المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضـًا، قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ ﴾ [التوبة: ٧] وهذا المفهوم في الآيتين صرح به جلا وعلا في قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [التوبة: ١٢].



المراد بالأشهر الحرم

س: ما المراد بالأشهر الحرم التي قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الآية؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية هي الأشهر الحرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾.

وهي ذو القعدة وذو الحجة وشهر الله المحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ولكن هذا القائل، وهو الطبري رحمه الله، ذهب إلى أن انساخها بنهاية شهر الله المحرم، أي: على وجه التقريب بعد خمسين يومًا من الأذان ببراءة ذلك أن الأذان ببراءة كان يوم النحر، يوم العاشر من ذي الحجة، فيبقى لنهاية محرم خمسون يومًا على التقريب والله أعلم.

** هذا، وذهب آخرون إلى أن المراد بالأشهر الحرم في قوله ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ هي اشهر الأمان التي أمَّن الله فيها المشركين من قتال النبي ﷺ والمؤمنين، أي: هي التي قال الله في شأنها ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾.

وهذا اختيار ابن كثير رحمه الله فقد استظهر أن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾، وسيأتي قوله إن شاء الله.

قال ابن كثير رحمه الله:

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها [الأربعة] المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية [التوبة:٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر، لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم.

قال ابن كثير وفيه نظر والذي يظهر من السياق.. أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ثُمَّ قَالَ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – فإذا انقضت الأشهر الحرم ومضت[1] فاقتلوا المشركين في أي مكان وجدتموهم فيه في الحِلِّ والحرم، وفي أي زمان وحاصروهم وامنعوهم من السير في البلاد، واقعدوا لهم في كل طريق وترصدوا لهم في كل مكان لقتلهم وحربهم فإن تابوا من شركهم وحافظوا على الصلوات وأدوا الزكوات المفترضة عليهم فاتركوهم ولا تعترضوهم، فإن الله ﷻ فتح باب التوبة أمام مريد التوبة مهما اقترف من الذنوب وارتكب من الآثام ما دام عليك أمر نفسه فمن تاب تاب الله عليه، أما من مات على الشرك فلن يغفر له.

هذا، وللجزئيات المذكورة في ثنايا الشرح فقه واسع يأتي في كله، فهل كل مُشرك يُقتل؟ أم أن هناك أمانٌ لبعضهم؟! وماذا يصنع المؤمنون في أوقات

(١) وقد بينت اختلاف العلماء فيها، وأن كثيرًا من العلماء رجح أنها أشهر الأمان الأربعة التي قال الله ﷻ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

الاستضعاف؟!! وهل هناك أنواع صلح ومعاهدات بين المسلمين وغيرهم أم لا؟ ولا شك أن كل هذا ينبني على ما هو الصالح العام لأهل الإسلام ما لم يخالفوا نصوصًا من كتاب الله ﷻ، ولا من سنة رسوله ﷺ فالقصد أن المسائل المذكورة لها فقه لا يتسع المقام هنا لذكره، وبالله تعالى التوفيق، وفيه العون والسداد.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾، فإذا انقضى ومضى وخرج. يقال منه: سلخنا شهر كذا نسلَخه سَلْخًا وسُلُوخًا، بمعنى: خرجنا منه. ومنه قولهم: «شاة مسلوخة»، بمعنى: المنزوعة من جلدها، المخرجة منه.

ويعني بـ «الأشهر الحرم»، ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم.

وإنما أريد في هذا الموضع انسلاخ المحرم وحده، لأن الأذان كان ببراءة يوم الحج الأكبر. فمعلوم أنهم لم يكونوا أجَّلوا الأشهرَ الحرم كلَّها –وقد دللنا على صحة ذلك فيما مضى– ولكنه لما كان متصلا بالشهرين الآخرين قبله الحرامين، وكان هو لهما ثالثًا، وهي كلها متصل بعضها ببعض، قيل: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾، ومعنى الكلام: فإذا انقضت الأشهر الحرم الثلاثة عن الذين لا عهد لهم، أو عن الذين كان لهم عهد فنقضوا عهدهم بمظاهرتهم الأعداءَ على رسول الله وعلى أصحابه، أو كان عهدهم إلى أجل غيره معلوم.

﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، يقول: فاقتلوهم ، ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، يقول: حيث لقيتموهم من الأرض، في الحرم، وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم ، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يقول: وأسروهم ، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾، يقول: وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة ، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾، يقول:

واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم = «كل مرصد»، يعني: كل طريق ومرقَب.

وهو «مفعل»، من قول القائل: «رصدت فلانًا أرصُده رَصْدًا»، بمعنى: رقبته.

﴿فَإِن تَابُوا﴾، يقول: فإن رجعوا عما نهاهم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة نبيه محمدﷺ، إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، والإقرار بنبوة محمد ﷺ ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾، يقول: وأدّوا ما فرض الله عليهم من الصلاة بحدودها، وأعطوا الزكاة التي أوجبها الله عليهم في أموالهم أهلها، ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، يقول: فدعوهم يتصرفون في أمصاركم، ويدخلون البيت الحرام ، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لمن تاب من عباده، فأناب إلى طاعته، بعد الذي كان عليه من معصيته، ساتر على ذنبه، رحيم به، أن يعاقبه على ذنوبه السالفة قبل توبته، بعد التوبة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ عام في كل مشرك، لكن السنة خصت منه ما تقدم بيانه في سورة «البقرة» من امرأة وراهب وصبي وغيرهم. وقال الله تعالى في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾. إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضي ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم، على ما يأتي بيانه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]

وقوله: ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا.

وقوله: ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق، رضي الله عنه، في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله، عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**» الحديث.

وأورد ابن كثير جملة أحاديث وآثار منها حديث: أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم**»(١).

وقال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركين

(١) البخاري (٣٩٢).

المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ في أي مكان وزمان، ﴿ وَخُذُوهُمۡ ﴾ أسرى ﴿ وَٱحۡصُرُوهُمۡ ﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد اللّه وأرضه، التي جعلها [الله] معبدا لعباده.

فهؤلاء ليسوا أهلا لسكناها، ولا يستحقون منها شبرا، لأن الأرض أرض اللّه، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض من دينه، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ من شركهم ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لمستحقيها ﴿ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ يغفر الشرك فما دونه، للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.



آية السيف

س: ذكر بعض العلماء أن هذه الآية: (فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ أَرۡبَعَةَ .﴾ هي آية السيف فمن القائل بهذا؟

ج: القائلون بهذا كثيرون، منهم **ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها

نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة.

وأورد بعض الآثار ضعيفة الأسانيد في هذا الباب منها أثر ضعيف الإسناد عن عليٍّ رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب قال الله: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾.

قال ابن كثير: هكذا رواه مختصرا، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩] والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم:٩] والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحجرات:٩].



س: هل هذه الآية (آية السيف): ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ منسوخة؟ وما ناسخها عند من قال بالنسخ؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ...﴾.

[محمد:٤]

وعكس البعض القضية فقالوا إن آية السيف هي الناسخة، والظاهر عدم النسخ، وأن هذه لها مواطن، وتلك لها مواطن، والله أعلم.

قال ابن كثير رحمه الله:

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد:٤] وقال قتادة بالعكس.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم اختلفوا، فقال الحسين بن الفضل: نسخت هذه كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء. وقال الضحاك والسدي وعطاء: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]. وأنه لا يقتل أسير صبرا، إما أن يمن عليه وإما أن يفادى. وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان. وهو الصحيح، لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وهو يوم بدر كما سبق. وقوله: ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ يدل عليه. والأخذ هو الأسر. والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المن على ما يراه الإمام. ومعنى: ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم، إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان.



س: ما المراد بـ(كلام الله) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؟

ج: المراد به القرآن.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإن طلب منك أحدٌ من المشركين أن تُجيره أي: توفر له سبل الأمان، بدخوله في جوارك طالبًا منك الأمان، فأمِّنه حتى يسمع كلام الله الذي هو القرآن، حتى يفهم ماذا يريد منه ربه ﷻ وعن أي شيء ينهاه، حتى يسمع كلام الله بما فيه من مواعظ وحكم وقصص وعبر

وأحكام، حتى يتضح له ما خفي عليه ثم ردَّه إلى حيث يأمن، ردَّه إلى أهله إن أراد ذلك، وهذا الذي أمرناك به في شأنه لأن هؤلاء قوم لا يعلمون عن القرآن كبير شيءٍ.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ ليسمع كلام الله منك، وهو القرآن الذي أنزله الله عليه، ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وتتلوه عليه، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾، يقول: ثم رُدَّه بعد سماعه كلام الله إن هو أبَي أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن، «إلى مأمنه»، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردِّك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوِزْر والإثم بتركهم الإيمان بالله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: [القرآن] تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من [أمر] الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَعۡلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح[١]، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «**أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟**» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك**»[٢] وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى

---

(١) وفي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد في التفسير مقال.
(٢) أحمد (٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (٢٧٦١).

يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي من الذين أمرتك بقتالهم. ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي سأل جوارك، أي أمانك وذمامك، فأعطه إياه ليسمع القرآن، أي يفهم أحكامه وأوامره ونواهيه. فإن قبل أمرا فحسن، وإن أبى فرده إلى مأمنه. وهذا ما لا خلاف فيه. والله أعلم. قال مالك: إذا وجد الحربي في طريق بلاد المسلمين فقال: جئت أطلب الأمان. قال مالك: هذه أمور مشتبهة، وأرى أن يرد إلى مأمنه. قال ابن قاسم: وكذلك الذي يوجد وقد نزل تاجرا بساحلنا فيقول: ظننت ألا تعرضوا لمن جاء تاجرا حتى يبيع. وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام، فأما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعته.

ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز، لأنه مقدم للنظر والمصلحة، نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار. واختلفوا في أمان غير الخليفة، فالحر يمضي أمانه عند كافة العلماء. إلا أن ابن حبيب قال: ينظر الإمام فيه. وأما العبد فله الأمان في مشهور المذهب، وبه قال الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعي والثوري وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة: لا أمان له، وهو القول الثاني لعلمائنا. والأول أصح، لقوله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم**». قالوا: فلما قال «**أدناهم**» جاز أمان العبد، وكانت المرأة الحرة أحرى بذلك، ولا اعتبار بعلة

«لا يسهم له». وقال عبدالملك بن الماجشون: لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام، فشذ بقوله عن الجمهور.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

لما كان ما تقدم من قوله ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أمرا عاما في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى، أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز، بل وجب ذلك فقال: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ أي: طلب منك أن تجيره، وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام اللّه، وينظر حالة الإسلام.

﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ثم إن أسلم، فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر اللّه رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام اللّه.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام اللّه غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ قال المفسرون: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتلهم استأمنك يبتغي أن يسمع القرآن وينظر فيما

أمر به ونهي عنه فأجره ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه.

وفي قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ قولان:

أحدهما: أن المعنى ذلك الذي أمرناك به من أن يعرفوا ويجاروا لجهلهم بالعلم.

والثاني: ذلك الذي أمرناك به من رده إلى مأمنه إذا امتنع من الإيمان لأنهم قوم جهلة بخطاب الله.



س: هل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ...﴾ منسوخ؟

ج: الذي يظهر أنه ليس بمنسوخ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي، قولُ من قال: «ليس ذلك بمنسوخ». وقد دللنا على أن معنى «النسخ»، هو نفي حكم قد كان ثبت بحكم آخر غيره. ولم تصحّ حجةٌ بوجوب حكم الله في المشركين بالقتل بكل حال، ثم نسخه بترك قتلهم على أخذ الفداء، ولا على وجه المنّ عليهم. فإذ كان ذلك كذلك، وكان الفداء والمنّ والقتل لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وذلك من يوم بدر، كان معلومًا أن معنى الآية: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم للقتل أو المنِّ أو الفداء، واحصروهم. وإذا كان ذلك معناه، صحّ ما قلنا في ذلك دون غيره.



قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ
فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ
٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ
فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ
عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ
لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ
وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ
فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ
١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ١٥ ﴾

[الأنفال: ٧-١٥].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ - يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ - لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ - إِلًّا - ذِمَّةً - وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ - فَٰسِقُونَ - فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ - سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ - نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم - وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ - أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ - لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ - وَيُخْزِهِمْ - غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾	فما داموا مستقيمين على العهود موفِّين لها فكونوا أوفياء للعهود كذلك
﴿يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾	يغلبوكم – ينتصروا عليكم
﴿ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ ﴾	لا يراعوا فيكم – لا يخشون إذا آذوكم – لا يوقِّروا فيكم – لا يحافظوا
﴿إِلًّا ﴾	قيل: الله – وقيل: عهدًا – وقيل: قرابة – وقيل: حلفًا
﴿ذِمَّةً ﴾	قيل: عهدًا
﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾	ترفض قلوبهم الإيمان
﴿ فَٰسِقُونَ ﴾	خارجون عن الطاعة
﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ﴾	منعوا الناس من دخول الإسلام الذي هو الطريق إلى الله ﷻ
﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾	أصحاب عمل سيء، أعمالهم سيئة لا ترى الله ولا توافق شرعه
﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم ﴾	نقضوا عهودهم

(٣٥٤) أحمر
أسود

(وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ)	عابوا دينكم وانتقصوه وسبُّوه
(أَيِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ)	رؤوس الشر والضلال والسعاة في الكفر الدعاة إليه
(لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ)	لا عهود لهم
(وَيُخۡزِهِمۡ)	يُذلهم – يُهينهم
(غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ)	كرب قلوبهم – الضيق الذي في قلوبهم الحزن الذي بقلوبهم



الغَدْرُ حالُ أهل الشرك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ⑦﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – كيف يكون لأهل الشرك عهد عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ، وهم قد نقضوا العهود والمواثيق، وبدت منه بوادر الخيانات والغدر، فهؤلاء الذين بدرت منهم بوادر الخيانة والغدر، والذين نقضوا العهود والميثاق لا عهود لهم فإنهم نقضوها ولا يتصور منهم بعدُ وفاءً لعهدٍ ولا رعايةً لميثاق، لكن منهم طائفة قليلة عاهدت ووفَّت ولم تغدر ولم تخن، فهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام، وفَّوا لهم بالعهد والميثاق وما داموا موفِّين للعهود والمواثيق فوفُّوا لهم أيضًا، وما داموا مستقيمين على العهود والمواثيق فاستقيموا لهم أيضًا إن الله يحب الذين يتقون، ويتقون حدوده ومحارمه، ويحب الذين يفون بالعهد والميثاق ولا يغدرون.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أنّى يكون أيها المؤمنون بالله ورسوله، وبأيِّ معنى، يكون للمشركين بربهم عهدٌ وذمة عند الله وعند رسوله، يوفّى لهم به، ويتركوا من أجله آمنين يتصرفون في البلاد؟ وإنما معناه: لا عهد لهم، وأن الواجب على المؤمنين قتلهم حيث وجدوهم، إلا الذين أعطوا العهد عند المسجد الحرام منهم، فإن الله جل ثناؤه أمرَ المؤمنين بالوفاء لهم بعهدهم، والاستقامة لهم عليه، ما داموا عليه للمؤمنين مستقيمين.

وأورد الطبري خلافًا ليس من وراءه كبير طائل في الذين عناهم الله بقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ثم قال:

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فإن معناه: إن الله يحب من اتقى الله وراقبه في أداء فرائضه، والوفاء بعهده لمن عاهده، واجتناب معاصيه، وترك الغدر بعهوده لمن عاهده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضا، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعِكْرِمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام

التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ اللّه ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول اللّه والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فسادا؟ فيحق عليهم أن يتبرأ اللّه منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾ من المشركين ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ فإن لهم في العهد وخصوصا في هذا المكان الفاضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ولهذا قال: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾.

ج: أما قوله تعالى:

﴿إِلّٗا﴾ فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: ﴿إِلّٗا﴾ بمعنى الله فالمعنى: لا يراقبون الله فيكم، ولا يخافون من الله إن ألحقوا بكم أذى أو غدر بكم.

الثاني: ﴿إِلّٗا﴾بمعنى عهدًا وعقدًا.

الثالث: ﴿إِلّٗا﴾بمعنى قرابة.

الرابع: ﴿إِلّٗا﴾بمعنى حلفًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا ذِمَّةٗ﴾: فالذمة: قيل: إنها العهد.

أورد الطبري بإسناد صحيح عن أبي مجلز في قوله: ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾، قال: مثل قوله: «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل»، كأنه يقول: يضيف «جَبْر» و «ميكا» و«إسراف»، إلى «إيل»، يقول: عبد الله ، ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا ﴾، كأنه يقول: لا يرقبون الله.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن السدي: ﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ ﴾، المشركون ، ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ ﴾، عهدًا ولا قرابة ولا ميثاقًا.

وبإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾، قال: «الإل»، الحلف، و«الذمة»، العهد.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾، قال: لا يرقبوا فيكم عهدًا ولا ذمة. قال: إحداهما من صاحبتها كهيئة «غفور»، «رحيم»، قال: فالكلمة واحدة، وهي تفترق. قال: والعهد هو «الذمة».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المشركين الذين أمر نبيَّه والمؤمنين بقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وحصرهم والقعود لهم على كل مرصد: أنهم لو ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم «إلا».

و«الإلّ»: اسم يشتمل على معان ثلاثة: وهي العهد، والعقد، والحلف، والقرابة، وهو أيضا بمعنى «الله». فإذْ كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خصّ من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يُعَمّ ذلك كما عمّ بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهدًا، ولا ميثاقًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – كيف تتركون أهل الشرك بالله ولا تنزلون بهم ما أمركم الله به، وكيف تطمئنون إليهم، وهم إذا تمكنوا منكم وانتصروا عليمك وغلبوكم لن يراعوا فيكم ربًا ولا قرابةً ولا عهدًا ولا ميثاقًا وإنما هم الآن يتكلمون معكم بكلامٍ يرضونكم به، أما قلوبهم فإنها تضمر الكفر والنفاق، وتأبى أن تؤمن، وتضمر الشر وتضمر بكم المكائد لو أنهم تمكنوا منكم، وأكثرهم أهل فسق لا يطيعون الله ولا يوقرون عهدًا ولا ميثاقًا.

وهذه أقوال بعض أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: كيف يكون لهؤلاء المشركين الذين نقضوا عهدهم أو لمن لا عهد له منهم منكم، أيها المؤمنون، عهد وذمة، وهم، ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾، يغلبوكم، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.

واكتفى بـ «كيف» دليلا على معنى الكلام، لتقدم ما يراد من المعني بها قبلها. وكذلك تفعل العرب، إذا أعادت الحرف بعد مضيّ معناه، استجازوا حذف الفعل، كما قال الشاعر:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ فِي الْقُرَى فَكَيْفَ وَهَذِي هَضْبَةٌ وَكَثِيبُ

فحذف الفعل بعد «كيف»، لتقدم ما يراد بعدها قبلها. ومعنى الكلام: فكيف يكون الموت في القرى، وهذي هضبة وكثيب، لا ينجو فيهما منه أحد.

ثم قال بعد أن أورد أقوال العلماء في الإل والذمة وأن معنى الإل الله – العهد – القرابة – الحلف – العقد، قال:

فأما قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، فإنه يقول: يعطونكم بألسنتهم من القول، خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: تأبى عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم، بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم. يحذِّر جل ثناؤه أمرَهم المؤمنين، ويشحذهم على قتلهم واجتياحهم حيث وجدوا من أرض الله، وأن لا يقصِّروا في مكروههم بكل ما قدروا عليه، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾، يقول: وأكثرهم مخالفون عهدَكم، ناقضون له، كافرون بربهم، خارجون عن طاعته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأدِيلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع خبث أعمالهم، أي كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة. يقال: ظهرت على فلان أي غلبته، وظهرت البيت علوته، ومنه ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] أي يعلوا عليه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ﴿يَرْقُبُوا﴾ يحافظوا. والرقيب الحافظ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند اللّه عهد وميثاق ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحموكم، و ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا

ذِمَّةً ﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون اللّه فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقا، المبغضون لكم صدقا، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن أهل الكفر هؤلاء الذين نقضوا العهود والمواثيق، اعتاضوا عن الإيمان بالله واليوم الآخر، اعتاضوا عن ذلك كله بعرضٍ زائل من أعراض الحياة الدنيا فرضوا بمتاع الحياة الدنيا الزائل الفاني فمنعوا الناس من الدخول في دين الله ﷻ والاستقامة على أمره، فبئس العمل الذي عملوه فما أسوأه وما أقبحه.

هؤلاء أهل الكفر والعناد والشقاق والصد عن سبيل الله لا يرقبون في مؤمن عهدًا ولا قرابةً ولا يخشون ربًّا ولا يفون بميثاق ولا يحافظون على عقود ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أهل الكفر هؤلاء ﴿هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ المتعدون لحدود الله المنتهكون لحرماته.

﴿فَإِن تَابُوا۟ ﴾ من شركهم وكفرهم، ورجعوا عن الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإسلام ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ حافظوا عليها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أدوا ما افترضه الله عليهم من الزكوات ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ ﴾ فهم مسلمون

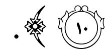
والمسلمون إخوة، مؤمنون والمؤمنون إخوة، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، ونوضح الآيات ونبينها ونظهرها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فالذين يعلمون أن الله واحد لا شريك له هم المستفيدون المنتفعون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبعموم الآيات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: ابتاع هؤلاء المشركون الذين أمركم الله، أيها المؤمنون، بقتلهم حيث وجدتموهم، بتركهم اتباعَ ما احتج الله به عليهم من حججه، يسيرًا من العوض قليلا من عرض الدنيا.

وذلك أنهم، فيما ذُكر عنهم، كانوا نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ أطعمهموها أبو سفيان بن حرب[١].

وأما قوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾، فإن معناه: فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام، وحاولوا ردَّ المسلمين عن دينهم، ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: إن هؤلاء المشركين الذين وصفت صفاتهم، ساء عملهم الذي كانوا يعملون، من اشترائهم الكفرَ بالإيمان، والضلالة بالهدى، وصدهم عن سبيل الله من آمن بالله ورسوله، أو من أراد أن يؤمن.

وقال في تأويل قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا يتقي هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون، بقتلهم حيث وجدتموهم، في قتل مؤمن لو قدروا عليه، ﴿إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾، يقول: فلا تبقوا عليهم، أيها المؤمنون، كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾، يقول: المتجاوزون فيكم إلى ما

(١) الإسناد بذلك ضعيف.

(٣٦٣) أحمر
أسود

ليس لهم بالظلم والاعتداء.

وقال في تأويل قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فإن رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون، بقتلهم عن كفرهم وشركهم بالله، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إلى طاعته، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، المكتوبة، فأدّوها بحدودها، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، المفروضة أهلَها، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾، يقول: فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم الله به، وهو الإسلام، ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ﴾، يقول: ونبين حجج الله وأدلته على خلقه، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ما بُيِّن لهم، فنشرحها لهم مفصلة، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا. على الإيمان باللّه ورسوله، والانقياد لآيات اللّه.

﴿فَصَدُّوا۟﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ أي لأجل عداوتهم للإيمان ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ أي لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

فالوصف الذي جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان فذبوا عن دينكم وانصروه واتخذوا من عاداه لكم عدوا ومن نصره لكم وليا

واجعلوا الحكم يدور معه وجودا وعدما لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية تميلون بهما حيثما مال الهوى وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء ولهذا ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن شركهم ورجعوا إلى الإيمان ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين لتكونوا عباد اللّه المخلصين وبهذا يكون العبد عبدا حقيقة لما بين من أحكامه العظيمة ما بين ووضح منها ما وضح أحكاما وحِكَمًا وحُكْمًا وحكمة قال ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي نوضحها ونميزها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإليهم سياق الكلام وبهم تعرف الآيات والأحكام وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وإن نقض أهل الشرك هؤلاء العهود التي بينكم وبينهم وعابوا دينكم وانتقصوه فقاتلوا أئمة الضلال منهم كبراءهم ورؤساءهم والسعاة في الشر منهم عمومًا، قاتلوا من نقض العهود والمواثيق وقاتلوا أتباعهم وجندهم إنهم أئمة الكفر هؤلاء لا عهود لهم، لا يوترون عهدًا ولا يفون بميثاق قاتلوهم لعلهم ينتهون عن نقض العهود والمواثيق ولعلهم ينتهون عن الطعن في دينكم وعيب آلهتكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم من قريش، عهودَهم من بعد ما عاقدوكم أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدًا من أعدائكم ، ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾، يقول: وقدَحوا في دينكم الإسلام، فثلبوه

وعابوه ، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، يقول: فقاتلوا رؤساء الكفر بالله ، ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾، يقول: إن رؤساء الكفر لا عهد لهم ، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾، لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم.

وأورد أقوالًا في بيان أئمة الكفر منها ما أورده عن قتادة بسندٍ حسن: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾، إلى: ﴿يَنتَهُونَ﴾، فكان من أئمة الكفر: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وهم الذين همُّوا بإخراجه.

وأورد بسندٍ صحيح عن مجاهد قال: أبو سفيان منهم.

وأورد الطبري بسندٍ صحيح عن صلة عن عمارة بن ياسر في قوله: ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ لا عهد لهم.

ونحوه بسندٍ صحيح عن صلة عن حذيفة.

قال الطبري: وأما (النكث) فإن أصله النقض.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾، أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: عابوه وانتقصوه. ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص؛ ولهذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم، ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: عابوه، وسخروا

منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جناياتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ في قتالكم إياهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف، التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم.



التحريض على قتال من نقضوا العهود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ولماذا تتردد في قتال هؤلاء المشركين، فهو تحضيض على قتالهم وتوبيخ من تخلَّف عن قتالهم، ألا تقاتلون قومًا نقضوا العهود والمواثيق إذ قد نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ لما أعانوا بني بكر على حلفاء رسول الله ﷺ من قبيلة خزاعة، فنقضوا العهود، وهموا بإخراج الرسول قبل كذلك من بلده، بل وأخرجوه، وكذا فإنهم بدؤكم بالقتال، وذلك يوم بدر بعد أن سلَّم الله عيرهم، وكذا بدأوا بالقتال إذ قد اعتدوا على حلفاء رسول الله ﷺ وآزروا غيرهم عليهم، أتخافون يا أصحاب رسول الله أهل

الشرك هؤلاء؟! فالله أحق أن تخشوه وتخافون إن كنتم مؤمنون حق الإيمان.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله، حاضًّا لهم على جهاد أعدائهم من المشركين: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ ﴾، أيها المؤمنون، هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعنوا في دينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، ، ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾، من بين أظهرهم فاخرجوه ، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، بالقتال، يعني فعلهم ذلك يوم بدر، وقيل: قتالهم حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة ، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾، يقول: أتخافونهم على أنفسكم فتتركوا قتالهم خوفًا على أنفسكم منهم ، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾، يقول: فالله أولى بكم أن تخافوا عقوبته بترككم جهادهم، وتحذروا سخطه عليكم، من هؤلاء المشركين الذين لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا إلا بإذن الله ، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، يقول: إن كنتم مقرّين أن خشية الله لكم أولى من خشية هؤلاء المشركين على أنفسكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

[الأنفال:٣٠]

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ الآية [الممتحنة:١] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الإسراء:٧٦] وقوله: ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قيل:

المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال، بغيا وتكبرا، كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

وقوله: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ توبيخ وفيه معنى التحضيض نزلت في كفار مكة كما ذكرنا آنفا. ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ أي كان منهم سبب الخروج، فأضيف الإخراج إليهم. وقيل: أخرجوا الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي كان منهم: عن الحسن. ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي نقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة. وقيل: بدؤوكم بالقتال يوم بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج للعير ولما أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبوا إلا الوصول إلى بدر وشرب الخمر بها؛ كما تقدم. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أي تخافوا عقابه في ترك قتالهم من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة هموا بإخراجه ﷺ من مكة، وصرح في مواضع أخر بأنهم أخرجوه بالفعل، كقوله ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١] الآية، وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد:

١٣] وقوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة:٤٠] الآية، وذكر في مواضع أخر: محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ [الإسراء: ٧٦] الآية.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت قريش -وهم معاهدون- بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول اللّه ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ في ترك قتالهم ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإنه أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر اللّه، ولا تخشوهم فتتركوا أمر اللّه، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – أمرٌ من الله ﷻ لعباده المؤمنين، أمرٌ بقتال ناقض العهود من أهل الشرك، وبيان لبعض فوائد هذا القتال، وبشارةٌ لأهل الإيمان،

فقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ قاتلوا أهل الشرك ونقض العهود ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ يُنزل بهم الله العذاب على أيديكم، وذلك من قتلٍ وسبيٍ وجراحٍ وغير ذلك، ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ ويذلهم ويهينهم، ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ يجعل لكم الغلبة عليهم ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ من الغم والضيق والهمّ الذي حلَّ بها، ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ يذهب الكرب الذي في قلوبهم والحزن الذي في قلوبهم، وبقتالكم أهل الكفر ينزجر من سلم منهم، ومن نجا منهم، ينزجر عن كفره ويقلع عن كفره ويبادر بالدخول في الإسلام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلق وبما ينفعهم وعليم بكل شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع لعباده.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قاتلوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم، ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم، وأخرجوا رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، يقول: يقتلهم الله بأيديكم، ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾، يقول: ويذلهم بالأسر والقهر، ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة، ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، يقول: ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله، بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداء، هو ما كان في قلوبهم عليهم من المَوْجِدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه.

وقيل: إن الله عنى بقوله: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾: صدورَ خزاعة حلفاءِ رسول الله ﷺ. وذلك أن قريشًا نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ بمعونتهم بكرًا عليهم.

وقال في تأويل قوله: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول الله تعالى ذكره: ويذهب وَجْدَ قلوب هؤلاء القوم المؤمنين من خزاعة، على هؤلاء القوم الذين نكثوا أيمانهم من المشركين، وغمَّها وكربَها بما فيها من الوجد عليهم، بمعونتهم بكرًا عليهم.

وقال الطبري أيضًا:

وأما قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾، فإنه خبر مبتدأ، ولذلك رفع، وجُزِم الأحرفُ الثلاثة قبل ذلك على وجه المجازاة، كأنه قال: قاتلوهم، فإنكم إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾، لأن القتال غير موجب لهم التوبةَ من الله، وهو موجبٌ لهم العذابَ من الله، والخزيَ، وشفاءَ صدور المؤمنين، وذهابَ غيظ قلوبهم، فجزم ذلك شرطًا وجزاءً على القتال، ولم يكن موجبًا القتالُ التوبةَ، فابتُدِئ الخبرُ به ورُفع.

ومعنى الكلام: ويمنّ الله على من يشاء من عباده الكافرين، فيقبل به إلى التوبة بتوفيقه إياه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بسرائر عباده، ومَنْ هو للتوبة أهلٌ فيتوب عليه، ومَنْ منهم غير أهل لها فيخذله، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تصريف عباده من حال كفر إلى حال إيمان بتوفيقه من وفَّقه لذلك، ومن حال إيمان إلى كفر، بخذلانه من خذل منهم عن طاعته وتوحيده، وغير ذلك من أمرهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا عام في

المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعِكْرِمة، والسدي في هذه الآية: ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني: خزاعة.

وأعاد الضمير في قوله: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ عليهم أيضا.

﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: من عباده، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ بالقتل ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ إذا نصركم اللّه عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا وعد من اللّه وبشارة قد أنجزها.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ ﴾ فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين للّه ولرسوله ساعين في إطفاء نور اللّه وزوالا للغيظ الذي في قلوبهم وهذا يدل على محبة اللّه لعباده المؤمنين واعتنائه بأحوالهم حتى إنه جعل -من جملة المقاصد الشرعية- شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ من هؤلاء المحاربين بأن يوفقهم للدخول في الإسلام ويزينه في قلوبهم ويُكَرِّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

(٣٧٣) أحمر
أسود

قَالَ اللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ
يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ
﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

[التوبة: ١٦-١٨]

(٣٧٤) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ – وَلِيجَةًۚ – شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ – حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ ﴾	أفظننتم
﴿وَلِيجَةًۚ ﴾	بطانةً (من الكفار) – أولياء – من يلج فيكم، وليس منكم (من منافقين ونفاق وكفار وكفر...)
﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾	مُقرِّين على أنفسهم بأنهم كفار، فاليهودي يقول عن نفسه يهودي، وكذا النصراني يقول عن نفسه أنه نصراني، وكذا المشرك يعلن أنه يعبد مع الله إلهًا آخر، وقيل: أعمالهم شاهدة عليهم بأنهم كفار لكونهم يعملون أعمال الكفار
﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾	ذهب ثوابها – بطلت



حتمية الابتلاء

س: وضح معنى قوله تعالى: (﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –أفظننتم يا أهل الإيمان أن تتركوا بلا ابتلاء ولا اختبار ولا تكليف ولما يعلم الله صدقكم في دعواكم للإيمان علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، ولما يعلم من الممتلئين منكم أمره بالجهاد في سبيله، والناكثين عن أمره، أفظننتم يا أهل الإيمان أن تتركوا ولا تختبروا حتى يُعلم الصادق من الكاذب، الصادق الذي والى أهل الإيمان، واتخذهم له بطانة ووالى الله ورسوله، والكاذب الذي والى أهل الكفر، أفحسبتم أن تتركوا دون أن يظهر ذلك منكم كل بل ستكلفوا حتى يظهر ذلك منكم ظهورًا ينبني عليه الثواب والعقاب، وإلا فالله ﷻ خبيرٌ بكل أعمالكم، مطلع عليها وشاهد، وعليم أيضًا إلى ماذا ستؤول أموركم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين الذين أمرهم بقتال هؤلاء المشركين، الذين نقضوا عهدهم الذي بينهم وبينه بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، الآية، حاضًّا على جهادهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أيها المؤمنون، أن يتركم الله بغير محنة يمتحنكم بها، وبغير اختبار يختبركم به، فيعرف الصادقَ منكم في دينه من الكاذب فيه ، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾، يقول: أحسبتم أن تتركوا بغير اختبار يعرف به أهل ولايته المجاهدين منكم في سبيله، من المضيِّعين أمرَ الله في ذلك المفرِّطين ، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ﴾، يقول: ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والذين لم يتخذوا من دون الله ولا

من دون رسوله ولا من دون المؤمنين ، ﴿وَلِيجَةً﴾.

= هو الشيء يدخل في آخر غيره، يقالُ منه: «ولج فلان في كذا يلجِه، فهو وليجة».

وإنما عنى بها في هذا الموضع: البطانة من المشركين. نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء، يفشون إليهم أسرارهم ، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، يقول: والله ذو خبرة بما تعملون، من اتخاذكم من دون الله ودون رسوله والمؤمنين به أولياءَ وبطانةً، بعد ما قد نهاكم عنه، لا يخفى ذلك عليه، ولا غيره من أعمالكم، والله مجازيكم على ذلك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ ﴾، إلى قوله: ﴿وَلِيجَةً ﴾، قال: أبي أن يدعهم دون التمحيص. وقرأ: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ ﴾، وقرأ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، [سورة آل عمران: ١٤٢]، ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ ﴾، الآيات كلها، [سورة البقرة ٢١٤] أخبرهم أن لا يتركهم حتى يمحِّصهم ويختبرهم. وقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾، لا يختبرون ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾، [سورة العنكبوت: ١ - ٣]، أبى الله إلا أن يمحِّص.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ ﴾ أيها المؤمنون أن نتركم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي: بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى

بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضا   أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:١-٣] وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]

وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ ﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ أي: علما يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله: لإعلاء كلمته ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي: وليا من الكافرين، بل يتخذون اللّه ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرع اللّه الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين اللّه، من الكاذبين الذين يزعمون

الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون اللّه ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.



عُمار المساجد من هم؟

س: وضح معنى قوله تعالى: (مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

ج: ما كان من شأن أهل الشرك، وما كان ينبغي لهم، وما كان من خالص قلوبهم أن يعمروا مساجد الله بالحضور فيها والصلاة فيها وتوحيد الله فيها، فليس هذا من شأنهم وليس من شأنهم تعظيمها وبناؤها وتوقيرها والمساجد إنما بنيت لتوحيد الله ﷻ وإفراده بالعبودية وتوحيده والإخلاص له، وهم – أعني أهل الشرك، ليسوا من ذلك في شيء ولا على شيءٍ منه، وهم يقرون على أنفسهم بأ،هم كفار، يقرون على ذلك بصنيعهم الذي يصنعون من الشرك باله ودعاء غير الله وعبادة الأصنام وكذا يؤدون بألستهم على أنفسهم، فإذا سألت النصراني عن دينه قال: نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي والصابئ يقول: إنه صابئ والمشرك يقرُّ بعبادة الوثن والصنم ويجادل عن ذلك، بل ويقول: إنه مشرك.

فأمثال هؤلاء لا ينتظر منهم توقيرٌ لمساجد الله ولا عمارة لها، وهؤلاء قد حبطت أعمالها، ذهب ثوابها، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ لشركهم

وكفرهم، فالشرك يخلِّد أهله الذين ماتوا عليه في النار.

أما الذين يعمرون مساجد الله حضورًا فيها وصلاةً وتوحيدًا لله فيها، وكذا بناءً وتنظيفًا وتوقيرًا فهم الذين آمنوا بالله وحده لا شريك له وأفردوه بالعبودية وصدقوا بوحدانيته، وكذا آمنوا باليوم الآخر وما فيه من الحساب والثواب والعقاب، وكذا أقاموا الصلاة كما أمرهم بها ربهم وكما وردت على لسان نبيهم ﷺ، وهذا متضمن الإيمان برسول الله ﷺ وكذا آتوا الزكاة التي افترقها الله عليهم ولم يرهبوا أحدًا سوى الله، ولم يخافوا أحدًا غير الله، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾ من الذين سلكوا سبيل السلامة والنجاة ووفقوا للعمل بمرضاة الله والسير على الطريق الموصلة إلى جناته ومرضاته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر. يقول: إن المساجد إنما تعمر لعبادة الله فيها، لا للكفر به، فمن كان بالله كافرًا، فليس من شأنه أن يعمُرَ مساجد الله.

وأورد بإسناد حسن عن السدي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾، يقول: ما ينبغي لهم أن يعمروها. وأما ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾، فإن النصراني يسأل: ما أنت؟ فيقول: نصراني، واليهودي، فيقول: يهودي، والصابئ، فيقول: صابئ، والمشرك يقول إذا سألته: ما دينك؟ فيقول: مشرك ! لم يكن ليقوله أحدٌ إلا العرب.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، يقول: بطلت وذهبت أجورها، لأنها لم تكن لله بل كانت للشيطان، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، يقول: ماكثون فيها أبدًا، لا أحياءً ولا أمواتًا.

وقال في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾، المصدِّق بوحدانية الله، المخلص له العبادة ، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾، يقول: الذي يصدق ببعث الله الموتى أحياءً من قبورهم يوم القيامة ، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، المكتوبة، بحدودها، وأدَّى الزكاة الواجبة عليه في ماله إلى من أوجبها الله له ، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، يقول: ولم يرهب عقوبة شيء على معصيته إياه، سوى الله ، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾، يقول: فخليق بأولئك الذين هذه صفتهم، أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسسه خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السُّدِّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي: بشركهم، ﴿ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال:٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وأورد آثارًا ثم قال:

وقوله: ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ وعدم الإيمان، الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد اللّه، والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة؟!!.

ولهذا قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي: بطلت وضلت ﴿ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

ثم ذكر من هم عمار مساجد اللّه فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لأهلها ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم اللّه، ولم يقصر بحقوق اللّه الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أُمُّها الصلاة والزكاة، وبخشية اللّه التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على

الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ و «عسى» من اللّه واجبة. وأما من لم يؤمن باللّه ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية للّه، فهذا ليس من عمار مساجد اللّه، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فان قيل: كيف يشهدون على أنفسهم بالكفر. وهم يعتقدون أنهم على الصواب، فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه قول اليهودي: أنا يهودي وقول النصراني: أنا نصراني، قاله السدي.

والثاني: أنهم ثبتوا على أنفسهم الكفر بعدولهم عن أمر النبي ﷺ وهو حق لا يخفى على مميز فكانوا بمنزلة من شهد على نفسه.

والثالث: أنهم آمنوا بأنبياء شهدوا لمحمد ﷺ بالتصديق، وحرَّضوا على اتباعه، فلما آمنوا بهم وكذبوه، دلوا على كفرهم، وجرى ذلك مجرى الشهادة على أنفسهم بالكفر، لأن الشهادة هي تبيين وإظهار. ذكرهما ابن الانباري.

فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ ولم يذكر الرسول، والإيمان لا يتم إلا به. فالجواب: أن فيه دليلا على الرسول، لقوله: ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: الصلاة التي جاء بها الرسول، قاله الزجاج. فإن قيل: ﴿ فَعَسَىٰٓ ﴾ ترجّ، وفاعل هذه الخصال مهتد بلا شك. فالجواب: أن «عسى» من الله واجبة، قاله ابن عباس. فإن قيل: قد يعمر مساجد الله من ليس فيه هذه الصفات. فالجواب: أن المراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة، كان من أهل عمارتها؛ وليس المراد أن من عمرها كان بهذه الصفة.

المراد بعمارة المساجد

س: ما المراد بعمارة المساجد التي عناها الله بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدها: دخول المساجد وعبادة الله ﷻ فيها وتوحيده ودعاؤه ورجاؤه وتلاوة كتابه والصلاة له.

الثاني: بناء المساجد وتطهيرها.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي المراد بالعمارة قولان:

أحدهما: دخوله والجلوس فيه. **والثاني:** البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. والمراد من قوله ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: يجب على المسلمين منعهم من ذلك. قال الزجاج: وقوله: ﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ حال. المعنى ما كانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ لأن كفرهم أذهب ثوابها.



س: هل ثبت سند حديث: «إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»؟

ج: لم يصح سنده، وقد أخرجه غير واحد من أهل العلم كأحمد والترمذي[1] وغيرهما وفي سنده دراج يرويه عن أبي الهيثم، هذا سند ضعيف.

ولكن على كل حال فمعنى الآية الكريمة قائم بذاته والمعنى واضح فيها وكامنٌ والله أعلم.

---

(١) أحمد (٣/ ٦٨)، والترمذي (٣٠٩٣).

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ
دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ
وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ
وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ
وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟
حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

[التوبة: ١٩-٢٤].

(٣٨٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ - وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ - ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ - يَتَوَلَّهُم - وَعَشِيرَتُكُمْ - ٱقْتَرَفْتُمُوهَا -كَسَادَهَا - فَتَرَبَّصُوا۟ - بِأَمْرِهِۦ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾	سقيا الحجيج (حمل الماء إلى الحجيج ليشربوا)
﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ﴾	بناء المسجد – تنظيفه – رعايته
﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ﴾	اختاروا الكفر ورضوا به
﴿يَتَوَلَّهُم ﴾	يتخذهم أولياء وبطانة، يصادقهم ويناصرهم ويستنصرهم ويُعينهم
﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾	أقرباءكم
﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾	اكتسبتموها – جمعتموها
﴿كَسَادَهَا ﴾	ركودها – بوارها – عدم بيعها
﴿فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾	فانتظروا
﴿بِأَمْرِهِۦ ﴾	بأمره بفتح مكة – بأمره بتعذيبكم



(٣٨٦) أحمر
أسود

ومن فضل الجهاد في سبيل الله

س: اذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ﴾.

ج: أخرج مسلم في صحيحه من حديث النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.

هذا، وقد وردت اسباب نزول أُخر في أسانيدها ضعف، لكن معنى الآية الكريمة ينتظمها، بغض النظر عن الأسماء، أورد هذه الأسباب ابن الجوزي (في زاد المسير)، وأوردها غيره أيضًا.

قال ابن الجوزي:

والثاني: أن العباس بن عبد المطلب قال يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، فنزلت هذه الآية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله الحرام، والقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفتخرون بالحرم من أجل أنهم أهله، فنزلت

هذه الآية، رواه عطية العوفي عن ابن عباس.

والرابع: أن عليًّا والعباس وطلحة - يعني سادن الكعبة - افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتُّ فيه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، والقائم عليها، ولو أشاء بتُّ في المسجد. وقال علي: ما أدري ما تقولون، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن، والشعبي، والقرظي.

والخامس: أنهم لما أمروا بالهجرة قال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا صاحب الكعبة فلا نهاجر، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله مجاهد. هكذا ذكر مجاهد، وإنما الصواب عثمان بن طلحة؛ لأن طلحة هذا لم يسلم.

والسادس: أن عليًّا قال للعباس: ألا تلحق بالنبي ﷺ، فقال: ألستُ في أفضلَ من الهجرة، ألست أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية والتي بعدها، قاله المرة الهمداني، وابن سيرين، قال الزجاج: ومعنى الآية: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. قال الحسن: كان يُنبذ زبيبٌ، فيسقون الحاج في الموسم. وقال ابن عباس: عمارة المسجد: تجميره، وتخليقه، فأخبر الله أن أفعالهم تلك لا تنفعهم مع الشرك، وسماهم ظالمين لشركهم.

قلت (مصطفى): وكما أسلفت فكلها أسباب في أسانيدها مقال، ولا يثبت منها إلا حديث النعمان بن بشير. والله أعلم.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أجعلتم أيها الناس سقيا الحجيج وعمارة المسجد الحرام وكونكم بأيديكم مفاتيح الكعبة وتنظيف المسجد الحرام، وتتميم الناقص من بنيانه كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، أي: أجعلتم من يسقي الحجيج ويعمّر المسجد الحرام بالتشييد والبناء، وهو مشرك بالله كالمؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ويجاهد في سبيل الله؟!

فالآية الكريمة تنتظم أكثر من صنفٍ.

فتنتظم المؤمنين الذين راى بعضهم أن سقيا الحجيج وعمارة المسجد الحرام أفضل.

وتنتظم الذين قالوا إن عمارة المسجد الحرام أفضل، فقيل لهؤلاء ما حاصله إن الإيمان بالله واليوم الآخر حق الإيمان، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله أفضل مما ذكرتموه.

وكذا قيل لأهل الشرك الذين رأوا أن سقيا الحجيج، وعمارة المسجد أفضل من الإيمان والهجرة والجهاد.

فقيل لهؤلاء بل لا يستوي المؤمنون المجاهدون مع غيرهم، ولا يستوي المؤمنون المجاهدون مع أهل الشرك الذين كفروا، وإن عمروا المسجد الحرام وإن سقوا الحجيج، لا يستوي هؤلاء وأولئك عند الله والله لا يوّفق إلى

طاعته مرضاته وإلى الإيمان به وإلى صالح العمل القوم الظالمين المشركين ما داموا قائمين على شركهم وكفرهم، والله لا يوِّفق للإيمان من كتبت عليه الشقاوة كذلك، ثم إن الله ﷻ، وبعد أن ذُكر هذا الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ ﴾ بيَّن من هم الأفضل والأهدى سبيلا إذ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ ﴾ لمدينة رسولهم ولإقامة دينهم ﴿وَجَٰهَدُواْ ﴾ لإعلاء كلمة ربهم بالمال والنفس هؤلاء ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ أعظم من أهل الشرك درجات.

ولا يقال إن أهل الشرك على درجة وهؤلاء أعظم منهم، كلا بل هذا من أفعل التفضيل التي ليس في المقابل منها شيءٌ، كما قال تعالى: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ ﴾ [الفرقان: ٢٤]، وأصحاب النار ليسوا على أي شيء من الخيرية.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ وهو رضوان الله عليهم ودخولهم جنته، والنجاة من عذابه ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ يخبرهم بانه رحمهم وسلمهم ونجّاهم من العذاب ﴿وَرِضۡوَٰنٖ ﴾ أي: ويبشرهم أيضًا برضاه عنهم ﴿وَجَنَّٰتٖ ﴾ وحدائق وبساتين ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ ﴾ ما يتنعمون به من صنوف النعيم ﴿مُّقِيمٌ ﴾ لا يتحول ولا يزول ولا يبغون عنه تحولًا ولا انتقالًا بل هم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ ثواب عظيم لهؤلاء على طاعتهم له واستقامتهم على أمره.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو جعفر: وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السِّدانة والسقاية.

وأورد عددًا من الآثار ثم قال: فتأويل الكلام إذًا: أجعلتم، أيها القوم، سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ ﴾ هؤلاء، وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما، لأن الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملا ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، يقول: والله لا يوفّق لصالح الأعمال من كان به كافرًا ولتوحيده جاحدا.

وقال في تأويل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وهذا قضاءٌ من الله بَيْن فِرَق المفتخرين الذين افتخرَ أحدهم بالسقاية، والآخرُ بالسِّدانة، والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله، وصدقوا بتوحيده من المشركين ، ﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾ دورَ قومهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ ﴾ المشركين في دين الله ، ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾، وأرفع منزلة عنده، من سُقَاة الحاج وعُمَّار المسجد الحرام، وهم بالله مشركون ، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾، يقول: وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم، أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا، ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، بالجنة، الناجون من النار.

وقال في تأويل قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: يبشر هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، ﴿رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾، لهم، أنه قد رحمهم من أن يعذبهم، وبرضوان منه لهم، بأنه قد رضي عنهم بطاعتهم إياه، وأدائهم ما كلَّفهم ، ﴿وَجَنَّٰتٍ ﴾، يقول: وبساتين ، ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾، لا يزول ولا يبيد، ثابت دائمٌ أبدًا لهم.

وأورد بإسنادٍ رجاله ثقات عن جابر بن عبد الله قال: إذا دخل أهل الجنة

الجنة، قال الله سبحانه: أُعطيكم أفضل من هذا، فيقولون: ربَّنا، أيُّ شيء أفضل من هذا؟ قال: رِضْواني.

وقال في تأويل قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٢٢ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ماكثين فيها، يعني في الجنات، ﴿أَبَدًاۚ﴾، لا نهاية لذلك ولا حدَّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٢٢﴾، يقول: إن الله عنده لهؤلاء المؤمنين الذين نعتَهم جل ثناؤه النعتَ الذي ذكر في هذه الآية، ﴿أَجۡرٌ﴾، ثواب على طاعتهم لربّهم، وأدائهم ما كلفهم من الأعمال، ﴿عَظِيمٌ﴾، وذلك النعيم الذي وعدَهم أن يعطيهم في الآخرة.

وأورد القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ حديث النعمان بن بشير في سبب نزول الآية ثم قال:

وهذا المساق يقتضي أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال. وحينئذ لا يليق أن يقال لهم في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ فتعين الإشكال. وإزالته بأن يقال: إن بعض الرواة تسامح في قوله، فأنزل الله الآية. وإنما قرأ النبي ﷺ الآية على عمر حين سأله فظن الراوي أنها نزلت حينئذ. واستدل بها النبي ﷺ على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت في هؤلاء. والله أعلم.

فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة. قيل له: لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين. وقد قال عمر: إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتوضع صحفة وترفع أخرى ولكنا سمعنا قول الله تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة،

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة. فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع. وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإبهام، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء. وخبره ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾. و﴿دَرَجَةً﴾ نصب على البيان، أي من الذين افتخروا بالسقي والعمارة. وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال: المؤمن أعظم درجة. والمراد أنهم قدروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي فخاطبهم على ما قدروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأ كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ من كل ذي درجة، أي لهم المزية والمرتبة العلية. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أي يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم. والنعيم: لين العيش ورغده.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ نصب على الحال. والخلود الإقامة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي أعد لهم في دار كرامته ذلك الثواب.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان باللّه والجهاد في سبيله، أخبر اللّه تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

فالجهاد والإيمان باللّه أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل اللّه فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالا صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ جودا منه، وكرما وبرا بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا.

﴿وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ من كل ما اشتهته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا اللّه تعالى، الذي منه أن اللّه أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حولا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل اللّه، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

النهي عن موالاة الكافرين ولو كانوا من الأقربين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم- يا أهل الإيمان يا من آمنتم بالله وصدقتم رسوله ﷺ وأقررتم برسالته وآمنتم بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقضاء الله وقدره وسائر ما أمرتم به، يا هؤلاء لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أنصارًا وأصدقاء وبطانات تناصرونهم وتوالونهم وتفشون إليهم بأسراركم ودواخلكم ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، إن اختاروا الكفر بديلًا عن الإيمان، ومن ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ بمناصرتهم ومصاحبتهم وإفشاء الأسرار إليهم واستشاراتهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وبخسوها حقها وأنزلوها منزلة لا تأمن فيها من العذاب، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسرارَكم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المُكْثَ بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ، ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار بتوحيده ، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾، يقول: ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقَام معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يقول: فالذين يفعلون ذلك منكم، هم الذين خالفوا أمرَ الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره.

وقيل: إن ذلك نزل نهيًا من الله المؤمنين عن موالاة أقربائهم الذين لم يهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أمر الله تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر. ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ أي أحبوا، كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. أي لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخص الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها. فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان.

ثم قال:

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي راغبة وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «**صلي أمك**» خرجه البخاري.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ قال ابن عباس:

هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي اللّه، واتخذوا أعداء اللّه أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة اللّه، ومحبتهم على محبة اللّه ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة اللّه ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن موالاة الكفار، ولو كانوا قرباء، وصرح في موضع آخر: بأن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ولو كانوا قرباء، وهو قوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء الذين يؤثرون أهاليهم وعشائرهم على أهل الإيمان، وعلى طاعة الله ومرضاته ومرضاة رسوله ﷺ وعلى الجهاد في سبيل الله، قل لهم إن كان حبكم لآبائكم وأبناءكم وإخوانكم وكذا حبكم لأزواجكم وعشائركم وحبكم لدنياكم بما فيها من أموال اكتسبتموها، ومن التجارات التي تخشون أن تكسد وتبور، بزعمكم، وكذا إذا كانت مساكنكم التي تعيشون فيها ورضيتم بها مساك، إذا كان هذا كله أحب إليكم من ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، من الإيمان بالله وبرسوله، وأحب إليكم من طاعة الله ورسوله، وأحب إليكم من الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فانتظروا ماذا سيحلُّ بكم، انتظروا أمر الله الذي سينزل وسيأتي فقد ينزل عليكم عذابٌ، وقد ينصر الله أهل الغيمان ويفتح عليهم مكة فيندم أهل النفاق الذين قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، والله لا يوفق لطاعته ولا لمرضاته ولا للعمل الصالح أهل الفسق والفجور والعصيان والانحراف عن الطاعة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وكانت ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾، يقول: اكتسبتموها ، ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾، بفراقكم بلدكم ، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾، فسكنتموها ، ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم﴾، من الهجرة إلى الله ورسوله، من دار الشرك، ومن جهاد في سبيله، يعني: في نصرة دين الله الذي ارتضاه ،

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، يقول: فتنظّروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، حتى يأتي الله بفتح مكة، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، يقول: والله لا يوفّق للخير الخارِجين عن طاعته وفي معصيته.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وأورد ما أخرجه أحمد والبخاري[(١)] من حديث زُهْرَةُ بْنُ مَعْبَدٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**».

وقال ابن كثير أيضًا:

وقد ثبت في الصحيح[(٢)] عنه ﷺ أنه قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**».

---

(١) البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٦)، وقد أورده من طريق الإمام أحمد ولكن آثرت إيراده من البخاري.

(٢) البخاري (بنحوه رقم ١٤)، ومسلم (٤٤).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من تسارع لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أنشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك، فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

يقول: إن اختاروا الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ بعد نزول الآية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ ﴾ وهي الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد، ومنه المعاشرة وهي الاجتماع على الشيء. ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره. ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ قال ابن المبارك: هي البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدن لهن خاطبا. قال الشاعر:

كسدن من الفقر في قومهن وقد زادهن مقامي كسودا

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ يقول: ومنازل تعجبكم الإقامة فيها. ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة. و﴿أَحَبَّ﴾ خبر كان. ويجوز في غير القرآن رفع «أحب» على الابتداء والخبر، واسم كان مضمر فيها. وأنشد سيبويه:

إذا مت كان الناس صنفان: شامت وآخر مثن بالذي كنت أصنع

وأنشد:

هي الشفاء لدائي لو ظفرت بها وليس منها شفاء الداء مبذول

وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب. وقد مضى في «آل عمران» معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله. ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد. يقول: انتظروا. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني القتال وفتح مكة، عن مجاهد. الحسن: بعقوبة آجلة أو عاجلة. وفي قوله: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال. وسيأتي فضل الجهاد في آخر السورة. وقد مضى من أحكام الهجرة في «النساء» ما فيه كفاية، والحمد لله. وفي الحديث الصحيح: «**إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد قعد له في طريق الإسلام فقال لم تذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم وقعد له في طريق الهجرة فقال له أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعد في طريق الجهاد فقال له تجاهد فتقتل فينكح أهلك ويقسم مالك فخالفه وجاهد فحق على الله أن يدخله الجنة**». وأخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان...** » فذكره. قال البخاري: (ابن الفاكه) ولم يذكر فيها اختلافا. وقال ابن أبي عدي: يقال ابن الفاكه وابن أبي الفاكه. انتهى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ في النسب والعشرة ﴿ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أي: قراباتكم عموما ﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي:

اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ.

﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ فأنتم فسقة ظلمة.

﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ الذي لا مرد له.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: الخارجين عن طاعة اللّه، المقدمين على محبة اللّه شيئا من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة اللّه ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من اللّه ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه اللّه ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا للّه ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه اللّه، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (في زاد المسير):

وفي قوله ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ قولان:

أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثرون، ومعنى الآية: إن كان

(٤٠٢) أحمر
أسود

المقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ لفراقكم بلدكم ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مثابين حتى تفتح مكة فيسقط فرض الهجرة.

والثاني: أنه العقاب. قاله الحسن.



دفع إشكالات وجمعٌ بين آيات

س: كيف التوفيق بين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ٢٤﴾ وأيضًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠٩﴾ وبين ما حدث من أن الله ﷻ هدى أقوامًا لا حصر لهم من أهل الظلم والفسق والكفر إلى الإسلام؟

ج: هنا جوابنان يذكرهما العلماء:

أحدهما: أن المراد بالظالمين والفاسقين والكفار الذين لم يهديهم من هم أهل الشقاوة الذين كتبت عليهم الشقاوة وكتب عليهم أنهم سيموتون على الكفر.

الثاني: أن الله لا يوفق أهل العلم والفساق ما داموا قائمين على سقين ولا يرغبون في ترك ما هم عليه.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ
كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا
رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ
جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا
يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ
يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨
قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ
يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ
وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ
يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا

(٤٠٤) أحمر
أسود

وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١
يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ
كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾

[التوبة: ٢٥-٣٣]

(٤٠٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ - حُنَيْنٍ - وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ - بِمَا رَحُبَتْ - وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ - سَكِينَتَهُۥ - جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا - يَتُوبُ ٱللَّهُ - نَجَسٌ - عَيْلَةً - وَلَا يَدِينُونَ - دِينَ ٱلْحَقِّ - ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ - ٱلْجِزْيَةَ - عَن يَدٍ - صَـٰغِرُونَ - يُضَـٰهِـُٔونَ - أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ - أَحْبَارَهُمْ - وَرُهْبَـٰنَهُمْ - أَرْبَابًا - مِّن دُونِ ٱللَّهِ - سُبْحَـٰنَهُۥ - عَمَّا يُشْرِكُونَ - يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ - وَيَأْبَى ٱللَّهُ - بِٱلْهُدَىٰ - لِيُظْهِرَهُۥ - ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾	غزوات متعددة – معارك متفرقة – أماكن كثيرة
﴿حُنَيْنٍ﴾	موطن بين مكة والطائف، وهو الذي حصلت عنده الغزوة الشهيرة (غزوة حنين)
﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ - بِمَا	ضاقت عليكم الأرض رغم اتساعها لملاحقة العدو لكم وعدم ووجود مكان للفرار
﴿وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾	انصرفتم مسرعين هاربين
﴿سَكِينَتَهُۥ﴾	طمأنينته
﴿جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾	هم الملائكة
﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾	يرجع برحمته – يتفضل على أهل الشرك بهدايتهم
﴿نَجَسٌ﴾	نجس المعتقد – أجناب (في غالب الأحوال على جنابة إذ لا يغتسلون منها)
﴿عَيْلَةً﴾	فقرًا – حاجةً

(٤٠٦) أحمر
أسود

(وَلَا يَدِينُونَ)	لا يتعبدون الله – لا يقرون – لا يتبعون الدين الحق، وهي الإسلام
(دِينَ ٱلۡحَقِّ)	دين الله سبحانه، والله هو الحق
(ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ)	اليهود والنصارى
(ٱلۡجِزۡيَةَ)	مبلغ من المال يدفع كي لا يقاتلوا وكي يأمنوا في بلاد المسلمين
(عَن يَدٖ)	عن قهرٍ (طائعين) ومكرهين، وقيل: كلٌ يدفع جزيته بيده بلا واسطة
(صَٰغِرُونَ)	أذلاء مُهانون
(يُضَٰهِـُٔونَ)	يشابهون
(أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ)	من أيِّ وجه يُصرفون عن الحق إلى الباطل
(أَحۡبَارَهُمۡ)	علماءهم
(وَرُهۡبَٰنَهُمۡ)	عبّادهم
(أَرۡبَابٗا)	كالأرباب يطيعونهم فيما حرم الله، فيحلوا لهم ما حرمه الله ويحرمون عليهم ما أحله الله فيتبعونهم
(مِّن دُونِ ٱللَّهِ)	غير الله – مع الله
(سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ)	تنزه عن الشريك الذي يتخذونه له

(٤٠٧) أحمر
أسود

(يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ)	يخمدوا الإسلام ويمحون معالمه ويشوشون على آياته
(وَيَأۡبَى ٱللَّهُ)	يمنع الله تحقيق مرادهم
(بِٱلۡهُدَىٰ)	بالدلالات الواضحات والآيات البينات
(لِيُظۡهِرَهُۥ)	ليُعليه – ليجعله غالبًا
(ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ)	الأديان الباطلة كلها



غزوة حنين

س: وض معنى هذه الآيات: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: لقد نصركم الله يا أهل الإسلام ويا أصحاب رسول الله ﷺ في عدة معارك، وفي عدة أماكن، ولقد نصركم أيضًا يوم حنين إذ خرجتم إليها القتال العدو الذي كان قد جمع لكم الجموع وأعدَّ لكم العُدد، لقد خرجتم إلى حنين وعددكم كثير، وقد اختلط بكم من اختلط من ضعفاء الإيمان من الذين أسلموا حديثًا من أهل مكة، أسلموا على ضعف خرجتم جميعًا، وكان عددكم كبيرًا جدًّا.

فاغترَّ بعضكم الكثرة وأُعجب بها، وكأنه غفل عن أن النصر من عند الله العزيز الحكيم، فلما غف أغرَّته الكثرة فاغترَّ بها، وكان عدوكم قد أعدَّ لكم عددًا وعُددًا، فلم تُجد عنكم كثرتكم ولم تدفع عنكم بطش عدوكم فقدانها عليكم عددكم بالنبال، بعد أن كمن لكم وفاجأكم بالنبال تارة يرشقكم بها والسيوف ضربًا مفاجئًا مباغتًا فلم تدروا كي تصنعون فبحثتم عن موطن للفرار ولا موطن أمامكم ورغم سعة الأرض وانبساطها إلا أن الملاحقة أشد فضاقت عليكم الأرض رغم اتساعها فانصرفتم هاربين مسرعين ممعنين في الفرار.

لكن رسولكم ﷺ لم يفر بل ثبت وثبت معه بعض الفضلاء من أصحابه رضي الله عنهم ثبتهم جميعًا ربهم تبارك وتعالى وأنزل عليهم السكينة، وأنزل الله

الطمأنينة على رسوله ﷺ وعلى من معه من المؤمنين، فلم يخافوا ولم ينسحبوا ولم يفروا، ولم يهربوا، بل تقدم النبي ﷺ وابن عمه أبو سفيان بن الحارث يقود له الناقة، وكان أبو سفيان بن الحارث أسلم حديثًا، وقبلها كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ولكن لما اسلم حسن إسلامه جدًّا، وكان شجاعًا مغوارًا فطفق يقود ناقة النبي ﷺ صوب العدو وناحية العدو، ورسول الله ﷺ لا يبالي بأعداء الله، بل يقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

ومع رسول الله ﷺ من أصحابه عدد من المهاجرين والأنصار، ولكنهم كانوا في أول الأمر قلةٌ، كان معه أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان معه من آل بيته كما سلف أبو سفيان بن الحارث وابنه، والعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم ممن سيأتي بيان بعضهم إن شاء الله، تقدموا صوب العدو، ومكن الله عليًّا من بعض رؤوس الكفر – كما سيأتي بيانه إن شاء الله – تقدم رسول الله ﷺ واثقًا بالله مستعينًا به مستجيرًا مستغيثًا به عليه سكينتهُ من الله هو ومن معه، وأنزل الله ملائكة من السماء بما معها من السكينة، أنزل الله هذه الملائكة جنودًا يؤيد بها رسوله ﷺ ويؤيد بها أهل الغيمان فنصر الله رسوله ﷺ وأهل الإيمان بعد أن صدر من نداءات للأنصار ناداهم العباس عم رسول الله، فاجتمعوا حول رسول الله ﷺ من كل صوبٍ وحدبٍ قائلين للعباس وهو يناديهم يا معشر الأنصار يا أصحاب سورة البقرة، ويا من بايعتم تحت الشجرة، وهم يقولون: يا لبيك يا لبيك فاجتمعوا حول رسول الله ﷺ بعد تفرقٍ، والتئموا بعد تمزقٍ وتشتتٍ فتبدلت الأمور والأموال، ونصر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه والمؤمنين، فطفقوا يضربون رقاب أهل الكفر ويسبون نساءهم ويأخذونهم غنائم ويأخذون سائر الغنائم، فقتل من أهل الكفر من قُتل، وأُسر من أسر وسُبي من سُبي وجمعت الغنائم العظيمة

والأموال والسبايا، وذلك أن أهل الكفر من هوازن وغيرهم كانوا قد جمعوا جموعهم وأخرجوا معهم نساءهم وصبيانهم ومواشيهم وأموالهم فمن الله على المؤمنين بالنصر والغنيمة.

ثم إن أهل الشرك ولما فرا، أقبلوا إلى رسول الله ﷺ، وقد أسلموا بعد كفروا، وأقبلوا على الإسلام بعد إدبار، ولكنهم أقبلوا أيضًا يريدون من رسول الله ﷺ أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم وصبيانهم فخيّرهم رسول الله ﷺ بين المال والسبي فاختاروا السبي، فرده رسول الله ﷺ عليهم، على ما سيأتي بيانه.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ فمعناه: ويتفضل الله ﷻ على من يشاء بأهل الشرك فيرجع عليه برحمته فيسلم ويقبل الله توبته، ويتوب الله على من فرَّ من أهل الإيمان أيضًا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ كثير المغفرة ﴿رَّحِيمٞ﴾ بالعباد، ورحيم بالمؤمنين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أيها المؤمنون، في أماكن حرب توطِّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوّكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾، يقول: وفي يوم حنين أيضًا قد نصركم.

و«حنين» وادٍ، فيما ذكر، بين مكة والطائف.

﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، يقول: فلم تغن عنكم كثرتكم شيئا، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، يقول: وضاقت الأرض بسعتها عليكم.

و«الباء» ههنا في معنى «في»، ومعناه: وضاقت عليكم الأرض في رحبها، وبرحبها.

(٤١١) أحمر
أسود

يقال منه: «مكان رحيب»، أي واسع. وإنما سميت الرِّحاب «رحابًا» لسَعَتَها.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، عن عدوكم منهزمين، ﴿مُّدْبِرِينَ﴾، يقول: وليتموهم، الأدبار، وذلك الهزيمة. يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليلَ على الكثير إذا شاء، ويخلِّي الكثيرَ والقليلَ، فَيَهْزِم الكثيرُ.

وأورد الطبري آثارًا ثم قال:

في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم من بعد ما ضاقت عليكم الأرض بما رحبت، وتوليتكم الأعداءَ أدباركم، كشف الله نازل البلاء عنكم، بإنزاله السكينة -وهي الأمنة والطمأنينة- عليكم.

وقد بينا أنها «فعيلة»، من «السكون»، فيما مضى من كتابنا هذا قبل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهي الملائكة التي ذكرتُ في الأخبار التي قد مضى ذكرها، ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يقول: وعذب الله الذين جحدوا وحدانيّته ورسالةَ رسوله محمدٍ ﷺ، بالقتل وسَبْي الأهلين والذراريّ، وسلب الأموال والذلة، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتل والسبي، ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يقول: هو ثواب أهل جحود وحدانيته ورسالة رسوله.

وقال في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه، من بعد عذابه الذي به عذَّب من هلك منهم قتلا بالسيف، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، أي يتوب الله على من يشاء من الأحياء، يُقْبِل به إلى طاعته، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها، ﴿رَّحِيمٌ﴾، بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم، ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل [الله] نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عَلَيْهِ السَّلَامُ من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف

من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، ﷻ وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول] : «أين يا عباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله»، ويقول في تلك الحال:

«**أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب...**».

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما ، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم، ثم أمر ﷺ عمه العباس -وكان جهير الصوت -أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه -فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة

من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني**» ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا:

وفي الصحيحين[١] من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوما رُمَاة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

«**أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب**».

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾أي: الذين معه، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة.

---

(١) البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النَّضْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مـا إنْ رَأيـتُ ولا سَـمعتُ بمثْلِـه ... في النَّـاس كُلّهـم بمثـل مُحَمَّـد
أوْفَى وأعْطَى للجزيل إذا اجتُدى ... ومَتـى تَشَـأ يُخْبـرْكَ عَمّـا في غَـد
وإذَا الكتيبـة عَـرّدَتْ أنيابُهـا ... بالسَّـمْهَريّ وَضَـرْب كُـلّ مُهَنَّـد
فَكَأنَّـه ليـث علـى أشْـبَاله ... وسـط الهَبَـاءة خَـادر في مَرْصَـد

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين

بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول اللّه ﷺ، إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ، يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم اللّه المشركين، هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۢ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: لم تفدكم شيئا، قليلا ولا كثيرا ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: على رحبها وسعتها، ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ أي: منهزمين.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والسكينة ما يجعله اللّه في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، مما يثبتها، ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم اللّه العظيمة على العباد.

﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة، أنزلهم اللّه معونة للمسلمين يوم حنين، يثبتونهم، ويبشرونهم بالنصر.

﴿ وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم.

﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ يعذبهم اللّه في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾. فتاب اللّه على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم، وأولادهم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول توباتهم، فلا ييأسنَّ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.



بعض الوارد من الأحاديث والآثار في غزوة حنين

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار الواردة في غزوة حنين؟

ج: أخرج مسلم[١] في صحيحه من طريق إِيَاسُ بْنُ سَلَمَةَ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَلَمَّا وَاجَهْنَا الْعَدُوَّ تَقَدَّمْتُ، فَأَعْلُو ثَنِيَّةً، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ فَأَرْمِيهِ بِسَهْمٍ، فَتَوَارَى عَنِّي، فَمَا دَرَيْتُ مَا صَنَعَ. وَنَظَرْتُ إِلَى الْقَوْمِ فَإِذَا هُمْ قَدْ طَلَعُوا مِنْ ثَنِيَّةٍ أُخْرَى، فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَلَّى صَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَرْجِعُ مُنْهَزِمًا، وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ، مُتَّزِرًا بِإِحْدَاهُمَا مُرْتَدِيًا بِالْأُخْرَى، فَاسْتَطْلَقَ إِزَارِي، فَجَمَعْتُهُمَا جَمِيعًا، وَمَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْهَزِمًا، وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ رَأَى ابْنُ الْأَكْوَعِ**

---

(١) مسلم (١٧٧٧).

فَزَعًا» فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنْ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنْ الْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، فَقَالَ: «**شَاهَتْ الْوُجُوهُ**» فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا، بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ. فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وأخرج مسلم[1] بسنده إلى ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي كَثِيرُ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: قَالَ عَبَّاسٌ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ، أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ، وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ. قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْ عَبَّاسُ! نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**». فَقَالَ عَبَّاسٌ (وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا): فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ! لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا. فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ! يَا لَبَّيْكَ! قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ. فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ! يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ! فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ، كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ**» قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ. ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ!**» قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى،

---

(١) مسلم (١٧٧٥).

قَالَ: فَوَاللهِ! مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.

وأخرج البخاري ومسلم[١] من طريق أَبِي إِسْحَاقَ سَمِعَ الْبَرَاءَ - وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ: لَكِنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، كَانَتْ هَوَازِنُ رُمَاةً وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْكَشَفُوا فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ، فَاسْتُقْبِلْنَا بِالسِّهَامِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِزِمَامِهَا وَهُوَ يَقُولُ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ**».

قال ابن إسحاق[٢]: وحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى مِن تلك العطايا فى قريش، وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وَجَدَ هذا الحىُّ من الأنصار فى أنفسهم، حتى كَثُرت فيهم القالةُ، حتى قال قائلُهم: لقى واللهِ رسولُ الله ﷺ قومَه، فدخل عليه سعدُ بنُ عبادة، فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الحىَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك فى أنفسهم لِما صنعتَ فى هذا الفىءِ الذى أصبتَ، قسمتَ فى قومك، وأعطيتَ عطايا عِظامًا فى قبائل العرب، ولم يكن فى هذا الحىِّ من الأنصار منها شىء. قال:

«**فأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ**»؟ قال: يا رسولَ الله؛ ما أنا إلا مِن قومِى. قال: «**فاجْمَعْ لِى قَومَكَ فى هذِهِ الحَظِيرَةِ**» قال: فجاء رجالٌ من المهاجرينَ، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا، أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحىُّ من الأنصار، فأتاهم رسولُ الله ﷺ، فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؛ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنى عَنْكُم، وجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فى**

(١) البخاري (٤٣١٧)، ومسلم (١٧٧٦).
(٢) نقلًا عن زاد المعاد، وسنده حسن.

أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَداكُم اللهُ بى، وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بى، وأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُم»؟ قالوا: الله ورسولُه أَمَنُّ وأفضلُ، ثم قال: «أَلاَ تُجيبُونى يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ»؟ قالوا: بماذَا نجيبُك يا رسولَ الله، للهِ ولِرسُولِه المنُّ والفَضْلُ؟ قال: «أَمَا واللهِ لَوْ شِئْتُم، لَقُلْتُم، فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، ومَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وعائِلاً فآسيناكَ، أَوجَدْتم عليَّ يَا مَعْشَرَ الأَنْصارِ فى أَنْفُسِكُم فى لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قوماً لِيُسْلِمُوا، وَوكَلْتُكُم إلى إِسْلامِكُم، ألا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاء والبَعير، وتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ الله إلى رحالِكم، فَوالَّذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُون بِهِ خيرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، وَلَوْلا الهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرُءاً مِن الأَنْصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَوَاديًا، وسَلَكَت الأنصار شِعْبًا وَوَاديًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصارِ وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ، اللهُمَّ ارْحَم الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصار، وأبناءَ أبناءِ الأَنْصار».

قال: فبكى القومُ حتَّى أخضلُوا لِحاهم، وقالوا: رَضينَا برسُولِ الله ﷺ قَسْمًا وحظًا، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ وتفرَّقوا.

وأخرج البخاري ومسلم[(١)] من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا فَتَحَ حُنَيْنًا قَسَمَ الْغَنَائِمَ. فَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ. فَبَلَغَهُ أَنَّ الْأَنْصَارَ يُحِبُّونَ أَنْ يُصِيبُوا مَا أَصَابَ النَّاسُ. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَطَبَهُمْ. فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمْ اللهُ بِي؟» وَيَقُولُونَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. فَقَالَ: «أَلَا تُجِيبُونِي؟» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا كَذَا وَكَذَا وَكَانَ مِنْ الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا». لِأَشْيَاءَ عَدَّدَهَا. زَعَمَ عَمْرٌو أَنْ لَا يَحْفَظُهَا.

---

(١) البخاري (٤٣١٧)، ومسلم (١٧٧٦).

فَقَالَ: «أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْإِبِلِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ. وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ. وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ. إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً. فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ».

وأخرج البخاري ومسلم(١) من طريق عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ أَنَّ مَرْوَانَ وَالْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ وَإِمَّا الْمَالَ. وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ - وَكَانَ أَنْظَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ - فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ. وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ. فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا. هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْ سَبْيِ هَوَازِنَ».

أورد الطبري بإسناد حسن(٢) عن قتادة قوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾، حتى بلغ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، قال: «حنين»، ماء

(١) البخاري (٤٣١٨، ٤٣١٩).
(٢) ولكنه مرسل.

بين مكة والطائف، قاتل عليها نبيُّ الله هوازن وثقيفَ، وعلى هوازن: مالك بن عوف أخو بني نصر، وعلى ثقيف: عبد يا ليل بن عمرو الثقفيّ. قال: وذُكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفًا: عشرة آلافٍ من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطُّلقَاء، وذكر لنا أنَّ رجلا قال يومئذٍ: «لن نغلب اليوم بكَثْرة» ! قال: وذكر لنا أن الطُّلقَاء انجفَلوا يومئذ بالناس، وجلَوْا عن نبي الله ﷺ حتى نزل عن بغلته الشهباء. وذكر لنا أن نبيَّ الله قال: «**أي رب، آتني ما وعدتني**» ! قال: والعباسُ آخذ بلجام بغلةِ رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «**ناد يا معشر الأنصار، ويا معشر المهاجرين!**»، فجعل ينادي الأنصار فَخِذًا فخِذًا، ثم قال: «نادِ بأصحاب سورة البقرة !». قال: فجاء الناس عُنُقًا واحدًا. فالتفت نبيُّ الله ﷺ، وإذا عصابة من الأنصار، فقال: هل معكم غيركم؟ فقالوا: يا نبي الله، والله لو عمدت إلى بَرْك الغِمادِ من ذي يَمَنٍ لكنَّا مَعَك، ثم أنزل الله نصره، وهزَمَ عدوّهم، وتراجع المسلمون. قال: وأخذ رسول الله كفًّا من تراب -أو: قبضةً من حَصْباء- فرمى بها وجوه الكفار، وقال: «**شاهت الوجوه!**»، فانهزموا. فلما جمع رسول الله ﷺ الغنائم، وأتى الجعرَّانة، فقسم بها مغانم حنين، وتألَّف أناسًا من الناس، فيهم أبو سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس، فقالت الأنصار: «**أمن الرجل وآثر قومه**» ! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وهو في قُبَّة له من أَدَم، فقال: «**يا معشر الأنصار، ما هذا الذي بلغني؟ ألم تكونوا ضُلالا فهداكم الله، وكنتم أذلَّةً فأعزكم الله، وكنتم وكنتم!** » قال: فقال سعد بن عبادة رَحِمَهُ اللَّهُ: ائذن لي فأتكلم ! قال: تكلم. قال: أما قولك: «**كنتم ضلالا فهداكم الله**»، فكنا كذلك، «**وكنتم أذلة فأعزكم الله**»، فقد علمت العربُ ما كان حيٌّ من أحياء العرب أمنعَ لما وراء ظهورهم منَّا! فقال عمر: يا سعد أتدري من تُكلِّم! فقال: نعم أكلّم رسول الله

ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو سلكَتِ الأنصارُ واديًا والناس واديًا لسكت وادي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنت امرءًا من الأنصار**». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «**الأنصار كَرِشي وَعَيْبتي، فاقبلوا من مُحِسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار، أما ترضون أن ينقلب الناس بالإبل والشاء، وتنقلبون برسولِ الله إلى بيوتكم!**» فقالت الأنصار: رضينا عن الله ورسوله، والله ما قلنا ذلك إلا حرصا على رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ورسوله يصدِّقانكم ويعذِرَانكم**».

وأخرج البخاري (١) من حديث أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ حُنَيْنٍ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَدْ عَلَا رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ بِالسَّيْفِ فَقَطَعْتُ الدِّرْعَ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَمْرُ اللهِ ﷻ. ثُمَّ رَجَعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**» فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَهُ. فَقُمْتُ فَقُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ قَالَ: ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَهُ فَقُمْتُ فَقَالَ: «**مَا لَكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟**» فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: صَدَقَ وَسَلَبُهُ عِنْدِي، فَأَرْضِهِ مِنِّي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَاهَا اللهِ، إِذًا لَا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللهِ يُقَاتِلُ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فَيُعْطِيَكَ سَلَبَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ فَأَعْطِهِ**» فَأَعْطَانِيهِ، فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرَفًا فِي بَنِي سَلِمَةَ، فَإِنَّهُ لَأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ.

وأخرج البخاري (٢) من حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) البخاري (٤٣٢١).
(٢) البخاري (٤٣٢٣).

مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ. قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ، فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي، فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: أَلَا تَسْتَحْيِي أَلَا تَثْبُتُ، فَكَفَّ فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: لِأَبِي عَامِرٍ قَتَلَ اللهُ صَاحِبَكَ، قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ الْمَاءُ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَقْرِئْ النَّبِيَّ ﷺ السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي، وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ، فَمَكُثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ، وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ وَقَالَ: قُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ**» وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنْ النَّاسِ**» فَقُلْتُ: وَلِي فَاسْتَغْفِرْ. فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا**» قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: إِحْدَاهُمَا لِأَبِي عَامِرٍ، وَالْأُخْرَى لِأَبِي مُوسَى.

وأخرج ابن إسحاق[1] في السيرة، وأحمد وغيرهما، بسندٍ حسن من طريق عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَمَّا اسْتَقْبَلْنَا وَادِيَ حُنَيْنٍ، انْحَدَرْنَا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ أَجْوَفَ حَطُوطٍ، إِنَّمَا نَنْحَدِرُ فِيهِ انْحِدَارًا. قَالَ: وَفِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبَقُونَا إِلَى الْوَادِي، فَكَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَأَحْنَائِهِ وَمَضَايِقِهِ، قَدْ أَجْمَعُوا، وَتَهَيَّئُوا، وَأَعَدُّوا، فَوَاللهِ مَا

(١) ابن إسحاق في السيرة (ص ٥٥٣)، وأحمد (٣/٣٧٦).

رَاعَنَا وَنَحْنُ مُنْحَطُّونَ إِلَّا الْكَتَائِبُ، قَدْ شَدَّتْ عَلَيْنَا شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَانْشَمَرَ النَّاسُ رَاجِعِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ، وَانْحَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ ثُمَّ قَالَ: «**إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللهِ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**» وَبَقِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَفِيمَنْ ثَبَتَ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ: عَلِيٌّ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ وَابْنُهُ، وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وأَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ، وَقُتِلَ يومئذٍ، قَالَ: وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ بِيَدِهِ رَايَةٌ سَوْدَاءُ فِي رَأْسِ رُمْحٍ طَوِيلٍ أَمَامَ هَوَازِنَ، وَهَوَازِنُ خَلْفَهُ، إِذَا أَدْرَكَ طَعَنَ بِرُمْحِهِ، وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ، رَفَعَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَّبَعُوهُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَهْوَى عَلَيهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُرِيدَانِهِ، قَالَ: فَأَتَى عَلِيٌّ مِنْ خَلْفِهِ، فَضَرَبَه ضَرْبَةً أَطَنَّ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَانْعَجَفَ عَنْ رَحْلِهِ، قَالَ: فَاجْتَلَدَ النَّاسُ قَال: فَوَاللهِ مَا رَجَعَتْ رَاجِعَةُ النَّاسِ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتَّى وَجَدُوا الْأَسَارَى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ ابنُ إِسْحَاقَ: وحَدَّثَنِي عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: وَرَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ، بِيَدِهِ رَايَةٌ سَوْدَاءُ فِي رَأْسِ رُمْحٍ لَهُ طَوِيلٍ، أَمَامَ هَوَازِنَ، وَهَوَازِنُ خَلْفَهُ، إِذَا أَدْرَكَ طَعَنَ بِرُمْحِهِ، وَإِذَا فَاتَهُ النَّاسُ رَفَعَ رُمْحَهُ لِمَنْ وَرَاءَهُ فَاتَّبَعُوهُ[(١)].

وَعَنْ[(٢)] أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: فَسِرْنَا مَعَهُ إِلَى حُنَيْنٍ، قَالَ: وَكَانَتْ لِكُفَّارُ قُرَيْشٍ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ الْعَرَبِ لَهُمْ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ خَضْرَاءُ، يُقَالُ

(١) وإسناده حسن أيضًا.

(٢) صحيح: أخرجه ابن إسحاق في السيرة، والترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وغيرهم.

لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يَأْتُونَهَا كُلّ سَنَةٍ، فَيُعَلّقُونَ أَسْلِحَتَهُمْ عَلَيْهَا، وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَيَعْكُفُونَ عَلَيْهَا يَوْمًا. قَالَ: فَرَأَيْنَا وَنَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ سِدْرَةً خَضْرَاءَ عَظِيمَةً، قَالَ: فَتَنَادَيْنَا مِنْ جَنَبَاتِ الطّرِيقِ: يَا رَسُولَ اللّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**اللّهُ أَكْبَرُ قُلْتُمْ وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى**: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٨] **إِنّهَا السّنَنُ لَتَرْكَبُنّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**».

وأخرج مسلم[١] من حديث أَنَسٍ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا. فَكَانَ مَعَهَا. فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا هَذَا الْخِنْجَرُ؟**» قَالَتْ: اتَّخَذْتُهُ. إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ**».

بعض الفوائد التي ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في غزوة حنين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (زاد المعاد):

فصل: فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكمية

كان اللهُ ﷻ قد وعد رسولَه، وهو صادقُ الوعد، أنه إذا فتح مكَّة، دخل النَّاسُ فى دينه أفواجًا، ودانت له العربُ بأسرها، فلما تمَّ له الفتحُ المبين، اقتضت حِكمتُه تعالى أن أمسك قلوبَ هَوازِنَ ومَن تَبِعَهَا عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألَّبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، لِيظهر أمرُ الله، وتمامُ إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولِتكون غنائمُهم شكرانًا لأهل الفتح، وليُظهرَ

---

(١) مسلم (١٨٠٩).

اللهُ سبحانه رسولَه وعِبادَه، وقهرَه لهذه الشَّوْكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها، فلا يُقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب، ولغير ذلك مِن الحكم الباهرة التى تلوحُ للمتأملين، وتبدو للمتوسمين

واقتضت حكمتُه سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارةَ الهزيمة والكسرة مع كثرة عَددهم، وعُددهم، وقوةِ شَوْكتهم لِيُطامِنَ رُؤوساً رُفِعت بالفتح، ولم تدخل بلدَه وحرمه كما دخله رسولُ الله ﷺ واضعاً رأسه منحنياً على فرسه، حتى إنَّ ذقنه تكادُ تَمَسُّ سرجه تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته، واستكانةً لعزَّته، أن أحلَّ له حَرَمهُ وبلده، ولم يَحِلَّ لأحد قبله ولا لأحد بعدَه، ولِيبين سُبحانه لمن قال: «لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ عن قِلَّةٍ» أن النصرَ إنما هو من عنده، وأنه مَن ينصرُه، فلا غالب له، ومَن يخذُله، فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذى تولَّى نصر رسوله ودينه، لا كثرتُكم التى أعجبتكم، فإنها لم تُغن عنكم شيئاً، فوليتُم مُدبرين، فلما انكسرت قلوبُهم، أُرسلت إليها خِلَعُ الجبر مع بَرِيدِ النصر، فأنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وقد اقتضت حكمتُه أن خِلَعَ النصر وجوائزَه إنما تفيضُ على أهل الانكسار: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

[القصص: ٥، ٦]

ومنها: أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائمَ مكة، فلم يغنمُوا منها ذهباً، ولا فضةً، ولا متاعاً، ولا سبياً، ولا أرضاً كما روى أبو داود، عن وهب ابن منبِّه، قال: سألتُ جابراً: هَلْ غَنِمُوا يَوْمَ الفَتْح شَيْئاً؟ قال: لا[1]. وكانوا قد

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٣٠٢٣)، وابن سعد (١٤٣/٢).

فتحوها بإيجافِ الخيل والركاب، وهُم عشرةُ آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيشُ مِن أسباب القوة، فحرَّك سبحانَه قلوبَ المشركين لغزوهم، وقذفَ فى قلوبهم إخراجَ أموالهم، ونَعمهم، وشائهم، وسَبيهم معهم نُزُلاً، وضِيافةً، وكرامةً، لِحزبه وجنده، وتمَّمَ تقديرَه سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضى اللهُ أمراً كان مفعولاً، فلما أنزل اللهُ نصرَهُ على رسوله وأوليائه، وبردت الغنائمُ لأهلها، وجرت فيها سهامُ الله ورسوله، قيل: لا حاجةَ لنا فى دمائكم، ولا فى نسائكم وذراريكم، فأوحى اللهُ سبحانه إلى قلوبهم التوبةَ والإنابةَ، فجاؤوا مسلمين. فقيل: إن مِن شُكْرِ إسلامِكم وإتيانكم أن نَرُدَّ عَلَيْكُمْ نِسَاءَكُم وأَبْنَاءَكُم وَسَبْيَكُم، و﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠].

ومنها: أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوةِ بدر، وختم غزوهم بغزوة حُنَيْن، ولهذا يُقْرَنُ بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال: بدرٌ وحُنَيْن، وإن كان بينهما سبعُ سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين، والنبىُّ ﷺ رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهاتين الغزاتين طُفِئَت جمرةُ العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأُولى:خوَّفتهم وكسرت مِن حَدِّهم، والثانية: استفرغت قواهم، واستنفدت سهامَهم، وأذلَّت جمعهم حتى لم يجدوا بُداً من الدخول فى دين الله.

ومنها: أن الله سبحانه جَبَرَ بها أهلَ مكة، وفرَّحهم بما نالُوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عينَ جبرهم، وعرَّفهم تمامَ نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هَوازِن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نُصِرُوا عليهم بالمسلمين، ولو أُفردوا عنهم، لأكلهم عدوُّهم... إلى غير ذلك من الحكم التى لا يُحيط بها إلا الله تعالى.

فصل

وفيها من الفقه: أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيونَ ومَنْ يدخلُ بين عدوه ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوِّه له، وفى جيشه قوة ومَنَعَة لا يقعُد ينتظرهم، بل يسيرُ إليهم، كما سار رسولُ الله ﷺ إلى هَوازِن حتى لقيهم بحُنَيْن.

ومنها: أن الإمام له أن يستعيرَ سلاحَ المشركين وعُدَّتهم لِقتال عدوه، كما استعار رسولُ الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشركٌ.

ومنها: أن مِن تمام التوكل استعمالَ الأسبابِ التى نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعًا، فإن رسولَ الله ﷺ وأصحابه أكملُ الخلق توكُّلاً، وإنما كانوا يَلْقَوْنَ عدوَّهم، وهم متحصِّنُون بأنواع السِّلاح، ودخل رسولُ الله ﷺ مكَّة، والبَيْضَةُ على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكثير ممن لا تحقيق عنده، ولا رسوخ فى العلم يستشكلُ هذا، ويتكايس فى الجواب تارة بأن هذا فعله تعليمًا للأُمة، وتارة بأن هذا كان قبلَ نزول الآية. ووقعت فى مصر مسألة سأل عنها بعضُ الأمراء، وقد ذُكِرَ له حديثٌ ذكره أبو القاسم بن عساكر فى «تاريخه الكبير» أن رسولَ الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهوديةُ الشاةَ المسمومةَ لا يأكل طعامًا قُدِّمَ له حتى يأكل منه مَن قدَّمه(١).

قالوا: وفى هذا أُسوة للملوك فى ذلك. فقال قائل: كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؟ فإذا كانَ الله سبحانه قد ضمن له العِصْمةَ، فهو يعلم أنه لا سبيلَ لبَشَرٍ إليه.

وأجاب بعضهُم: بأن هذا يدل على ضعف الحديث، وبعضُهم: بأن هذا كان قبلَ نزولِ الآية، فلما نزلت لم يكن لِيفعل ذلك بعدَها، ولو تأمل هؤلاء أن

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤٧/٢٢) بسندٍ فيه من لا يُعرف.

ضمان الله له العِصمة، لا يُنافى تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلُّف، فإن هذا الضمانَ له من ربه تبارك وتعالى لا يُناقِضُ احتراسَه مِن الناس، ولا يُنافيه، كما أن إخبارَ الله سبحانه له بأنه يُظهر دينَه على الدِّينِ كُلِّه، ويُعليه، لا يُناقض أمره بالقتال، وإعدادِ العُدَّة، والقوة، ورباط الخيل، والأخذ بالجد، والحذر، والاحتراس من عدوه، ومحاربته بأنواع الحرب، والتورية، فكان إذا أراد الغزوة، ورَّى بغيرها، وذلك لأن هذا إخبار من الله سبحانه عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التى جعلها الله مُفضية إلى ذلك، مقتضية له، وهو ﷺ أعلمُ بربِّه، وأتبعُ لأمره من أن يعطِّل الأسبابَ التى جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، وإظهار دينه، وغلبته لعدوه، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياتَه حتَّى يُبلِّغ رسالاتِه، ويُظهر دينه، وهو يتعاطى أسبابَ الحياة مِن المأكل والمشرب، والملبس والمسكن، وهذا موضِعٌ يغلَطُ فيه كثير مِن الناس، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدُّعاء، وزعم أنه لا فائدةَ فيه، لأن المسؤول إن كان قد قُدِّر، ناله ولا بد، وإن لم يُقدَّر، لم ينله، فأى فائدة فى الاشتغال بالدعاء؟ ثم تكايسَ فى الجواب، بأن قال: الدعاءُ عبادة، فيقال لهذا الغالِط: بقى عليك قسم آخر وهو الحقُّ أنه قد قدَّر له مطلوبَه بسببٍ إن تعاطاه، حصل له المطلوبُ، وإن عطل السبب، فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب فى حصول المطلوب، وما مثل هذا الغالط إلا مثلُ مَن يقول: إن كان الله قد قدَّر لى الشبع، فأنا أشبع، أكلتُ أو لم آكل، وإن لم يُقدِّر لى الشبع، لم أشبع أكلتُ أو لم آكل، فما فائدة الأكل؟ وأمثال هذه التُّرَّهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه.. وبالله التوفيق

فصل

وفيها: أن النبى ﷺ شرط لصفوان فى العارية الضمان، فقال: «بَلْ عَارِيَّةٌ

مَضْمُونَةٌ» فهل هذا إخبار عن شرعه فى العارية، ووصف لها بوصفٍ شرعه الله فيها، وأن حكمها الضمانُ كما يُضمن المغصوب، أو إخبار عن ضمانها بالأداء بعينها، ومعناه: أنى ضامن لك تأديتَها، وأنها لا تذهب، بل أردها إليك بعينها؟ هذا مما اختلف فيه الفقهاء.

فقال الشافعى وأحمد بالأول، وأنها مضمونة بالتلف، وقال أبو حنيفة ومالك بالثانى، وأنها مضمونة بالرد على تفصيل فى مذهب مالك، وهو أن العَيْن إن كانت مما لا يُغاب عليه، كالحيوان والعَقار، لم تُضمن بالتلف إلا أن يظهر كَذِبه، وإن كانت مما يُغاب عليه كالحلى ونحوه، ضُمنت بالتلف إلا أن يأتىَ ببينة تشهد على التلف، وسر مذهبه أن العارية أمانة غيرُ مضمونة كما قال أبو حنيفة، إلا أنه لا يُقبل قوله فيما يخالف الظاهر، فلذلك فرَّق بين ما يُغاب عليه، وما لا يُغاب عليه.

ومأخذ المسألة أن قوله ﷺ لصفوان: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ»، هل أراد به أنها مضمونة بالرد أو بالتلف؟ أى: أضمنها إن تلفت، أو أضمن لك ردَّها، وهو يحتمل الأمرين، وهو فى ضمان الرد أظهرُ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّ فى اللَّفظ الآخر: «**بَلْ عَارِيَّةٌ مُؤَدَّاةٌ**»، فهذا يبينُ أن قوله: «مضمونة»، المراد به: المضمونة بالأداء.

الثانى: أنَّه لم يسأله عن تلفها، وإنما سأله هل تأخذها منى أخذَ غصب تحولُ بينى وبينها؟ فقال: «**لا بل أخذ عارية أُؤديها إليك**». ولو كان سأله عن تلفها وقال: أخاف أن تذهب، لناسب أن يقول: أنا ضامن لها إن تلفت.

الثالث: أنَّه جعل الضمانَ صِفة لها نفسها، ولو كان ضمانَ تلف، لكان الضمانُ لِبدلها، فلما وقع الضمانُ على ذاتها، دل على أنه ضمانُ أداء.

فإن قيل: ففى القصة أن بعض الدروع ضاع، فعرض عليه النبى ﷺ أن

يضمنها، فقال: أنا اليوم فى الإسلام أرغبُ، قيل: هل عرض عليه أمراً واجباً أو أمراً جائزاً مُستحَبًا الأَوْلى فعلُه، وهو من مكارم الأخلاق والشيم، ومن محاسن الشريعة؟ وقد يترجح الثانى بأنه عرض عليه الضمان، ولو كان الضمان واجبًا، لم يعرضه عليه، بل كان يفى له به، ويقول: هذا حقُّك، كما لو كان الذاهب بعينه موجوداً، فإنه لم يكن ليعرض عليه رده فتأمله.

فصل

وفيها: جوازُ عقرِ فرسِ العدو ومركُوبه إذا كان ذلك عونـًا على قتله، كما عقر علىٌّ رضى الله عنه جمل حامل راية الكفار، وليس هذا مِن تعذيب الحيوان المنهى عنه.

وفيها: عفْو رسولِ الله ﷺ عمن همَّ بقتله، ولم يُعاجله، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد، كأنه ولى حميم.

ومنها: ما ظهر فى هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، من إخباره لشيبة بما أضمر فى نفسه، ومن ثباته، وقد تولَّى عنه الناسُ، وهو يقول:

«أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ».

وقد استقبلته كتائبُ المشركين.

ومنها: إيصالُ الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البُعْدِ منه، وبركتُه فى تلك القبضة، حتى ملأت أعينَ القوم، إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدوُّ جهرة، ورآهم بعض المسلمين.

ومنها: جوازُ انتظار الإمام بقسم الغنائمُ إسلامَ الكفار ودخولَهم فى الطاعة، فيرد عليهم غنائِمَهَم وسبيَهم، وفى هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تُملك بالقسمة، لا بمجرد الاستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد

الاستيلاء، لم يستأنِ بهم النبيُّ ﷺ ليردها عليهم، وعلى هذا فلو مات أحد من الغانمين قبل القسمة، أو إحرازها بدار الإسلام، رُدَّ نصيبُه على بقية الغانمين دون ورثته، وهذا مذهب أبي حنيفة: لو مات قبل الاستيلاء لم يكن لورثته شيء، ولو مات بعد القسمة فسهمه لورثته.



نجاسة المشركين

س: ما المراد بالنجاسة في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنهم نجس المعتقد، أي: أن معتقدهم نحس، أي: أنهم خبثاء المعتقد، وأي: معتقد أخبث من معتقد شخص يجعل لله شريكًا ويرى أن الصنم ينفع ويضر، أو أمر غير الله ينفع ويضر.

ويتأيد هذا بقول النبي ﷺ «**إن المؤمن لا ينجس**».

الثاني: أن المراد بالنجاسة نجاسة البدن والمعنى أنهم أجناب، أي: في غالب أحوالهم على جنابة إذ هم لا يغتسلون منها وإن اغتسلوا لا ينوون رفعها.



س: هل يُلزم من صافح مشركًا أن يغسل يده؟

ج: لا يُلزم بذلك، ولم يرد أن النبي ﷺ غسل يده من مصافحة مشرك.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – يا أهل الغيمان لا تمكنوا المشركين من دخول

المسجد الحرام فإنهم نجسوا المعتقد خبثاء المعتقد بشركهم بالله ﷻ ودعائهم غير الله وعبادتهم الأصنام، والمساجد عمومًا بنيت لعبادة الله وحده لا شريك له، إذ الله قال: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ... الآية﴾ [النور: ٣٦].

وكذا فإن المشركين نجسوا الأبدان في غالب الأحيان لا يغتسلون من جنابة ولا يتطهرون من حدث ولا يزيلون أثر نجاسة فكيف يمكنون وهم نجسوا المعتقد ونجسوا الأبدان من دخول المسجد الحرام.

كلا بل امنعوهم من دخوله ولا تمكنوهم من ذلك، وإن خفتم فقرًا من عدم مجيئهم إلى بلادكم وعدم جلبهم للتجارات وعدم شرائهم منكم كذلك، فالرزق ليس بمتوقفٍ عليهم ولا على مجيئهم فإن الله ﷻ هو الغني، قادرٌ على غناكم والتوسعة عليكم من فضله، قادرٌ على أن يرسل السماء عليكم مدرارًا فترزقون بذلك، قادرٌ على أن تتناسل إبلكم وخيولكم ومواشيكم وأنعامكم عمومًا بصورة أكثر، قادر على التوسعة عليكم من أي باب من أبواب الرزق، فهو الغني خزائن كل شيءٍ بيديه ومنتهى الأمور كلها إليه.

ولكن هذا الرزق موكولٌ إليه إن شاء أغناكم وإن شاء لم يُغنكم، ذلك لأن الإغناء ليس بدليل على رضا الله ﷻ على العبد.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بعباده وما يصلحهم.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وفي كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله وأقرُّوا بوحدانيته: ما المشركون إلا نَجَس.

واختلف أهل التأويل في معنى «النجس»، وما السبب الذي من أجله سمَّاهم بذلك.

فقال بعضهم: سماهم بذلك، لأنهم يجنبون فلا يغتسلون، فقال: هم نجس، ولا يقربوا المسجد الحرام = لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد.

وأورد بإسنادٍ حسنٍ عن قتادة، في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾، أي: أجْنَابٌ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركون إلا رِجْسُ خنزير أو كلب.

وهذا قولٌ رُوِي عن ابن عباس من وجه غير حميد[1]، فكرهنا ذكرَه.

وقوله: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، يقول للمؤمنين: فلا تدعوهم أن يقربوا المسجد الحرام بدخولهم الحرَم. وإنما عنى بذلك منعَهم من دخول الحرم، لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام.

وأورد بإسناد صحيح عن عطاء: الحرمُ كله قبلةٌ ومسجد. قال: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ ﴾، لم يعن المسجدَ وحده، إنما عنى مكة والحرم. قال ذلك غير مرَّةٍ.

وذكر عن عمر بن عبد العزيز في ذلك ما:-

حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير قال، حدثني الوليد بن مسلم قال، حدثنا

---

(١) يعني أنه ضعيف جدًّا، أو به كذاب.

أبو عمرو: أن عمر بن عبد العزيز كتب: «أنِ آمنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين»، وأَتْبَعَ في نهيه قولَ الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وأما قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، فإنه يعني: بعد العام الذي نادَى فيه علي رحمة الله عليه ببراءة، وذلك عام حجَّ بالناس أبو بكر، وهي سنة تسع من الهجرة[1].

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، يقول للمؤمنين: وإن خفتم فاقَةً وفقرًا، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

يقال منه: عال يَعِيلُ عَيْلَةً وعُيُولا ومنه قول الشاعر:

وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاه ... وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

وقد حكي عن بعضهم أنّ من العرب من يقولُ في الفاقة: «عال يعول» بالواو.

وإنما قيل ذلك لهم، لأن المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم، انقطاع تجاراتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك. وأمَّنهم الله من العيلة، وعوَّضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم، ما هو خير لهم منه، وهو الجزية، فقال لهم: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، إلى: ﴿صَٰغِرُونَ﴾.

(١) وذهب فريق من العلماء إلى أن ذلك هو سنة عشر.

قال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ فيه قولان: أحدهما – أنه سنة تسع التي حج فيها أبو بكر. الثاني سنة عشر قاله قتادة. ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ وإن من العجب أن يقال: إنه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الأذان. ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه.

وقال قوم: بإدرار المطر عليهم.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، فإن معناه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، بما حدثتكم به أنفسكم، أيها المؤمنون، من خوف العيلة عليها بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، وغير ذلك من مصالح عباده ، ﴿حَكِيمٌ ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين، الذين هم نَجَس دينًا، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليا صحبة أبي بكر، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك، وحكم به شرعا وقدرا.

وقال عبد الرازق: أخبرنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ إلا أن يكون عبدًا، أو أحدا من أهل الذمة.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي قوله ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أنزل عليهم المطر عند انقطاع المشركين عنهم فكثر خيرهم. قاله عكرمة.

والثاني: أنه أغناهم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب، قاله قتادة، والضحاك.

والثالث: أن أهل نجد وجرش وأهل صنعاء أسلموا فحملوا الطعام إلى مكة على الظهر فأغناهم الله به. قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليم بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم في المشركين.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ باللّه الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع اللّه آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئا؟».

وأعمالهم ما بين محاربة للّه، وصد عن سبيل اللّه ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه عليا، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة» فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن اللّه تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تَقَذُّرَهْم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيۡلَةً﴾ أي: فقرا وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فليس الرزق مقصورا على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب

كثيرة، فإن فضل اللّه واسع، وجوده عظيم، خصوصا لمن ترك شيئا لوجهه الكريم، فإن اللّه أكرم الأكرمين.

وقد أنجز اللّه وعده، فإن اللّه قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا، ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة اللّه، فلهذا علقه اللّه بالمشيئة.

فإن اللّه يعطي الدنيا، من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين، إلا من يحب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أن المشركين بعد ما كانوا، هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول اللّه والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ أمر أن يجلوا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾



س: هل المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ الحرم كله (مكة كلها وسائر ما يطلق عليه حرم كمنى وجزء من مزدلفة...) أم المسجد الحرام فقط؟

ج: في هذه المسألة وجهان للعلماء:

أحدهما: أن المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ المسجد فقط، ولكن

مُنع المشركون من دخول الحرم كله؛ لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد اقتربوا من المسجد الحرام، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.

الثاني: أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله، فعلى ذلك لا يدخلون الحرم كله أصالةً.

أي: أن المنع في الوجه الأول من دخول الحرم إنما هو لنهيهم عن الاقتراب.

أما المنع في الوجه الثاني: فهو منع متعلق بالحرم كله، ليس للاقتراب فحسب والله أعلم.



بعض ما جاء في دخول الكفار المساجد

س: هل يجوز للكفار دخول المساجد

ج: هذه من المسائل التي اختلفت فيها أقوال أهل العلم، وعلى ما يظهر لي، والله أعلم أن المشرك لا يدخل المسجد الحرام لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

أما غيره من المساجد فإن دعت الحاجة (حاجة المسلمين) إلى دخولهم دخلوا بقيد عدم تلويثه، والله أعلم.

أما عن سبب الاختلاف فهو النظر في الآية من ناحية سبب المنع وتخصيص المسجد الحرام، فالذين قالوا إن سبب المنع كونهم نجس عمموا المساجد فمنعوا المشرك من دخول المساجد كلها.

والذين نظروا إلى المنع الوارد في الآية، قالوا: المنع متعلق بالمسجد الحرام لفضيلة العظيمة قالوا: وقد دخل بعض المشركين المسجد على عهد رسول الله ﷺ في المدينة.

وفي هذا ما أخرجه البخاري[(١)] وغيره من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ.

وله بوَّب البخاري بباب دخول المشرك المسجد.

وفي بعض طرق الحديث[(٢)] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى[(٣)]: وَفِي دُخُولِ الْمُشْرِكِ الْمَسْجِد مَذَاهِب: فَعَنْ الْحَنَفِيَّةِ الْجَوَازُ مُطْلَقًا ، وَعَنْ الْمَالِكِيَّةِ وَالْمُزَنِيِّ الْمَنْع مُطْلَقًا ، وَعَنْ الشَّافِعِيَّةِ التَّفْصِيلُ بَيْنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام وَغَيْره لِلْآيَةِ. وَقِيلَ: يُؤْذَنُ لِلْكِتَابِيِّ خَاصَّةً ، وَحَدِيث الْبَابِ يَرُدُّ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ثُمَامَة لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب.

قال القرطبي رحمه الله:

واختلف العلماء في دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال، فقال أهل المدينة الآية عامة في سائر المشركين وسائر المساجد. وبذلك كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عماله ونزع في كتابه بهذه الآية. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]. ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها. وفي صحيح مسلم وغيره: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقذر...** » الحديث. والكافر لا يخلو عن ذلك وقال ﷺ: «**لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب**» والكافر جنب وقوله

---

(١) البخاري (٤٦٩).
(٢) البخاري أيضًا (٤٦٢).
(٣) الفتح (١/ ٦٦٧).

تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فسماه الله تعالى نجسا فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدا من طريق الحكم وأي ذلك كان فمنعه من المسجد واجب لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيهم والحرمة موجودة في المسجد يقال: رجل نجس وامرأة نجس ورجلان نجس وامرأتان نجس ورجال نجس ونساء نجس لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فأما النجس (بكسر النون وجزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رجس فإذا أفرد قيل نجس (بفتح النون وكسر الجيم) ونجس (بضم الجيم) وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام ولا يمنعون من دخول غيره فأباح دخول اليهودي والنصراني في سائر المساجد قال بن العربي: وهذا جمود منه على الظاهر لأن قوله عَزَّ وَجَلَّ: إنما المشركون نجس تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة فإن قيل: فقد ربط النبي ﷺ ثمامة في المسجد وهو مشرك قيل له: أجاب علماؤنا عن هذا الحديث وإن كان صحيحا بأجوبة:

أحدها: أنه كان متقدما على نزول الآية.

الثاني: أن النبي ﷺ كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه.

الثالث: أن ذلك قضية في عين فلا ينبغي أن تدفع بها الأدلة التي ذكرناها لكونها مقيدة حكم القاعدة الكلية وقد يمكن أن يقال: إنما ربطه في المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها وحسن آدابهم في جلوسهم في المسجد فيستأنس بذلك ويسلم وكذلك كان ويمكن أن يقال: إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا في المسجد والله أعلم وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام ولا غيره ولا يمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان وهذا قول يرده كل ما ذكرناه من الآية وغيرها قال الكيا الطبري: ويجوز للذمي دخول سائر المساجد عند أبي

حنيفة من غير حاجة وقال الشافعي: تعتبر الحاجة ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد الحرام وقال عطاء بن أبي رباح: الحرم كله قبلة ومسجد فينبغي أن يمنعوا من دخول الحرم، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]. وإنما رفع من بيت أم هانئ. وقال قتادة: لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب جزية أو عبدا كافرا لمسلم. وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبدالحميد قال حدثنا شريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لا يقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أمة فيدخله لحاجة». وبهذا قال جابر بن عبدالله فإنه قال: العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام، وهو مخصوص في العبد والأمة.



س: ما المراد ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بدين الحق، دين الله فالله ﷻ من أسمائه الحق، وقد قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

الثاني: أن الحق وصفٌ للدين، فالمعنى الدين الحق.



بعض أحكام الجزية

س: ما المراد بالجزية، وكم قدرها؟

ج: الجزية مبغ يدفعه اليهودي والنصراني كي يقرَّ على البقاء على دينه بلا قتالٍ في بلاد المُسلمين ويُحافظ عليه فلا يُعتدى عليه فيومَّن بذلك.

أما عن قدرها، فليس لها قدرٌ ثابت، بل تختلف من شخص على شخص ومن حال إلى حال، ومن بلدة إلى بلدة، ومن زمن إلى زمن.



س: ما المراد بقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾؟

ج: لأه العلم في ذلك أقوال:

أحدها: وهم يعطونها عن قهرٍ طائعين أو غير طائعين، أي: وهم مقهورين.

الثاني: أن كل واحدٍ منهم يُعطيها بيده ولا يوكل غيره في إعطائها.

وثَمَّ أقوال أُخر.



س: هل تقبل الجزية من عموم الكفار؟

ج: لا تُقبل الجزية من عموم الكفار، إنما تقبل من اليهود والنصارى، وألحق عددٌ كبير من العلماء المجوس باليهود والنصارى.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

واختلف في الذين تؤخذ منهم الجزية من الكفار، فالمشهور عن أحمد: أنها لا تقبل إلا من اليهود والنصارى والمجوس، وبه قال الشافعي. ونقل الحسن بن ثواب عن أحمد: أنه من سُبي من أهل الأديان من العرب والعجم، فالعرب إن أسلموا وإلا السيف، وأولئك إن أسلموا وإلا الجزية، فظاهر هذا أن الجزية تؤخذ من الكل، إلا من عابدي الأوثان من العرب فقط، وهو قول

أبي حنيفة، ومالك.

فأما صفة الذين تؤخذ منهم الجزية، فهم أهل القتال. فأما الزمن، والأعمى، والمفلوج، والشيخ الفاني، والنساء، والصبيان، والراهب الذي لا يخالط الناس، فلا تؤخذ منهم.



س: ما العمل إذا لم يستطع المسلمون فرض الجزية على أهل الكتاب؟

ج: حينئذٍ لا يكلف الله نفسًا إلى وسعها.

وقد قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

ج: المعنى، يا أهل الإسلام قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﷻ الإيمان الصحيح، قاتلوا هؤلاء الذين يزعمون أن الله له ولد، قاتلوا هؤلاء الذين لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الصحيح، قاتلوا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بل يستبيحون المحرمات ويرتكبون الفواحش والمنكرات، قاتلوا هؤلاء الذي لا يدينون بدين الإسلام، الدين الحق الذي ارتضاه الله للعباد، قاتلوا هؤلاء حتى يرجعوا عن باطلهم أو يُقروا بجزيةٍ يدفعونها لأهل الإسلام مقابل تركهم بلا قتال، ومقابل إقامتهم آمنين مطمئنين في بلاد المسلمين.

قاتلوهم حتى يعطوا هذه الجزية مقهورين أذلاء لكونهم جعلوا لله الولد، لكونهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، واتخذوا المسيح ابن

مريم ربًّا عبدوه من دون الله، وليعلموا أن قبول الجزية منهم وتركهم تفضيل لهم عن غيرهم من أهل الشرك، فأهل الشرك الآخرون يقاتلون حتى يُسلموا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ﴾، أيها المؤمنون، القومَ ، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾، يقول: ولا يصدّقون بجنة ولا نار ، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾، يقول: ولا يطيعون الله طاعة الحقّ، يعني: أنهم لا يطيعون طاعةَ أهل الإسلام ، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وهم اليهود والنصارى.

وكل مطيع ملكًا وذا سلطانٍ، فهو دائنٌ له. يقال منه: دان فلان لفلان فهو يدين له، دينًا»، قال زهير:

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ فِي بَنِي أَسَدٍ فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، يعني: الذين أعطوا كتاب الله، وهم أهل التوراة والإنجيل ، ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾.

و«الجزية»: الفِعْلة من: «جزى فلان فلانًا ما عليه»، إذا قضاه، «يجزيه»، و«الجِزْية» مثل «القِعْدة» و«الجِلْسة».

ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراجَ عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دَفْعًا عنها.

وأما قوله: ﴿عَن يَدٍ ﴾، فإنه يعني: من يده إلى يد من يدفعه إليه.

وكذلك تقول العرب لكل معطٍ قاهرًا له، شيئًا طائعًا له أو كارهًا: «أعطاه عن يده، وعن يد». وذلك نظير قولهم: «كلمته فمًا لفمٍ»، و«لقيته كَفَّةً لكَفَّةٍ، وكذلك: «أعطيته عن يدٍ ليد».

(٤٤٧) أحمر
أسود

وأما قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾، فإن معناه: وهم أذلاء مقهورون.

يقال للذليل الحقير: «صاغر».

واختلف أهل التأويل في معنى «الصغار»، الذي عناه الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: أن يعطيها وهو قائمٌ، والآخذ جالسٌ.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، عن أنفسهم، بأيديهم يمشون بها، وهم كارهون، وذلك قولٌ رُوي عن ابن عباس، من وجهٍ فيه نظر.

وقال آخرون: إعطاؤهم إياها، هو الصغار.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾:

ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء [الأقدمين] بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ

أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهذه الآية الكريمة [نزلت] أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو [من] ثلاثين ألفا، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب، ووقت قَيْظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله.

وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشباههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي، وأحمد -في المشهور عنه- وقال أبو حنيفة، رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابيٍّ، ومجوسي، ووثني، وغير ذلك، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**لا تبدءوا**

اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»[١].

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا:

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ﷺ، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب، ﷺ، حين صالح نصارى من أهل الشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قِلاية ولا صَوْمَعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركا، ولا ندعو إليه أحدًا؛ ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رءوسنا، وأن نلزم زِينا

---

(١) مسلم (٢١٦٧).

حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيا، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثًا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم».

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظَفْنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ لما حرم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام، وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ [التوبة: ٢٨] الآية. على ما تقدم. ثم أحل في هذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك، فجعلها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم. فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ الآية. فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصا ذكر محمد ﷺ وملته وأمته. فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة، فنبه على محلهم ثم جعل للقتال غاية

وهي إعطاء الجزية بدلا عن القتل. وهو الصحيح. قال ابن العربي: سمعت أبا الوفاء علي بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها. فقال: «قَاتِلُوا» وذلك أمر بالعقوبة. ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة. وقوله: ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد. ثم قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال. ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام. ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تأكيد للحجة، لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل. ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة وعين البدل الذي ترتفع به.

وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة عربا كانوا أو عجما لهذه الآية، فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]. ولم يقل: حتى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب. وقال: وتقبل من المجوس بالسنة وبه قال أحمد وأبو ثور. وهو مذهب الثوري وأبي حنيفة وأصحابه. وقال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب. وكذلك مذهب مالك، فإنه رأى الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا أو عجميا، تغلبيا أو قرشيا، كائنا من كان، إلا المرتد. وقال ابن القاسم وأشهب وسحنون: تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها. وأما عبدة الأوثان من العرب فلم يستن الله فيهم جزية، ولا يبقى على الأرض منهم أحد، وإنما لهم القتال أو الإسلام. ويوجد لابن القاسم: أن الجزية تؤخذ منهم، كما يقول مالك. وذلك في التفريع لابن الجلاب وهو احتمال لا نص. وقال ابن وهب: لا تقبل الجزية

(٤٥٢) أحمر
أسود

من مجوس العرب وتقبل من غيرهم. قال: لأنه ليس في العرب مجوسي إلا وجميعهم أسلم، فمن وجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد يقتل بكل حال إن لم يسلم ولا تقبل منهم جزية. وقال ابن الجهم: تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام إلا ما أجمع عليه من كفار قريش. وذكر في تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار، لمكانهم من رسول الله ﷺ. وقال غيره: إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة. والله أعلم.

وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم. ولا يحرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه اللّه أصلا وإما دين منسوخ قد شرعه اللّه، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وغيَّى ذلك القتال ﴿ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ ﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم، بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كلٌّ على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره، من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم، ويوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن اللّه لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ، أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع، لا مفهوما له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره.



مَنْ العُزير

س: من عُزير هذا، ولماذ قالوا عن ابن الله؟

ج: لم أقف على خبر صحيح من كتاب أو سنة يوضح من هو العُزير، إلا أن من العلماء من قال إنه ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والآية التي نحن بصددها: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾.

أما لماذا قالوا ذلك، فهذا من وحي الشيطان لهم بذلك، ولا أعلم مستندًا صحيحًا يبين لماذا قالوا بذلك.

وقد أورد الطبري بإسنادٍ يُسن عن السدي ما قد يبين سبب ذلك، وهذا من الإسرائيليات، وليس بمرفوع إلى رسول الله ﷺ، ولا يعول على مثله.

وكذا أورد الطبري بإسنادٍ ضعيف جدًّا عن ابن عباس سببًا لذلك.

أما أثر ابن عباس وهو ضعيف جدًّا عنه ففيه:

وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عُزَيرًا كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التّابوت فيهم. فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء، رفع الله عنهم التابوت، وأنساهُم التوراة، ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرضًا، فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبدُه، حتى نسوا التوراة، ونسخت من صدورهم، وفيهم عزير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثُوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم، وكان عزير قبلُ من علمائهم، فدعا عزيرٌ الله، وابتهل إليه أن يردّ إليه الذي نسخَ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلي مبتهلا إلى الله، نزل نور من الله فدخل جَوْفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذّن في قومه فقال: يا قوم، قد آتاني الله التوراةَ

وردَّها إليَّ ! فعلقَ بهم يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم. ثم إنَّ التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عَرَضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلِّمهم، فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله.

قلت (مصطفى): وهذا ضعيف الإسناد جدًّا كما أسلفت.

أما أثر السدي ففيه:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾، إنما قالت ذلك، لأنهم ظهرت عليهم العمالقة فقتلوهم، وأخذوا التوراة، وذهب علماؤهم الذين بقُوا، وقد دفنوا كتب التوراة في الجبال. وكان عزير غلامًا يتعبَّد في رءوس الجبال، لا ينزل إلا يوم عيد. فجعل الغلام يبكي ويقول: «ربِّ تركتَ بني إسرائيل بغير عالم» ! فلم يزل يبكي حتى سقطت أشفارُ عينيه، فنزل مرة إلى العيد، فلما رجع إذا هو بامرأة قد مثلتْ له عند قبر من تلك القبور تبكي وتقول: يا مطعماه، ويا كاسِياه ! فقال لها: ويحك، من كان يطعمك أو يكسوك أو يسقيك أو ينفعك قبل هذا الرجل؟ قالت: الله! قال: فإن الله حي لم يمت! قالت: يا عزير، فمن كان يعلِّم العلماء قبلَ بني إسرائيل؟ قال: الله! قالت: فلم تبكي عليهم؟ فلما عرف أنه قد خُصِم، ولَّى مدبرًا، فدعته فقالت: يا عزير، إذا أصبحت غدًا فأت نهر كذا وكذا فاغتسل فيه، ثم اخرج فصلِّ ركعتين، فإنه يأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخُذْه. فلما أصبح انطلق عزير إلى ذلك النهر، فاغتسل فيه، ثم خرج فصلى ركعتين. فجاءه الشيخُ فقال: افتح فمك! ففتح فمه، فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة، مجتمع كهيئة القوارير، ثلاث مرار. فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، إني قد جئتكم بالتوراة! فقالوا: يا عزير، ما كنت

كذَّابًا! فعمد فربط على كل إصبع له قلمًا، وكتب بأصابعه كلها، فكتب التوراة كلّها. فلما رجعَ العلماء، أخبروا بشأن عزير، فاستخرج أولئك العلماء كُتبهم التي كانوا دفنوها من التوراة في الجبال، وكانت في خوابٍ مدفونة، فعارضوها بتوراة عزير، فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاك الله هذا إلا أنك ابنه!

قلت: وهذا من الإسرائيليات كما أشرت.



س: ما سبب قول النصارى المسيح ابن الله؟

ج: قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ في سبب قولهم هذا قولان:

أحدهما: لكونه ولد من غير ذكر.

والثاني: لأنه أحيى الموتى، وأبرأ الكُمْهَ والبُرص؛ وقد شرحنا هذا المعنى في (المائدة: ١١٠).



س: معلوم أن القول يخرج من الأفواه فما فائدة تكرير قوله: ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: للتأكيد، وأنهم قالوا هذا القول المفتري.

الثاني: أنهم يقولون ذلك بلا خجل ولا ورع ولا خوف، كأنهم قالوا ذلك بملء أفواههم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ قيل: معناه التأكيد، كما قال

تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣﴾ [الحاقة: ١٣] ومثله كثير.

وقيل: المعنى أنه لما كان قول ساذج ليس فيه بيان ولا برهان، وإنما هو قول بالفم مجرد نفس دعوى لا معنى تحته صحيح لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا، فهو كذب وقول لساني فقط بخلاف الأقوال الصحيحة التي تعضدها الأدلة ويقوم عليها البرهان. قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] و﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾ [الكهف: ٥] و﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].



س: قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من هؤلاء المعنيون بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؟

ج: قيل: إنهم اليهود.

أي: أن النصارى لما قالوا المسيح ابن الله شابهوا اليهود والقائلين عزيرٌ ابن الله وقيل: إنهم الكفار عبدة الأوثان.

فلما قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، شابهوا بذلك الكفار الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، والكفار.

وقيل: إن اليهود والصنارى افتروا على الله الكذب بقولهم: إن الله له ولد، فشابهوا أهل الشرك في أصل افترائهم فقد افترى أهل الشرك على الله ﷻ، وقالوا: إن له شريك، فالمشابهة في أصل الافتراء.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم عبدة الأوثان، والمعنى: أن أولئك قالوا الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم اليهود، فالمعنى: أن النصارى في قولهم المسيح ابن الله شابهوا اليهود في قولهم عزير ابن الله، قاله قتادة والسدي.

والثالث: أنهم أسلافهم، تابعوهم في أقوالهم تقليدا، قاله الزجاج وابن قتيبة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون، ومنه قول العرب: امرأة ضهيأ للتي لا تحيض أو التي لا ثدي لها، كأنها أشبهت الرجال. وللعلماء في ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثلاثة أقوال:

الأول: قول عبدة الأوثان: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

الثاني: قول الكفرة: الملائكة بنات الله.

الثالث: قول أسلافهم، فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر، كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: ٢٣].



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ج: هذا – والله أعلم – بيان لأحوال بعض اليهود والنصارى ولأقوالهم، ففريق من اليهود، قالوا: عزير ابن الله، فنسبوا الولد لله ﷻ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقال فريق من النصارى: إن المسيح ابن الله، فنسبوا إلى الله الولد

كذلك تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فشابهوا بمقولاتهم تلك مقولات أهل الكفر والزيغ والضلال الذين افتروا على الله الكذب فزعم بعضهم أن الله له شريك وزعم بعضهم أن الملائكة بنات الله، فقاتل الله ولعن وعادى من تقول على الله بغير علم ونسب إلى الله الولد وادّعى له الشريك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾، يعني قول اليهود: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾. يقول: يُشْبه قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسيح إلى أنه لله ابنٌ، كذِبَ اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزيرًا إلى أنه لله ابن، ولا ينبغي أن يكون لله ولدٌ سبحانه، بل له ما في السماوات والأرض، كل له قانتون.

وقد قيل: إن معنى ذلك: يحكون بقولهم قولَ أهل الأوثان، الذين قالوا: «اللات، والعزَّى، ومناة الثالثة الأخرى».

وأورد في تفسير قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ ما حاصله أن معناه لعنهم الله ثم قال:

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، يقول: أيَّ وجه يُذْهبُ بهم، ويحيدون؟ وكيف يصدُّون عن الحق؟ وقد بينا ذلك بشواهده فيما مضى قبل.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (زاد المسير):

وفي الذين قالوا هذا عن عزير ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم جميع بني اسرائيل روي عن ابن عباس. **والثاني:** طائفة من سلفهم قاله الماوردي. **والثالث:** جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ وفيهم قولان:

أحدهما: فنحاص وحده وقد ذكرناه عن ابن عمر وابن جريج.

والثاني: الذين ذكرناهم في أول الآية عن ابن عباس.

فإن قيل: إن كان قول بعضهم فلم أضيف إلى جميعهم فعنه جوابان:

أحدهما: أن إيقاع اسم الجماعة على الواحد معروف في اللغة تقول العرب جئت من البصرة على البغال وإن كان لم يركب إلا بغلا واحدا.

والثاني: أن من لم يقله لم ينكره.

قال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة، ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها على اللّه، وتنقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في ﴿عُزَيۡرٌ﴾ أنه ابن اللّه، أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيرا بعد ذلك حافظا لها أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ﴾ قال اللّه تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ القول الذي قالوه ﴿ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل، يحجزه، عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ ﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات اللّه» تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ أي: كيف يصرفون على الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

وهذا -وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تتفق على قول- يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه.



كيفية اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

ج: هذا - والله أعلم - إخبارٌ عن أحوال اليهود والنصارى وشركهم بالله ﷻ فيقول تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ ﴾، أي: اتخذ اليهود علماءهم ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ ﴾ أي: واتخذ النصارى عبادهم والمجتهدين في العبادة منهم ﴿أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعبدونهم بطاعتهم إياهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال فيحلوا لهم ما حرمه الله عليهم، ويحرموا عليهم ما أحلَّه الله لهم فيطيعونهم، وكذا اتخذت النصارى المسيح عيسى ابن مريم ربًّا يعبدونه من دون الله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ هؤلاء اليهود والنصارى إلا بعبادة إلهٍ واحدٍ لا شريك له، وهو الله ﷻ تنزَّه ﷻ عن أن يكون له شريك أو ولد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه: اتخذ اليهود أحبارهم، وهم العلماء.

والنصارى «رهبانهم»، وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يعني: سادةً لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلُّوه لهم مما قد حرَّمه الله عليهم، ويحرِّمون ما يحرِّمونه عليهم مما قد أحلَّه الله لهم.

وأورد بإسنادٍ ضعيف عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسولَ الله ﷺ وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال: **يا عديّ، اطرح هذا الوثنَ من عنقك!** قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في «سورة براءة»، فقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم! فقال: **أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟** قال: قلت: بلى! قال: **فتلك عبادتهم!**[1]

وأورد من طرق عن أبي البختري[2]، عن حذيفة: أنه سئل عن قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، فإن معناه: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيحَ ابن مريم أربابًا من دون الله.

وأما قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾، فإنه يعني به: وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبارَ والرهبان والمسيحَ أربابًا، إلا أن يعبدوا معبودًا واحدًا، وأن يطيعوا إلا ربًّا واحدًا دون أرباب شتَّى، وهو

(١) أخرجه أيضًا الترمذي (٣٠٩٥)، وغير واحد، وفي سنده عطيف بن أعين وهو ضعيف مجهول.

(٢) أبو البختري لمي سمع من حذيفة والأثر ضعيف.

الله الذي له عبادة كل شيء، وطاعةُ كل خلق، المستحقُّ على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، يقول تعالى ذكره: لا تنبغي الألوهية إلا للواحد الذي أمر الخلقُ بعبادته، ولزمت جميع العباد طاعته، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، يقول: تنزيهًا وتطهيرًا لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته، القائلون: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، والقائلون: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، المتخذون أحبارهم أربابًا من دون الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ الأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه بحسن البيان عنه. ومنه ثوب محبر أي جمع الزينة. وقد قيل في واحد الأحبار: حبر بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا: مداد حبر يريدون مداد عالم، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للمداد حبر. قال الفراء: الكسر والفتح لغتان. وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر المداد، والحبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به.

قوله تعالى: ﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ [الكهف: ٩٦] أي كالنار. قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو

الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن لذلك سببا وهو أنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ﴾ وهم علماؤهم ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾ أي: العُبَّاد المتجردين للعبادة.

﴿أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُحِلُّون لهم ما حرم اللّه فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل اللّه فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضا يغلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانا تعبد من دون اللّه، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة.

﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ اتخذوه إلها من دون اللّه، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر اللّه لهم على ألسنة رسله فما ﴿أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر اللّه وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، واللّه تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم– أن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وكذا غيرهم من أهل الشرك ويسعون جاهدين لإخماد نور الله الذي أرسله وأنزله لعباده، يريدون محو القرآن والتشويش عليه والكفر به يريدون صرف الناس عن دين الحق دين الإسلام، ويريدون صرف الناس عن رسول الله ﷺ، يريدونها ظلمات ويبغونها عوجًا، ويأبى الله ﷻ أن يمكنهم، ويأبى الله إلا أن يظهر نورُه ويُعلي دينه وتظهر كلمته، ولو كره هؤلاء الجاحدون المنكرون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يريد هؤلاء المتخذون أحبارَهم ورهبانهم والمسيحَ ابن مريم أربابًا ، ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، يعني: أنهم يحاولون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتعثَ به رسوله، وصدِّهم الناسَ عنه بألسنتهم، أن يبطلوه، وهو النُّور الذي جعله الله لخلقه ضياءً ، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، يعلو دينُه، وتظهر كلمته، ويتم الحقّ الذي بعث به رسوله محمدًا ﷺ ، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ إتمامَ الله إياه ، ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، يعني: جاحديه المكذِّبين به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافرا»؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافرا؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي دلالته وحججه على توحيده. جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان. وقيل: المعنى نور الإسلام، أي أن يخمدوا دين الله بتكذيبهم. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ جمع فوه على الأصل.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصَّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ونور اللّه: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه اللّه نورا، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور اللّه بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلا.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – الله ﷻ هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالآيات البينات النيِّرات والدلالات الواضحات ودين الإسلام الذي هو دين الله الحق ليُعليه على الأديان كلها، ويجعله هو الظاهر على كل الأديان، وكلمة أهله هي العليا، وإن كره ذلك أهل الشرك.

وبنحوه قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله الذي يأبى إلا إتمام دينه ولو كره ذلك جاحدوه ومنكروه، ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، محمدًا ﷺ، ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾، يعني: ببيان فرائض الله على خلقه، وجميع اللازم لهم، وبدين الحق، وهو الإسلام، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يقول: ليعلي الإسلام على الملل كلها، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، بالله ظهورَه عليها.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

فقال بعضهم: ذلك عند خروج عيسى، حين تصير المللُ كلُّها واحدةً.

وقال آخرون: معنى ذلك: ليعلمه شرائعَ الدين كلها، فيطلعه عليها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع –ودين الحق: هي الأعمال [الصالحة] الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها**»[١].

وأورد ابن كثير بعض الأحاديث في هذا الصدد منها حديث:

تميم الداري، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر**»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية[٢].

ومنها ما أخرجه مسلم[٣] من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**[٤] **حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ**».

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يريد محمدا ﷺ. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي

(١) مسلم (٢٨٨٩).
(٢) أحمد (٤/ ١٠٣) وغيره، وسنده صحيح.
(٣) مسلم (٢٩٠٧).
(٤) لا ينقضي الزمان.

بالفرقان. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي بالحجة والبراهين. وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها، عن ابن عباس وغيره. وقيل: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي ليظهر الدين دين الإسلام على كل دين.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التوحيد. **والثاني:** القرآن. **والثالث:** تبيان الفرائض فأما دين الحق فهو الإسلام وفي قوله ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ﴾ قولان:

أحدهما: أن الهاء عائدة على رسول الله ﷺ فالمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها فلا يخفى عليه منها شيء قاله ابن عباس.

والثاني: أنها راجعة إلى الدين ثم في معنى الكلام قولان

أحدهما: ليظهر هذا الدين على سائر الملل ومتى يكون ذلك فيه قولان

أحدهما: عند نزول عيسى عليه السلام فانه يتبعه أهل كل دين وتصير الملل واحدة فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام أو أدوا الجزية قاله أبو هريرة والضحاك **والثاني:** أنه عند خروج المهدي قاله السدي.

والقول الثاني: أن إظهار الدين إنما هو بالحجج الواضحة وإن لم يدخل الناس فيه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث اللّه به محمدا ﷺ مشتملا على بيان الحق من الباطل في أسماء اللّه وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة

للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين للّه وحده، ومحبة اللّه وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله اللّه بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد اللّه لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ
أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ
يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا
جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ
تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ
ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ
فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ
فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ۞

[التوبة: ٣٤-٣٧].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلۡأَحۡبَارِ - وَٱلرُّهۡبَانِ - بِٱلۡبَٰطِلِ - وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ - يَكۡنِزُونَ - جِبَاهُهُمۡ -عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ -حُرُمٌۚ - ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ -كَآفَّةٗ - ٱلنَّسِيٓءُ - يُضَلُّ بِهِ - لِّيُوَاطِـُٔواْ - عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ -سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾	علماء اليهود
﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾	عُباد النصارى
﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾	بغير الحق (بالكذب والسرقة والرشوة والاختلاس وغير ذلك)
﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾	يصرفون الناس عن طاعة الله، يمنعون الناس من دخول الإسلام
﴿يَكۡنِزُونَ﴾	يدخرون ولا يؤدون الزكاة
(جِبَاهُهُمۡ)	جمع جبهةٍ
(عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ)	عدد الشهور
(حُرُمٌۚ)	حرمها الله وحرَّم القتال فيها وظلم العباد وعظَّم الله الحرمات وفيها وشدد بها
(ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ)	الدين المستقيم – الحساب الصحيح للشهور عند الله
(كَآفَّةٗ)	جميعًا

(٤٧٣) أحمر
أسود

(ٱلنَّسِىٓءُ)	التأخير، والمراد تأخير بعض الشهود (الحرم) عن وقتها أو إلغائها
(يُضَلُّ بِهِ)	يُصرف به عن الحق
(لِّيُوَاطِـُٔواْ)	ليوافقوا
(عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ)	عدد الشهور التي حرمها الله (أي أنهم يجعلون الشهور الحرم أربعة أيضًا لكن يجعلون شهرًا مكان شهر) ونحو ذلك
(سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ)	أعمالهم السيئة



س: ما سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾؟

ج: سبب نزولها ما أخرجه البخاري من طريق زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: مَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْزَلَكَ مَنْزِلك هَذَا؟ قَالَ: كُنْتُ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقُلْتُ: نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي ذَاكَ وَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه يَشْكُونِي، فَكَتَبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ أَنْ اقْدَمْ الْمَدِينَةَ، فَقَدِمْتُهَا فَكَثُرَ عَلَيَّ النَّاسُ حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْنِي قَبْلَ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ ذَاكَ لِعُثْمَانَ، فَقَالَ لِي: إِنْ شِئْتَ تَنَحَّيْتَ فَكُنْتَ قَرِيبًا، فَذَاكَ الَّذِي أَنْزَلَنِي هَذَا الْمَنْزِلَ وَلَوْ أَمَّرُوا عَلَيَّ حَبَشِيًّا لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: الظلم.

الثاني: الرشوة في الحكم.

الثالث: الكذب.

الرابع: أخذه من غير حلِّه.

والله أعلم.



معنى الكنز

س: ما معنى الكنز؟

ج: أخرج مالك في الموطأ[(١)] بسند صحيح من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ الْكَنْزِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدَّى مِنْهُ الزَّكَاةُ.

وعند عبد الرزاق بسندٍ صحيح[(٢)] عن ابن عمر قال: ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهرًا لا يؤدى زكاته فهو كنز.

وأخرج عبد الرزاق بسندٍ صحيح[(٣)] عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: إذا أخرجت زكاة مالك فقد أذهبت شره وليس بكنز.

وأخرج عبد الرزاق بسندٍ صحيح[(٤)] عن عبيد بن عمير يقول: إذا أديت زكاة مالك فليس بكنز، وإن كان مدفونًا، وإن لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا.

وأخرج ابن أبي شيبة[(٥)] بإسناد صحيح عن مجاهد وعطاء قالا، ليس المال بكنزٍ وإن كان تحت الأرض إذا أدى زكاته، وإن كان لا يؤدي زكاته فهو كنزٌ، وإن كان على وجه الأرض.

هذا، وفي اللسان: الكنز في الأصل المال المدفون تحت الأرض فإذا أخرج منه الواجب عليه لم يبق كنزًا، وإن كان مكنوزًا، وهو حكم شرعي تُجوِّز فيه عن الأصل.

---

(١) الموطأ (١/ ٢٥٦).
(٢) عبد الرزاق في المصنف (٤/ ١٠٧).
(٣) عبد الرزاق في المصنف (٤/ ١٠٧)
(٤) عبد الرزاق في المصنف (٤/ ١٠٧).
(٥) ابن أبي شيبة (٣/ ١٩٠).

(٤٧٦) أحمر
أسود

وأخرج الطبري بسندٍ صحيح عن في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، قال: «الكنز»، ما كنز عن طاعة الله وفريضته، وذلك «الكنز». وقال: افترضت الزكاة والصلاة جميعًا لم يفرَّق بينهما.

قال الطبري: وإنما قلنا: «ذلك على الخصوص»، لأن «الكنز» في كلام العرب: كل شيء مجموع بعضُه على بعضٍ، في بطن الأرض كان أو على ظهرها، يدلُّ على ذلك قول الشاعر:

لا دَرَّ دَرِّيَ إنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَهُمْ قِرْفَ الْحَتِيِّ وعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزُ

يعني بذلك: وعندي البرُّ مجموع بعضه على بعض. وكذلك تقول العرب للبدن المجتمع: «مكتنز»، لانضمام بعضه إلى بعض.

وإذا كان ذلك معنى «الكنز»، عندهم، وكان قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، معناه: والذين يجمعون الذهب والفضة بعضَها إلى بعض ولا ينفقونها في سبيل الله... إلى آخر ما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا:

واختلف أهل العلم في معنى «الكنز».

فقال بعضهم: هو كل مال وجبت فيه الزكاة، فلم تؤدَّ زكاته. قالوا: وعنى بقوله: ﴿يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولا يؤدُّون زكاتها.

وأورد الطبري من عدة وجوه تصح بلا شك عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كل مال أدَّيت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا. وكل مالٍ لم تؤدَّ زكاته، فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن، يكوى به صاحبه، وإن لم يكن مدفونًا.

قال الطبري: وقال آخرون: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أدَّيت منه الزكاة أو لم تؤدِّ.

وقال آخرون: «الكنز» كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، القولُ الذي ذكر عن ابن عمر: من أن كل مالٍ أدّيت زكاته فليس بكنز يحرُم على صاحبه اكتنازُه وإن كثر، وأنّ كل مالٍ لم تُؤَّد زكاته فصاحبه مُعاقب مستحقٌّ وعيدَ الله، إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قلّ، إذا كان مما يجبُ فيه الزكاة.

قال الطبري بعد أن أورد جملة آثار وأحاديث:

وإذا كان ذلك معنى «الكنز»، عندهم، وكان قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، معناه: والذين يجمعون الذهب والفضة بعضَها إلى بعض ولا ينفقونها في سبيل الله، وهو عامٌّ في التلاوة، ولم يكن في الآية بيانُ كم ذلك القدر من الذهب والفضّة الذي إذا جمع بعضُه إلى بعض، استحقَّ الوعيدَ، كان معلومًا أن خصوص ذلك إنما أدرك، لوقْف الرسول عليه، وذلك كما بينا من أنه المال الذي لم يودَّ حق الله منه من الزكاة دون غيره، لما قد أوضحنا من الدلالة على صحته.

وقد كان بعض الصحابة يقول: هي عامة في كل كنز غير أنها خاصّة في أهل الكتاب، وإياهم عَنَى الله بها.

وأورد بإسناد صحيح[1] عن زيد بن وهب قال: مررت بالرَّبَذَة، فلقيت أبا ذَرّ، فقلت: يا أبا ذرّ، ما أنزلك هذه البلاد؟ قال: كنت بالشأم، فقرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، الآية، فقال معاوية: ليست هذه الآية فينَا، إنما هذه الآية في أهل الكتاب! قال: فقلت: إنها لفينا وفيهم! قال:

---

(١) وقد تقدم وأنه عند البخاري.

فارتَفَع في ذلك بيني وبينه القولُ، فكتب إلى عثمان يشكُوني، فكتب إليَّ عثمان أنْ أقبل إليّ ! قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركِبني الناسُ كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تَنَحَّ قريبًا. قلت: والله لن أدعَ ما كنت أقول!



س: لماذا قيل: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ ولم يقل: (ولا ينفقونهما) يعني الذهب والفضة؟

ج: قيل: إن هذا للتغليب كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾. وكما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقيل: المراد ولا ينفقون زكاتها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: فكيف قيل: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأخرجت «الهاء» و«الألف» مخرج الكناية عن أحدِ النوعين.

قيل: يحتمل ذلك وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ مرادًا بها الكنوز، كأنه قيل: والذين يكنزون الكنوز ولا ينفقونَها في سبيل الله، لأن الذهب والفضة هي «الكنوز»، في هذا الموضع.

والأخر أن يكون استغنى بالخبر عن إحداهما في عائد ذكرهما، من الخبر عن الأخرى، لدلالة الكلام على الخبر عن الأخرى مثل الخبر عنها، وذلك كثير موجود في كلام العرب وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

نَحْـنُ بِمَـا عِنْـدَنَا وأَنْـتَ بِمَـا عِنْـدَكَ رَاض، وَالـرَّأْيُ مُخْتَلِـفُ

فقال: «راض»، ولم يقل: «رضوان»، وقال الآخر:

إِنَّ شَـرْخَ الشَّـبَابِ والشَّـعَرَ الأَسْـ وَدَ مَـا لَـمْ يُعَـاصَ كـانَ جُنُونَـا

فقال: «يعاص»، ولم يقل: «يعاصيا» في أشياء كثيرة. ومنه قول الله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، [سورة الجمعة: ١١]، ولم يقل: «إليهما».

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل ينفقونهما، ففيه أجوبة ستة:

الأول: قال ابن الأنباري: قصد الأغلب والأعم وهي الفضة، ومثله قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥] رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم. ومثله ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: ١١] فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم وترك اللهو قاله كثير من المفسرين. وأباه بعضهم وقال: لا يشبهها، لأن ﴿أَوۡ﴾ قد فصلت التجارة من اللهو فحسن عود الضمير على أحدهما.

الثاني: العكس وهو أن يكون «ينفقونها» للذهب والثاني معطوفا عليه. والذهب تؤنثه العرب تقول: هي الذهب الحمراء. وقد تذكر والتأنيث أشهر.

الثالث: أن يكون الضمير للكنوز.

الرابع: للأموال المكنوزة.

الخامس: للزكاة التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة.

السادس: الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، وهذا كثير في كلام العرب.

عقوبة الكافرين

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – يا أهل الإيمان بالله ورسوله اعملوا أن ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ وهم علماء اليهود، ﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ وهم عُباد النصارى ليأكلون أموال الناس بغير حق، فتارة يأكلونها عن طريق الرشوة في الحكم، فيقبلون الرشوة ويظلمون اناس وتارة يأخذون الأموال مقابل فتوى يحلُّون بها الحرام، ويحرمون بها الحلال، وتارة يفرضون على أتباعهم أموالًا للكنائس والبيع والصوامع ويأخذونها لأنفسهم، وتارةً يأكلون الزكوات التي هي حقوق للفقراء، وتارة يأكلون الأموال بوعود باطلة وأماني كاذبة إلى غير ذلك من صور الباطل الذي هو غير الحق، ومع هذا كله فإنهم يصرفون الناس عن طريق الله ﷻ ويمنعونهم من الدخول في الإسلام والتدين به، ثم يُحذر الله سبحانه وتعالى طائفة الأغنياء والكانزين الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فيقول تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ ولا يخرجون زكواتها ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله ومرضاته ولإعلاء كلمته فبشرهم بعذاب مؤلم موجع يوم القيامة.

فالآية إذن تحذير لثلاث طوائف، العلماء والعباد والأثرياء، فإن فساد هؤلاء فيه فساد لسائر الناس وصلاحهم فيه صلاح لسائر الناس في غالب الأحوال.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيرًا من العلماء والقُرَّاء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، يقول: يأخذون الرشى في أحكامهم، ويحرّفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا ثم يقولون: «هذه من عند الله»، ويأخذون بها ثمنًا قليلا من سِفلتهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول: ويمنعون من أرادَ الدخول في الإسلام الدخولَ فيه، بنهيهم إياهم عنه.

وأورد بإسناد حسن عن السدي قال: أما ﴿ٱلْأَحْبَارِ﴾، فمن اليهود. وأما ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾، فمن النصارى. وأما ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فمحمد ﷺ.

قال الطبري:

ويقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، ويأكلها أيضًا معهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، يقول: بشّر الكثيرَ من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، بعذابٍ أليم لهم يوم القيامة، مُوجع من الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣] والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢﴾ [المائدة: ٨٢]

والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال كما قال سفيان بن

عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «**لتركبنّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذّة**». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**». وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «**وَمَن الناس إلا هؤلاء؟**» .

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويُلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم

وَهَل أفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها؟

ثم أورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الأقوال في تعريف الكنز:

منها: أثر ابن الذي تقدم ذكره وهذا عليه الأكثرون.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ دخلت اللام على يفعل، ولا تدخل على فعل لمضارعة يفعل الأسماء. والأحبار علماء اليهود. والرهبان مجتهدو النصارى في العبادة. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قيل: إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذي ذكره سلمان الفارسي عن الراهب الذي استخرج كنزه، ذكره ابن إسحاق في السير. وقيل: كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع. وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، كما يفعله اليوم كثير من الولاة والحكام. وقوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يجمع ذلك كله. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون أهل دينهم عن الدخول في دين الإسلام، واتباع محمد ﷺ.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا تحذير من اللّه تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل اللّه، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل اللّه، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتا وظلما، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم

بغير ما أنزل اللّه، فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل اللّه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ﴾ أي: يمسكونها ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى اللّه، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل اللّه إذا وجبت.

﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا ﴾ أي: على أموالهم، ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن أورد أقوالًا للعلماء في أن الكنز كل مال لم تؤد زكاته[(١)]:

منها: أنها منسوخة بآيات الزكاة كقوله: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ﴾ [التوبة: ١٠٢].



س: هل يجب على كل شخص أن ينفق كل أمواله في سبيل الله؟

ج: لا يجب عليه ذلك بل يجب عليه أن يؤدي الزكاة التي افترضها الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

وذلك بدليل قول السائل لرسول الله ﷺ بعد أن بيَّن له ما فرضه عليه من الزكاة: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ... قَالَ الرَّجُلَ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ. فَقَالَ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»[(٢)].



---

(١) إذا استوفيت الشروط كبلوغ النصاب وحلول الحول.

(٢) البخاري (حديث ٤٦)، ومسلم (حديث ١١).

س: إذن فما توجيه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾؟

ج: هذا يحتمل احتمالات:

أحدها: أن هذا في الأحبار والرهبان الذين يجمعون من الناس أموالًا لإنفاقها في سبيل الله ثم هم يأخذونها لأنفسهم.

وهذا الاحتمال أراه قاصرًا في هذا المقام، وذلك لعموم الآية الكريمة.

الثاني: أن هذا منسوخ كما قال بعض العلماء كان يجب على الشخص في أول أمر الإسلام أينفق الزائد عن حاجته لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].. أي الزائد عن الحاجة.

الثالث: وهو الأظهر وعليه قول أكثر أهل العلم، أن هذا في الزكوات الواجبة المفروضة فالذي يحتسبها ولا يخرجها في مصارفها، ومن مصارفها البذل في سبيل الله، فهو المتوعد بالعذاب، أي: الذي يمسك الزكوات ولا يخرجها في مصارفها. والله أعلم

قال الشنقيطي (أضواء البيان):

أظهر الأقوال وأقربها للصواب في معنى ﴿يَكْنِزُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة، أن المراد بكنزهم الذهب والفضة وعدم إنفاقهم لها في سبيل الله، أنهم لا يؤدون زكاتهما.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم- فبشر الكافرين بعذاب أليم يوم يحمى على كنوزهم التي اكتنزوها ولم يؤدوا زكاتها في نار جهنم فتوضع هذه الكنوز

المُحمرة التي احمرت بسبب النار التي وضعت عليها توضع على جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم: هذه الأموال التي كنزتموها لأنفسكم ها أنتم تكوون بها فذوقوا بها العذاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فبشر هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا يخرجون حقوق الله منها، يا محمد، بعذاب أليم، ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾، فـ «اليوم» من صلة «العذاب الأليم»، كأنه قيل: يبشرهم بعذاب أليم، يعذبهم الله به في يوم يحمى عليها.

ويعني بقوله: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا ﴾، تدخل النار فيوقد عليها، أي: على الذهب والفضة التي كنزوها ، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ ﴾.

وكل شيء أدخل النار فقد أحمي إحماءً، يقال منه: «أحمَيت الحديدة في النار أحميها إحماءً».

وقوله: ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ ﴾، يعني بالذهب والفضة المكنوزة، يحمى عليها في نار جهنم، يكوي الله بها. يقول: يحرق الله جباهَ كانزيها وجنوبَهم وظهورهم ، ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ ﴾، ومعناه: ويقال لهم: هذا ما كنزتم في الدنيا، أيها الكافرون الذين منعوا كنوزهم من فرائض الله الواجبة فيها ﴿لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾، يقول: فيقال لهم: فاطعَمُوا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم حقوقَ الله وتكنزونها مكاثرةً ومباهاةً.

وحذف من قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ ﴾ و«يقال لهم»، لدلالة الكلام عليه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ أي: يقال لهم هذا

(٤٨٧) أحمر
أسود

الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أي: هذا بذاك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله، عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهدًا في عداوة الرسول، صلوات الله [وسلامه] عليه وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: [في] عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ٥] أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه -كان- في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخا ولوما: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر اللّه في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة اللّه، وإخراجها للصد عن سبيل اللّه.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، و«النهي عن الشيء، أمر بضده».

س: ما الذي جرى بين أبي ذر ومعاوية رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾؟

ج: هذا – والله أعلم – لكون أبي ذر رضي الله عنه كان يرى وجوب إخراج الفائض عن الحاجة وكان معاوية رضي الله عنه يرى أن الآية نزلت في أهل الكتاب.

وكلا الرأيين بعيدٌ عن الصواب.

أما أبو ذر رضي الله عنه فقد سمع من النبي ﷺ حديثًا أو أكثر من حديث ففهم منها الذي فهم وخفيت عليه سائر الأحاديث.

فقد أخرج البخاري ومسلم[(١)] من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ عِشَاءً، وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى أُحُدٍ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ!**» قَالَ: قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**مَا أُحِبُّ أَنَّ أُحُدًا ذَاكَ عِنْدِي ذَهَبٌ. أَمْسَى ثَالِثَةً عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ؛ إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ؛ إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللهِ. هَكَذَا** (حَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ) **وَهَكَذَا** (عَنْ يَمِينِهِ) **وَهَكَذَا** (عَنْ شِمَالِهِ) قَالَ: ثُمَّ مَشَيْنَا. فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ!**» قَالَ: قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**» مِثْلَ مَا صَنَعَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى. قَالَ: ثُمَّ مَشَيْنَا. قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ! كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتِيَكَ**» قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى تَوَارَى عَنِّي. قَالَ: سَمِعْتُ لَغَطًا وَسَمِعْتُ صَوْتًا. قَالَ: فَقُلْتُ: لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عُرِضَ لَهُ. قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَّبِعَهُ. قَالَ: ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ: «**لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ**» قَالَ: فَانْتَظَرْتُهُ. فَلَمَّا جَاءَ ذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي سَمِعْتُ قَالَ: فَقَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَانِي فَقَالَ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» قَالَ: قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**».

أما معاوية رضي الله عنه فقصر الآية على أهل الكتاب، وكما هو معلوم فالعبرة

---

(١) البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤) واللفظ له.

بالعموم.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: ويحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر في هذا، ما روي أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله ﷺ عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يسعهم، وكانت السنون الجوائح هاجمة عليهم، فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت.

فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أوجب ﷺ في مائتي درهم خمسة دراهم وفي عشرين دينارا نصف دينار ولم يوجب الكل واعتبر مدة الاستنماء، فكان ذلك منه بيانا ﷺ. وقيل: الكنز ما لم تؤد منه الحقوق العارضة، كفك الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل: الكنز لغة المجموع من النقدين، وغيرهما من المال محمول عليهما بالقياس. وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حليا، لأن الحلي مأذون في اتخاذه ولا حق فيه. والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمى كنزا لغة وشرعا. والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: كان من مذهب أبي ذر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي [الناس] بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث

إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

وقال ابن حجر في [فتح الباري] قَالَ اِبْن عَبْد الْبَرّ: وَرَدَتْ عَنْ أَبِي ذَرّ آثَار كَثِيرَة تَدُلّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَذْهَب إِلَى أَنَّ كُلّ مَال مَجْمُوع يَفْضُل عَنْ الْقُوت وَسَدَاد الْعَيْش فَهُوَ كَنْز يُذَمّ فَاعِله ، وَأَنَّ آيَة الْوَعِيد نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ.

وَخَالَفَهُ جُمْهُور الصَّحَابَة وَمَنْ بَعْدهمْ وَحَمَلُوا الْوَعِيد عَلَى مَانِعِي الزَّكَاة ، إلى أن قال: فَكَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا فِي أَوَّل الْأَمْر ثُمَّ نُسِخَ. وَاَللَّه أَعْلَم. ثم ذكر شَدَّاد بْن أَوْس أنه قَالَ: «كَانَ أَبُو ذَرّ يَسْمَع الْحَدِيث مِنْ رَسُول الله ﷺ فِيهِ الشِّدَّة ثُمَّ يَخْرُج إِلَى قَوْمه ، ثُمَّ يُرَخِّص فِيهِ النَّبِيّ ﷺ فَلَا يَسْمَع الرُّخْصَة وَيَتَعَلَّق بِالْأَمْرِ الْأَوَّل» اهـ.

وقال بعض العلماء: هي في خصوص أهل الكتاب، بدليل إقترانها مع قوله: ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية.

فإذا علمت أن التحقيق أن الآية عامة، وأنها في من لا يؤدي الزكاة، فاعلم أن المراد بها هو المشار إليه في آيات الزكاة. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن البيان بالقرآن إذا كان غير واف بالمقصود نتمم البيان من السنة، من حيث إنها بيان للقرآن المبين به، وآيات الزكاة كقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية، وقوله: ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] لا تفي بالبيان فتبينه بالسنة، وقد قال ابن خويز منداد المالكي، تضمنت هذه الآية: زكاة العين، وهي تجب بأربعة شروط، حرية، وإسلام، وحول، ونصاب سليم من الدين. اهـ. وفي بعض هذه الشروط خلاف.

حُلِيُّ المرأة هل عليه زكاة إن كان ذهبًا

س: هل الحلي الذي تتحلى به المرأة عليه زكاة إذا كان ذهبًا وبلغ النصاب؟

ج: في هذه المسألة وجهان لأهل العلم:

أحدهما: أن الذهب الذي تتحلى به المرأة إذا بلغ النصاب، وحال عليه الحول، أي: مرَّت عليه سنةٌ وجبت فيه الزكاة كسائر الأموال.

الثاني: أنه لا زكاة في الحلي ما دامت المرأة تتزين به.

وهنالك أقوالٌ أُخر في الباب لا دليل عليها.

أما القول الذي أختاره في هذه المسألة فهو وجوب الزكاة في الذهب الذي تتحلى به المرأة إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول، وذلك للآتي ذكره.

أولًا: أنه مالٌ بلغ النصاب، ولم يرد دليلٌ من الكتاب العزيز، ولا دليل صحيح من السنة المباركة، ولا إجماع بأنه لا زكاة فيه، فبقينا مع الأصل أنه مال يُزكى، ومعلوم أنه يمكن تسييله إلى عملة ورقية في أي وقت، بل درج الناس على ادخار المال في صورة هذا الحلي.

ثانيًا: عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد تقدم تعريف الكنز بأنه كل مالٍ لم تؤد زكاته، وإن كان فوق الأرض.

ثالثًا: العمومات الواردة أيضًا من السنة في إخراج الزكاة عن الذهب والفضة، ومنها ما أخرجه مسلم[1] من حديث أبي هريرة ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ**

(١) مسلم (٩٨٧).

وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...» الحديث.

وفي رواية أخرى عند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أيضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبِينُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ كَأَوْفَرِ مَا كَانَتْ تَسْتَنُّ عَلَيْهِ كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...» الحديث.

وما أخرجه مسلم(١) أيضًا من حديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: «مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ قَطُّ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ(٢) تَسْتَنُّ عَلَيْهِ بِقَوَائِمِهَا وَأَخْفَافِهَا، وَلَا صَاحِبِ بَقَرٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِقَوَائِمِهَا، وَلَا صَاحِبِ غَنَمٍ لَا يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ، وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا لَيْسَ فِيهَا جَمَّاءُ وَلَا مُنْكَسِرٌ قَرْنُهَا، وَلَا صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَتْبَعُهُ فَاتِحًا فَاهُ، فَإِذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ، فَيُنَادِيهِ خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ، فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لَا بُدَّ مِنْهُ سَلَكَ يَدَهُ فِي فِيهِ فَيَقْضَمُهَا قَضْمَ الْفَحْلِ».

---

(١) مسلم (٩٨٨).

(٢) في رواية: بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، والمراد ببطح وقعد هو صاحب الإبل، فهو الذي يُبطح أي: ينام منبطحًا في قاع مستون فتمر عليه إبله بأخفافها وقوائمها، وترفع يديها وتطرحهما معًا على صاحبها.

وقال البخاري[(١)] في صحيحه وَقَالَ[(٢)] أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبِ بْنِ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ يُونُسَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَنْ كَنَزَهمَا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُمَا فَوَيْلٌ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ.

رابعًا: أخبار خاصة وردت في إيجاب إخراج الزكاة عن الذهب المستعمل للزينة، وإن كان في بعضها مقالٌ لكنها تُحسَّن بمجموع طرقها.

فمن ذلك ما رواه أبو داود والنسائي وأحمد[(٣)] وغيرهم من طريق عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا وَفِي يَدِ ابْنَتِهَا مَسَكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ لَهَا: «**أَتُعْطِينَ زَكَاةَ هَذَا؟**» قَالَتْ: لَا. قَالَ: «**أَيَسُرُّكِ أَنْ يُسَوِّرَكِ اللهُ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِوَارَيْنِ مِنْ نَارٍ**» قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا فَأَلْقَتْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ: هُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ.

وله شاهد في سنده ضعف[(٤)] قريب من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ: دَخَلْتُ أَنَا وَخَالَتِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهَا أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ لَنَا: «**أَتُعْطِيَانِ زَكَاتَهُ؟**» قَالَتْ: فَقُلْنَا: لَا. قَالَ: «**أَمَا تَخَافَانِ أَنْ يُسَوِّرَكُمَا اللهُ أَسْوِرَةً مِنْ نَارٍ أَدِّيَا**

---

(١) البخاري (١٤٠٤).

(٢) هذا صورته هنا معلق، لكن في بعض نسخ البخاري (رواية ابي ذر) حدثنا أحمد، وقد وصله أبو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ عن محمد بن حيى وهو الذهلي عن أحمد بن شبيب بإسناده، قاله الحافظ ابن حجر.

(٣) أبو داود (١٥٦٣)، والنسائي (٥/ ٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٨...)، وله شاهد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند أبي داود (١٥٦٥)، وآخر من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا عند أبي داود (١٥٦٤).

(٤) أحمد (٦/ ٤٦١).

زَكَاتَهُ».

هذا، وكما أسلفت لم يصح خبرٌ في إسقاط زكاة الحلي.

والخبر الذي ورد عن النبي ﷺ: «**ليس في الحلي زكاة**» خبر ضعيف جدًّا، وقد أوضحت ضعفه في كتابي جامع أحكام النساء.

هذا، وقد ورد بعض الصحابة أيضًا القول بإخراج الزكاة عن الذهب المعدِّ للزينة.

فروى الدارقطني بسندٍ حسن عن عائشة وابن عمرو[(١)].

فلفظ عائشة لا بأس بلبس الحلي إذا أُعطي زكاته.

وعبد الله بن عمرو كان يكتب إلى خازنه سالم أنه يخرج زكاة حلي نباته كل سنة.

ووردت عدة آثار عن التابعين بإخراج زكاة الذهب المعدّ للزينة.

فسئل سعيد بن المسيب أفي الحلي الذهب والفضة زكاة؟ قال: نعم. قلت: إذن يفنى. قال: ولوْ.

وصح عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

وعن عطاء والزهري وعبد الله بن شداد والثوري وغيرهم[(٢)]، صح عنهم القول بإخراج زكاة عن الذهب المعد للزينة، وكذا الفضة.

هذا، وغاية ما تمسك به المانعون من إخراج الزكاة عن الحلي، أعني الذين قالوا بعدم الوجوب بعض الآثار عن بعض الصحابة كابن عمر[(٣)]،

---

(١) انظر الدارقطني (٢/ ١٠٧).

(٢) وانظر أسانيد تلك الآثار عند عبد الرزاق في المصنف (٧٠٦٣) وغيره.

(٣) موطأ مالك (٢/ ٢٥٠) وغيره.

(٤٩٥) أحمر
أسود

وجابر[1]، وأسماء بنت أبي بكر[2]، وعائشة[3]، قد صح عنها أنها كانت تلي بنات أخيها يتامى في حجرها لهن الحلي فلا تخرج من حليهن زكاة، وهذا كله لا يقوى على إسقاط زكاة الذهب والفضة المعدان للزينة، والصواب وجوب الإخراج إذا بلغ الذهب الناب، وحال عليه الحول، والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإخراج زكاة الحلي أحوط لأن « **من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه** » - « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » والعلم عند الله تعالى.



س: هل الحلي الذي تتحلى به المرأة (غير الذهب والفضة) عليه زكاة؟

ج: ليست عليه زكاة.

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ[4]: ليس في اللؤلؤ، ولا في المسك، ولا في العنبر زكاة.

وقال الشافعي في الأم[5]: وما يحلى النساء به أو ادخرنه أو ادخره الرجال من لؤلؤ وزبرجد وياقوت ومرجان وحلية بحر وغيره فلا زكاة فيه، ولا زكاة إلا في ذهب أو ورق، ولا زكاة في صفر ولا حديد ولا رصاص ولا حجارة ولا كبريت ولا مما أخرج من الأرض ولا زكاة في عنبر ولا لؤلؤ أُخذَ من البحر.. إلى آخر ما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ.



(١) مسند الشافعي (ص٩٦) وغيره.
(٢) ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١٥٥).
(٣) الموطأ (١/ ٢٥٠) ويمكن الجمع بينه وبين أثر عائشة الآخر، بأن يقال إن ذهب اليتامى لم يكن بلغ النصاب والله أعلم.
(٤) الموطأ (١/ ٢٥٠).
(٥) الأم (٢/ ٣٦).

س: ما المراد بالأشهر الحرم؟

ج: يبينها قول رسول الله ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم[1] وأحمد واللفظ لأحمد من حديث أبي بَكْرَة، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة [حرم، ثلاثة] متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**». ثم قال: «**أي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا؛ بلى. ثم قال: «**أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلى. ثم قال: «**أي بلد هذا؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليست البلدة؟**» قلنا: بلى. قال: «**فإن دماءكم وأموالكم** -قال: وأحسبه قال: **وأعراضكم** -**عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه**».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله ﷺ في الحديث: « **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**»، تقرير منه، صَلَوَات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق**

---

(١) البخاري (٦٧) وفي غير موضع، ومسلم (١٦٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٧) واللفظ له.

السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**».

أي: الأمر اليوم شرعا كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله تعالى: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَسْل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديدًا.

وأما قوله: «**ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**، [فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان] لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين، عليه [الصلاة و] السلام، أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.



س: ما توجيه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ مع العلم بأننا نهينا عن ظلم النفس مطلقًا؟

ج: ليس المعنى أنه يباح لنا أن نظلم أنفسنا في غيرها، وإنما المعنى التحذير الشديد من ظلم النفس فيها، فالإثم فيها أعظم من غيرها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفت، فقد يجب أن يكون مباحًا لنا ظُلْم أنفسنا في غيرهن من سائر شهور السنة؟

قيل: ليس ذلك كذلك، بل ذلك حرام علينا في كل وقتٍ وزمانٍ، ولكن الله عظَّم حرمة هؤلاء الأشهر وشرَّفهن على سائر شهور السنة، فخصّ الذنب فيهن بالتعظيم، كما خصّهن بالتشريف، وذلك نظير قوله: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٨]، ولا شك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضات كلها بقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾، ولم يبح ترك المحافظة عليهن، بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى، ولكنه تعالى ذكره زادَها تعظيمًا، وعلى المحافظة عليها توكيدًا وفي تضييعها تشديدًا. فكذلك ذلك في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

خص الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر، ونهى عن الظلم فيها تشريفا لها وإن كان منهيا عنه في كل الزمان. كما قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ ﴾ [البقرة: ١٩٧] على هذا أكثر أهل التأويل. أي لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم.



الأحكام الشرعية
تبنى على الشهور الهلالية (العربية)

س: الأحكام الشرعية المتعلقة بالشهور على تنبني على الشهور العربية (الهلالية) أم على الشهور الميلادية؟

ج: بل تنبني على الشهور العربية (الهلالية) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾. ولقوله تعالى: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾:

هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب، دون الشهور التي تعتبرها العجم والروم والقبط وإن لم تزد على اثني عشر شهرا، لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص، والذي ينقص ليس يتعين له شهر، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج.



س: ما المراد بالظلم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بظلم النفس هنا ارتكاب المعاصي والمحرمات.

الثاني: أن المراد بالظلم القتال في هذه الأشهر.

الثالث: أن المراد بالظلم تأخير هذه الأشهر الذي هو النسيء – كما

سيأتي.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

يخرج في معنى الظلم فيهن أربعة أقوال:

أحدها: أنه المعاصي؛ فتكون فائدة تخصيص النهي عنه بهذه الأشهر، أن شأن المعاصي يعظم فيها أشد من تعظيمه في غيرها، وذلك لفضلها على ما سواها، كقوله: ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: ٩٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الملائكة، وقوله: ﴿ فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨] وإن كانا قد دخلا في جملة الفاكهة، وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧] وإن كان منهيا عنه في غير الحج وكما أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى وإن كان مأمورا بالمحافظة على غيرها هذا قول الأكثرين.

والثاني: أن المراد بالظلم فيهن فعل النسيء، وهو تحليل شهر محرم وتحريم شهر حلال، قاله ابن اسحاق.

والثالث: أنه البداية بالقتال فيهن؛ فيكون المعنى: فلا تظلموا أنفسكم بالقتال فيهن إلا أن تُبدؤوا بالقتال، قاله مقاتل.

والرابع: أنه ترك القتال فيهن فيكون المعنى فلا تظلموا فيهن أنفسكم بترك المحاربة لعدوكم. قاله ابن بحر. وهو عكس قول مقاتل، والسر في أن الله تعالى عظم بعض الشهور على بعض؛ ليكون الكف عن الهوى فيها ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها تدريجا للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعا.



(٥٠١) أحمر
أسود

شهور السنة والأشهر الحرم

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾؟

ج: المعنى، إجمالًا – والله تعالى أعلم- إن عدد شهور السنة عند الله ﷻ في كتابه الذي كتبه يوم خلق السموات والأرض، في اللوح المحفوظ اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرمٌ عظمها الله ﷻ وعظم القتال فيها، نهى عن القتال فيها، وهي كما بينها النبي ﷺ ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة، وشهر الله المحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

وأطلق عليها رجب مضر نسبةً على قبيلة مضر فقد كانت هذه القبيلة تحافظ على هذا الشهر فلا تقدم فيه ولا تؤخر، أما سائر القبائل فكانت تتقاتل فإذا دخل رجب يُفترض أنها تتوقف عن القتال، ولكنها لا تفعل ذلك بل تستمر في القتال، وتقول مثلًا نؤخر رجب إلى ما بعد شوال أو نؤخر رجب شهرًا أو شهرين وتقدم غيره عليه أو تلغي رجب هذا العام، وهذا هو النسيء كما سيأتي بيانه.

ثم إن هذه الأشهر الرحم حُرِّم القتال فيها، وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا التحريم منسوخ، أعني: تحريم القتال.

وعظَّم الله ﷻ إثم المعاصي فيها فالذي يعصي يعاقب عقابًا أشد من العاصي في غيرها.

وكذا عظَّم فيها الطاعات فأجرها في الأشهر الحرم أكثر من غيرها.

وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ... ﴾.

[المائدة: ١]

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... ﴾.

[البقرة: ٢١٧]

وقال ﷺ: «**أتدرون أي شهر هذا...**» ثم قال: «**أليس بالشهر الحرام...**» ثم قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذه...**» الحديث.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ﴾ فالمعنى ذلك هو الدين المستقيم والحساب الصحيح الذي تحسب به الأشياء كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ... ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ يعني بارتكاب المعاصي واستحلال الحرام، وكذا لا تظلموا فيهن إخوانكم فالمسلمون نفس واحدة، وخصت هذه الأشهر بالنهي عن ظلم النفس كما تقدم لعظيم حرمتها وليتعظم أمر الآثام فيها، وقد سبق بذلك سؤال مستقل وجوابه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ قيل: إنه ناسخ لما تقدم من النهي عن القتال في الأشهر الحرم، وقوله: ﴿كَآفَّةً ﴾ أي: جميعًا أي: قاتلوا أهل الكفر كلهم كما يقاتلونكم جميعًا.

واعلموا أن الله مع المتقين الذين يتقون الشرك به والذين يتقون معصيته ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن عدة شهور السنة اثنا عشر شهرًا في كتاب الله، الذي

كتبَ فيه كل ما هو كائن في قضائه الذي قضى ، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾، يقول: هذه الشهور الاثنا عشر منها أربعة أشهر حرم كانت الجاهلية تعظمهن، وتحرِّمهن، وتحرِّم القتال فيهن، حتى لو لقي الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يَهِجْهُ، وهن: رجب مُضر وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة أحاديث عن رسول الله ﷺ، منها حديث عن أبي بكرة: أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع فقال: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجبُ مضر الذي بين جمادى وشعبان.

وقال: وهو قول عامة أهل العلم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾، فإن معناه: هذا الذي أخبرتكم به، من أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله، وأن منها أربعة حرمًا: هو الدين المستقيم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾، قال: الأمر القيم. يقول: قال تعالى: واعلموا، أيها الناس، أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله الذي كتب فيه كل ما هو كائن، وأن من هذه الاثنى عشر شهرًا أربعةُ أشهرٍ حرمًا، ذلك دين الله المستقيم، لا ما يفعله النسيء من تحليله ما يحلل من شهور السنة، وتحريمه ما يحرِّمه منها.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾، فإن معناه: فلا تعصوا الله فيها، ولا تحلُّوا فيهن ما حرَّم الله عليكم، فتكسبوا أنفسكم ما لا قِبَل لها به من

سخط الله وعقابه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، قال: الظلم العمل بمعاصي الله، والترك لطاعته.

ثم اختلف أهل التأويل في الذي عادت عليه «الهاء»، و«النون» في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾.

فقال بعضهم: عاد ذلك على «الاثنى العشر الشهر»، وقال: معناه: فلا تظلموا في الأشهر كلِّها أنفسكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا تظلموا في الأربعة الأشهر الحرُم أنفسكم = و«الهاء والنون» عائدة على «الأشهر الأربعة».

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: أما قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، فإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووِزْرًا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظِّم من أمره ما شاء. وقال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسُلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضانَ والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدر، فعظِّموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظَّمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فلا تظلموا في تصييركم حرامَ الأشهر الأربعة حلالا وحلالها حرامًا، أنفسَكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسَكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظَّم حرمتها.

وأما قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: وقاتلوا المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعًا غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعًا، مجتمعين غير متفرقين

وأما قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، فإن معناه: واعلموا، أيها المؤمنون بالله، أنكم إن قاتلتم المشركين كافة، واتقيتم الله فأطعتموه فيما أمركم ونهاكم، ولم تخالفوا أمره فتعصوه، كان الله معكم على عدوكم وعدوه من المشركين، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء، لأن الله مع من اتقاه فخافه وأطاعه فيما كلفه من أمره ونهيه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله وفيما كتب في اللوح المحفوظ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إنما قال ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على أنبيائه في كتبه المنزلة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾. وحكمها باق على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها، وتقديم المقدم في الاسم منها. والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها، وتعليق الأحكام على الأسماء التي رتبوها عليه، ولذلك قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خطبته في حجة الوداع: «**أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض...** » على ما يأتي بيانه. وأن الذي فعل أهل الجاهلية من جعل المحرم صفرا وصفر محرما ليس يتغير به ما وصفه الله

تعالى. والعامل في ﴿يَوۡمَ﴾ المصدر الذي هو ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وليس يعنى به واحد الكتب، لأن الأعيان لا تعمل في الظروف. والتقدير: فيما كتب الله يوم خلق السموات والأرض. و﴿عِندَ﴾ متعلق بالمصدر الذي هو العدة، وهو العامل فيه. و﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلقة بمحذوف، هو صفة لقوله: ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ﴾. والتقدير: اثنا عشر شهرا معدودة أو مكتوبة في كتاب الله. ولا يجوز أن تتعلق بعدة لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر إن.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي الحساب الصحيح والعدد المستوفى. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ أي ذلك القضاء. مقاتل: الحق. ابن عطية: والأصوب عندي أن يكون الدين ههنا على أشهر وجوهه، أي ذلك الشرع والطاعة. ﴿ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي القائم المستقيم، من قام يقوم. بمنزلة سيد، من ساد يسود. أصله قيوم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حَقِّ من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم.

وقوله: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ أي: جميعكم ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ أي: جميعهم، ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما -وهو الأشهر: أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال هاهنا: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عاما، فلو كان محرما ما في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام -وهو ذو القعدة -كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم، فلجئوا إلى الطائف -عَمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوما، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الحرام، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [الآية] [المائدة: ٢] وقال: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الآية] [التوبة: ٥] .

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين

بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ الآية [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندما قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما. وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم. ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره. ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه القدري، ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر [شهرا].

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرما لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا، وأن اللّه تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر اللّه تعالى على مِنَّتِهِ بها، وتقييضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم

فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصا مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرام لم ينسخ تحريمه عملا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ، أخذا بعموم نحو قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحدا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئا.

ويحتمل أن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآية. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى اللّه في سركم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصا عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.



معنى النسيء

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

ج: المعنى –والله أعلم– ما النسيء الذي يصنعه هؤلاء الكفار من تأخير الأشهر المحرم وتغييرها عن أماكنها كهؤلاء الذين كانوا يتقاتلون ويكاد شهر رجب أن يدخل عليهم مثلًا، ويفترض أنهم يتوقفوا عن القتال فيه لكونه من الأشهر فيقولون نؤجل رجب إلى ما بعد شعبان، أو نؤجل رجب هذا العام فنجعله العام المقبل، أو نلغي رجب، نسقطه بالمرة هذا العام فلا رجب إلى غير ذلك من صور الإنساء، الذي هو التأخير، ما هذا الإنساء إلا زيادة في الكفر، فإنهم كفروا بوحدانية الله وكذبوا رسل الله وأنكروا القرآن وكذبوا المرسلين عمومًا، وأنكروا البعث والحساب إلى غير ذلك من صور الكفر والضلال الذي كانوا فيها، فما النسيء الذي اختلقوه واخترعوه إلى زيادة في الكفر والضلال، فإنهم يغيرون من دين الله الأشهر الحرم، فلا يتركونها على ما هي عند الله، وعلى ما قد شرعه الله في شأنها، بل يزيدون وينقصون، ويغيرون ويبدلون، فهذا فريدٌ من الكفر إلى كفرهم، وذلك لكونهم جحدوا ما شرعه الله من الأشهر الحرم، وانتهكوا فيها الحرمات وارتكبوا فيها المنكرات وأحلوا فيها ما حرم الله فازدادوا بذلك كفرًا إلى كفرهم أما قوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يُصرف بهذا الإنساء والتأخير، أهل الكفر من الحق إلى الباطل، فيزدادون ضلالًا إلى ضلالهم، ففي عام من الأعوام يقولون لا نسيء ولا تأخير وسنترك هذه الأشهر الحرم كما هي هذا العام وفي عام آخر يؤخرونها عن مواطنها ومواعيدها.

أمـا قولـه تعـالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فمعنـاه ليوافقـوا بأعمـالهم المحرمة الأشهر التي حرم الله فيها القتال ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ فيقاتلون في الأشهر الحرم ويظلموا العباد فيها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ﴾ أي: زين لهم الشياطين أعمالهم فحسنها لهم، فارتكبوا أعمالهم فحسنها لهم، فارتكبوا المنكرات وظنوا أنها حسنة وتمادوا في الغي وظنوا أنهم يحسنون صنعًا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لا يوفق لطاعته ولا للإيمان به، ولا للإسلام من كتبت عليه الشقاوة وقضي عليه بأنه سيموت على الكفر، والعياذ بالله، وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما النّسيء إلا زيادة في الكفر.

و«النسيء» مصدر من قول القائل: «نسأت في أيامك، ونسأ الله في أجلك»، أي: زاد الله في أيام عمرك ومدة حياتك، حتى تبقى فيها حيًّا. وكل زيادة حدثت في شيء، فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه: «نسيء». ولذلك قيل للبن إذا كُثِّر بالماء: «نسيء»، وقيل للمرأة الحبلى: «نَسُوء»، و«نُسِئت المرأة»، لزيادة الولد فيها، وقيل: «نسأتُ الناقة وأنسأتها»، إذا زجرتها ليزداد سيرها.

وقد يحتمل أن: «النسيء»، «فعيل» صرف إليه من «مفعول»، كما قيل: «لعينٌ» و«قتيل»، بمعنى: ملعون ومقتول. ويكون معناه: إنما الشهر المؤخَّر زيادة في الكفر.

وكأنّ القول الأوّل أشبه بمعنى الكلام، وهو أن يكون معناه: إنما التأخير الذي يؤخِّره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهن حلالا والحلال منهن حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكامَ الله

وآياته.

وقد كان بعض القرأة يقرأ ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيُّ﴾ بترك الهمز، وترك مدِّه: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

واختلف القرأة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة الكوفيين: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمعنى: يضل الله بالنسيء الذي ابتدعوه وأحدثوه، الذين كفروا.

وقرأ ذلك عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿يَضِلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بمعنى: يزول عن محجة الله التي جعلها لعباده طريقًا يسلكونه إلى مرضاته، الذين كفروا.

وقد حكي عن الحسن البصري: ﴿يُضِلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بمعنى: يضل بالنسيء الذي سنه الذين كفروا، الناسَ.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: هما قراءتان مشهورتان، قد قرأت بكل واحدةٍ القرأة أهل العلم بالقرآن والمعرفة به، وهما متقاربتا المعنى. لأن من أضله الله فهو «ضال»، ومن ضل فبإضلال الله إياه وخذلانه له ضلّ. فبأيتهما قرأ القارئ فهو للصواب في ذلك مصيبٌ.

وأما الصواب من القراءة في «النسيء»، فالهمزة، وقراءته على تقدير «فعيل» لأنها القراءة المستفيضة في قرأة الأمصار التي لا يجوز خلافها فيما أجمعت عليه.

وأما قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾، فإن معناه: يُحلُّ الذين كفروا النسيء، و«الهاء» في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾، عائدة عليه.

ومعنى الكلام: يحلُّون الذي أخَّروا تحريمه من الأشهر الأربعة الحرم، عامًا، ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، يقول: ليوافقوا بتحليلهم ما

حلَّلوا من الشهور، وتحريمهم ما حرموا منها، عدّة ما حرّم الله ، ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾، يقول: حُسِّن لهم وحُبِّب إليهم سيئ أعمالهم وقبيحها، وما خولف به أمرُ الله وطاعته ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق لمحاسن الأفعال وجميلها، وما لله فيه رضًى، القومَ الجاحدين توحيدَه، والمنكرين نبوة محمد ﷺ، ولكنه يخذّلهم عن الهُدى، كما خذَّل هؤلاء الناس عن الأشهر الحرم.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، إلى قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، عمد أناسٌ من أهل الضلالة فزادوا صفرًا في الأشهر الحرم، فكان يقوم قائمهم في الموسم فيقول: «ألا إن آلهتكم قد حرمت العام المحرَّم»، فيحرمونه ذلك العام. ثم يقول في العام المقبل فيقول: «ألا إن آلهتكم قد حرمت صفر»، فيحرمونه ذلك العام. وكان يقال لهما «الصفران». قال: فكان أول من نَسَأ النسيء: بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة: أبو ثمامة صفوان بني أمية أحد بني فقيم بن الحارث، ثم أحد بني كنانة.

وأما قوله: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، فإن معناه زيادة كُفْر بالنسيء، إلى كفرهم بالله قبلَ ابتداعهم النسيء.

وأما قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾، فإنه من قول القائل: «واطأت فلانا على كذا أواطئه مُواطأة»، إذا وافقته عليه، معينًا له، غير مخالف عليه.

وإنما معنى الكلام: أنهم يوافقون بعدة الشهور التي يحرِّمونها، عدة الأشهر الأربعة التي حرَّمها الله، لا يزيدون عليها ولا ينقصون منها، وإن قدَّموا وأخَّروا. فذلك مواطأة عِدتهم عدَّةَ ما حرّم الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم

الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم -وهو عمير بن قيس المعروف -بجذل الطعان:

لَقَدْ عَلمت مَعد أنَّ قَومِي ... كرَامُ النَّاس أنَّ لَهُمْ كِراما

ألسْنا الناسئينَ على مَعد ... شُهُورَ الحِل نَجْعلُهَا حَرَاما

فأيّ النَّاسِ لَم تُدْرَك بوتْر؟ ... وأيّ النَّاس لم نُعْلك لجاما؟

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب «السيرة» كلامًا جيدًا ومفيدًا حسنًا، فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، عَجَلَّ، «القَلَمَّس»، وهو: حذيفة بن عبد مُدْرِكة فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعدّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد ثم من بعد عباد ابنه قَلَع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيبًا، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر فإنها أنكرت وجود البارئ تعالى فقالت: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] في أصح الوجوه. وأنكرت البعث فقالت: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. وأنكرت بعثة الرسل فقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤]. وزعمت أن التحليل والتحريم إليها، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها فأحلت ما حرم الله. ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال اللغويون: النسيء: تأخير الشيء، وكانت العرب تحرم الأشهر الأربعة، وكن هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم، فربما احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب تكون بينهم، فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر أيضا إلى الشهر الذي بعده، ثم تتدافع الشهور شهرا بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنة كلها، فكأنهم يستنسؤون الشهر الحرام ويستقرضونه، فأعلم الله ﷻ أن ذلك زيادة في كفرهم، لأنهم أحلوا الحرام، وحرموا الحلال ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ أي: ليوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فلا يخرجون من تحريم أربعة، ويقولون: هذه بمنزلة الأربعة الحرم، ولا يبالون بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وكان القوم لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة، إذا اجتمعت العرب للموسم، قال الفراء: كانت العرب في الجاهلية إذا أرادوا الصدر عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أعاب، ولا أجاب، ولا يرد لي قضاء، فيقولون: أنسئنا شهرا يريدون أخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، فيفعل ذلك، وإنما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها،

وإنما كان معاشهم من الإغارة، فتستدير الشهور كما بينا، وقيل: إنما كانوا يستحلون المحرم عاما فاذا كان من قابل ردوه إلى تحريمه قال أبو عبيد: والتفسير الأول أحب إلي لأن هذا القول ليس فيه استدارة.

وقال ابن الجوزي أيضًا:

وقال ابن الجوزي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم: «يَضِل» بفتح الياء وكسر الضاد، والمعنى: أنهم يكتسبون الضلال به. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «يُضَلُّ» بضم الياء وفتح الضاد، على ما لم يسم فاعله. وقرأ الحسن البصري، ويعقوب إلا الوليد: يضل بضم الياء وكسر الضاد، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: يُضِلُّ الله به، والثاني: يُضِلّ الشيطان به، ذكرهما ابن القاسم والثالث: يُضِلّ به الذين كفروا الناس، لأنهم الذين سنُّوه لهم. قال أبو علي: التقدير: يُضل به الذين كفروا تابعيهم. وقال ابن القاسم: الهاء في «به» راجعة إلى النسيء، وأصل النسيء: المنسوء، أي: المؤخَّر، فينصرف عن «مفعول» إلى «فعيل» كما قيل: مطبوخ وطبيخ، ومقدور وقدير، قال: وقيل: الهاء راجعة إلى الظلم، لأن النسيء كشف تأويل الظلم، فجرى مجرى المظهر والأول اختيارنا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا -بآرائهم الفاسدة- أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم اللّه القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا

مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراما، فهذا -كما أخبر اللّه عنهم- أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع اللّه ودينه، واللّه ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراما، والحرام حلالا.

ومنها: أنهم مَوَّهوا على اللّه بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين اللّه.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم اللّه.

﴿ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ ﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ
عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ
لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ
بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ٱنفِرُواْ خِفَافٗا
وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤١) لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ
بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ
يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٤٢) عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ
أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا

يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾
[التوبة: ٣٨-٤٥].

(٥٢٠) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ - ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ - ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ - سَكِينَتَهُۥ - كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ - وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ - خِفَافًا - وَثِقَالًا - عَرَضًا قَرِيبًا - وَسَفَرًا قَاصِدًا - ٱلشُّقَّةُ - وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ - فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	اخرجوا من بيوتكم وبلادكم للغزو لإعلاء كلمة الله
﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾	تكاسلتم ولزمتم بيوتكم وبلادكم وملتم إلى البقاء والدّعة
﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾	أحد اثنين، يعني معه رجل غيره
﴿سَكِينَتَهُۥ﴾	طمأنينته ورحمته
﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾	المراد: كلمة الشرك وراية المشركين
﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾	هي كلمة لا إله إلا الله
﴿خِفَافًا﴾	كهولًا – شيوخًا، وقيل: شبابًا
﴿وَثِقَالًا﴾	شبابًا، وقيل: شيوخًا
﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾	غنيمة سهلة ليس معها تعب ولا مشقة ولا سفر
﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾	سفرًا قاصدًا سهلًا يُقصد وراءه الربح والتجارة بلا مخاطر

(٥٢١) أحمر
أسود

(ٱلشُّقَّةُ)	المسافة – السفر
(وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ)	تشككت قلوبهم (في وحدانية الله وفي وعده ووعيده)
(فِي رَيۡبِهِمۡ ﴿	في شكِّهم يتحيرون



الحث على النفر في سبيل الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – توبيخ لمن تقاعس عن الجهاد في سبيل الله، وعن الخروج للغزو مع رسول الله ﷺ، وكان هذا كما قال كثيرٌ من المفسرين في غزوة تبوك لما حرَّض رسول الله ﷺ على الخروج إليها لغزو الروم، وكان الحرُّ شديدًا جدًّا، والمسافة بعيدةٌ والزاد قليل والرواحل قليلة كذلك، وفي ذات الوقت فإن الثمار فيا لمدينة قد أينعت واقترب وقت قطافها فكان الشخص ينظر في أمره أيجيب أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ ويخرج للغزو مع ما فيه من تعرضه للقتل في سبيل الله، وما مع فيه من مشقة الخروج، أم أنه يبقى في المدينة حيث الظلال والنساء والثمار وطيب المقام الدينوي، فتخلف عن الغزو عددٌ من أهل النفاق، وتكاسل بعض أهل الصلاح، على ما سيأتي بيانه، في قصة كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم، وجاءها هنا العتاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أخرجوا غزاة في سبيل الله مع رسول الله ﷺ، وذلك كما أسلفت لغزو الروم وغزوة تبوك ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ أخلدتم إلى الأرض وتباطأتم عن الخروج ولزمتم مساكنكم وثماركم وأراضيكم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ بما فيها من متاع ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بدلًا عن الآخرة، فإذا كان ذلك فاعلموا أن متاع الحياة الدنيا زائلٌ وفانٍ ومتاع الآخرة هو الدائم الباقي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه الآية حثٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك.

يقول جل ثناؤه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿مَا لَكُمْ﴾، أيّ شيء أمرُكم، ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يقول: إذا قال لكم رسولُ الله محمدٌ، ﴿انفِرُوا﴾، أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم.

وأصل «النفر»، مفارقة مكان إلى مكان لأمرٍ هاجه على ذلك. ومنه: «نفورًا الدابة». غير أنه يقال: من النفر إلى الغزو: «نَفَر فلان إلى ثغر كذا ينْفِر نَفْرًا ونَفِيرًا»، وأحسب أن هذا من الفروق التي يفرِّقون بها بين اختلاف المخبر عنه، وإن اتفقت معاني الخبر.

فمعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون، إذا قيل لكم: اخرجُوا غزاة = «في سبيل الله»، أي: في جهاد أعداء الله، ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، يقول: تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها.

وقيل: «اثّاقلتم» لإدغام «التاء» في «الثاء» فأحدثتْ لها ألف. ليُتَوصَّل إلى الكلام بها، لأن «التاء» مدغمة في «الثاء». ولو أسقطت الألف، وابتدئ بها، لم تكن إلا متحركة، فأحدثت الألف لتقع الحركة بها، كما قال جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾، [سورة الأعراف: ٣٨]، وكما قال الشاعر:

تُولِي الضَّجِيعَ إِذَا مَا اسْتَافَهَا خَصِرًا ... عَذْبَ المَذَاقِ، إِذَا مَا اتَّابَعَ القُبَلُ

[فهو من «الثقل»، ومجازه مجاز «افتعلتم»]، من «التثاقل».

وقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، يقول جل ثناؤه، أرضيتم

بحظ الدنيا والدّعة فيها، عوضًا من نعيم الآخرة، وما عند الله للمتقين في جنانه، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، يقول: فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذّاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدَّها الله لأوليائه وأهل طاعته، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يسير. يقول لهم: فاطلبوا، أيها المؤمنون، نعيم الآخرة، وشرف الكرامة التي عند الله لأوليائه، بطاعتِه والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوِّه.

وقال آخرون: بل الخبيث الكافر، والطيب المؤمن، فبالجهاد والإنفاق يتبين المؤمن من الكافر فنفقة الكافر في المعصية والصد عن سبيل الله، ونفقة المؤمن في طاعة الله ﷻ والدعوة إلى دينه فالمؤمن يعرف بجهاده لإعلاء كلمة الله وبإنفاقه في هذا السبيل كذلك، والكافر يُعرف بإنفاقه في الصد عن سبيل الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا شروع في عتاب من تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمَارَّة القيظ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة

ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ كما قال الإمام أحمد.

وأورد ما أخرجه أحمد[1] بسندٍ صحيح إلى رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٢٨)، ومسلم (٢٨٥٨).

الآخرة إلا كما يجعل إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع؟ وأشار بالسبابة.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ التقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا كما تقول: مالك عن فلان معرضا. ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا على تتخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، وسيأتي ذكرها في آخر السورة إن شاء الله. والنفر: هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال في ابن آدم: نفر إلى الأم يفر نفورا. وقوم نفور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦]. ويقال في الدابة: نفرت تنفر - بضم الفاء وكسرها - نفارا ونفورا. يقال: في الدابة نفار، وهو اسم مثل الحران. ونفر الحاج من منى نفرا.

قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: معناه أثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض. وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن، ومثله ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ [الأعراف: ٣٨] و﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢] و﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: ٤٧] و﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكانت تبوك - ودعا الناس إليها - في حرارة القيظ وطيب الثمار وبرد الظلال - كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي - فاستولى على الناس الكسل فتقاعدوا وتثاقلوا فوبخهم الله بقوله هذا وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة. ومعنى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بدلا،

التقدير: أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة فـ﴿مِنَ﴾ تتضمن معنى البدل، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠] أي بدلا منكم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة، نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارا، والزاد قليلا والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم اللّه تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي اليقين من المبادرة لأمر اللّه، والمسارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، فـ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أفليس قد جعل اللّه لكم عقولا تزِنُون بها الأمور، وأيها أحق بالإيثار؟.

أفليست الدنيا -من أولها إلى آخرها- لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رَأْيٍ رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما

تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فواللّه ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُدَّ من أولي الألباب.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ قال المفسرون: لما امر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك، وكان في زمن عسرة وجدب وحر شديد، وقد طابت الثمار، عظم ذلك على الناس وأحبوا المقام، فنزلت هذه الآية. وقوله: «ما لكم» استفهام معناه: التوبيخ وقوله: ﴿انفِرُوا﴾ معناه: اخرجوا، وأصل النفر: مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج إلى ذلك. وقوله: ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ قال ابن قتيبة: أراد تثاقلتم فأدغم التاء في الثاء وأحدثت الألف ليسكن ما بعدها وأراد قعدتم وفي قراءة ابن مسعود والأعمش تثاقلتم.

وفي معنى ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: تثاقلتم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمرها قاله مجاهد.

والثاني: اطمأننتم إلى الدنيا قاله الضحاك.

والثالث: تثاقلتم إلى الإقامة بأرضكم قاله الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بنعيمها من نعيم الآخرة فما يتمتع به في الدنيا قليل بالإضافة إلى ما يتمتع به الأولياء في الجنة.



س: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هل هو منسوخ؟

ج: ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم، وقالوا: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾.

وذهب آخرون على عدم النسخ، وقالوا: إنها خاصة بمن استنفرهم رسول الله ﷺ، وقد نقل القول بالنسخ عن الحسن وعكرمة

قال الطبري متعقبًا:

ولا خبرَ بالذي قال عكرمة والحسن، من نسخ حكم هذه الآية التي ذكَرا، يجب التسليم له، ولا حجةَ نافٍ لصحة ذلك. وقد رأى ثبوت الحكم بذلك عددٌ من الصحابة والتابعين سنذكرهم بعدُ، وجائزٌ أن يكون قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، الخاص من الناس، ويكون المراد به من استنفرَه رسول الله ﷺ فلم ينفر، على ما ذكرنا من الرواية عن ابن عباس.

وإذا كان ذلك كذلك، كان قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾، نهيًا من الله المؤمنين عن إخلاء بلاد الإسلام بغير مؤمنٍ مقيم فيها، وإعلامًا من الله لهم أن الواجب النَّفرُ على بعضهم دون بعض، وذلك على من استُنْفِرَ منهم دون من لم يُسْتَنْفَر. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن في إحدى الآيتين نسخ للأخرى، وكان حكم كل واحدة منهما ماضيًا فيما عُنِيَتْ به.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وقد روي عن ابن عباس والحسن وعكرمة قاله نسخ قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقوله ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ وقال أبو سليمان الدمشقي ليس هذا من المنسوخ إذ لا تنافي بين الآيتين وإنما حكم كل آية قائم في موضعها وذكر القاضي ابو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا ليس هاهنا نسخ ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدو ففرض على الناس النفير إليهم ومتى استغنوا عن إعانة من وراءهم عذر القاعدون عنهم وقال قوم هذا في غزوة تبوك ففرض على الناس النفير مع رسول الله ﷺ.



التحذير من التخلف عن النفير مع رسول الله ﷺ

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ج: هذا تهديد شديد وتحذير أكيد للمتخلصين عن رسول الله ﷺ، وعن الخروج معه، وكذا تهديد لكل متخلفٍ عن الجهاد إذا استنفره الإمام، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ إلا تخرجوا غزاة مع رسولكم محمد ﷺ يعذبكم الله عذابًا أليمًا، مؤلمًا موجعًا، ومن صور هذا العذاب، عذاب في الدنيا بتسلط أعدائكم عليكم ويمنع القطر من السماء، إلى غير ذلك، من صور العذاب الدنيوي، وكذا يعذبكم في الآخرة بالنار، وكذا ففي الدنيا فإنه يذهب بكم ويأتي بقوم آخرين أطوع لله منكم وأحسن طاعةً واتباعًا، ولا تفروا الله ﷻ بتخلفكم عن الجاهد مع رسوله شيئًا، بل الضرر واقعٌ عليكم أنتم، فإن الله قادر على نصر رسوله ﷺ ولكنه ﷻ يكرمكم ويشرفكم بالجهاد مع رسوله ﷺ ففي الجهاد معه شرف في الدنيا والآخرة ومن حرم شرف الجهاد معه فقد حُرم، ألا واعلموا أن الله على كل شيء قدير، قادر على نصر نبيه ﷺ وإن تخليتم عن نصره، وقادر على الذهاب بكم والإتيان بقوم آخرين، وقادر على أن ينزل عليكم عذابًا، فنعوذ بالله من غضبه وعقابه، ونعوذ بالله أن نرد على أعقابنا أو أن نفتن في ديننا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله، متوعِّدَهم على ترك النَّفْر إلى عدوّهم من الروم: إن لم تنفروا، أيها المؤمنون، إلى من استنفركم

رسول الله، يعذّبكم الله عاجلا في الدنيا، بترككم النَّفْر إليهم، عذابًا مُوجعًا ، ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾، يقول: يستبدل الله بكم نبيَّه قومًا غيرَكم، ينفرون إذا استنفروا، ويجيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله ، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ ﴾، يقول: ولا تضروا الله، بترككم النّفير ومعصيتكم إياه شيئًا، لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغني عنكم وأنتم الفقراء ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾، يقول جل ثناؤه: والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم، وعلى كل ما يشاء من الأشياء، قدير.

وقد ذكر أن «العذاب الأليم» في هذا الموضع، كان احتباسَ القَطْر عنهم.

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم.

﴿ وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ ﴾ أي: ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا ﴾ وقوله ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ ﴾ [التوبة: ١٢٢] رُوي هذا عن ابن عباس، وعِكْرِمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه.

وهذا له اتجاه، والله [سبحانه و] تعالى أعلم [بالصواب].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ شرط، فلذلك حذفت منه النون. والجواب ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير. قال ابن العربي: ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل. فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه، كقوله: إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا، كما ورد في هذه الآية. فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا. وروى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ - إلى قوله - يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠] نسختها الآية التي تليها: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة. ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم. قال ابن العربي: فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قال، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة.

و﴿أَلِيمًا﴾ بمعنى مؤلم، أي موجع. وقد تقدم. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعد بأن يبدل لرسوله قوما لا يقعدون عند استنفاره إياهم. قيل: أبناء فارس. وقيل: أهل اليمن. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ عطف. والهاء قيل لله تعالى، وقيل للنبي ﷺ. والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمن عينه النبي ﷺ حرم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية، ذكره القشيري. وقد قيل: إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم. وظاهر الآية يدل على أن ذلك على

وجه الاستدعاء فعلى هذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعين. وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين ويصير بتعيينه فرضا على من عينه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم توعدهم على عدم النفير فقال:

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف، قد عصى اللّه تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين اللّه، ولا ذب عن كتاب اللّه وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء اللّه، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده اللّه بالوعيد الشديد، فقال: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ ﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر اللّه، أو ألقيتموه، وراءكم ظهريا.

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

﴿ وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾ وعيد شديد في التخلف عن الجهاد، وإعلام بأنه يستبدل لنصر نبيه قوما غير متثاقلين، ثم أعلمهم أنهم إن تركوا نصره لم يضروه كما لم يضرره ذلك إذ كان بمكة. وفي هاء «تضروه» قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الله، والمعنى: لا تضروا الله بترك النفير، قاله الحسن.

والثاني: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، فالمعنى: لا تضروه بترك نصره، قاله الزجاج.



شيء من قصة الغار ورسول الله ﷺ فيه مع أبي بكر رضي الله عنه

س: من صاحب رسول الله ﷺ بالغار؟

ج: صاحبه هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسيأتي ما يؤكد ذلك بما لا يدع مجالًا للشك إن شاء الله.



س: أي غارٍ هذا الذي قال الله عنه: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾؟

ج: هو غار ثورٍ.



س: قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ على من؟

ج: لأهل العلم قولان:

أحدهما: على رسول الله ﷺ.

الثاني: على أبي بكر.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: على النبي ﷺ.

والثاني: على أبي بكر. ابن العربي: قال علماؤنا وهو الأقوى، لأنه خاف

على النبي ﷺ من القوم فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي ﷺ، فسكن جأشه وذهب روعه وحصل الأمن.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – إن تتخلوا عن نصرة رسول الله ﷺ، وعن النفير معه للغزو يا أهل الإيمان فقد نصره الله ﷻ لما اضطره أهل الكفر إلى الخروج من مكة، فخرج منها ثاني اثنين، أي أحد اثنين، يعني: ومعه رجل آخر غيره نصره الله حين أخرجه من بيته وسلَّمه وقد أزمعوا قتله ووقفوا على باب بيته متربصين به فسلمه الله آنذاك ثم سلمه الله وهو الغار، وأهل الكفر على باب الغار، وكما قال أبو بكر لرسول الله ﷺ، يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فيجيبه النبي ﷺ قائلًا: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

وهنا يقول تعالى إذ يقول لصاحبه (وهو أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه) صاحبه في الغار ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ لا تخاف ولا تقلق ولا تضطرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ بحفظه وتأييده ونصره ومعونته، يرانا ويحفظنا ويسلمنا ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طمأنينة ﴿عَلَيْهِ﴾ قيل على ابي بكر فقد كان حزينًا، أما الرسول ﷺ فازداد طمأنينةً وسكينةً.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قوّاه الله ﷻ، قوّى رسوله ﷺ بجنود لم تروها قيل بالملائكة، وذلك في رحلة الهجرة وعند الغار جعلها الله سببًا في صرف في

وجوه الكفار، وقيل: يوم بدر، أي: ونصره الله يوم بدرٍ بجنود لم تروها، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي: وجعل كلمة الشرك، وراية الشرك راية مخذولة وكلمة منكوسة، فخذل أهلها وأذلهم ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ جعل الله كلمته، وهي لا إله إلا الله هي العليا وجعل لأتباعه النصر والغلبة والقهر والظفر ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب، ولا يُمنع من شيء أراده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وفيما يفعل.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا إعلامٌ من الله أصحابَ رسوله ﷺ أنّه المتوكّل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم فعلَ ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدوُّ في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟

يقول لهم جل ثناؤه: إلا تنفروا، أيها المؤمنون، مع رسولي إذا استنفركم فتنصروه، فالله ناصره ومعينه على عدوّه ومغنيه عنكم وعن معونتكم ونصرتكم؛ كما نصره، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بالله من قريش من وطنه وداره، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾، يقول: أخرجوه وهو أحد الاثنين، أي: واحد من الاثنين.

وكذلك تقول العرب: «هو ثاني اثنين» يعني: أحد الاثنين، و«ثالث ثلاثة، ورابع أربعة»، يعني: أحد الثلاثة، وأحد الأربعة. وذلك خلاف قولهم: «هو أخو ستة، وغلام سبعة»، لأن «الأخ»، و«الغلام» غير الستة والسبعة، «وثالث الثلاثة»، أحد الثلاثة.

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾، رسولَ الله ﷺ وأبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

لأنهما كانا اللذين خرجا هاربين من قريش إذ همُّوا بقتل رسول الله ﷺ واختفيا في الغار.

وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، يقول: إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رحمة الله عليه، في الغار.

و«الغار»، النقب العظيم يكون في الجبل.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، يقول: إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، وذلك أنه خافَ من الطَّلَب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، لأن الله معنا والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا.

يقول جل ثناؤه: فقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويُحْوِجه إليكم، وقد كثَّر الله أنصاره، وعدد جنودِه؟

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، الآية، قال: فكان صاحبَه أبو بكر، وأما «الغار»، فجبل بمكة يقال له: «ثَوْر».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله = وقد قيل: على أبي بكر، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، يقول: وقوّاه بجنودٍ من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهي كلمة الشرك، ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾، لأنها قُهِرَت وأذِلَّت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾، يقول: ودين الله وتوحيده وقولُ لا إله إلا الله، وهي كلمتُه، ﴿ٱلْعُلْيَا﴾، على الشرك وأهله، الغالبةُ.

وقال الطبري أيضًا:

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾، خبر مبتدأ، غيرُ مردودٍ على قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾، لأن ذلك لو كان معطوفًا على «الكلمة» الأولى، لكان نصبًا.

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فإنه يعني: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، في انتقامه من أهل الكفر به، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، ولا ينصر من عاقبه ناصر، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره خلقَه، وتصريفه إياهم في مشيئته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنه ويَثبِّته ويقول: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[(١)].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه،

(١) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

أي: على الرسول في أشهر القولين: وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾

قال ابن عباس: يعني ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الشرك و ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين[1] عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يقول: تعينوه بالنفر معه في غزوة تبول. عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك. قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة [براءة] والمعنى: إن تركتم نصره فالله يتكفل به، إذ قد نصره الله في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة. وقيل: فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه، وبوفاته ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله. قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق. وقال سفيان بن عيينة. خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾.

---

(١) البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

قولـه تعـالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهـو خـرج بنفسـه فـارا، لكـن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله، فنسب الفعل إليهم ورتب الحكم فيه عليهم، فلهذا يقتل المكره على القتل ويضمن المال المتلف بالإكراه، لإلجائه القاتل والمتلف إلى القتل والإتلاف.

قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي أحد اثنين.

وقال القرطبي كذلك:

قولـه تعـالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ هـذه الآيـة تضمنت فضائل الصديق رضي الله عنه. روى أصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم عن مالك ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ هو الصديق. فحقق الله تعالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة في كتابه. قال بعض العلماء: من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله ﷺ فهو كذاب مبتدع. ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ فهـو كـافر، لأنـه رد نـص القـرآن. ومعنـى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ أي بالنصـر والرعايـة والحفـظ والكـلاءة. روى الترمـذي والحـارث بـن أبـي أسـامة قـالا: حدثنا عفان قال حدثنا همام قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لـو أن أحـدهم نظـر إلـى قدميه لأبصـرنا تحـت قدميه، فقـال: «**يـا أبـا بكـر مـا ظنـك بـاثنين الله ثالثهمـا**». قـال المحاسـبي: يعنـي معهما بالنصر والدفاع، لا على معنى ما عم به الخلائق، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة: ٧].

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قولـه تعـالى ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي بـالنفير معـه ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ إعانـة على أعدائه ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حين قصدوا إهلاكه على ما شرحنا في

قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فأعلمهم أن نصره ليس بهم.

ثم قال:

وفي السكينة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الرحمة. قاله ابن عباس. والثاني: الوقار. قاله قتادة. والثالث: السكون والطمأنينة. قاله ابن قتيبة وهو اصح.

وفي هاء عليه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وحبيب بن أبي ثابت، واحتج من نصر هذا القول بأن النبي ﷺ كان مطمئنا.

والثاني: أنها ترجع إلى النبي ﷺ قاله مقاتل.

والثالث: أن الهاء هاهنا في معنى تثنية والتقدير فأنزل الله سكينته عليهما فاكتفى باعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ذكره ابن الانباري.

وقال ابن الجوزي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ ﴾ أي قواه يعني النبي ﷺ بلا خلاف ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة ومتى كان ذلك فيه قولان:

أحدهما: يوم بدر ويوم الأحزاب ويوم حنين قاله ابن عباس.

والثاني: لما كان في الغار صرفت الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته قاله الزجاج.

فإن قيل: إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في أيده ترجع إلى النبي ﷺ فكيف تفارقها هاء عليه وهما متفقتان في نظم الكلام.

فالجواب: أن كل حرف يرد إلى الأليق به والسكينة إنما يحتاج إليها المنزعج ولم يكن النبي ﷺ منزعجا فأما التأييد بالملائكة فلم يكن إلا للنبي

ﷺ ونظير هذا قوله: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ يعني الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ فيها قولان:

أحدهما: أن كلمة الكافرين الشرك جعلها الله السفلى لأنها مقهورة وكلمة الله وهي التوحيد هي العليا لأنها ظهرت هذا قول الأكثرين.

والثاني: أن كلمة الكافرين ما قدروا بينهم في الكيد به ليقتلوه وكلمة الله أنه ناصره.

قال السعدي في تفسيره:

﴿إِذْ يَقُولُ ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بعونه ونصره وتأييده. ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: الثبات والطمأنينة، والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾.

﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم اللّه حرسا له، ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ، وأخذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم اللّه ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئا منه.

ونصر اللّه رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم اللّه لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر اللّه إياه، أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر اللّه رسوله

إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ أي كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١] ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٣] فدين اللّه هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر، اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ، كافرا، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة اللّه على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.



من فضائل الصِّديق ابي بكر رضي الله عنه

س: اذكر شيئًا من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟

ج: فضائل أبي بكر رضي الله عنه كثيرة جدًّا، اجتزأ منها بذكر الآتي:

ما أخرجه البخاري[1] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ**».

ما أخرجه البخاري ومسلم[2] من حديث عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**» فَقُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوهَا**» قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ**» فَعَدَّ رِجَالًا.

ما أخرجه البخاري[3] من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟**» مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

وقولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ...**»[4].

ما أخرجه البخاري[5] من حديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) البخاري (٤٦٧).
(٢) البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).
(٣) البخاري (٣٦٦١).
(٤) أحمد (٢/ ٢٥٣) بسند صحيح.
(٥) البخاري (٣٦٧٥).

صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ».

ثم هو صاحب رسول الله ﷺ في الهجرة[1] ويقول له النبي ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[2].

والبشارات لأبي بكر رضي الله عنه بدخول الجنة كثيرة جدًّا، وكذا استخلاف النبي ﷺ لأبي بكر كي يصلي بالناس في وصية موته.

راجع كل ذلك في كتابنا «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».



الحث على النفير والتأكيد عليه

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدهما: شبابًا وشيوخًا.

الثاني: شيوخًا وشبابًا.

الثالث: مشاغيل وغير مشاغيل.

الرابع: أغنياء وفقراء.

الخامس: نشاط وغير نشاط.

السادس: ركبانًا ومشاة.

السابع: ذوو أموال وأراضي، وفقراء ليست لكم ضيعًا.

الثامن: مشاةً وركبانًا.

التاسع: ذوو عيالٍ وبدون عيال.

(١) البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٣٩٠٥).
(٢) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

العاشر: متزوجين وغير متزوجين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بالنَّفر لجهاد أعدائه في سبيله، خفافًا وثقالا. وقد يدخل في «الخفاف» كل من كان سهلا عليه النفر لقوة بدنه على ذلك، وصحة جسمه وشبابه، ومن كان ذا يُسْرٍ بمالٍ وفراغ من الاشتغال، وقادرًا على الظهر والركاب.

ويدخل في «الثقال»، كل من كان بخلاف ذلك، من ضعيف الجسم وعليله وسقيمه، ومن مُعسِرٍ من المال، ومشتغل بضيعة ومعاش، ومن كان لا ظهرَ له ولا ركاب، والشيخ وذو السِّن والعِيَال.

فإذ كان قد يدخل في «الخفاف» و«الثقال» من وصفنا من أهل الصفات التي ذكرنا، ولم يكن الله جل ثناؤه خصَّ من ذلك صنفًا دون صنف في الكتاب، ولا على لسان الرسول ﷺ، ولا نَصَب على خصوصه دليلا وجب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين من أصحاب رسوله بالنفر للجهاد في سبيله خفافًا وثقالا مع رسوله ﷺ، على كل حال من أحوال الخفّة والثقل.

وقال الطبري:

حدثنا سعيد بن عمرو السكوني قال، حدثنا بقية بن الوليد قال: حدثنا حريز قال، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة[١] قال، حدثني أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارسَ رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، قد فَضَل عنها من عِظَمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد

---

(١) عبد الرحمن بن ميسرة ما وثقه معبد إلا أن من العلماء من قال: مشائخ حريز كلهم ثقات، فبناءً على هذا، وعلى توثيق العجلي وابن حبان وثقوه، أما ابن المديني فقال: مجهول، ويشهد للأثر ما بعده، والله أعلم.

أعذر الله إليك ! فقال: أبَتْ علينا «سورة البُحُوث»: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾.

وقال أيضًا:

حدثني سعيد بن عمرو قال، حدثنا بقية قال، حدثنا حَرِيز قال، حدثني حبان بن زيد الشرعبيّ قال: نفرنا مع صَفْوان بن عمرو، وكان واليًا على حمص قِبَلَ الأفْسوس، إلى الجَرَاجمة، فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا، قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت عليه فقلت: يا عمِّ، لقد أعذر الله إليك! قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالا من يحبَّه الله يبتَليه، ثم يعيده فيبْتليه، إنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله.



س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

ج: هذا خطاب لأهل الإيمان بالله ورسوله، يُقال لهم: ﴿ٱنفِرُواْ ﴾ اخرجوا مع رسولكم ﷺ واتركوا دياركم وبلادكم على أية حال كنتم، كنتم كهولًا أو شبانًا، كنتم متزوجين أو عزابًا، كنتم مشاةً أو ركبانًا، على أية حال كنتم فاخرجوا مع رسول الله ﷺ إذا استنفركم للخروج، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ لنصرة دينكم ولإعلاء كلمة ربكم، ذلكم الجهاد والنفير خيرٌ لكم من دنياكم الفانية الزائلة إن كنتم تعلمون حق العلم وتوقنون حق اليقين، فالدنيا متاعها زائل، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رحمه الله تعالى: بعد أن أورد عددًا من الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، أيها المؤمنون، الكفارَ، ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾، فأنفقوها في مجاهدتهم على دين الله الذي شرعه لكم، حتى ينقادوا لكم فيدخلوا فيه طوعًا أو كرهًا، أو يعطوكم الجزية عن يدٍ صَغَارًا، إن كانوا أهل كتابٍ، أو تقتلوهم، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾، يقول: وبأنفسكم، فقاتلوهم بأيديكم، يخزهم الله وينصركم عليهم، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يقول: هذا الذي آمركم به من النفر في سبيل الله تعالى خفافًا وثقالا وجهادِ أعدائه بأموالكم وأنفسكم، خيرٌ لكم من التثاقل إلى الأرض إذا استنفرتم، والخلودِ إليها، والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا عِوضًا من الآخرة، إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بُيِّن لكم من فضل الجهاد في سبيل الله على القعود عنه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحَتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحة: كهولا وشَبَابًا ما أسمع الله عَذَر أحدًا، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخًا وشَبَابًا جهزوني يا بَنِيّ. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد

تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وقال ابن كثير أيضًا:

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «وتكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»[١].

ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد[٢]: حدثنا محمد بن أبي عَدِيّ، عن حميد، عن أنس؛ عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: أجدني كارها. قال: «أسلم وإن كنت كارها».

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قال القاضي أبو يعلى: أوجب الجهاد بالمال والنفس جميعا، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال. فعليه الجهاد بماله، بأن يعطيه غيره فيغزو به، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قويًّا. وإن كان له مال وقوة؛ فعليه الجهاد بالنفس والمال. ومن كان معدمًا عاجزًا فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله لقوله: ﴿وَلَا

(١) البخاري (٧٤٦٣)، ومسلم (١٨٧٦).
(٢) أحمد (٣/ ١٠٩) وإسناده صحيح.

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لعباده المؤمنين -مهيجا لهم على النفير في سبيله فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه -كما يجب الجهاد في النفس- يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا اللّه تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين اللّه، والدخول في جملة جنده وحزبه.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – لو كان الذي دعوت هؤلاء المتخلفين عن الغزو معك والخروج معك يا رسول الله من أهل النفاق ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ غنيمة سهلة غير مُجهدة ولا مكلفة وسفرًا سهلًا مريحًا لتجارة من ورائها مغنم، ولا قتال فيها لأجابوك حين دعوتهم، ولكن ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ شقَّ عليهم السفر للغزو والقتال، وبعدت عليهم مسافته، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ لكم إذا رجعتم

إليهم، يحلفون معتذرين لو استطعنا الخروج ما تخلفنا ولخرجنا معكم للغزو والقتال يهلكون أنفسهم بهذه الأيمان الكاذبة، فالذي يحلف كاذبًا يضر نفسه ويستجلب لها العذاب بهذه الأيمان الكاذبة، وكان هذا شأن أهل النفاق دومًا الاتقاء بالأيمان الكاذبة والله يعلم حالهم ولا يخفى عليه أمرهم فهو يعلم إنهم لكاذبون فيما أبدوه من الأعذار الواهية الباطلة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه للنبي ﷺ، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلُّف عنه حين خرج إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنيك في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه، ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾، يقول: غنيمة حاضرة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، يقول: وموضعًا قريبًا سهلا، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾، ونفروا معك إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرًا شاقًّا عليهم، لأنك استنهضتهم في وقت الحرّ، وزمان القَيْظ وحين الحاجة إلى الكِنِّ، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المستأذنوك في ترك الخروج معك، اعتذارًا منهم إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلُّف عنك، بالله كاذبين، ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يقول: لو أطقنا الخروجَ معكم بوجود السَّعة والمراكب والظهور وما لا بُدَّ للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، لخرجنا معكم إلى عدوّكم، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

يقول: يوجبون لأنفسهم، بحلفهم بالله كاذبين، الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سَخَط الله، ويكسبونها أليم عقابه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، في حلفهم بالله: ﴿بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، لأنهم كانوا للخروج مطيقين،

بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال، مما يحتاج إليه الغازي في غزوه، والمسافر في سفره، وصحة الأبدان وقوى الأجسام.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾، إلى قوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾، إنهم يستطيعون الخروج، ولكن كان تَبْطِئَةً من عند أنفسهم والشيطان، وزَهَادة في الخير.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى موبّخًا للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبا أيضا، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال المفسرون: نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك(١). ومعنى الآية: لو كان ما دعوا إليه عرضا قريبا والعرض: كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أو كان سفرا قاصدا، أي: سهلا قريبا لاتبعوك طمعا في المال ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ قال ابن قتيبة: الشقة السفر وقال الزجاج: الشقة الغاية التي تقصد وقال ابن فارس: الشقة مصير إلى أرض بعيدة تقول: شق شاقة.

---

(١) وإن لم يصح سندٌ لسبب النزول هذا، ولكن سياق الآيات الكريمات دالٌ عليه.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: المنافقين إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ وقرأ زائدة عن الأعمش والأصمعي عن نافع: لو استطعنا بضم الوا وكذا أين وقع مثل: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: ١٨] كأنه لما احتيج إلى حركة الواو حركت بالضم، لأنها أخت الواو والمعنى: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكذب والنفاق ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم كانوا أغنياء ولم يخرجوا.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم. والعرض: ما يعرض من منافع الدنيا. والمعنى: غنيمة قريبة. أخبر عنهم أنهم لو دعوا إلى غنيمة لاتبعوه. ﴿عَرَضًا﴾ خبر كان. ﴿قَرِيبًا﴾ نعته. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ عطف عليه. وحذف اسم كان لدلالة الكلام عليه. التقدير: لو كان المدعو إليه عرضا قريبا وسفرا قاصدا - أي سهلا معلوم الطرق - لاتبعوك. وهذه الكناية للمنافقين كما ذكرنا، لأنهم داخلون في جملة من خوطب بالنفير. وهذا موجود في كلام العرب يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائدا على بعضها، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أنها القيامة. ثم قال جل وعز: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] يعني جل وعز جهنم. ونظير هذه الآية من السنة في المعنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء». يقول: لو علم أحدهم أنه يجد شيئا حاضرا معجلا يأخذه لأتى المسجد من أجله. ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة. يقال: منه شقة شاقة. والمراد بذلك كله غزوة تبوك. وحكى الكسائي أنه يقال: شُقة وشِقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضا السفر البعيد

وربما قالوه بالكسر. والشقة شطية تشظى من لوح أو خشبة. يقال للغضبان: احتد فطارت منه شقة، بالكسر. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ أي لو كان لنا سعة في الظهر والمال. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ نظيره ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فسرها النبي ﷺ فقال: «**زاد وراحلة**» وقد تقدم. ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي بالكذب والنفاق. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في الاعتلال.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة التناول ﴿وَ﴾ كان السفر ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبا سهلا. ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تثاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد للّه على كل حال.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أن لهم أعذرا وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه اللّه على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ إلى قوله: ﴿رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

عتاب من الله ﷻ لرسوله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾.

ج: هذا عتابٌ لطيفٌ من الله ﷻ لرسوله ﷺ، تقدم العتاب بلطيف العبارة، بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، تجاوز الله عنك ولم يؤاخذك الله سبحانه وتعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ في التخلف عن الغزو معك والخروج معك ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ حتى يظهر لك أصحاب الأعذار منهم، وغير أصحاب الأعذار، فعليه فقد كان الإذن إجمالًا لكل من استأذن في التخلف، سواء كان بعذرٍ أو غير عذر فعوتب النبي ﷺ إذ كان من الأولى أن ينظر إلى أصحاب الأعذار فيأذن لهم والذين ليس له عذر فلا يأذن له، وحينئذٍ سيظهر له أهل النفاق الذين عزموا على التخلف سواءً أذن لهم النبي ﷺ أم لم يأذن. هذا قولٌ، وقولٌ آخر إنه عليه السلام عوتب لكونه أذن لهم، وكان الأولى أن لا يأذن لأي أحدٍ ثم نسخ ذلك بعد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾ [النور: ٦٢].

والقول الأول أولى، إذ لا يسوغ أن يستأذن صاحب عذر ولا يؤذن له، وقد قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النور: ٦١].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى غير ذلك من النصوص.

فالأظهر أن الرسول ﷺ كان قد أذن لكل من استأذن إحسانًا للظن بهم، فعوتب على ذلك صلوات الله وسلامه عليه والله تعالى أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتبٌ به نبيَّه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، من المنافقين.

يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، يا محمد، ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذي استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقه من كذبه ، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾، لأي شيء أذنت لهم؟

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾، حتى تعرف مَن له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنتَ له منهم على علم منك بعذره، وتعلمَ مَنِ الكاذبُ منهم المتخلفُ نفاقًا وشكًّا في دين الله.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، الآية، عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل الله التي في «سورة النور»، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾، [سورة النور: ٦٢]، فجعله الله رخصةً في ذلك من ذلك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال مجاهد[١]: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذِنُوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

(١) وهذا مرسلٌ.

ولهذا قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ أي: في إبداء الأعذار، ﴿ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت.

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ في التخلف ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا. وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾، حكاه مكي والمهدوي والنحاس. وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقا. وقيل: المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم، فلا يحسن الوقف على قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ على هذا التقدير، حكاه المهدوي واختاره النحاس. ثم قيل: في الإذن قولان:

الأول: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد.

الثاني: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ في القعود لما اعتلوا بأعذار، ذكرها القشيري قال: وهذا عتاب تلطف إذ قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾. وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أذن من غير وحي

نزل فيه. قال قتادة وعمرو بن ميمون: اثنتان فعلهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحي وأخذه من الأسارى الفدية فعاتبه الله كما تسمعون. قال بعض العلماء: إنما بدر منه ترك الأولى فقدم الله العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي ليتبين لك من صدق ممن نافق. قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن يومئذ يعرف المنافقين وإنما عرفهم بعد نزول سورة [التوبة]. وقال مجاهد: هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس فإن أذن لنا جلسنا وإن لم يؤذن لنا جلسنا. وقال قتادة: نسخ هذه الآية بقوله في سورة «النور»: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾ [النور: ٦٢]. ذكره النحاس في معاني القرآن له.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ كان ﷺ قد أذن لقوم من المنافقين في التخلف لما خرج إلى تبوك، قال ابن عباس(١): ولم يكن يومئذ يعرف المنافقين، قال عمرو بن ميمون: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فعاتبه الله كما تسمعون. قال مورق: عاتبه ربه بهذا. وقال سفيان بن عيينة: انظر إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب. وقال ابن الانباري: لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه لكن الله وقره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريما عليه: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي

(١) وفي سنده ابن عباس رضي الله عنهما مقالٌ.

ورضي الله عنك هلا زرتني.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه حتى تعرف ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له.

والثاني: لو لم تأذن لهم لقعدوا وبان لك كذبهم في اعتذارهم قال قتادة ثم إن الله تعالى نسخ هذه الآية بقوله ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾.



س: هل قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ..﴾ منسوخ، وما ناسخه؟

ج: قال بذلك بعض أهل العلم، وذهبوا إلى أن ناسخه هو قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾، والذي يظهر عدم النسخ، وإنما العتاب – كما بينت – لكون النبي ﷺ أذن لكل من أراد التخلف واستأذن، وإنما كان الأولى أن يأذن لأصحاب الأعذار فمن ثم جاء العتاب، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف في هذه الآية، فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ [التوبة: ٩١]. وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. والصحيح أنها ليست بمنسوخة.

....ثم قال:

وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل.

وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا، شبابا وشيوخا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن

عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين. ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه، حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزى العدو. ولا خلاف في هذا.

وقسم ثان من واجب الجهاد - فرض أيضا على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة يخرج معهم بنفسه أو يخرج من يثق به ليدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد.

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة وهو إخراج الإمام طائفة بعد طائفة وبعث السرايا في أوقات الغرة وعند إمكان الفرصة والإرصاد لهم بالرباط في موضع الخوف وإظهار القوة.

فإن قيل: كيف يصنع الواحد إذا قصر الجميع، وهي

قيل له: يعمد إلى أسير واحد فيفديه، فإنه إذا فدى الواحد فقد أدى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة، فإن الأغنياء لو اقتسموا فداء الأسارى ما أدى كل واحد منهم إلا أقل من درهم. ويغزو بنفسه إن قدر وإلا جهز غازيا. قال ﷺ: «**من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا**» أخرجه الصحيح. وذلك لأن مكانه لا يغني وماله لا يكفي.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وروي عن ابن عباس[١] أنه قال: نسخت هذه الآية بقوله: ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] إلى آخر الآية. قال أبو سليمان الدمشقي: وليس للنسخ هاهنا مدخل لإمكان العمل بالآيتين، وذلك أنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوه في القعود عن الجهاد من غير عذر، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض لهم من حاجة، وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة ذهبوا من غير استئذانه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – لا يستئذنك يا رسول الله أهل الإيمان بالله واليوم الآخر الذين يرجون ثواب الله ويخافون عقابه ويوحدونه ولا يشركون به شيئًا، ويوقنون بوعده ووعيده، هؤلاء لا يستأذنونك في التخلف عن الجهاد، بل يبادروا بامتثال أمرك إذا دعوتهم، بل إنهم يقبلون على الجهاد معك، والغزو حبًّا في الجهاد ورغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، فيبذلون أنسهم لنصرة دين الله ويبذلون من مالهم لنصرة دين الله والله عليم بصنيعهم وعليمٌ بالذي حملهم على ذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ في التخلف عن الجهاد والغزو معك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ لا يصدقون بوحدانية الله ولا بوعد الله ولا بوعيده

---

(١) وفي سنده ابن عباس رضي الله عنهما مقالٌ.

ولا بثوابه ولا بعقابه، وتشككت قلوبهم فيما تخبرهم به وفيما جئتهم به فهم في شكِّهم يتحيرون والله أعلم، وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾، فهذا تعييرٌ للمنافقين حين استأذنوا في القُعود عن الجهاد من غير عُذْر، وعَذَرَ الله المؤمنين، فقال: ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [سورة النور: ٦٢].

وهذا إعلامٌ من الله نبيَّه ﷺ سِيمَا المنافقين: أن من علاماتهم التي يُعرفون بها تخلُّفهم عن الجهاد في سبيل الله، باستئذانهم رسول الله ﷺ في تركهم الخروجَ معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة.

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، لا تأذننَّ في التخلُّف عنك إذا خرجت لغزو عدوّك، لمن استأذنك في التخلف من غير عذر، فإنه لا يستأذنك في ذلك إلا منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر. فأمَّا الذي يصدّق بالله، ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب، فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾، يقول: والله ذو علم بمن خافه، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى طاعته في غزو عدوّه وجهادهم بماله ونفسه، وغير ذلك من أمره ونهيه.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: إنما يستأذنك، يا محمد، في التخلف خِلافكَ، وترك الجهاد معك، من غير عذر بيِّنٍ، الذين لا يصدّقون بالله، ولا يقرّون بتوحيده، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، يقول: وشكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾، يقول: في شكهم متحيِّرون، وفي ظلمة الحيرة متردِّدون، لا يعرفون حقًّا من

باطل، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين.

وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرت في «سورة النور»(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي في القعود ولا في الخروج، بل إذا أمرت بشيء ابتدروه، فكان الاستئذان في ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر، ولذلك قال: «إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون». روى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ نسختها التي في «النور» ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ – إلى قوله – غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢] ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ في موضع نصب بإضمار في، عن الزجاج. وقيل: التقدير كراهية أن يجاهدوا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]. ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكت في الدين. ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي في شكهم يذهبون ويرجعون.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو] أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: لا يرجون

(١) يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ما جئتهم به، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون، يُقَدِّمُون رجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

قا ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ قال ابن عباس: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا في القعود. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ أن علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبر أن المؤمنين باللّه واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث، فضلا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخبر، أن من علاماتهم، أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلَّتْ رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.



(٥٦٤) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ
فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا
زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ
لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ
لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ
تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ
وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا
هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ
إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ
عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ
طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا
مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ

(٥٦٥) أحمر
أسود

بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ
كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ
لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ
مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾

[التوبة: ٤٦-٥٧].

(٥٦٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلۡخُـرُوجَ - لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً - ٱنۢبِعَاثَهُمۡ - فَثَبَّطَهُمۡ - ٱلۡقَـٰعِدِينَ - خَبَالٗا - وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ - يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ - وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ - ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ - وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ - ٱلۡحَقُّ - وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ - وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ - أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ - سَقَطُواْ - حَسَنَةٞ - قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ - وَيَتَوَلَّواْ - مَوۡلَىٰنَا - فَلۡيَتَوَكَّلِ - تَرَبَّصُونَ بِنَآ - إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ - بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ - أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ - طَوۡعًا - كَرۡهٗا - وَتَزۡهَقَ - يَفۡرَقُونَ - مَلۡجَـًٔا - مَغَٰرَٰتٍ - مُدَّخَلٗا - لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ - يَجۡمَحُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
(ٱلۡخُـرُوجَ ﴾	المراد الخروج للغزو والجهاد في سبيل الله
(لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾	لتجهزوا بالجهاز اللازم للغزو من سلاحٍ ومركب وملبس طعام وغير ذلك
(ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾	خروجهم – نهوضهم
(ٱلۡقَـٰعِدِينَ ﴾	القاعدين لعذر كالمرض والعجزة والنساء والصبيان
(خَبَالٗا)	فسادًا – شرًّا
(وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ)	ولأسرعوا بالسير بينكم بالقول المفسد والنميمة والشر. لأفسدوا صفوفكم في القتال
(يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ)	يطلبون لكم الشر والفساد والفوضى والهزيمة والانصراف عن الدين إلى الشرك

(٥٦٧) أحمر
أسود

(وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ)	وفيكم من يصدقهم، ويسمع لهم، ويطيع لهم، وقيل: وفيكم من يستمع منكم الأخبار وينقلها إليهم
(ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ)	بحثنوا عن الشر والفساد يسعوا لنشر الشر والفساد وصرف الناس عن دينهم
(وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ)	أثاروا لك المشاكل والقلاقل
(ٱلْحَقُّ)	الوعد الحق، وهو نصرك على أعدائك
(وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ)	ظهر الدين الحق وعلا وارتفع وانتصر أهله
(وَلَا تَفْتِنِّىٓ)	لا توقفي في الإثم والفتنة
(أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟)	ألا إنهم وقعوا في الإثم والشر والمعصية بتخلفهم عن الخروج معك في سبيل الله
(حَسَنَةٌ)	شيءٌ يسعدك كفتح من الله – غنيمة تغنمها – دخولا لناس في دين الله أفواجًا
(قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن)	قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا حذرنا
(وَيَتَوَلَّوا۟)	ينصرفوا عنك
(مَوْلَىٰنَا)	متولي أمرنا – ناصرنا
(فَلْيَتَوَكَّلِ)	فليعتمد
(تَرَبَّصُونَ بِنَآ)	تنتظرون أن يحلَّ بنا
(إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ)	إحدى الأمرين الأحسنين (النصر أو الشهادة في سبيل الله)

(٥٦٨) أحمر
أسود

(بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ)	عذاب دون تدخل منا كالخسف أو الصواعق أو الموت أو المجاعات أو غير ذلك
(أَوْ بِأَيْدِينَاۖ)	عذابٌ على أيدينا نقتلكم ونأسركم
(طَوْعًا)	عن طواعية
(كَرْهًا)	وأنتم كارهون للإنفاق
(وَتَزْهَقَ)	تخرج أرواحهم عند الموت
(يَفْرَقُونَ)	يخافون خوفًا شديدًا
(مَلْجَـًٔا)	حصنًا – مكانًا يلجؤون إليه
(مَغَـٰرَٰتٍ)	فتحات في الجبل – أماكن في الجبال
(مُدَّخَلًا)	سربًا في الأرض – نفقًا في الأرض
(لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ)	لهربوا إليه
(يَجْمَحُونَ)	يسرعون لا يمنعهم من الإسراع شيءٌ



س: ما المراد بالعدة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾؟

ج: في ذلك قولان:

أحدها: أن العدة ما يلزم الغازي في سبيل الله اصطحابه من سلاح وطعام وملبس ومركب وغير ذلك.

الثاني: المراد النية الصالحة.



س: من القائل: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن رسول الله ﷺ قاله لهم ذلك غضبًا عليهم وتضايقًا منهم.

الثاني: أن الله جل ذكره صدهم عن الجهاد وصرفهم عنه، وألهمهم التخلف عن الغزو خذلانًا لهم.

الثالث: أن بعضهم (بعض أهل النفاق، قال ذلك للبعض الآخر).



س: ما المراد بالفتنة في قوله تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: الشر والفساد وتفريق الجماعة، وتشتيت الكلمة.

الثاني: الشرك بالله والانصراف عن دينه.



س: هل كان في الصحابة خبالٌ حتى قيل: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾؟

ج: لم يكن فيهم خبال، ولكن هذا من الاستثناء المنقطع.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

فإن قيل: كأن الصحابة كان فيهم خبال حتى قيل: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾.

فالجواب: أنه من الاستثناء المنقطع، والمعنى: ما زادوكم قوَّة، لكن أوقعوا بينكم خبالًا.



مُريد الخير يعدُّ له عدة

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ولو أراد هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الغزو معك وعن الجهاد في سبيل الله، لو ارادوا الخروج لتجهزوا له بالجهاد اللازم للغزو، وبالعدة اللازمة من المركب والسلاح والطعام وغير ذلك من مستلزمات الغازي ولعزموا عزيمة صحيحة على الغزو، ولكن كره الله خروجهم معك لنفاقهم وفسادهم فحرمهم شرف الخروج معك وشرف الجهاد في سبيل الله فأقعدهم عن الخروج وخذلهم وألهموا القعود مع المرضى والنساء والأطفال والعجزة وأصحاب الأعذار، وهذا يا رسول الله من فضل الله عليك، من فضل الله عليك أن خذلهم فلم يخرجوا معك للغزو، فإنهم لو خرجوا معك ما زادوا أصحابك إلا شرًّا وفسادًا بالوشايات التي يقومون بها بين المجاهدين وبالشائعات والأراجيف، ولأسرعوا بينكم بنشر الشر والفساد، والتثبيط عن الجهاد وتخويفكم من العدو وحثكم على الانسحاب والرجوع، وفيكم طائفة تستمع لكلامهم وتصدقهم إحسانًا للظن بهم، وكذا فيكم طائفة تتجسس لصالحهم، والله عليم بأهل الظلم والشر والفساد.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو أراد هؤلاء المستأذنوك، يا محمد، في ترك الخروج معك لجهاد عدوّك، الخروجَ معك ، ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾، يقول: لأعدوا للخروج عدة، ولتأهّبوا للسفر والعدوِّ أهْبَتهما ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾، يعني: خروجهم لذلك ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾، يقول: فثقَّل عليهم الخروجَ حتى استخفُّوا القعودَ في منازلهم خِلافك، واستثقلوا السفر والخروج معك، فتركوا لذلك الخروج ، ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾، يعني: اقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون، ومع النساء والصبيان، واتركوا الخروج مع رسول الله ﷺ والمجاهدين في سبيل الله.

وكان تثبيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله ﷺ والمؤمنين به، لعلمه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله، وأنهم لو خرجوا معهم ضرُّوهم ولم ينفعوا. وذكر أن الذين استأذنوا رسول الله ﷺ في القعود كانوا: «عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول»، و«الجد بن قيس»، ومن كانا على مثل الذي كانا عليه.

ويقول تعالى ذكره: لو خرج، أيها المؤمنون، فيكم هؤلاء المنافقون ، ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾، يقول: لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادًا وضرًّا، ولذلك ثبَّطتُهم عن الخروج معكم.

وقد بينا معنى «الخبال»، بشواهده فيما مضى قبل.

﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ ﴾، يقول: ولأسرعوا بركائبهم السَّير بينكم.

وأصله من «إيضاع الخيل والركاب»، وهو الإسراع بها في السير، يقال للناقة إذا أسرعت السير: «وضعت الناقة تَضَع وَضعًا ومَوْضوعًا»، و«أوضعها صاحبها»، إذا جدّ بها وأسرع، «يوضعها إيضاعًا»، ومنه قول الراجز:

وأما أصل «الخلال»، فهو من «الخَلَل»، وهي الفُرَج تكون بين القوم، في الصفوف وغيرها. ومنه قول النبي ﷺ: «**تَرَاصُّوا فِي الصُّفُوفِ لا يَتَخَلَّلُكُمْ [الشَّيَاطين، كأنها] أَوْلادُ الحذَفِ**».

وأما قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾، فإن معنى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾، يطلبون لكم ما تفتنون به، عن مخرجكم في مغزاكم، بتثبيطهم إياكم عنه.

وأما قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك: وفيكم سماعون لحديثكم لهم، يؤدُّونه إليهم، عيون لهم عليكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيكم من يسمع كلامهم ويُطيع لهم.

فعلى هذا التأويل: وفيكم أهلُ سمع وطاعة منكم، لو صحبوكم أفسدوهم عليكم، بتثبيطهم إياهم عن السير معكم.

وأما على التأويل الأول، فإن معناه: وفيكم منهم سمَّاعون يسمعون حديثكم لهم، فيبلغونهم ويؤدونه إليهم، عيون لهم عليكم.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويلُ من قال: معناه: «وفيكم سماعون لحديثكم لهم، يبلغونه عنكم، عيون لهم»، لأن الأغلب من كلام العرب في قولهم: «سمَّاع»، وصف من وصف به أنه سماع للكلام، كما قال الله جل ثناؤه في غير موضع من كتابه: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [سورة المائدة: ٤١]، واصفًا بذلك قومًا بسماع الكذب من الحديث. وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهيه وقبوله منه وانتهائه إليه فإنما تصفه بأنه: «له سامع ومطيع»، ولا تكاد تقول: «هو له سماع مطيع».

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإن معناه: والله ذو علم بمن يوجّه أفعاله إلى غير وجوهها، ويضعها في غير مواضعها، ومن يستأذن رسول الله ﷺ لعذر، ومن يستأذنه شكًّا في الإسلام ونفاقًا، ومن يسمع حديث المؤمنين ليخبر به المنافقين، ومن يسمعه ليسرَّ بما سُرَّ به المؤمنون، ويساء بما ساءهم، لا يخفى عليه شيء من سرائر خلقه وعلانيتهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قدرًا، ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي: أخرهم، ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي: قدرًا.

ثم بين [الله تعالى] وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين. فقال: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: لأنهم جبناء مخذولون، ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم.

وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان فيما بلغني -من استأذن -من ذوي الشرف

منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول والجَدُّ بن قيس، وكانوا أشرافا في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم: أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأخبر بأنه [يعلم] ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] والآيات في هذا كثيرة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ أي لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أهبة السفر. فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ أي خروجهم معك. ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي حبسهم عنك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين. ويدل على هذا أن بعده ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾. ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

قيل: هو من قول بعضهم لبعض. وقيل: هو من قول النبي ﷺ، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره. قيل: قال النبي ﷺ غضبا فأخذوا بظاهر لفظه

وقالوا قد أذن لنا. وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي أوقع الله في قلوبهم القعود. ومعنى ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي مع أولي الضرر والعميان والزمنى والنسوان والصبيان.

و قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم. والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. وهذا استثناء منقطع، أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال. وقيل: المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي إلا خبالا، فلا يكون الاستثناء منقطعا.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ﴾ المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد. والإيضاع، سرعة السير. وقال الراجز:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

يقال: وضع البعير إذا عدا، يضع وضعا ووضوعا إذا أسرع السير. وأوضعته حملته على العدو. وقيل: الإيضاع سير مثل الخبب. والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال، أي الفرج التي تكون بين الصفوف. أي لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ مفعول ثان. والمعنى يطلبون لكم الفتنة، أي الإفساد والتحريض. ويقال: أبغيته كذا أعنته على طلبه، وبغيته كذا طلبته له. وقيل: الفتنة هنا الشرك. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم. قتادة: وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم. النحاس: القول الأول أولى، لأنه الأغلب من معنييه أن معنى سماع يسمع الكلام: ومثله ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [سورة المائدة: ٤١]. والقول الثاني: لا يكاد يقال فيه إلا سامع، مثل قائل.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿ و ﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ من النساء والمعذورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ أي: نقصا.

﴿ وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿ وَفِيكُمۡ ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فللّه أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفا من أن

يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر.



أهل النفاق يريدون الفتنة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – لقد التمس هؤلاء المنافقون كل سبل الفتن لإلحاق الضرر بك وصرف الناس عنك يا رسول الله، وعن دينك الذي أُرسلت به، وسعوا في قتلك، وسعوا في تخذيلك وسعوا في صرف الناس عنك، وسعوا في الطعن فيك وفي أهل بيتك، كما حدث في الإفك، وكما حدث يوم أُحد من انصرافهم بثلث الجيش وكما صنعوا من مخالفات مع اليهود، وفي غير ذلك من المواطن سعيًا منهم للشر والتماسًا منهم للعيب وأثاروا عليك الفتن والقلاقل سعيًا لإطفاء هذا النور الذي جئت به من عند الله، ولكن خاب سعيهم وبطل عملهم، وأتم الله نوره وأظهر الله دينه وأعلى اللهُ كلمته، وجعلها هي العليا وخذل الشرك وأهله، وأهل النفاق كارهون لكل ذلك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك، يا محمد، التمسوا صدَّهم عن دينهم وحرصوا على ردّهم إلى الكفرِ بالتخذيل عنه، كفعل عبد الله بن أبيّ بك وبأصحابك يوم أحدٍ، حين انصرف عنك بمن

تبعه من قومه. وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحاب وسول الله ﷺ من الفتنة من قبل. ويعني بقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، من قبل هذا، ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾، يقول: وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأيَ بالتخذيل عنك، وإنكار ما تأتيهم به، وردّه عليك، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾، يقول: حتى جاء نصر الله، ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، يقول: وظهر دين الله الذي أمرَ به وافترضه على خلقه، وهو الإسلام، ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾، يقول: والمنافقون بظهور أمر الله ونصره إياك كارهون. وكذلك الآن، يظهرك الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر به، وهم كارهون.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى محرضا لنبيه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على المنافقين: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: حين هاجرتم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر اللّه عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنين، بتخلفهم عنهم.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ في الفتنة قولان:

أحدهما: الشر قاله ابن عباس. والثاني: الشرك قاله مقاتل.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل غزوة تبوك.

وفي قوله: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ خمسة أقوال:

أحدها: بغوا لك الغوائل. قاله ابن عباس. وقيل: إن اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا على طريقه ليلا ليفتكوا به فسلمه الله منهم.

والثاني: احتالوا في تشتت أمرك وإبطال دينك. قاله أبو سليمان الدمشقي. قال ابن جرير: وذلك كانصراف ابن أبي يوم أحد بأصحابه.

والثالث: أنه قولهم ما ليس في قلوبهم.

والرابع: أنه ميلهم إليك في الظاهر وممالأة المشركين في الباطن.

والخامس: أنه حلفهم بالله ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: النصر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الإسلام.



س: من القائل: ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾؟

ج: أكثر أهل العلم على أن قائل ذلك هو الجدُّ بن قيس، وقد وردت بذلك حملة من المراسيل أراها تصح بمجموعها منها:

ما أورده الطبري من طريق محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه، للجد بن قيس أخي بني سلمة: هل لك يا جدُّ العامَ في

جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أوْ تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رَجل أشدّ عُجْبًا بالنساء منِّي، وإني أخشى إن رأيت نساءَ بني الأصفر أن لا أصبر عنهن! فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك، ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾، الآية، أي: إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم.

وعند الطبري أيضًا عن مجاهد في قول الله: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: اغزُوا تبوك، تغنموا بنات الأصفر ونساء الروم! فقال الجدّ: ائذن لنا، ولا تفتنَّا بالنساء.

وبإسناد صحيح[(١)] عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾، قال: هو رجل من المنافقين يقال له جَدُّ بن قيس، فقال له رسول الله ﷺ: العامَ نغزو بني الأصفر ونتَّخذ منهم سراريّ ووُصفاءَ، فقال: أي رسول الله، ائذن لي ولا تفتني، إن لم تأذن لي افتتنت وقعدت! وغضب [رسول الله ﷺ]، فقال الله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وثم مراسيل أُخر في هذا الصدد.



س: ما المراد بقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؟

ج: لأهل العلم أقوال في ذلك:

أحدها: لا تُكسبني الإثم ولا توقعني فيه بأمرك لي بالخروج وهو غير متيسر لي.

---

(١) وهو مرسل، وابن زيد ضعيف، لكنها مجموعة من المراسيل تصحح لمجموعها.

الثاني: لا تصرفني عن شغلي.

الثالث: لا توقفي في فتنة النساء وارتكاب المحرم معهم.



وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ومن أهل النفاق من يقول ائذن لي في البقاء في المدينة وعدم الخروج معك في الغزو ولا تجعلني أُفتن بالنساء فإني أخشى على نفسي من نساء بني الأصفر، يعني: نساء الروم، فدعني بالمدينة حتى لا أُفتن بانساء، كذا قالوا، ولكنهم بهذا القول سقطوا في الفتن فقد وقعوا في الإثم والعصيان بطلبهم التخلف عنك في الغزو، وقد صُرفوا عن الخير بسبب قيلهم هذا، ثم إن موعدهم لإلى الجحيم، فجهنم محيطةٌ بهم كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذكر أن هذه الآية نزلت في الجدّ بن قيس.

ويعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾، ومن المنافقين، ﴿مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾، أقم فلا أشخَصُ معك، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾، يقول: ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر وبناتِهم، فإنّي بالنساء مغرمٌ، فأخرج وآثَمُ بذلك.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يقول: وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله وجحد آياته وكذَّب رسله، محدقة بهم، جامعة لهم جميعًا يوم القيامة.

يقول: فكفى للجدّ بن قيس وأشكاله من المنافقين بِصِلِيِّها خزيًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ أي في الإثم والمعصية وقعوا. وهي النفاق والتخلف عن النبي ﷺ. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي مسيرهم إلى النار، فهي تحدق بهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿ٱئۡذَن لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ في الخروج، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بين الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس»

ومقصوده -قبحه اللّه- الرياء والنفاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضا للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن الشر.

قال اللّه تعالى مبينا كذب هذا القول: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظمى محققة، وهي معصية اللّه ومعصية رسوله، والتجرؤ على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم اللّه بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.



سعادة أهل النفاق بمصائب المسلمين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – إن تصبك أمور تسعد بها وتفرح لها وينشرح بها صدرك وتنرح بها صدور المؤمنين كالفتوحات التي تُفتح لك وكدخول الناس في دين الله أفواجًا والغنائم التي تغنمها إلى غير ذلك من وجوه الخير التي يرزقك الله إياها، يحزن لذلك أهل النفاق ويسؤوهم ذلك ولا يسرهم، وإن تحل بك مصيبة من مرض أو فرق أو تسلط عدوًا وغير ذلك يفرحوا لذلك وينصرفوا عنك فرحين قائلين قد أخذنا أمرنا، أخذنا احتياطاتنا من قبل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن يصبك سرورٌ بفتح الله عليك أرضَ الروم في غَزاتك هذه، يسؤ الجدَّ بن قيس ونظراءه وأشياعهم من المنافقين، وإن تصبك مصيبة بفلول جيشك فيها، يقول الجد ونظراؤه: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: قد أخذنا حذرَنا بتخلّفنا عن محمد، وترك أتباعه إلى عدوّه، ﴿مِن قَبْلُ﴾، يقول: من قبل أن تصيبه هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، يقول: ويرتدُّوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمدًا وأصحابه من المصيبة، بفلول أصحابه وانهزامهم عنه، وقتل من قُتِل منهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

وقا القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ ﴾ شرط ومجازاة، وكذا ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ ﴾ عطف عليه. والحسنة: الغنيمة والظفر. والمصيبة الانهزام. ومعنى قوله: ﴿أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ ﴾ أي احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم فلم نخرج إلى القتال. ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ أي عن الإيمان. ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾ أي معجبون بذلك.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ ﴾ أي: نصر وغنيمة. والمصيبة: القتل والهزيمة. ﴿ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا ﴾ أي: عَمِلنا بالحزم فلم نخرج. ﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾ بمصابك وسلامتهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مبينا أن المنافقين هم الأعداء حقا، المبغضون للدين صرفا: ﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿ تَسُؤۡهُمۡۖ ﴾ أي: تحزنهم وتغمهم.

﴿ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿ يَقُولُواْ ﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

﴿ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ ﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – قل: يا رسول الله لهؤلاء الشامتين الذين يتربصون بكم الدوائر، ويسعدوا لحلول المصائب بكم ويحزنوا لكل خير أصابكم، قل لهم: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلقنا فالأمور مقدرة مكتوبة، وهو سبحانه وتعالى متولي نصرنا وعلى الله فليعتمد المؤمنون، أي: فاعتمدوا يا أهل الإيمان على ربكم واطلبوا منه النصر على عدوكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مؤدِّبًا نبيّه محمدًا ﷺ: ﴿ قُل ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾، أيها المرتابون في دينهم ، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا ، ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾، يقول: هو ناصرنا على أعدائه ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، يقول: وعلى الله فليتوكل المؤمنون، فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجُوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئًا غيره، يكفهم أمورهم، وينصرهم على من بغاهم وكادهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أرشد الله تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿ قُل ﴾ أي: لهم ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله، وقدره، ﴿ هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ ﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(٥٨٦) أحمر
أسود

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ قيل: في اللوح المحفوظ. وقيل: ما أخبرنا به في كتابه من أنا إما أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا، وإما أن نقتل فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا. والمعنى كل شيء بقضاء وقدر. وقد تقدم في «الأعراف» أن العلم والقدر والكتاب سواء. ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ ﴾ أي ناصرنا. والتوكل تفويض الأمر إليه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال تعالى رادا عليهم في ذلك ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ.

﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ ﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ما قضى علينا. قاله ابن عباس.

والثاني: ما بين لنا في كتبه من أنا نظفر فيكون ذلك حسنى لنا أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضا. قاله الزجاج.

والثالث: لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا من النصر الذي وعدنا ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أي: ناصرنا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر وينتظرون بكم المصائب ويسعدهم ما يحل بك من المكروه، ويُحزنهم ما يفتح الله به عليك، قل لهؤلاء ماذا عساكم أن تنتظروا أن يحل بنا، إن الذي تنتظرون أن يحل بنا أحد أمرين وكلاهما حسن، إما النصر والفوز والفتح، وإما الشهادة في سبيل الله، وكلّ ذلك حسنٌ ونحن به راضون، أما نحن منتظر أن يحل بكم عذاب من عند الله بالموت أو الصواعق أو الخسف أو القحط أو غير ذلك من صور العذاب، أو أن يُمكننا الله منكم ومن رقابنا فنقتلكم فانتظروا، ولننتظر نحن الآخرون لننتظر كلٌّ منا قضاء الله فيه.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم وبينت لك أمرهم: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخَلَّتين اللتين هما أحسن من غيرهما، إما ظفرًا بالعدو وفتحًا لنا بِغَلَبَتِناهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإما قتلا من عدوِّنا لنا، ففيه الشهادة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. وكلتاهما مما نُحبُّ ولا نكره، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾، يقول: ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة، تهلككم، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، فنقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، يقول: فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا، وما إليه صائرٌ أمر كلِّ فريقٍ منَّا ومنكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ ؟ أي: تنتظرون بنا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ شهادة أو ظَفَرٌ بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل، ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾.

وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن):

أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمرا فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنيين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والدنيوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند اللّه.

وأما تربصنا بكم -يا معشر المنافقين- فنحن نتربص بكم، أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا، بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم. ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ ﴾ بنا الخير ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ بكم الشر.



نفقات المنافقين غير مقبولة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الذين اعتذروا عن الخروج معك للغزو في سبيل الله، وهم كذبةٌ في ادعائهم واعتذارهم قل لهؤلاء أنفقوا من أموالكم ما شئتم انفقوا مختارين أو مُكرهين فلن تُتقبل منكم تلك النفقات ولن يثيبكم الله عليها في الآخرة، ذلك لكونكم كنتم قومًا فاسقين

أي: خارجين عن الطاعة، والمراد بالفسق هنا الكفر بدليل الآية التي بعدها. وستأتي.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين: أنفقوا كيف شئتم أموالكم في سفركم هذا وغيره، وعلى أي حال شئتم، من حال الطوع والكره، فإنكم إن تنفقوها لن يتقبَّل الله منكم نفقاتكم، وأنتم في شك من دينكم، وجهل منكم بنبوة نبيكم، وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه، ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، يقول: خارجين عن الإيمان بربكم.

وخرج قوله: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، مخرج الأمر، ومعناه الجزاء، والعرب تفعل ذلك في الأماكن التي يحسن فيها «إن»، التي تأتي بمعنى الجزاء، كما قال جل ثناؤه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٨٠]، فهو في لفظ الأمر، ومعناه الجزاء، ومنه قول الشاعر:

أَسِيئي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً ... لَدَيْنَا، ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

فكذلك قوله: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، إنما معناه: إن تنفقوا طوعًا أو كرهًا لن يُتَقَبَّل منكم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – وسبب عدم قبول نفقات هؤلاء المنافقين التي ينفقونها هو كفرهم بالله ﷻ وكفرهم برسول الله ﷺ فهم يجحدون

وحدانية الله ﷻ، وكذا يكذبون رسوله ﷺ، ويضمرون ذلك في قلوبهم، وإن أظهروه بألسنتهم، فهم وإن أنفقوا فنفقتهم ليست بخالصةٍ لوجه الله، وإنما يراءون بها ويدفعون بها عن أنفسهم في الدنيا، وكذا شأنهم مع الصلاة، فإنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، يأتونها خجلًا من المسلمين حتى يدفعوا عن أنفسهم السيف، أما إذا لم يشهدوا جماعة فإنهم لا يؤدون تلك الصلوات في بيوتهم، فصلواتهم إنما هي رياء وسمعة فقط، حتى يُقال إنهم يصلون، ولكنهم في حقيقة الأمر لا يريدون الصلاة، وكذا لا ينفقون إلا عن كراهية، ليس عن حبٍّ للإنفاق ولا رجاءً للثواب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما منع هؤلاء المنافقين، يا محمد، أن تقبل منهم نفقاتهم التي ينفقونها في سفرهم معك، وفي غير ذلك من السبل، إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، فـ ﴿أَن﴾ الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، لان معنى الكلام: ما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، يقول: لا يأتونها إلا متثاقلين بها. لأنهم لا يرجون بأدائها ثوابًا، ولا يخافون بتركها عقابًا، وإنما يقيمونها مخافةً على أنفسهم بتركها من المؤمنين، فإذا أمنوهم لم يقيموها، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾، يقول: ولا ينفقون من أموالهم شيئًا، ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أن ينفقونه في الوجه الذي ينفقونه فيه، مما فيه تقوية للإسلام وأهله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي: [قد كفروا] والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ

ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تملوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيبا؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا لأنه إنما يتقبل من المتقين.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من اللّه وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.



النهي عن الاغترار بالدنيا وما أوتاه المنافقين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

الثاني: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا تكون عليهم تلك الأموال في الدنيا عذابٌ، وكم من شخص معذب في الدنيا بسبب أمواله بصور متعددة من العذاب.

أما قوله: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: تخرج أرواحهم عند موتهم، وهم كافرون، أي: أنهم يموتون حين يموتون على الكفر والعياذ بالله.

وبصورة أوضح أقول – وبالله التوفيق–:

فلا تعجبك يا رسول الله هذه الأموال التي متع الله ﷻ بها أهل النفاق هؤلاء، فقد كانوا أثرياء وسع الله عليهم في الدنيا، ولا تغتر بهذه الأحوال، ولا تلتفت أيضًا إلى ما متعوا به من البنين، فقد رزقهم الله أولاد، فإن ذلك كله متاعٌ زائل ونعيمٌ فانٍ وإنما متعهم الله بهذا المال، وكذا بالأولاد، لتكون عليهم عذابًا في دنياهم، فكم من شخص معه أموال وعنده أولاد، وكل ذلك عذاب عليه يُعذب عند جمع المال، ويعذب عند إنفاقه وتحدث صراعات بينه وبين أولاده وبين الناس بسبب المال، وتحدث صراعات بين أولاده بسبب المال ثم إنه أيضًا يكلف فيه بتكاليف شرعية كالزكوات وغيرها، فلا يفعل فيستجلب لنفسه بذلك عذابًا فلا تغتر يا رسول الله بهذا كله، فإن الله ﷻ يجعل المال والأولاد عذابًا على هؤلاء المنافقين، وكذا يريد لهم، والعياذ بالله – الموت على الكفر أن تخرج أرواحهم من أجسادهم حينما تخرج، على الكفر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: فلا تعجبك، يا محمد، أموال هؤلاء المنافقين ولا

أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال: معنى ذلك التقديمُ، وهو مؤخر.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾، قال: هذه من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

قال الطبري:

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، بما ألزمهم فيها من فرائضه.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن الحسن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال: بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بالمصائب فيها، هي لهم عذابٌ، وهي للمؤمنين أجرٌ.

قال أبو جعفر[١]: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، التأويلُ الذي ذكرنا عن الحسن. لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل، فصرْفُ تأويله إلى ما دلَّ عليه ظاهره، أولى من صرفه إلى باطنٍ لا دلالةَ على صحته.

وإنما وجَّه من وجَّه ذلك إلى التقديم وهو مؤخر، لأنه لم يعرف لتعذيب الله المنافقين بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا، وجهًا يوجِّهه إليه، وقال: كيف يعذِّبهم.

بذلك في الدنيا، وهي لهم فيها سرور؟ وذهبَ عنه توجيهه إلى أنه من عظيم العذاب عليه إلزامُه ما أوجب الله عليه فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان

(١) هو الطبري.

يلزمه ويؤخذ منه وهو غير طيِّب النفس، ولا راجٍ من الله جزاءً، ولا من الآخذ منه حمدًا ولا شكرًا، على ضجرٍ منه وكُرْهٍ.

وأما قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، فإنه يعني وتخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله، وجحودهم نبوّةَ نبيّ الله محمد ﷺ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣١].

وقال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، [في الحياة الدنيا] إنما يريد الله ليعذبهم بها [في الآخرة] .

واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القَوي الحسن.

وقوله: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذا بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ ﴾ أي: لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد. وفي معنى الآية أربعة اقوال:

أحدها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله

ليعذبهم بها في الآخرة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن قتيبة، فعلى هذا في الآية تقديم وتأخير ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها.

والثاني: أنها على نظمها، والمعنى: ليعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، فهي لهم عذاب، وللمؤمنين أجر. قاله ابن زيد.

والثالث: أن المعنى ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله قاله الحسن فعلى هذا ترجع الكناية إلى الأموال وحدها.

والرابع: ليعذبهم بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم ذكره الماوردي فعلى هذا تكون في المشركين.

قوله تعالى: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: تخرج يقال زهق السهم إذا جاوز الهدف.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مراضي ربهم، وعصوا اللّه لأجلها ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي -لما ألهتهم عن اللّه وذكره- صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإرادتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن أهل النفاق هؤلاء يقسمون لكم أيمانًا معقدةً بالله ﷻ إنهم على الإسلام والإيمان وشأنكم وشأنهم واحد، وهم وأنتم شيء واحد فيكذّبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ ليسوا منكم يا أهل الإيمان، وليسوا على طريقتكم، ولكنهم قوم يخافونكم ويرهبونكم فلذلك حلفوا وأقسموا اتقاءً لكم كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦] أي: وقاية، ثم بين الله كراهيتهم لك وعدم حبهم لكم بقوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: مكانٍ يلجؤون إليه بعيدًا عنكم، فإنهم لا يحبونكم، ولا يريدون أن يروكم وقد انتصرتم، وقويت شوكتكم، وعلت كلمتكم، فلذا لو وجدوا ملجأ للجؤوا إليه ولهربوا إليه، وكذا لو وجدوا مغارة في الجبل يهربون إليها لهربوا إليها، وكذا لو وجدوا نفقًا في الأرض، أو سربًا في الارض لهربوا إليه، ولكن هذه أمورٌ شقت عليهم لتداخلهم بينكم وعدم الاستغناء عن أموالهم وتجاراتهم، وإلا فمجالستهم لكم عن كراهية واختلاطهم بكم عن اضطرارٍ وصحبتهم لكم عن مداراة، هذه حالهم وذاك شأنهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويحلف بالله لكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون كذبًا وباطلا خوفًا منكم: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الدين والملة. يقول الله تعالى،

مكذّبًا لهم: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، أي ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شكٍّ ونفاقٍ، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾، يقول: ولكنهم قوم يخافونكم، فهم خوفًا منكم يقولون بألسنتهم: «إنا منكم»، ليأمنوا فيكم فلا يُقْتَلوا.

ويقول تعالى ذكره: لو يجد هؤلاء المنافقون «ملجأ»، يقول: عَصَرًا يعتصِرون به من حِصْن، ومَعْقِلا يعتقِلون فيه منكم، ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، وهي الغيران في الجبال، واحدتها: «مغارة»، وهي «مفعلة»، من: «غار الرجل في الشيء، يغور فيه»، إذا دخل، ومنه قيل، «غارت العين»، إذا دخلت في الحدقة.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾، يقول: سَرَبًا في الأرض يدخلون فيه.

وقال: «أو مدّخلا»، الآية، لأنه «من ادَّخَل يَدَّخِل».

وقوله: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾، يقول: لأدبروا إليه، هربًا منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾. يقول: وهم يسرعون في مَشْيِهم.

وقيل: إن «الجماح» مشيٌ بين المشيين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَحْتُ جِمَاحًا فِي دِمَائِهِمُ ... حَتَّى رَأَيْتُ ذَوِي أَحْسَابِهِمْ خَمَدُوا

وإنما وصفهم الله بما وصفهم به من هذه الصفة، لأنهم إنما أقاموا بين أَظْهُرِ أصحاب رسول الله ﷺ على كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ولما هم عليه من الإيمان بالله وبرسوله، لأنهم كانوا في قومهم وعشيرتهم وفي دورهم وأموالهم، فلم يقدروا على ترك ذلك وفراقه، فصانعوا القوم بالنفاق، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بالكفر ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله ﷺ وأهل الإيمان به والعداوة لهم. فقال الله واصِفَهم بما في ضمائرهم: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، الآية.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر الله تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، عن جزعهم وفزعهم

وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ يمينًا مؤكدة، ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يحترزون به، ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ وهي التي في الجبال، ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ ﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرأوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ أي: محلا يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة، يقتدرون بها على الثبات.

تفسير سورة التوبة

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ
حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩
۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦٠ ﴾

[التوبة: ٥٨-٦٠].

(٦٠٠) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يَلۡمِزُكَ - ٱلصَّدَقَٰتِ - يَسۡخَطُونَ - حَسۡبُنَا ٱللَّهُ - لِلۡفُقَرَآءِ - وَٱلۡمَسَٰكِينِ - وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا - وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ - وَفِي ٱلرِّقَابِ - وَٱلۡغَٰرِمِينَ - وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ - وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَلۡمِزُكَ﴾	يطعن فيك – يعيبك – يشكك في ذمتك وأمانتك
﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾	الزكوات وصدقات التطوع التي عند رسول الله
﴿يَسۡخَطُونَ﴾	يتبرمون ويطعنون ويعيبون
﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾	كافينا الله
﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾	إنا إلى الله لاجئون لقضاء حوائجنا وتدبير أمورنا وهدايتنا وكل ما تحتاج إليه
﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾	الزكوات
﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾	هم الذين لا يجدون مالاً ولا حرفة لهم تقيم أمرهم
﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾	هم الذين لهم دخولٌ لا تكفيهم
﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾	السعاة والجباة الذين يجمعون الزكوات ويحفظونها ويوزعونها
﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾	الذين يرغب في هدايتهم للإسلام أو دفع شرهم أو تثبيتهم على الدين الضعيف

(٦٠١) أحمر
أسود

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾	في مساعدة المكاتبين، وهم العبيد الذين اشتروا أنفسهم بمال وكتبوا عقودًا بينهم وبين سادتهم وما زالوا مدينين. وأيضًا في عتق الرقاب أي: شراء العبيد وتحريرهم لكن يكون ولاؤهم للمسلمين عامة أي: إذا ماتوا ولم يكن لهم ورثة فتركتهم لبيت المال، ولا تكن حينئذٍ عن أعتقهم لأنه أعتقهم من الزكوات
﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾	المدينون – أو الذين تحملوا غرامات للإصلاح بين الناس أو ضمنوا ضمانات وتحملوها وليس عندهم السداد
﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	والغزاة والمجاهدون في سبيل الله تكاليف الغزو للغزاة وتسليحهم
﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾	المسافر الذي انقطعت نفقته ولم يعد بالسهل عليه ولا باليسير أن يرجع إلى بلده



س: هل ورد لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ سبب نزول؟

ج: ورد في ذلك ما أخرجه البخاري[1] في صحيحه من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟» قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ. قَالَ: «دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ: ثَدْيَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ قَالَ: مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ: فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾.

ولكني في شك من ثبوت هذه الزيادة التي هي فنزلت فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ فقد روى هذا الحديث من طرق متعددة ليس فيه ذكر سبب النزول، فأراها، والله أعلم ضعيفة.



طعن أهل النفاق في أمانة رسول الله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ومن هؤلاء المنافقين من يعيب عليك ويطعن

(١) البخاري (٦٩٣٣)، وانظر صحيح مسلم فقد أخرج مسلم وغيره الحديث، من وجوه متعددة بدونها، وكذا أخرجه البخاري من وجوه بدونها.

فيك بسبب الصدقات، ويتهمك فيقول: إنك تُحابي وتجامل في الصدقات فتعطى أحبابك وأصحابك وأقرباءك وتمنع غيرهم، يقول هذا: إذا لم تعطه شيئًا فإذا أعطيته شيئًا منها رضى وانشرح صدره وبارك صنيعك، وإن لم تعطه منها شيئًا إذا هو ساقط عليك ناقمٌ صنيعك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن المنافقين الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم في هذه الآيات ، ﴿مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾، يقول: يعيبك في أمرها، ويطعُنُ عليك فيها.

﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ﴾، يقول: ليس بهم في عيبهم إياك فيها، وطعنهم عليك بسببها، الدِّينُ، ولكن الغضب لأنفسهم، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم منهم سخطوا عليك وعابوك.

وأورد الطبري عدة آثار وأحاديث منها حديث أبي سعيد الخدري المتقدم في سبب النزول.

وأثر ابن زيد بسندٍ صحيح قال في قوله: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾، قال: هؤلاء المنافقون، قالوا: والله ما يعطيها محمد إلا من أحبَّ، ولا يؤثر بها إلا هواه ! فأخبر الله نبيه، وأخبرهم أنه إنما جاءت من الله، وإن هذا أمر من الله ليس من محمد: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ ﴾، الآية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم ﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَّن يَلۡمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿ فِي ﴾ قَسْم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون

المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم.

وأورد ما أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث أَبِي سَعِيدٍ أيضًا قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِالْيَمَنِ، بِذَهَبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ، وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي نَبْهَانَ. قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ. فَقَالُوا: أَتُعْطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدَعُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَتَأَلَّفَهُمْ**» فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ. مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ. غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ. نَاتِئُ الْجَبِينِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ. فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ. يَا مُحَمَّدُ! قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَنْ يُطِعِ اللهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي؟**» قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ. فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ. (يُرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك في الصدقات، ويقولون: إنك تجامل فيها، تعطي من تحب وتمنع من تشاء، لو أن هؤلاء رضوا بما أتاهم الله ﷻ ورزقهم إياه على يد رسوله ﷺ وقال: ﴿حَسۡبُنَا

(١) البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

ٱللَّهُ﴾ أي أن الله ﷻ يكفينا ورضاه عنا يكفينا، وهو سبحانه مُعطينا ما يكفينا، وهو كافينا، وسيعطينا ربنا ﷻ من واسع فضله، وسيعطينا رسول الله ﷺ مما رزقه الله، لو أنهم قالوا ذلك، وقالوا أيضًا: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لاجئون إليه لقاء حوائجنا وللتوسعة علينا، لو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم وأفضل من اللمز والهمز والعيب.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو أنّ هؤلاء الذين يلمزونك، يا محمد، في الصدقات، رضَوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء، وقسم لهم من قسم، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، يقول: وقالوا: كافينا الله، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، يقول: سيعطينا الله من فضل خزائنه، ورسوله من الصدقة وغيرها، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، يقول: وقالوا: إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله، فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى مُنبِّهًا لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: أعطاهم من قليل

وكثير. ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: كافينا اللّه، فنرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا.



مصارف الزكاة الثمانية

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ج: المعنى إجمالًا، إنما زكوات الأموال وسائر الزكوات تصرف للفقراء، وهم الذين لا مال عندهم، ولا حرفة معهم يكتسبون بها من المال ما يكفي لسداد عيشهم ولا لإقامة احتياجاتهم، وكذا للمساكين، وهم الذين لهم دخول لكنها لا تكفيهم، وكذا للعاملين عليها وهم السعاة الذين يقومون بجمعها وحفظها وتصريفها في أماكنها، وكذا لمن يُرجى تأليف قلبه لإدخاله الإسلام إن كان كافرًا أو لصد شرِّه إذا كان شريرًا أو لتقوية إيمانه إن كان مُسلمًا ضعيف الإيمان يخشى عليه من الردة أو غير ذلك من صور التأليف، وكذا فمن مصارف الزكاة. إنفاقها ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أي: في مساعدة من كاتب عن نفسه من العبيد كي يتحرر أو لإعتاق العبيد من الأصل على أن يكون ولاؤهم لأهل الإسلام، وكذا فإن الزكاة تعطي أيضًا ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وهم المدينون، أو الذين تحملوا غرامات وحمالات للإصلاح بين الناس وإزالة الفتن، أو الذين ضمنوا أقوامًا في الخير، وكذا تنفق الزكوات في سبيل الله ﷻ للغزاة والمجاهدين، وقيل: للحجيج كذلك – على رأي من صحح حديث الحج في سبيل الله – وكذا الأنباء السبيل، وهم المسافرون الذين انقطعت بهم النفقة

ولم يعد معهم من المال ما يرجعون إلى أهاليهم وذويهم، كل ذلك من الأمر بصرف الزكاة في مصارفها فرض افترضه الله على العباد، والله عليه بخلقه عليمٌ كذلك بمن يستحق الزكاة وعليم بكل شيء ﴿﴾ فيما يشرع لعباده من الشرائع وحكيم في كل تدبيره وتصريف وأمر ونهي وفي كل شيء. والله أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير، والمسكين، ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب اللّه هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.



س: هل هناك مصارف أُخر غير هذه المصارف الثمانية تُخرج فيها الزكاة؟

ج: جماهير أهل العلم على أن مصارف الزكاة هي هذه المصارف الثمانية المذكورة في هذه الآية بل قد نقل الإجماع على ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز أن يخرج بالصدقات عن الأصناف الثمانية المذكورين في هذه الآية كما دل على ذلك القرآن. انتهى.

ونقل الإجماع غير واحد من أهل العلم أيضًا.

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٥٦٨).

هذا، وما ورد في أن الحجاج يأخذون من الزكوات، عند من قال بذلك، فليس هذا بمعارض للإجماع، بل إنهم يدخلون الحج في سبيل الله.



س: هل يجوز صرف الزكاة كلها لمصرفٍ واحد من المصارف الثمانية المذكورة في الآية الكريمة أم يلزم تقسيمها على الأصناف المذكورة كلها، بمعنى هل يجوز صرف الزكاة للفقراء فقط أم يجب إعطاء الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم... إلى آخره؟

ج: الظاهر أنه يجوز صرف الزكوات كلها لمصرفٍ واحد من المصارف الثمانية، ولا يجب توزيعها على الأصناف الثمانية، وهذا قول جماهير العلماء، وعليه تشهد الأدلة، وإن كان من العلماء من ذهب إلى غير ذلك، ولكن الأدلة تشهد لرأي الجمهور كما سأبيِّنه إن شاء الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف أهل العلم في كيفية قسم الصدقات التي ذكرها الله في هذه الآية، وهل يجب لكل صنف من الأصناف الثمانية فيها حق، أو ذلك إلى رب المال؟ ومن يتولى قسمها، في أن له أن يعطي جميعَ ذلك من شاء من الأصناف الثمانية.

فقال عامة أهل العلم: للمتولي قسمُها ووضعُها في أيِّ الأصناف الثمانية شاء. وإنما سمَّى الله الأصناف الثمانية في الآية، إعلامًا منه خلقَه أن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف الثمانية إلى غيرها، لا إيجابًا لقسمها بين الأصناف الثمانية الذين ذكرهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع

إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَير، وميمون بن مِهْران.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف هاهنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء.

قلت (مصطفى): ومن الأدلة التي تشهد لقول الجمهور، وقد استدلوا بها ما يلي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...﴾، والشاهد منه قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ فاقتصر عليهم.

وكذا استدلوا بما أخرجه البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[(١)].

واستدلوا أيضًا بما أخرجه البخاري[(٢)] من حديث أَنَسِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ اجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَرَخَّصَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَرْسَلَ

(١) البخاري (١٤٩٦).
(٢) البخاري (١٥٠١).

رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأُتِيَ بِهِمْ فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ بِالْحَرَّةِ يَعَضُّونَ الْحِجَارَةَ»[(١)].

وهناك استدلالات أُخر في الباب:

قال سحنون في «المدونة»[(٢)]: قال مالك: إن لم يجد إلا صنفًا واحدًا أجزأه أن يجعلها فيهم، وإذا كنت تجد الأصناف كلها الذين ذكر الله في القرآن وكان منها صنف واحد هم أحوج آثر أهل الحجة حيث كانت تسد حاجتهم.

وقال المرداوي في «الإنصاف»[(٣)]: ويُستحب صرفها إلى الأصناف كلها، لكل صنف ثُمنها إن وجد حيث وجب الإخراج، فإن اقتصر على إنسان واحد أجزأه، وهذا هو المذهب، نصَّ عليه، وعليه الجماهير من الأصحاب.

قال في «الفروع»: واختاره الخرقي والقاضي والأصحاب وهو المذهب.

وقال ابن قدامة في «المغني»[(٤)]: وإن أعطاها كلها في صنف واحد أجزأه، وهناك رواية أخرى في المذهب.

وقال السرخسي في «المبسوط»[(٥)]: وأما الزكاة فيجوز صرفها إلى صنف واحد عندنا.

وذهب فريق من الشافعية، بل جمهورهم[(٦)]، وابن تيمية[(٧)]، وابن حزم في

---

(١) سحنون في المدونة (١/ ٢٥٣).

(٢) قال ابن بطال: غرض المصنف – وهو البخاري- في هذا الباب: إثبات وضع الصدقة في صنف واحد، خلافًا لمن قال: يجب استيعاب الأصناف الثمانية، هذا كلام ابن بطال. اهـ انظر الفتح (٣/ ٤١٥).

(٣) المرداوي في الإنصاف (٣/ ٢٤٨).

(٤) المغني (٤/ ١٢٧).

(٥) المبسوط (٣/ ٩).

(٦) انظر المجموع للنووي (٦/ ١٨٦).

(٧) الفتاوى (٥/ ٣٧٣).

المحلى[1]، إلى أنه يلزم التفريق على المصارف الثمانية، واجتمعوا بحديث ضعيف الإسناد أخرجه أبو داود وغيره وفيه: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ»[2].

وذهب فريق من أهل العلم إلى أن مال الزكاة إذا كان قليلًا وزِّع في صنف واحد، وإن كان كثيرًا قسم على الأصناف الثمانية، وهذا القول منقول عن عطاء بن أبي رباح، وإبراهيم النخعي وغيرهما[3].

والقول الأول، الذي عليه الجمهور وتشهد له الأدلة فأراه أقوى الأقوال، والله أعلم.

هذا، وإن كان، كما هو معلوم، قد يتأتى حالٌ من الأحوال يترجح فيه مصرف من المصارف فتنفق فيه الزكاة كلها لاحتياج أهله إليه. والله أعلم.



س: ما المراد بالفقراء، وما المراد بالمساكين؟

ج: الظاهر لي – والله تعالى أعلم – أن الفقير من لا مال له، وليس له عمل وحرفة تُدخلان عليه دخلًا يكفيه أما المسكين فقد يكون له مال وحرفة ودخولهما لا تكفيه، وهو أحسن حالًا من الفقير، وقد قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: ٧٩] فلهم سفينة مع كونهم مساكين، إذ دخل السفينة لا يكاد يكفيهم، وإن كان بين المساكين تتفاوت في المسكنة،

(١) المحلى (٦/ ١٤٤).
(٢) أبو داود (١٦٣٠).
(٣) انظر مصنف ابن أبي شيبة (١٠٥٤٢، ١٠٥٤٦)، والطبري وغيرهما.

وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم[(١)]:

من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ».

وفي رواية أخرى عند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنْ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأُكْلَةَ وَالْأُكْلَتَانِ وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى وَيَسْتَحْيِي أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا»[(٢)].

وهذه بعض أقوال العلماء في التفريق بين الفقير والمسكين، وكذا بعض أقوالهم في تعريف كلٍّ من الصنفين.

أورد الطبري عددًا من الأقوال في ذلك فقال:

يقول تعالى ذكره: ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه.

فقال بعضهم: «الفقير»، المحتاج المتعفف عن المسألة، و«المسكين»، المحتاج السائل.

وقال آخرون: «الفقير»، هو ذو الزمانة من أهل الحاجة، و«المسكين»، هو الصحيح الجسم منهم.

وقال آخرون: «الفقراء»، فقراء المهاجرين، و«المساكين»، من لم يهاجر من المسلمين، وهو محتاج.

---

(١) البخاري (١٤٨٠)، ومسلم (مع النووي ٤/ ١٠٩).

(٢) البخاري (١٤٧٦)، وانظر مسلم (مع النووي ٤/ ١٠٩).

قال النووي في «شرح مسلم» (٤/ ١٠٩): المسكين الكامل المسكنة الذي هو أحوج وأحق بالصدقة وأحوج إليها، ليس هو هذا الطوَّاف، بل هو الذي لا يجد غني يُغنيه ولا يُفطن له، ولا يسأل الناس.

وقال آخرون: «المسكين»، الضعيف الكسب.

وقال بعضهم: «الفقير»، من المسلمين، و«المسكين» من أهل الكتاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: «الفقير»، هو ذو الفقر أو الحاجة، ومع حاجته يتعفّف عن مسألة الناس والتذلل لهم، في هذا الموضع، و«المسكين» هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم.

ثم بيَّن الطبري حجته لذلك، وقال:

فتأويل الكلام، إذ كان ذلك معناه: إنما الصدقات للفقراء: المتعفِّف منهم الذي لا يسأل، والمتذلل منهم الذي يسأل.

وقال الشافعي[١]: الفقير – والله أعلم – من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعًا، زمنًا كان أو غير زمن سائلًا كان أو مُتعففًا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمسكين من له مال أو حرفة لا تقع منه موقعًا، ولا تُغنيه، سائلًا كان أو غير سائل.

قال ابن تيمية[٢] **رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتاوى»:** بل كل من ليس له كفاية تكفيه وتكفي عياله؛ فهو من الفقراء والمساكين.

وقال المرداوي[٣] **في «الإنصاف»:** قال ابن رزين: المسكين من لم يجد أكثر كفايته.

قال الإمام النووي[٤]: الله – تعالى – بدأ بالفقراء، والعرب لا تبدأ إلا

---

(١) الأم (٢/ ١٠٧).
(٢) الفتاوى (٢٨/ ٥٧٠).
(٣) المرداوي (الإنصاف ٣/ ٢١٨).
(٤) المجموع (٦/ ١٩٥).

بالأهم فالأهم، فدل على أن الفقير أمس حاجة من المسكين.



س: كم يُعطى الفقير والمسكين من الزكاة؟

ج: يعطينا ما تُسد به حاجتيهما.

قال شيخ الإسلام[(١)] **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: فالفقراء والمساكين يجمعهما معنى الحاجة إلى الكفاية.

وقال النووي في «المجموع»[(٢)]: الفقير والمسكين يعطيان تمام كفايتهما.

وقد أخرج مسلم[(٣)] من حديث قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً. فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا. فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ. فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ)، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) فَمَا سِوَاهُنَّ مِنْ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ! سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**».



س: هل يُعطى الفقير زكاةً بمجرد دعواه أم يلزم التثبت من أمره؟

ج: الظاهر – والله أعلم– أنه إذا كانت علامات الفقر والمسكنة بادية عليه، فهذا يجوز إعطاؤه ولا نحتاج مزيد تثبيت.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤).
(٢) المجموع (٦/ ١٩٥).
(٣) مسلم (١٠٤٤).

(٦١٥) أحمر
أسود

أخرج مسلم[(١)] في صحيحه من حديث الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ. مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ. عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ. بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ. فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقَةِ. فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ. فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ. فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**».

ومن الدليل على ذلك أيضًا حديث الثلاثة: الأبرص، والأقرع والأعمى من بني إسرائيل ففيه[(٢)]:

«**إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى. فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ،**

(١) مسلم (١٠١٧).
(٢) البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ شَكَّ إِسْحَقُ) - إِلَّا أَنَّ الْأَبْرَصَ أَوْ الْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ. وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ – قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ. فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا. قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الْغَنَمِ.

فذكر الحديث وفيه:

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ. انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي. فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ. أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي. فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ. فَوَاللهِ! لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ. فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ. فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».

أما إذا كان الشخص متسولًا دائم التسول أو كان ظاهره الغنى، فحينئذٍ فالأفضل التثبت ويؤيد ذلك ما أخرجه مسلم[1] في صحيحه من حديث قبيصة بن مخارق، وقد تقدم وفيه:

«يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ)، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ

(١) مسلم (١٠٤٤).

فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ! سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

هذا، وقد راى بعض أهل العلم أن هذا الأمر لا يُشدَّد فيه لأن الله تعالى قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

قال ابن قدامة[١]: الفقر والغنى مما يعسر الاطلاع عليه والمعرفة بحقيقته. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، فاكتفى بظهور الفقر ودعواه بخلاف غيره.

وقال النووي في المجموع[٢]: إذا ادعى أنه لا كسب له، فإن كان ظاهره عدما لكسب كشيخ هرم، أو شاب ضعيف البنية ونحوهما؛ قبل قوله بغير يمين بلا خلفا.

وقال المرداوي[٣]: وإن رآه جلدًا أو ذَكَر أنه لا كسب له؛ أعطاه من غير يمين، بلا نزاع؛ وذلك بعد أن يُخبره أنه لا حظَّ فيها لغني، ولا قوي مُكتسب بلا نزاع.

وقال الشافعي[٤]: الأغلب من أمور الناس أنهم غير أغنياء حتى يُعرف غناهم، ومن طلب من جيرانه الصدقة باسم فقر، أو مسكنة؛ أُعطي، ما لم يعلم منه غير ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: وإذا ادَّعى الفقر من لم يُعرف بالغنى،

---

(١) المغني (٤/ ١٢٧).
(٢) (٦/ ١٩٥).
(٣) الإنصاف (٣/ ٢٤٧).
(٤) الشافعي الأم (٢/ ٩٨).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٧٣).

وطلب الأخذ من الصدقات، فإنه يجوز للإمام أن يُعطيه بلا بيِّنة بعد أن يعلمه أنه لا حظَّ فيها لغني ولا قوي مُكتسب.

قلت: ويشهد له ما أخرجه أحمد[1] بسندٍ صحيح من حديث عُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَدِيٍّ: أَنَّ رَجُلَيْنِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلَانِهِ مِنْ الصَّدَقَةِ، فَقَلَّبَ فِيهِمَا الْبَصَرَ، وَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ، فَقَالَ: «إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ».



س: إذا اجتهد شخص في البحث عن الفقراء فأعطى شخصًا مبلغًا من الزكاة يحسبه فقيرًا ثم تبين له بعد أن أعطاه أنه غني هل يلزم بإعادة إخراج الزكاة؟

ج: اختلف العلماء في ذلك على قولين، ارى أظهرهما وأقواهما قول من قال إنه لا يُعيد الزكاة، واستدلوا لذلك بما أخرجه البخاري ومسلم[2] من حديث حَدَّثَنَا أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

---

(١) أحمد (١٧٩٧٢)، والنسائي (٢٥٩٧)، وأبو داود (١٦٣٣).
(٢) البخاري (١٣٣٢)، ومسلم (١٠٢٢).

وبما أخرجه البخاري[١] من طريق مَعْنَ بْنَ يَزِيدَ ﭬ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَا، وَأَبِي، وَجَدِّي، وَخَطَبَ عَلَيَّ فَأَنْكَحَنِي، وَخَاصَمْتُ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا، فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا، فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ: وَاللهِ مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ! فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ**».



س: هل كل فقير يُعطى من الزكاة؟

ج: الفقراء مصرف من مصارف الزكاة، لكن ليس كل فقير يُعطى من الزكاة، بل يُعطى فقراء المسلمين فالفقراء الكفار لا يعطون من الزكاة، إلا إذا دخلوا في المؤلفة قلوبهم.

وكذا لا يُعطى من الزكاة الفقير القادر على الاكتساب وكلنه يتعمد ألا يعمل لحديث: **ولا حظ فيها لقوي مكتسب**.

وكذلك لا يعطى من الزكاة الفقراء من آل البيت النبي ﷺ، لقوله ﷺ: «**إنا آل محمد لا نأكل الصدقة**»، وهذا إذا كانوا يأخذون من الخمس، أما إذا حرموا الخمس فقد جوَّز كثير من العلماء إخراج الزكاة فيهم، والله أعلم.

قال القرطبي رحمه الله:

اعلم أن قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ مطلق ليس فيه شرط وتقييد، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بني هاشم أو غيرهم، إلا أن السنة وردت باعتبار شروط: منها ألا يكونوا من بني هاشم وألا يكونوا ممن تلزم المتصدق نفقته. وهذا لا خلاف فيه. وشرط ثالث ألا يكون قويا على

(١) البخاري (١٤٢٢).

الاكتساب، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي**». وقد تقدم القول فيه. ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحل للنبي ﷺ، ولا لبني هاشم ولا لمواليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولا يجوز أن يعطي من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة. وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز. وأما أن يتناول ذلك هو نفسه فلا، لأنه يسقط بها عن نفسه فرضا. قال أبو حنيفة: ولا يعطى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته، ولا يعطي منها مكاتبه ولا مدبره ولا أم ولده ولا عبدا أعتق نصفه، لأنه مأمور بالإيتاء والإخراج إلى الله تعالى بواسطة كف الفقير، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء، ولهذا لا تقبل شهادة بعضهم لبعض.



س: فقير عنده أرض يزرعها، أو سيارة يؤجرها أو أثاث منزل يستعمله، هل يلزم ببيع ذلك، ولا يأخذ من الزكاة؟

ج: كلا، لا يلزم ببيع ذلك بل يُعد مصرفًا من مصارف الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ فوصفوا بالمسكنة مع امتلاكهم ذلك.

وقال النووي في «المجموع»[1]: إذا كان له عقار ينقص دخله عن كفايته فهو فقير أو مسكين، فيُعطى من الزكاة تمام كفايته، ولا يكلف بيعه. ذكره أبو العباس الجرجاني في «التحرير»، والشيخ نصر المقدسي، وآخرون.

(١) المجموع (٦/ ١٩٢).

س: هل يُعطى مريد الزواج من زكاة المال؟

ج: تكاليف الزواج ليست من مصارف الزكاة، إنما يُعطى مريد الزواج من الزكاة لفقره إذا كان فقيرًا، أو لسداد دينه إذا كان مدينًا، أو لمسكنته إذا كان مسكينًا، فمثلاً إذا كان الشخص يتقاضى في الشهر راتبًا قدره ألفين تكفيه لنفقته ألف واحد منها ويدخر ألفًا لزواجه فمثله في العُرف لا يعدُّ فقيرًا، ومن ثم لا يعطى من أموال الزكاة.

هذا، وأقوال العلماء في هذه المسألة شحيحة، وأرى سبب ذلك أنهم كانوا يردون أمر المتزوج إلى أمر الفقير والمسكين، هذا، ومن العلماء من استدل بدليل على جواز إخراج الزكاة لمريد الزواج، ولا أرى هذا الدليل صريحًا في الباب.

ألا وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه[(١)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا فَإِنَّ فِي عُيُونِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا؟**» قَالَ: قَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا. قَالَ: «**عَلَى كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟**» قَالَ: عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ؟! كَأَنَّمَا تَنْحِتُونَ الْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ، مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ، وَلَكِنْ عَسَى أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ**» قَالَ: فَبَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي عَبْسٍ بَعَثَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فِيهِمْ.

وهذا ليس بصريح في أن الذي كان سيأخذ زكاة، وكذا استدل البعض بحديث ثلاثة حق على الله عونهم: «...**والناكح يريد العفاف**...».

وهذا أيضًا ليس بصريح في أنه يعطى من الزكاة والله أعلم.

---

(١) مسلم (١٤٢٤).

❁ ❁ ❁

حد الفقير

س: ما حد الفقر الذي بناء عليه نعتبر الشخص فقيرًا ونعطيه من الزكاة؟

ج: ليس لذلك حدٌّ معلوم، إنما هذا يرجع إلى احتياجات الأشخاص الضرورية، ويرجع كذلك إلى الأعراف السائدة في الناس.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد اختلف العلماء في حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ - بعد إجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم - أن من له دارا وخادما لا يستغني عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه. وكان مالك يقول: إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجز، ذكره ابن المنذر. وبقول مالك قال النخعي والثوري.

ونقل صاحب عون المعبود[1] عن الشافعي قوله: لَا حَدّ لِلْغَنِيِّ مَعْلُومًا، وإنما يعتبر حال الإنسان، وَقَدْ يَكُون الرَّجُل بِالدِّرْهَمِ غَنِيًّا مَعَ كَسْب وَلَا يُغْنِيه الْأَلْف مَعَ ضَعْف فِي نَفْسه وَكَثْرَة عِيَاله. انتهى.

ونقل ابن قدامة عن الشافعي[2] قوله: الأمر يرجع إلى احتياجه، وليس له حدٌّ معلومٌ.

إذا لم يكن محتاجًا حُرمت عليه الصدقة، وإن لم يملك شيئًا، وإن كان محتاجًا حلت له الصدقة وإن ملك نصابًا.

❁ ❁ ❁

العاملون عليها

---

(١) عون المعبود (٣/ ٣٣٧).

(٢) ابن قدامة (٤/ ١١٨).

س: من المعنيون بـ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾؟

ج: المراد العاملون الذين يقومون بجمع الزكوات وتوزيعها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾، وهم السعاة في قبضها من أهلها، ووضعها في مستحقِّيها، يعطون ذلك بالسعاية، أغنياء كانوا أو فقراء.

وأورد بإسناد حسن عن الزهري: هم السعاة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾، قال: جُباتها الذين يجمعونها ويسعون فيها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»[(١)].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾:

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ وهم السعاة لجباية الصدقة يعطون منها بقدر أجور أمثالهم، وليس ما يأخذونه بزكاة.

وقال السعدي في تفسيره:

العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون

---

(١) مسلم (١٠٧٢).

لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

وقال القرطبي:

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ يعني السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكيل على ذلك.

ونقل الحافظ ابن حجر[١] في الفتح عن ابن بطال قوله: اتفق العلماء على أن العاملين عليها هم السعاة المتولون بقبض الصدقة.

وقال الإمام الشافعي[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعاملون عليها المتولون لقبضها من أهلها من السعاة ومن أعانهم من عريف لا يقدر على أخذها إلا بمعرفته، فأما الخليفة ووالى الاقليم العظيم الذى تولى أخذها عامل دونه فليس له فيها حق وكذلك من أعان واليا على قبضها ممن به الغنى عن معونته فليس له في سهم العاملين حق وسواء كان العاملون عليها أغنياء أو فقراء من أهلها كانوا أو غرباء إذا ولوها فهم العاملون، ويعطى أعوان إدارة والى الصدقة بقدر معوناتهم عليها ومنفعتم فيها.

قلت (مصطفى): وأدخل جمعٌ من العلماء في العاملين عليها السعاة الذين يجمعونها، وكذا الذين يقومون بحفظها، وكذا الذين يقومون بتقسيمها. والله أعلم.



س: كم القدر الذي يأخذه العاملون عليها؟

(١) فتح (٣/ ٤٤٦).
(٢) الأم (٢/ ١٠٧).

(٦٢٥) أحمر
أسود

ج: الظاهر – والله أعلم – أنهم يعطون بقدر عملهم وبقدر نفعهم.

قال الإمام الشافعي في الأم[(١)]: سواء كان العاملون عليها أغنياء أو فقراء من أهلها كانوا أو غرباء، إذا ولوها فهم العاملون، ويعطى أعوان إدارته والي الصدقة بقدر معوناتهم عليها ومنفعتهم فيها. اهـ.

وقال ابن عبد البر في التمهيد[(٢)]: وقد أجمع العلماء أن العامل عليها لا يستحق ثمنها، وإنما له بقدر عمالته.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: يعطى العامل عليها على قدر عُمالته وأجر مثله.

وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه لم يقسم صدقة الأموال بين الأصناف الثمانية على ثمانية أسهم، وإنما عرّف خلقه أن الصدقات لن تجاوز هؤلاء الأصناف الثمانية إلى غيرهم، وإذ كان كذلك، بما سنوضح بعدُ، وبما قد أوضحناه في موضع آخر، كان معلومًا أن من أعطي منها حقًّا، فإنما يعطى على قدر اجتهاد المعطى فيه. وإذا كان ذلك كذلك، وكان العامل عليها إنما يعطى على عمله، لا على الحاجة التي تزول بالعطية، كان معلومًا أن الذي أعطاه من ذلك إنما هو عِوَض من سعيه وعمله، وأن ذلك إنما هو قدر يستحقه عوضًا من عمله الذي لا يزول بالعطية، وإنما يزول بالعزل.

❊ ❊ ❊

المؤلفة قلوبهم

(١) الأم (٢/ ١٠٧).
(٢) التمهيد (٧/ ٦٣).

س: من هم المؤلفة قلوبهم؟

ج: هم أصنافٌ:

* صنف منهم كفارٌ: يعطون مالًا كي يدخلوا في الأسلام ويُتألفوا.

وقسم منهم يُعطى من المال لكف شرِّه ودفع أذاه.

* وصنفٌ مسلمون: لكنهم ضعفاء الإيمان فيُعطون من المال لتقوية إيمانهم.

وقسمٌ منهم يعطون من المال لإسلام نظرائهم أو لجمع الزكوات فمن تمرد من قبائلهم ونحو ذلك.

وقسمٌ منهم أيضًا يُعطى من المال لدفع شره مع كونه مُسلمًا، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما المؤلفة قلوبهم: فأقسام: منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركا. قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إلي، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا زكريا بن عدي، أنا ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إلي.

ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به

ومنهم من يُعْطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من

صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، مائة من الإبل وقال: «إني

لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يَكُبَّه الله على وجهه في نار جهنم»[١].

وفي الصحيحين[٢] عن أبي سعيد: أن عليا بعث إلى النبي ﷺ بذُهَيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»

ومنهم من يُعطَى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطَى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قسم الصدقات، وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم. قال الزهري: المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنيا. وقال بعض المتأخرين: اختلف في صفتهم، فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان. وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم تستيقن قلوبهم، فيعطون ليتمكن الإسلام في صدورهم. وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء، فكأنه ضرب من الجهاد.

والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان. وصنف بالقهر.

---

(١) البخاري (١٤٧٨).

(٢) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

وصنف بالإحسان. والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر. وفي صحيح مسلم من حديث أنس، فقال رسول الله ﷺ أعني للأنصار -: «**فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم**...» الحديث. قال ابن إسحاق: أعطاهم يتألفهم ويتألف بهم قومهم. وكانوا أشرافا، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبدالعزى مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير. وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية. قال: فهؤلاء أصحاب المئين. وأعطى رجالا من قريش دون المائة منهم مخرمة بن نوفل الزهري وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو العامري. قال ابن إسحاق: فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون، وكافرون، فأما المسلمون: فصنفان صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم تقوية لنياتهم كعيينة بن حصن والأقرع، وصنف كانت نياتهم حسنة فأعطوا تألفا لعشائرهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم، وأما المشركون فصنفان: صنف يقصدون المسلمين بالأذى فتألفهم دفعا لأذاهم، مثل عامر بن الطفيل وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام تألفهم بالعطية ليؤمنوا كصفوان بن أمية.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾، فإنهم قوم كانوا يُتَألَّفون على الإسلام، ممن لم تصحّ نصرته، استصلاحًا به نفسَه وعشيرتَه، كأبي سفيان بن حرب، وعيينة بن

بدر، والأقرع بن حابس، ونظرائهم من رؤساء القبائل.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

المؤلفة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.



س: هل سهم المؤلفة قلوبهم ما زال باقيًا؟

ج: نعم ما زال باقيًا فليس هنالك دليلٌ يسقطه، والذي روي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إسقاطه في زمانه فإنما كان في زمنٍ أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله، ولم يَعدْ آنذاك يُحتاج إلى تأليف القلوب.

أما إذا حلَّ بالمسلمين ضعف، أو اعترتهم شدة، أو طمعوا في إسلام أحدٍ فليس هناك أي دليل يمنع من إعطائه من باب تاليف القلوب، وقد أعطى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا من المؤلفة قلوبهم، وهو في حال نصرٍ وتمكين، وذلك بعد انتصاره على هوازن في غزوة حُنين.

وبنحو ذلك قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم اختلف أهل العلم في وجود المؤلفة اليوم وعدمها، وهل يعطى اليوم أحدٌ على التألف على الإسلام من الصدقة؟

فقال بعضهم: قد بطلت المؤلفة قلوبهم اليوم، ولا سهم لأحد في الصدقة المفروضة إلا لذي حاجة إليها، وفي سبيل الله، أو لعامل عليها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فرُوي عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يُعطَون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومَكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يُعطَون؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هَوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

واختلف العلماء في بقائهم، فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم: انقطع هذا الصنف بعز الإسلام وظهوره. وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي. قال بعض علماء الحنفية: لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين - لعنهم الله - اجتمعت الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سقوط سهمهم. وقال جماعة من العلماء: هم باقون لأن الإمام ربما أحتاج أن يستألف على الإسلام. وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخا في ذلك. قال أبو جعفر النحاس: فعلى هذا الحكم فيهم ثابت، فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة أو يرجى أن يحسن إسلامه بعد دفع إليه. قال القاضي عبدالوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة. وقال القاضي ابن العربي: الذي عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ﷺ يعطيهم، فإن في الصحيح: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ**».

قال ابن قدامة في «المغني»[١] في المؤلفة قلوبهم:

(١) المغني (٤/ ١٢٤).

ولنا كتاب الله وسنة رسوله فان الله تعالى سمى المؤلفة في الأصناف الذين سمى الصدقة لهم، والنبي ﷺ قال: «إن الله تعالى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء»[١].

وكان يعطي المؤلفة كثيرا في أخبار مشهورة، ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا بنسخ، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، ثم إن النسخ إنما يكون في حياة النبي ﷺ، لأن النسخ إنما يكون بنص ولا يكون النص بعد موت النبي ﷺ، وانقراض زمن الوحي، ثم إن القرآن لا ينسخ إلا بقرآن، وليس في القرآن نسخ كذلك ولا في السنة فكيف يترك الكتاب والسنة بمجرد الآراء والتحكم أو بقول صحابي؟!!

وقال ابن حزم[٢]:

وادعى قومٌ أن سهم المؤلفة قلوبهم قد سقط، وهذا باطل، بل هم اليوم أكثر مما كانوا.



س: اذكر بعض الوارد في إعطاء رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم؟

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه مسلم[٣] في صحيحه من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ.

(١) سنده ضعيف، وقد تقدم.
(٢) المحلى (٦/ ١٤٥).
(٣) مسلم (٢٣١٢).

(٦٣٢) أحمر
أسود

وما أخرجه مسلم(١) في صحيحه من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ ﵁ وَهُوَ بِالْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ، وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِيُّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي نَبْهَانَ، قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ فَقَالُوا: أَتُعْطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدَعُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَتَأَلَّفَهُمْ» فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ يُطِعِ اللهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي» قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ يُرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

وما أخرجه البخاري ومسلم(٢) من حديث أَنَس ﵁: أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ: مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ.

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟» فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ: أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا يَا رَسُولَ

(١) مسلم (١٠٦٤).
(٢) البخاري (٤٣٣١)، ومسلم (١٠٥٩) واللفظ له.

اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ قَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ؟!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ**» فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا. قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ**» قَالُوا: سَنَصْبِرُ.

وما أخرجه البخاري ومسلم[1] من حديث عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُود قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، آثَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنْ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلْ اللهُ وَرَسُولُهُ**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**» قَالَ: قُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا.

وفي صحيح من سلم من حديث رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ دُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ
فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ

---

(١) البخاري (٤٣٣٥)، ومسلم (١٠٦٢) واللفظ له.

وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا وَمَنْ تَخْفِضْ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قَالَ: فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِائَةً.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾؟

ج: المراد - والله تعالى أعلم- أن الزكاة تُخرج في الرقاب.

ولأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد بذلك إعانة العبد المكاتب أي: أن العبد قد يشتري نفسه من سيده بمبلغ معين مثلًا، ويكتب كتابًا بينه وبين سيده بذلك فيسمى مكاتبًا، فهذا المكاتب يُعان على سداد ديونه من زكاة المال، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ وقال ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم....المكاتب يريد الأداء»[1].

القول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ في شراء العبيد وعتقهم على أن يكون ولاؤهم للمسلمين عامة.

وكإيضاح لهذا الكلام أنك إذا اشتريت عبدًا وأعتقته ولم يكن له وارث فأنت يا من أعتقته ترثه، ولهذا يُقال الولاء لمن أعتق، أما قوله: ويكون الولاء للمسلمين فذلك حتى لا يرجع إليك يا من وضعت زكاتك في عتق العبيد، حتى لا ترجع إليك فائدة من العبيد عند موتهم بل يكون ولاءهم للمسلمين.

فلذا منع بعض أهل العلم شراء عبدٍ من الأصل، وعتقه من مال الزكاة، وذلك حتى لا يرجع إلى المزكي ولاءُ هذا الشخص.

---

(١) إسناده حسن: أخرجه الترمذي (١٦٥٥) وغيره.

أما الذين جوزوا شراء عبدٍ وعتقه من مال الزكاة، فإنهم قيدوا ذلك بأن يكون الولاء للمسلمين كلهم، وليس لمن أعتق.

وهذه أقوال بعض العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم، وهم الجمهور الأعظم: هم المكاتبون، يعطون منها في فك رقابهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لا بأس أن تُعْتَقَ الرقبة من الزكاة.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، قولُ من قال: «عنى بالرقاب، في هذا الموضع، المكاتبون»، لإجماع الحجة على ذلك، فإن الله جعل الزكاة حقًّا واجبًا على من أوجبها عليه في ماله، يخرجها منه، لا يرجع إليه منها نفعٌ من عرض الدنيا، ولا عِوَض. والمعتق رقبةً منها، راجع إليه ولاء من أعتقه، وذلك نفع يعود إليه منها.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالا لدخوله في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

وقال النووي في «المجموع»[١]:

قال الشافعي والأصحاب: يصرف سهم الرقاب إلى المكاتبين، هذا مذهبنا، وبه قال أكثر العلماء، كذا نقله عن الأكثرين البيهقي في «السنن

(١) المجموع (٦/ ٢٠٠).

الكبير»، والمتولي، وبه قال علي بن أبي طالب، وسعيد بن جبير، والزهري، والليث بن سعد، والثوري، وأبو حنيفة، وأصحابه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية «الفتاوى»[1]: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ يدخل فيه إعانة المكاتبين وافتداء الأسرى وعتق الرقاب.



الغارمون

س: من المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الغارمين هم المدينون الذين استدانوا لحاجة وليس عندهم وفاءٌ، أي: وليس عندهم مال يسددون به الدين، وكذا الذين ذهبت أموالهم بخسارة كسيلٍ أو خسارة في تجارة، أو حريق، أو غير ذلك فاستدانوا وليس عندهم ما تسدد به ديونهم.

الثاني: أن الغارمين هم الذين تدخلوا للإصلاح بين الناس وغرموا من أموالهم أموالًا لفض المنازعات وإزالة المشاحنات.

وأدخل البعض فيهم الذين ضمنوا أقوامًا فلم يفي الأقوام بالسداد فقاموا بالسداد عنهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قَبِيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك

(١) الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤).

بها». قال: ثم قال: «**يا قَبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش: أو قال: سدادًا من عيش -ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواما من عيش -أو قال سدادا من عيش -فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتا**». رواه مسلم[(١)].

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «**تصدقوا عليه**». فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك**». رواه مسلم[(٢)].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما «الغارمون»، فالذين استدانوا في غير معصية الله، ثم لم يجدوا قضاء في عين ولا عَرَض.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وهم الذين لزمهم الدين ولا يجدون القضاء، قال قتادة: هم ناس عليهم دَيْنٌ من غير فساد ولا إسراف ولا تبذير، وإنما قال هذا؛ لأنه لا يؤمن في حق المفسد إذا قُضِيَ دَينُه أن يعود إلى الاستدانة لذلك؛ ولا خلاف في جواز قضاء دينه ودفع الزكاة إليه، ولكن قتادة قاله على وجه الكراهية.

---

(١) مسلم (١٠٤٤).
(٢) مسلم (١٥٥٦).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والسادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنيا.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يُوَفِّى به دينه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ هم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه. اللهم إلا من ادّان في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب.

ويعطى منها من له مال وعليه دين محيط به ما يقضي به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فيعطى بالوصفين. روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه. فقال رسول الله ﷺ: «**تصدقوا عليه**». فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه. فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك**».

وقال: ويجوز للمتحمل في صلاح وبر أن يُعطى من الصدقة ما يؤدي ما تحمل به إذا وجب عليه وإن كان غنيا، إذا كان ذلك يجحف بماله كالغريم. وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم. واحتج من ذهب هذا المذهب بحديث قبيصة بن مخارق قال: تحملت حمالة فأتيت النبي ﷺ أسأله فيها فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها** - ثم قال - **يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها**

ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال سدادا من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال سدادا من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا». فقوله: «ثم يمسك» دليل على أنه غني، لأن الفقير ليس عليه أن يمسك. والله أعلم. وروي عنه ﷺ أنه قال: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع». وروي عنه ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة...» الحديث. وسيأتي.

قال الشافعي في الأم[1]:

وَصِنْفٌ ادَّانُوا فِي حَمَالَاتٍ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنٍ وَمَعْرُوفٍ وَلَهُمْ عُرُوضٌ تَحْمِلُ حَمَّالَاتِهِمْ أو عَامَّتَهَا إنْ بِيعَتْ أَضَرَّ ذلك بِهِمْ وَإِنْ لم يَفْتَقِرُوا فَيُعْطَى هَؤُلَاءِ ما يُوَفِّرُ عُرُوضَهُمْ كما يُعْطَى أَهْلُ الْحَاجَةِ من الْغَارِمِينَ حتى يَقْضُوا غُرْمَهُمْ.

وقال النووي في المجموع[2]:

الغارمون ضربان الضرب الأول: من غرم لإصلاح ذات البين، ومعناه أن يستدين مالا ويصرفه في إصلاح ذات البين، بأن يخاف فتنة بين قبيلتين أو طائفتين، أو شخصين، فيستدين مالا ويصرفه في تسكين تلك الفتنة، فينظر إن كان ذلك في دم تنازع فيه قبيلتان أو غيرهما، ولم يظهر القاتل أو نحو ذلك، وبقى الدين في ذمته فهذا يصرف إليه من سهم الغارمين من الزكاة، سواء كان غنيا أو فقيرا، ولا فرق بين غناه بالنقد والعقار وغيرهما، هذا هو المذهب.

(١) الأم (٢/ ١٠٨).
(٢) النووي في المجموع (٦/ ٢٠٧).

وقال ابن عبد البر في الاستذكار[(١)]:

وأما الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وسائر أهل العلم فيما علمت فإنهم قالوا: جائز للغازي في سبيل الله إذا ذهب نفقته وماله غائب عنه أن يأخذ من الصدقة ما يبلغه.

قالوا: والمحتمل بحمالة في بر وإصلاح، والمتداين في غير فساد، كلاهما يجوز له أداء دينه من الصدقة، وإن كان الحميل غنيا فإنه يجوز له أخذ الصدقة إذا وجب عليه أداء ما تحمل به وكان ذلك يجحف به.

وقال ابن عبد البر أيضًا[(٢)]: وتحل لغارم غرما قد فدحه، وذهب بماله إذا لم يكن غرمه في فساد ولا دينه في فساد مثل أن يستدين في نكاح أو حج أو غير ذلك من وجوه المباح والصلاح.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)]: الذين يأخذون الزكاة صنفان: صنف يأخذ لحاجته كالفقير، والغارم لمصلحة نفسه، وصنف يأخذها لحاجة المسلمين كالمجاهد والغارم في إصلاح ذات البين، فهؤلاء يجوز دفعها إليهم، وإن كانوا من أقاربه.

قلت (مصطفى): والأصل في هذا، أعني في تفسير الغارمين ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً. فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا. فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ. فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ**

---

(١) (٩/ ٢٠٢) الاستذكار.
(٢) (٩/ ٢٠٢) الاستذكار.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٩٠).

مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ﴾، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ (أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ) فَمَا سِوَاهُنَّ مِنْ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ! سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

قال النووي في شرح هذا الحديث:

(تَحَمَّلْت حَمَالَةَ) هِيَ بِفَتْحِ الْحَاء ، وَهِيَ الْمَال الَّذِي يَتَحَمَّلهُ الْإِنْسَان أَيْ يَسْتَدِينُهُ وَيَدْفَعهُ فِي إِصْلَاح ذَات الْبَيْن كَالْإِصْلَاحِ بَيْن قَبِيلَتَيْنِ وَنَحْو ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا تَحِلّ لَهُ الْمَسْأَلَة ، وَيُعْطَى مِنْ الزَّكَاة بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَدِينَ لِغَيْرِ مَعْصِيَةٍ.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار:

قوله: (حمالة) بفتح الحاء المهملة وهو ما يتحمله الإنسان ويلتزمه في ذمته بالاستدانة ليدفعه في إصلاح ذات البين وإنما تحل له المسألة بسببه ويعطى من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية وإلى هذا ذهب الحسن البصري والباقر والهادي وأبو العباس وأبو طالب. وروي عن الفقهاء الأربعة والمؤيد بالله أنه يعان لأن الآية لم تفصل وشرط بعضهم أن الحمالة لا بد أن تكون لتسكين فتنة وقد كانت العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة في دية أو غيرها قام أحدهم فتبرع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة ولا شك أن هذا من مكارم الأخلاق وكانوا إذا علموا أن أحدهم تحمل حمالة بادروا إلى معونته وأعطوه ما تبرأ به ذمته وإذا سأل لذلك لم يعد نقصا في قدره بل فخرا. اهـ.



س: هل يجوز قضاء دين الميت من الزكاة إذا لم يكن ترك ميراثًا؟

ج: اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول عدم الجواز: ويبدو أنه قول أكثر أهل العلم.

قال ابن قدامة في المغني[(١)]:

قال أبو داود: سمعت أحمد وسئل يكفن الميت من الزكاة ؟ قال لا ولا يقضى من الزكاة دين الميت وانما لم يجز دفعها في قضاء دين الميت لأن الغارم هو الميت ولا يمكن الدفع اليه وإن دفعها الى غريمه صار الدفع إلى الغريم لا إلى الغارم وقال أيضا: يقضى من الزكاة دين الحي ولا يقضى منها دين الميت لأن الميت لا يكون غارما قيل فانما يعطى أهله قال إن كانت على أهله فنعم.

قال ابن عبد البر[(٢)]:

وأجمعوا على أنه لا يؤدى من الزكاة دين ميت ولا يكفن منها ولا يبنى منها مسجد ولا يشترى منها مصحف ولا يعطى لذمي ولا مسلم غني.

وقال أبو عبيد في كتاب الأموال[(٣)]:

فأما قضاء الدين عن الميت والعطية في كفنه وبنيان المساجد واحتفار الأنهار وما أشبه ذلك من أنواع البر، فإن سفيان وأهل العراق وغيرهم من العلماء يجمعون على أن ذلك لا يجزئ من الزكاة؛ لأنه ليس من الأصناف الثمانية.

قال أبو عبيد: وإنما افترق الحي والميت أن يكون الميت غارمًا؛ لأن الدين الذي أدانه قد تحول على غيره وهو الوارث، فإن كان للميت وفاء بدينه؛ كان في ميراثه، وكان ذلك دون الصدقة، وإن لم يكن له مال، فليس على وراثه

---

(١) المغني (٤/ ١٤٦).

(٢) الاستذكار (٩/ ٢٢٣).

(٣) الأموال (ص ٧٢٥).

شيء، وليس بغارم؛ لأنه هو الذي أدان هذا الدين.

وقد أجمعت العلماء ألا يعطى من الزكاة في دين ميت، وأما الحي فإنه يُعطاها بالكتاب والسنة.

قلت (مصطفى): وهذا الإجماع الذي نقله ابن عبد البر وأبو عبيد منتقص ولا يصح، فالخلاف في المسألة ثابت ومشهور.

قال النووي في المجموع[(١)]:

لو مات رجل وعليه دين ولا تركة له هل يقضي من سهم الغارمين؟

فيه وجهان حكاهما صاحب البيان:

أحدهما: لا يجوز، وهو قول الصيمري ومذهب النخعي وأبي حنيفة وأحمد.

والثاني: يجوز لعموم الآية.

وقال ابن تيمية في المجموع[(٢)]:

أما الدين الذي على الميت فيجوز أن يُوفى من الزكاة في أحد قولي العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾، ولم يقل: «وللغارمين»، فالغارم لا يُشترط تمليكه.

وعلى هذا يجوز الوفاء عنه، وأن يملك لوارثه ولغيره، ولكن الذي عليه الدين لا يعطى ليستوفى دينه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلفوا، هل يقضى منها دين الميت أم لا، فقال أبو حنيفة: لا يؤدى من

(١) المجموع (٦/ ٢١١).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٨٠).

(٦٤٤) أحمر
أسود

الصدقة دين ميت. وهو قول ابن المواز. قال أبو حنيفة: ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى، وإنما الغارم من عليه دين يسجن فيه. وقال علماؤنا وغيرهم: يقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين، قال ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي».

هذا، ومن حجج القائلين بقضاء الدين عن الميت عموم الآية الكريمة ﴿..وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وقوله ﷺ الذي أخرجه البخاري[١] بلفظ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي».

ورواه البخاري[٢] في كتاب «التفسير» من رواية أبي هريرة مرفوعًا: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ».

ومسلم[٣] بلفظ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ».



(١) البخاري (٦٧٣١).
(٢) البخاري (٦٧٨١).
(٣) (٨٦٧).

الديون التي سببها المعاصي

س: هل يُسدد الدين الذي سببه معصيته؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أن الشخص إذا استدان في معصيته ولم يتب لم يعط من الزكاة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال النووي في شرح مسلم[(١)]: ويُعطى من الزكاة بشرط أن يستدين بغير معصية.

وقال النووي في المجموع[(٢)]:

من غرم لصلاح نفسه وعياله، فإن استدان ما أنفقه على نفسه أو عياله في غير معصية، أو أتلف شيئا على غيره سهوا، فهذا يعطى ما يقضى به دينه...

ويكون دينه لطاعة أو مباح، فإن كان في معصية كالخمر ونحوه، وكالإسراف في النفقة لم يعط قبل التوبة، هذا هو المذهب، وبه قطع المصنف والجمهور.

قال ابن عبد البر في الاستذكار[(٣)]:

وتحل -أي: الصدقة- لغارم غرما قد فدحه وذهب بماله إذا لم يكن غرمه في فساد ولا دينه في فساد مثل أن يستدين في نكاح أو حج أو غير ذلك من وجوه المباح والصلاح. اهـ.

وقال المرداوي في الإنصاف[(٤)]:

ومن غرم أو سافر في معصية لم يدفع إليه.

إذا غرم فيم عصية لم يدفع إليه من الزكاة بلا نزاع، وإذا سافر في معصية لم

(١) مسلم (٤/ ١١٣).
(٢) المجموع (٦/ ٢٠٧).
(٣) (٩/ ٢٠٢).
(٤) الإنصاف (٣/ ٢٤٧).

يدفع إليه أيضًا على الصحيح من المذهب، وقطع به الأكثرون.

❁ ❁ ❁

مصرف في (سبيل الله)

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟

ج: المراد – والله أعلم – أن الزكوات من مصارفها أنها تصرف في سبيل الله، ولأهل العلم أقوال في بيان ذلك.

القول الأول: وهو قول الجمهور من العلماء أن في سبيل الله تختص بالمجاهدين في سبيل الله والغزاة ونحوهم، كلهم يُعطى من زكاة المال ويجهزون منها للغزو بما يحتاج إليه الغزو والجهاد، ويعطون منهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وهذا قول أكثر العلماء.

القول الثاني: أن في سبيل الله تتعلق بالفقراء من الغزاة فقط، وكذا الفقراء من المجاهدين عمومًا، أما الأغنياء منهم فلا يعطون منها.

القول الثالث: أن قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يدخل فيه مع الغزاة والمجاهدين الحجيج كذلك، وسيأتي في ذلك سؤال مستقل وجوابه إن شاء الله.

القول الرابع: وهو أن قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تدخل فيه أعمال البر عمومًا مع الغزاة والمجاهدين، من بناء المساجد والمستشفيات وطبع الكتب والمصاحف وغير ذلك من وجوه الخير.

والقول الأول هو أشهر الأقوال وعليه أكثر العلماء.

وهذه بعض أقوالهم في ذلك: وأورد قبلها بعض الاستدلالات التي استدلوا بها:

فمن الأدلة التي استدلوا بها على أن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم الغزاة بعض الآيات وبعض الأحاديث منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤].

وقوله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠، ١١].

إلى غير ذلك من الآيات.

وكذا ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَقِيلَ: مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَالْعَبَّاسُ عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِىَ عَلَىَّ وَمِثْلُهَا مَعَهَا** »[(١)].

وقول النبي ﷺ الذي أخرجه مسلم[(٢)] من حديث بريدة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قَالَ: « **اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِى سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا** ».

---

(١) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣).
(٢) مسلم (١٧٣١).

أما عن أقوال العلماء فها هي بعضها:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما قوله:(وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)، فإنه يعني: وفي النفقة في نصرة دين الله وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده، بقتال أعدائه، وذلك هو غزو الكفار.

وأورد بإسنادٍ صحيح عنه ابن زيد في قوله: ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال: الغازي في سبيل الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما (فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله الحديث.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير): قوله تعالى (وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) يعني الغزاة والمرابطين ويجوز عندنا ان نعطي الأغنياء منهم والفقراء وهو قول الشافعي وقال أبو حنيفة لا يعطى إلا الفقير منهم وهل يجوز أن يصرف من الزكاة إلى الحج أم لا فيه عن أحمد روايتان.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والسابع: الغازي في سبيل اللّه، وهم: الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل اللّه.

وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظر].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الثانية والعشرون: قوله تعالى: (وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) وهم الغزاة وموضع الرباط، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء. وهذا قول أكثر العلماء، وهو تحصيل مذهب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذه أيضًا بعض أقوال الفقهاء:

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «المجموع» [(١)]: ومذهبنا أن سهم سبيل الله المذكور في الآية الكريمة يُصرف إلى الغزاة.

وقال ابن عبد البر في «الاستذكار»[(٢)]: فقال مالك وأبو حنيفة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مواضع الجهاد والرباط، وقال أبو يوسف: هم الغزاة.

وقال السرخسي في المبسوط[(٣)]:

- أما قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهم فقراء الغزاة، هكذا قال أبو يوسف.

- وقول محمد بن الحسن: هم فقراء الحاج المنقطع لهم، لما رُوي أن... جعل بعيرًا له في سبيل الله، فأمر رسول الله ﷺ أن يحمل عليه الحاج. وأبو يوسف يرى الطاعات كلها في سبيل الله تعالى، لكن عند الإطلاق هذا اللفظ المقصود بهم الغزاة عند الناس، ولا يصرف إلى الأغنياء من الغزاة عندنا.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم الغزاة الذي لا يعطون من مال الله ما يكفيهم تغزوهم فيطعون ما... به [(٤)].

وقال النووي في «المجموع» [(٥)]: قال أصحابنا: ويُعطى ما يستعين به على الغزو، فيُعطى نفقته وكسوته مدة الذهاب والرجوع والمقام في الثغر وإن طال.

ثم قال: ويعطى ما يشترى به الفرس ان كان يقاتل فارسا وما يشترى به السلاح وآلات القتال ويصير ذلك ملكا للغازي ويجوز أن يستأجر له الفرس والسلاح من مال الزكاة ويختلف الحال بكثرة المال وقلته.

قال أصحابنا: ويسلم الامام الي الغازى ثمن الفرس والسلاح والآلات ثم

---

(١) المجموع (٦/ ٢١٢).

(٢) الاستذكار (٩/ ٢٢٢).

(٣) (٣/ ١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤).

(٥) المجموع (٦/ ٢١٣).

الغازى يشتريها.

وقال الرازي في تفسيره[(١)]: وظاهر لفظ الآية ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا يوجب القصر على الغزاة فلهذا نقل القفال عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقة إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لأن قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عامٌّ في الكل....

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: فأما تخصيصه بالجهاد في سبيل الله فلا شك فيه، خلافاً لمن قال: إن المراد في سبيل الله كل عمل برٍ وخير، فهو على هذا التفسير كل ما أريد به وجه الله، فيشمل بناء المساجد، وإصلاح الطرق، وبناء المدارس، وطبع الكتب، وغير ذلك مما يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن ما يوصل إلى الله من أعمال البر لا حصر له.

ولكن هذا القول ضعيف؛ لأننا لو فسرنا الآية بهذا المعنى لم يكن للحصر فائدة إطلاقاً، والحصر هو ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ ..﴾ [التوبة: ٦٠] الآية.

فالصواب: أنها خاصة بالجهاد في سبيل الله.

وقد تقدم قول ابن عبد البر: وأجمعوا على أنه لايؤدي من الزكاة دين ميت، ولا يُكفن منها، ولا يُبنى منها مسجد، ولا يُشترى منها مصحب، ولا يُعطى لذمي ولا مسلم غني.

وقال مالك[(٣)]: لا تجزئه أن يعطي من زكاته في كفن ميت لأن الصدقة إنما هي للفقراء والمساكين ومن سمى الله، فليست للأموات ولا لبنيان المساجد.

---

(١) التفسير (١٦/ ٩٩).
(٢) الشرح الممتع (٦/ ٢٤٢).
(٣) المدونة (٢٥٨).

هل الحج يدخل في مصارف الزكاة؟

س- هل الحج يدخل في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومن ثم يعطي الحاج من أحوال الزكاة لحجته؟

ج: ذهب جمهور العلماء إلى أن الحج لا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقد بينت قبل ذلك قول الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

بينما ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحج يدخل في ذلك لحديث ورد في الباب، واختلف في تصحيحه وتضعيفه في أسانيد و.... اختلافًا شديدًا وهو:

حديث أُمِّ مَعْقِلٍ قَالَتْ: لَمَّا حَجَّ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- حَجَّةَ الْوَدَاعِ وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ فَجَعَلَهُ أَبُو مَعْقِلٍ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأَصَابَنَا مَرَضٌ وَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ وَخَرَجَ النَّبِىُّ -ﷺ- فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ حَجِّهِ جِئْتُهُ فَقَالَ: « **يَا أُمَّ مَعْقِلٍ مَا مَنَعَكِ أَنْ تَخْرُجِى مَعَنَا** ». قَالَتْ: لَقَدْ تَهَيَّأْنَا فَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ هُوَ الَّذِى نَحُجُّ عَلَيْهِ فَأَوْصَى بِهِ أَبُو مَعْقِلٍ فِى سَبِيلِ اللهِ. قَالَ: « **فَهَلاَّ خَرَجْتِ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْحَجَّ فِى سَبِيلِ اللهِ فَأَمَّا إِذْ فَاتَتْكِ هَذِهِ الْحَجَّةُ مَعَنَا فَاعْتَمِرِى فِى رَمَضَانَ فَإِنَّهَا كَحَجَّةٍ** ». فَكَانَتْ تَقُولُ الْحَجُّ حَجَّةٌ وَالْعُمْرَةُ عُمْرَةٌ وَقَدْ قَالَ: هَذَا لِى رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مَا أَدْرِى أَلِىَ خَاصَّةً(١).

وحديث أبي طليق، ومنهم من يرده إلى الحديث السابق:

قال أبو طليق: « طلبت مني أم طليق جملا تحج عليه، فقلت: قد جعلته في سبيل الله، سألت رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، لو أعطيتها لكان في سبيل الله**»(٢).

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٨٦)، وأبو داود (١٩٨٩) وغيرهما، وفيه وجوه كثيرة من الخلاف.
(٢) الطبراني في الكبير (٢٢/ ٨١٦)، وبه أيضًا بعض العلل.

وحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

أَرَادَ الْحَجَّ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لِزَوْجِهَا حُجَّ بِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكِ عَلَيْهِ قَالَتْ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلاَنٍ قَالَ: ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَتْ: فَحُجَّ بِي عَلَى نَاضِحِكَ قَالَ: ذَاكَ نَعْتَقِبُهُ أَنَا وَابْنُكِ قَالَتْ: فَبِعْ ثَمَرَتَكَ قَالَ: ذَاكَ قُوتِي وَقُوتُكِ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْسَلَتْ زَوْجَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتِ: أَقْرِئْهُ السَّلاَمَ وَرَحْمَةَ اللهِ وَسَلْهُ مَا يَعْدِلُ حَجَّةً مَعَكَ فَأَتَى زَوْجُهَا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ امْرَأَتِي تُقْرِئُكَ السَّلاَمَ وَرَحْمَةَ اللهِ وَإِنَّهَا سَأَلَتْنِي أُحِجُّهَا فَقُلْتُ: مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكِ عَلَيْهِ فَقَالَتِ: أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلاَنٍ قُلْتُ: ذَلِكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«**لَوْ كُنْتَ أَحْجَجْتَهَا عَلَيْهِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللهِ**». قَالَتْ: فَأَحِجَّنِي عَلَى نَاضِحِكَ فَقُلْتُ: ذَاكَ نَعْتَقِبُهُ أَنَا وَابْنُكِ قَالَتْ: فَبِعْ ثَمَرَتَكَ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حِرْصِهَا عَلَى الْحَجِّ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَجَّاجِ فِي حَدِيثِهِ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ عَجَبًا مِنْ حِرْصِهَا عَلَى الْحَجِّ قَالَ: فَإِنَّهَا أَمَرَتْنِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا يَعْدِلُ حَجَّةً مَعَكَ قَالَ:« **أَقْرِئْهَا السَّلاَمَ وَرَحْمَةَ اللهِ وَأَخْبِرْهَا أَنَّهَا تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي** – يعني: عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ – »(١).

وحديث أبي لاس الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «حَمَلَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ على إبل الصَّدَقَةِ لِلْحَجِّ»(٢).

على أن الحج في سبيل الله.

ورد الجمهور على ذلك بأقوال أحدها أن الحديث لا يثبت الثاني لو ثبت لما كان فيه حجه لأن غاية ما فيه حمل بعض الحجيج عن إبل الصدقة، وأما

---

(١) أبو داود (١٩٩٠) وفي سنده فقال أيضًا: ففيه عامر الحوال، فيه كلام، وأصل الحديث في الصحيحين البخاري (١٧٨٢)، ومسلم (١٢٥٦) من حديث ابن عباس ليس فيه ذكر (سبيل الله).
(٢) أحمد (١٧٩٣٩) وفيه كلام يسير أيضًا.

أن يكون الحج كله من أموال الزكاة فليس بصريح في ذلك، ولم يتفشى أمر تجهيز الناس للحج من أموال الزكاة في زمن رسول الله ﷺ الله أعلم. هذا، وقد ورد في الباب أثران:

أحدهما: أثر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وسئل عن امرأة أوصت بثلاثين درهمًا في سبيل الله، فقيل له: أتجعل في الحج؟ فقال: أما إنه من سُبل الله[1].

والثاني: أثر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

انه كان لا يرى بأسًا أن يُعطي الرجل من زكاة ماله في الحج، وأن يعتق منها الرقبة[2].

وقال المرداوي في «الإنصاف»[3]:

يعطى الفقير ما يحج به الفرض أو يستعين به فيه وهي المذهب نص عليه في رواية عبد الله والمروذي والميموني قال في الفروع والحج من السبيل نص عليه وهو المذهب عند الأصحاب.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله «الفتح»[4]:

أَمَّا سَبِيلُ اللهِ فَالْأَكْثَرِ عَلَى أَنَّهُ يَخْتَصُّ بِالْغَازِي غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا إِلَّا أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَالَ: يَخْتَصُّ بِالْغَازِي الْمُحْتَاجِ. وَعَنْ أَحْمَد وَإِسْحَاق الْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَثَرُ اِبْن عَبَّاس. وَقَالَ اِبْن عُمَر «أَمَا إِنَّ الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللهِ» أَخْرَجَهُ أَبُو عُبَيْد بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ.

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام (الأموال ١٩٧٧)..
(٢) أبو عبيد (١٩٦٦).
(٣) الإنصاف (٣/ ٢٣٥).
(٤) الفتح (٣/ ٤٠٥).

وَقَالَ اِبْن الْمُنْذِر: إِنْ ثَبَتَ حَدِيث أَبِي لَاسٍ - يَعْنِي الْآتِي فِي هَذَا الْبَابِ - قُلْت بِذَلِكَ.

قال ابن العربي (١):

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: قَالَ مَالِكٌ: سُبُلُ اللهِ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِسَبِيلِ اللهِ هَاهُنَا الْغَزْوُ مِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِ اللهِ، إلَّا مَا يُؤْثَرُ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ فَإِنَّهُمَا قَالَا: إنَّهُ الْحَجُّ.

وَاَلَّذِي يَصِحُّ عِنْدِي مِنْ قَوْلِهِمَا أَنَّ الْحَجَّ مِنْ جُمْلَةِ السُّبُلِ مَعَ الْغَزْوِ ؛ لِأَنَّهُ طَرِيقُ بِرٍّ، فَأُعْطِيَ مِنْهُ بِاسْمِ السَّبِيلِ، وَهَذَا يُحِلُّ عَقْدَ الْبَابِ، وَيَخْرُمُ قَانُونَ الشَّرِيعَةِ، وَيَنْثُرُ سِلْكَ النَّظَرِ، وَمَا جَاءَ قَطُّ بِإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ فِي الْحَجِّ أَثَرٌ.



س: ما المراد بـ (ابن السبيل)؟

ج: المراد، والله تعالى أعلم، المسافر الذي انقطعت به النفقة، وليس معه ما يوصله إلى أهله، فيعطى من مال الزكاة، قال البعض: وإن كان غنيًّا في بلده.

قال الشافعي (٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيُعْطَى بن السَّبِيلِ منهم قَدْرَ ما يُبَلِّغُهُ الْبَلَدَ الذي يُرِيدُ في نَفَقَتِهِ وَحَمُولَتِهِ إنْ كان الْبَلَدُ بَعِيدًا وكان ضَعِيفًا وَإِنْ كان الْبَلَدُ قَرِيبًا وكان جَلْدًا الْأَغْلَبُ من مِثْلِهِ وكان غَنِيًّا بِالْمَشْيِ إلَيْهَا أعطى مُؤْنَتَهُ في نَفَقَتِهِ بِلَا حَمُولَةٍ.

وهذا مزيدٌ من أقوال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فالمسافر الذي يجتاز من بلد إلى بلد.

(١) أحكام القرآن (٢/ ٩٦٩).
(٢) الأم (١٢٩).

و«السبيل»: الطريق، وقيل للضارب فيه: «ابن السبيل»، للزومه إياه، كما قال الشاعر:

أَنَـا ابـنُ الحَـرْبِ رَبَّتْنِـي وَلِيـدًا إِلَـى أَنْ شِـبْتُ واكْتَهَلَـتْ لِـدَاتِي

وكذلك تفعل العرب، تسمي اللازم للشيء يعرف به: «ابنه».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع به وإن كان له مال في بلده قاله مجاهد وقتادة وأبو حنيفة وأحمد، فأما إذا أراد أن ينشئ سفرا فهل يجوز أن يعطى قال الشافعي: يجوز وعن أحمد مثله وقد ذكرنا في سورة البقرة فيه أقوالا عن المفسرين.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله، فإنه

يعطى منها وإن كان غنيا في بلده، ولا يلزمه أن يشغل ذمته بالسلف.



س: وضح معنى قوله تعالى: (فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)؟

ج: المعنى، والله أعلم أن هذه المصارف التي بيناها لكم، وفرض الزكاة الذي فرضناه عليكم كل ذلك فرض افترضه الله عليكم فلا تعترضوا فالله عليم بخلقه وبكل شئ حكيم فيما يشرع.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، يقول جل ثناؤه: قَسْمٌ قسمه الله لهم، فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بمصالح خلقه فيما فرض لهم، وفي غير ذلك، لا يخفى عليه شيء. فعلى علم منه فرض ما فرض من الصدقة وبما فيها من المصلحة، ﴿حَكِيمٌ ﴾، في تدبيره خلقه، لا يدخل في تدبيره خلل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ أي حكما مقدرا بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ يعني: أن الله افترض هذا.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن
يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي
قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ
تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ
مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا

(٦٥٨) أحمر

أسود

فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

[التوبة: ٦١-٦٩].

(٦٥٩) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أُذُنٌۚ - أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ - يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ - وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ - يُحَادِدِ - ٱلۡخِزۡيُ - تُنَبِّئُهُم - تَحۡذَرُونَ - نَخُوضُ - تَسۡتَهۡزِءُونَ - بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ - وَيَقۡبِضُونَ - أَيۡدِيَهُمۡۚ - نَسُواْ ٱللَّهَ - فَنَسِيَهُمۡۚ - ٱلۡفَٰسِقُونَ - هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ - وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ - عَذَابٞ مُّقِيمٞ - فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ - وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ - حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أُذُنٌۚ﴾	قابلٌ للكلام سمَّاع لأي أعذار قابلٌ لها (دون تحقق)
﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾	يستمع الخير ويصدق أهله ويستمع كلام الله ويبلغه لكم
﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾	يصدق بالله وبوحدانيته ويصدق وعده ووعيده وكل ما أخبر به
﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾	يصدق أهل الإيمان ويعرفهم
﴿يُحَادِدِ﴾	يخالف – يعاند – يشاقق، يكون في حدٍ، وأوامر الله ورسوله في خبر آخر
(ٱلۡخِزۡيُ)	الذل والهوان
(تُنَبِّئُهُم)	تخبرهم
(تَحۡذَرُونَ)	تخشون ظهوره
(نَخُوضُ)	نتكلم مع المتكلمين لا نقصد حقيقة
(تَسۡتَهۡزِءُونَ)	الذل والهوان

(٦٦٠) أحمر
أسود

(بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ)	تخبرهم
(وَيَقۡبِضُونَ)	تخشون ظهوره
(أَيۡدِيَهُمۡۚ)	نتكلم مع المتكلمين لا نقصد حقيقة ما نقول
(نَسُواْ ٱللَّهَ)	تخسرون
(فَنَسِيَهُمۡۚ)	بعضهم على شاكلة بعضم (يظمرون الكفر ويظهرون الإسلام)
(ٱلۡفَٰسِقُونَ)	يبخلون بالخير عمومًا
(هِيَ حَسۡبُهُمۡ)	تركوا أوامر الله
(وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ)	تركهم الله في العذاب
(عَذَابٞ مُّقِيمٞ)	الخارجون عن الطاعة
(فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ)	هي كفايتهم من العذاب
(وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي	طردهم الله من رحمته
(حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ)	عذاب دائم لا يزول



(٦٦١) أحمر
أسود

ومن صور أذى المنافقين لرسول الله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾).

ج: المعنى – والله أعلم – ومن أهل النفاق فريقٌ يؤذون رسول الله ﷺ ويطعنون فيه في غيابه ويعيبونه وينتقصونه، فإذا قال لهم قاتل إن ذلك سيبلغ رسول الله ﷺ فيقولون – منقصين رسول الله ﷺ – هو أُذُن، أي رجل سماع لا يدرك ولا يميز قابل للأعذار فإننا إذا عتذرنا بأي عذرٍ سمعه وقبله وصدقه، فقال تعالى: قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين الطاعنين فيك العائبين لك القاتلين هو أذن، قل لهم إنه سمّاع للخير صلوات الله وسلامه عليه يعرف الصادق منكم من الكاذب بإذن الله، وإن كان يعرض عن فضحته الكاذب ولا يفضحه، فإذا سمع خيرصا عرفه وشكره وإذا سمع كذبًا ستره ولم يفضح قائله ثم إنه أرسل رحمةً لأهل الإيمان الذي اتبعوه وصدقوه وعزروه ونصروه أما الذي يؤذون رسول الله ويطعنون فيه فلهم يوم اقيامة عذاب مؤلمٌ موجع، وليسوا بأمنين كذلك في الدنيا من مكر الله وعذابه، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾، سامعةٌ، يسمع من كل أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدِّقه.

وهو من قولهم: «رجل أذنة»، مثل «فعلة» إذا كان يسرع الاستماع والقبول، كما يقال: «هو يَقَن، ويَقِن» إذا كان ذا يقين بكل ما حُدِّث. وأصله

من «أذِن له يأذَن»، إذا استمع له. ومنه الخبر عن النبي ﷺ: «**ما أذِن الله لشيء كأذَنِه لنبيّ يتغنى بالقرآن**»، ومنه قول عدي بن زيد:

أَيُّهـا القَلْـبُ تَعَلَّـلْ بِـدَدَنْ   إنَّ هَمِّـي فِـي سَـمَاعِ وَأَذَنْ

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، فإنه يقول: يصدّق بالله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يقول: ويصدق المؤمنين، لا الكافرين ولا المنافقين.

وهذا تكذيب من الله للمنافقين الذين قالوا: «محمد أذن!»، يقول جل ثناؤه: إنما محمد ﷺ مستمعُ خيرٍ، يصدِّق بالله وبما جاءه من عنده، ويصدق المؤمنين، لا أهل النفاق والكفر بالله.

وقيل: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، معناه: ويؤمن المؤمنين، لأن العرب تقول فيما ذكر لنا عنها: «آمنتُ له وآمنتُه»، بمعنى: صدّقته، كما قيل: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢﴾، [سورة النمل: ٧٢]، ومعناه: ردفكم، وكما قال: ﴿لِلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [سورة الأعراف: ١٥٤]، ومعناه: للذين هم ربّهم يرهبون.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو رحمة للذين آمنوا منكم. وجعله الله رحمة لمن اتبعه واهتدى بهداه، وصدَّق بما جاء به من عند ربه، لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتِّباعه جنّاته.

ويقول تعالى ذكره: لهؤلاء المنافقين الذين يعيبون رسول الله ﷺ، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾، وأمثالِهم من مكذِّبيه، والقائلين فيه الهُجْرَ والباطل، عذابٌ من الله موجع لهم في نار جهنم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يُؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي: من قال له شيئا صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ويصدق المؤمنين، ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ بالأقوال الردية، والعيب له ولدينه، ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، وقصدهم -قبحهم اللّه- فيما بينهم، أنهم غير مكترثين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضا بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلا وأتمهم إدراكا، وأثقبهم رأيا وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي: يقبل من قال له خيرا وصدقا.

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار

الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم، وامتثاله لأمر اللّه في قوله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيرا ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ ﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بالقول أو الفعل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه.



اتقاء المنافقين بإيمانهم الكاذبة

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾).

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – يحلفه لكم هؤلاء المنافقون أيمانًا مغلظةً وهم فيها كاذبون، يحلفون لإرضاءكم، كي ترضوا عنهم ولا تؤاخذوهم وتستمروا في تعاملكم معهم، وكان من الولى لهم وكان من الأليق بهم أن يجتهدوا لإرضاء الله ﷻ ولإرضاء رسوله ﷺ كان من الولى لهم أن يُقبلوا على الله بالتوبة إليه والإنابة، وكذا يتركون الطعن في رسول الله ﷺ، ويتركون همزه ولمزه وعيبه ويقبلون على توقيره وإعزاره ومناصرته إن كان حقًّا أهل الإيمان.

(٦٦٥) أحمر
أسود

ألم يعلم هؤلاء المنافقون الطاعنون في رسول الله ﷺ الكذبةٌ في إيمانهم من يخالف الله ورسوله ويكون في حدٍ وشقٍ وأوامر لله ورسوله في حدٍّ........، ويحاربون رسول الله ويطعنون فيه، ألم يعلموا أن فاعل ذلك له يوم القيامة نار جهنم خالدًا فيها ذلك الذل والهوان العظيم؟!!

وينحوا هذا قال أهل التأويل:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ﷺ: يحلف لكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون بالله، ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسولَ الله ﷺ، وذكرِهم إياه بالطعن عليه والعيب له، ومطابقتهم سرًّا أهلَ الكفر عليكم، بالله والأيمان الفاجرة: أنهم ما فعلوا ذلك، وإنهم لعلى دينكم، ومعكم على من خالفكم، يبتغون بذلك رضاكم. يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، بالتوبة والإنابة مما قالوا ونطقوا، ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، يقول: إن كانوا مصدِّقين بتوحيد الله، مقرِّين بوعده ووعيده.

وأورد بإسناده حسن عن قتادة قوله[1]: قوله: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾، الآية، ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقًّا، لهم شَرٌّ من الحمير! قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد حق، ولأنت شر من الحمار! فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال له: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل يلتَعِنُ، ويحلف بالله ما قال ذلك. قال: وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق، وكذِّب الكاذب! فأنزل الله في ذلك: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

(١) وإن كان حسنًا إلى قتادة لكن مرسل وسبب النزول هذا لا يصح.

(٦٦٦) أحمر
أسود

ويقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذبًا للمؤمنين ليرضوهم، وهم مقيمون على النفاق، أنه من يحارب الله ورسوله، ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليهما، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، في الآخرة، ﴿خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾، يقول: لابثًا فيها، مقيمًا إلى غير نهاية؟، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، يقول: فلُبْثُه في نار جهنم وخلوده فيها، هو الهوان والذلُّ العظيم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حَدٍّ والله ورسوله في حدٍّ ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ أي: مهانًا معذبا، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

وقال السعدي في تفسيره:

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ ﴾ فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير اللّه ورسوله.

وهذا محادة للّه ومشاقة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي : يكون في حد وشق مبعد عن اللّه ورسوله بأن تهاون بأوامر اللّه، وتجرأ على محارمه.

﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عياذا باللّه من حالهم.



(٦٦٧) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

ج: المعنى والله تعالى أعلم يخشى المنافقون أن تنزل عليك يا رسول الله سورةٌ أو آيةٌ من عند الله ﷻ تبين لك أحوالهم وتكشف لك أسرارهم وتفضح أمورهم وتُظهر ما في قلوبهم، فيستهزئون بك، ويقولون لعله لا تنزل عليه سورة تخبره باستهزائنا به، فقل لهؤلاء يا رسول الله استهزئوا فإن الله ﷻ مظهر لرسوله ﷺ استهزاءكم وسينبؤه الله بما كان من أمركم.

وبنحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يخشى المنافقون أن تنزل فيهم، ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: تظهر المؤمنين على ما في قلوبهم.

وقيل: إن الله أنزل هذه الآية[1] على رسول الله ﷺ، لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله ﷺ، وذكروا شيئًا من أمره وأمر المسلمين، قالوا: «لعل الله لا يفشي سِرَّنا!»، فقال الله لنبيه ﷺ: قل لهم: ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾، متهددًا لهم متوعدًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، فإنه يعني به: إن الله مظهر عليكم، أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه، فأظهر الله ذلك عليهم وفضحهم، فكانت هذه السورة تدعَى: (الفَاضِحَة).

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قال: كانت تسمَّى هذه السورة: (الفَاضِحَة)، فاضحة المنافقين.

---

(١) سبب النزول لا يصح له إسنادٌ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨] وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾إلى قوله: ﴿مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة بأن المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمائرهم من الخبث. ثم بين أنه مخرج ما كانوا يحذرونه، وذكر في موضع آخر أنه فاعل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد: ٢٩] إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]، وبين في موضع آخر شدة خوفهم، وهو قوله: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال اللّه يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه

لم يعين أشخاصهم لفائدتين: إحداهما: أن اللَّه سِتِّيرٌ يحب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال اللَّه تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال هنا ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم حتى تكون علانية لعباده ويكونوا عبرة للمعتبرين

﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ ﴾ أي استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ وقد وفَّى تعالى بوعده فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم.



سبب نزول قوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

س: هل صح لقوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾).

ج: نعم قد صح لها سبب نزول، وذلك فيما أخرجه الطبري وغيره بسندٍ صحيح[1] عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما

(١) وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم وغيره، وله شواهد وقد أخرج الطبري بسندٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ ﴾، الآية، قال: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: «يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشأم

رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبه الحجارة، وهو يقول: «يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب!»، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾).

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن هؤلاء المنافقين من يطعن فيك ويُعيبك في غيابك، وإن وصلك ذلك وبلغك فسألتهم ليقولن لك، وقد اكتشفت أمرهم ووقفت على صنعيهم، إنما كنا نخوض في الكلام خوضًا، وليس ما صدر من قلوبنا إنما كلام نتكلمه بألسلتنا على سبيل المزاح ليس على سبيل السخرية والاستهزاء، فقل لهؤلاء أتستهزئون بآيات الله وحدوده وأحكامه، أتستهزئون ما

وحصونها! هيهات هيهات»! فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا عليَّ الرَّكْب! فأتاهم فقال: قلتم كذا، قلتم كذا. قالوا: «يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب»، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون.

وهذا، وإن كان حسنًا إلا أنه مرسلٌ، وعند الطبري عن محمد بن كعب وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قُرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء! فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله ﷺ، إنما كنا نخوض ونلعب! فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾، وإن رجليه لتنسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بنِسْعَةِ رسول الله ﷺ.

لله ﷻ ورسوله ﷺ أتظنون انكم تسخرون من ربك ﷻ ولا يخفى عليه أمركم لا تعتذروا عما صنعتموه، فإن اعتذاركم ليس بناتج عن ندمكم، ولا عن توبة منكم ولا عن ندم فمن ثمَّ فلن يقبل اعتذاركم فلا تضيعوا أوقاتكم في الاعتذار، فقد كذبتم بعد إيمانكم، كفرتم باستهزائكم بآيات الله والسخرية من رسوله ﷺ، فإن نعف عن طائفة منكم، وهم الذين علمنا صدق توبتهم وحسن رجوعهم إلى الله وصدقهم في ندمهم، نعذب الطائفة الأخرى التي لم تظهر توبتها ولا حسن نيتها، بل وظهر إجرامها وكفرها.

وهذه أقوال بعض العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت، يا محمد، هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، ليقولن لك: إنما قلنا ذلك لعبًا، وكنا نخوض في حديثٍ لعبًا وهزؤًا! يقول الله لمحمد ﷺ: قل، يا محمد، أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزءون؟

وأورد الطبري بسندٍ صحيح عن عكرمة في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، إلى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾، قال: فكان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: «اللهم إني أسمع آية أنا أعْنَى بها، تقشعرُّ منها الجلود، وتَجِبُ منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك، لا يقول أحدٌ: أنا غسَّلت، أنا كفَّنت، أنا دفنت»، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما من أحدٌ من المسلمين إلا وُجد غيره.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾، بالباطل، فتقولوا: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾، يقول: قد جحدتم الحق بقولكم ما قلتم في رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ﴿بَعْدَ

إِيمَٰنِكُمْۚ﴾، يقول: بعد تصديقكم به وإقراركم به، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ﴾.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمْ﴾، بإنكاره ما أنكر عليكم من قبل الكفر، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ﴾، بكفره واستهزائه بآيات الله ورسوله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك. إن تتب طائفة منكم فيعفو الله عنه، يعذب الله طائفة منكم بترك التوبة.

وأما قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، فإن معناه: نعذب طائفة منهم باكتسابهم الجرم، وهو الكفر بالله، وطعنهم في رسول الله ﷺ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ﴾ أي: لا يُعْفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم يقول طائفة منهم في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون النبي ﷺ وأصحابه- أرغب بطونا وأكذب ألسنا وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه ويقولون ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ أي نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب.

قال اللّه تعالى -مبينا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك- ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ فإن

الاستهزاء باللّه وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم اللّه وتعظيم دينه ورسله والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم على قوله ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾.

وقوله: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ منكم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة خصوصا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن اللّه تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة

وأن من استهزأ بشيء من كتاب اللّه أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر باللّه العظيم وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيما.



ومن سيما المنافقين وأعمالهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – المنافقون والمنافقات صنف واحد

يظهرون الإيمان ويبطون الكفر ويُسرُّون به ويأمرون الناس بالمنكر وينهون الناس عن المعروف هذا شأنهم وذاك ديدتهم رجالاً كانوا أو نساءًا، وكذا فهم بخلاء، بخلاء بكل صنوف الخير ليس بالمال فحسب، (نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) تركوا العمل بكتاب الله ﷻ فتركهم الله في العذاب، وترك توفيقهم وهدايتهم (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) الخارجون عن الطاعة، وبنحو هذا قال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ ﴾، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمانَ بألسنتهم، ويُسِرُّون الكفرَ بالله ورسوله، ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾، يقول: هم صنف واحد، وأمرهم واحد، في إعلانهم الإيمان، واستبطانهم الكفر، ﴿يَأْمُرُونَ ﴾ مَنْ قبل منهم، ﴿بِٱلْمُنكَرِ ﴾، وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ، وبما جاء به وتكذيبه، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾، يقول: وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله، وبما جاءهم به من عند الله

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾، يقول: ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، ويكفُّونها عن الصدقة، فيمنعون الذين فرضَ الله لهم في أموالهم ما فَرَض من الزكاة حقوقَهم.

وأما قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾، فإن معناه: تركوا الله أن يطيعوه ويتبعوا أمره، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾، نُسُوا من الخير، ولم ينسوا من الشرّ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، يقول: إن الذين يخادعون المؤمنين بإظهارهم لهم بألسنتهم الإيمانَ بالله، وهم للكفر مستبطنون، هم المفارقون طاعةَ الله، الخارجون عن الإيمان به وبرسوله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ ابتداء. ﴿بَعْضُهُم﴾ ابتداء ثان. ويجوز أن يكون بدلا، ويكون الخبر ﴿مِّن بَعْضٍ﴾. ومعنى ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين. وقال الزجاج، هذا متصل بقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦] أي ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. وقبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق. والنسيان: الترك هنا، أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك. وقيل: إنهم تركوا أمره حتى صار كالمنسي قصيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه. وقال قتادة: ﴿نَسِيَهُمْ﴾ أي من الخير، فأما من الشر فلم ينسهم. والفسق: الخروج عن الطاعة والدين. وقد تقدم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ ﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان.

﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة. ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم البخل.

﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلا ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ من رحمته، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، وعد الله ﷻ أهل النفاق رجالاً ونساءًا وكذا الكفار، هؤلاء على كفرهم، وأولئك على نفاقهم وسوء نيتهم وخبث طواياهم، وعدهم الله جميعًا نار جهنم ما كثين فيها لا يخرجون منها، هي كافيتهم، وطردهم الله من رحمته، ولهم في النار عذاب مقيم لا يزول عنهم ولا يتحولون عنه وبنحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ ﴾ بالله، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، أن يصليهموها جميعًا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾، يقول: ماكثين فيها أبدًا، لا

يحيون فيها ولا يموتون، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، يقول: هي كافيتهم عقابًا وثوابًا على كفرهم بالله، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، يقول: وأبعدهم الله وأسحقهم من رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، يقول: وللفريقين جميعًا: يعني من أهل النفاق والكفر، عند الله، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، دائم، لا يزول ولا يبيد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي: كفايتهم في العذاب، ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي: طردهم وأبعدهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ يقال: وعد الله بالخير وعدا. ووعد بالشر وعيدا ﴿خَالِدِينَ﴾ نصب على الحال والعامل محذوف، أي يصلونها خالدين. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ ابتداء وخبر، أي هي كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم. واللعن: البعد، أي من رحمة الله، وقد تقدم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي واصب دائم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة للّه ورسوله، والكفر بآياته.



(٦٧٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾).

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – قل يا رسول الله لهؤلاء المنافقين والمنافقات والكفار الساخرين منك المستهزئين بدينك الذي جئتهم به، المكذبين للقرآن الجاحدين لوحدانية الله ﷻ، قل لهم شأنكم في هذا كله شأن الذي سبقوكم من أهل الكفر كانوا أقوى منكم وأعز نفرًا، وأكثر أموالاً وأولادًا فاستمتعوا بدنياهم وحظوظهم فيه ورضوا بها بديلاً عن النصيب الأخروي، فالخلاق هذا النصيب، أي أنهم استمتعوا بنصيبهم الذي كان لهم في الآخرة إن هم آمنوا، استمتعوا به في الدنيا ولم يُلقوا للآخرة بالاً، فسلكتم سلكهم وسرتم سيرهم، واستمتعتم بنصيبكم في الدنيا وبحظوظكم فيها تاركين أمر الله وراء ظهوركم كما استمتع الذي من قبلكم بحظوظهم، و... في التكذيب والسخرية والاستهزاء والكفر والعناد خوضًا كالذي خاضه أولئك فقد كانوا مكذبين معاندين ساخرين مستهزين، فأولئك الذين هذه سبيلهم حبطت أعمالهم، ذهب ثوابها ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فلن يحمدوا عليها واستوفوا باستمتاعهم حظوظهم فيها، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي مر في الأخرة أعمالهم تكون هباء منثورًا، ذهب ثوابها وأولئك هم الخاسرون، خسروا أنفسهم، وخسروا أعمالهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين

قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزئون؟، ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، من الأمم الذين فعلوا فعلكم، فأهلكهم الله، وعجل لهم في الدنيا الخزي، مع ما أعدَّ لهم من العقوبة والنكال في الآخرة. يقول لهم جل ثناؤه: واحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حلّ بهم، فإنهم كانوا أشد منكم قوةً وبطشًا، وأكثر منكم أموالا وأولادًا، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾، يقول: فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم، ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضًا من نصيبهم في الآخرة، وقد سلكتم، أيها المنافقون، سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم. يقول: فعلتم بدينكم ودنياكم، كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، الذين أهلكتهم بخِلافهم أمري، ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾، يقول: كما فعل الذين من قبلكم بنصيبهم من دنياهم ودينهم، ﴿وَخُضْتُمْ﴾، في الكذب والباطل على الله، ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾، يقول: وخضتم أنتم أيضًا، أيها المنافقون، كخوض تلك الأمم قبلكم.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

وأما قوله: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، فإن معناه: هؤلاء الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، وفعلوا في ذلك فعل الهالكين من الأمم قبلهم، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، يقول: ذهبت أعمالهم باطلا. فلا ثوابَ لها إلا النار، لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، يقول: وأولئك هم المغبونون صفقتهم، ببيعهم نعيم الآخرة بخلاقهم من الدنيا اليسيرِ الزهيدِ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾

قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ أي: في الكذب والباطل، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وموضع الكاف في قوله: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ نصب أي: وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم وقال غيره رجع عن الخبر عنهم إلى مخاطبتهم وشبههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا وقال الزجاج بحظهم من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ أي في الطعن على الدين وتكذيب نبيكم كما خاضوا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ لأنها لم تقبل منهم وفي الآخرة لأنهم لا يثابون عليها ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ بفوت الثواب وحصول العقاب.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى واصفًا حال المنافقين: إن حالكم - أيها المنافقون - كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر، وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالًا وأولادًا، استمتعوا بما قدر لهم، من حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم. وقد استمتعتم بما قدر لكم، من ملاذ الدنيا كما استمتعوا، وخضتم فيما خاضوا فيه، من المنكر والباطل. إنهم قد بطلت أعمالهم، فلم تنفعهم في الدنيا، ولا في الآخرة، وكانوا هم الخاسرين. وأنتم مثلهم في سوء الحال

والمآل، والعاقبة الوخيمة.

﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِكُمۡ﴾، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي اللّه، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة اللّه، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل.



(٦٨٢) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ
إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ
فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠
وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ
عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ
قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ
إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ
يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا
نَصِيرٖ ٧٤ ﴾

[التوبة: ٧٠-٧٤].

(٦٨٣) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿نَبَأُ - وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ - وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ - أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ - عَزِيزٌ - وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ - وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ - وَمَأْوَىٰهُمْ - وَمَا نَقَمُوٓا - وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿نَبَأُ ﴾	خبر
﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾	أهل بلاد مدين، وهم قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ
﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾	مدائن قوم لوط، قيل هي سدوم وما حولها ببلاد الأردن وقيل عنها مؤتفكات أي منقلبات لأن الملك قلبها رأسا على عقب كما قال تعالى: (فجعلنا عاليها سافلها).
﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾	أنصار بعضٍ، أعوان بعض على الخير
﴿عَزِيزٌ ﴾	لا يغلب، بل هو غالبٌ، وأمره في خلقه نافذ
﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾	رضي الله عليهم أكبر مما هم فيه من النعيم، فالقلوب مطمئنة به لا تخشى زوال النعم ولا تخاف
﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾	اشتد عليهم بالقول والنظرات وبالعمل
﴿وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾	الكلمة التي كفروا بها، وهي سب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسب الدين
﴿وَمَا نَقَمُوٓا ﴾	أرادوا أن يفتكوا برسول الله وما استطاعوا

(٦٨٤) أحمر
أسود

(وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ)	ما أخذوا على الدين شيئًا ولا عابوه ولا وجدوا سبيلاً للطعن فيه إلا أن الله أغناهم وكذا كان رسول الله ﷺ سببًا في إغنائهم.



التذكير بأخبار من قد سبق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ج: يقول تعالى ذكره ما حاصله: ألم يأت هؤلاء الكفار المكذبين والمنافقين الساخرين المستهزئين، ألم يبلغهم ويصل إليهم خبر الأمم التي تقدمتهم وما حلَّ بهم من العذاب والنكال والدمار والهلاك ألم يصل إليه خبرٌ قوم نوح إذ كذبوا أو عاندوا وسخروا واستهزؤا فحل بهم ما حل من الطوفان الذي أبادهم وأفناهم.

ألم يصل إليهم خبر قوم عاد الذين مُكنوا في الأرض وبلغوا مبلغًا عظيمًا من القوة والجبروت واستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، ألم يأتهم خبرهم، وقد قال ربهم ﷻ في شأنهم وشأنهم قبيلتهم ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر: ٧، ٨].

ألم يأت هؤلاء المكذبين نبأ هؤلاء وما حلَّ بهم من الريح العقيم التي لم تذر شيئًا حتى جعلته كالرميم؟!! ألم يأتهم خبر تلك الريح التي أرسلت على هذه القبيلة سبع ليالٍ وثمانية أيام حرقًا فجعلت القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

ألم يأت هؤلاء المكذبين أخبار قبيلة ثمود العاتية الظالمة القوية المعاندة، ألم يأت هؤلاء المكذبين من قوم إبراهيم، وما حل بهم وبملكهم وأخبار قوم شعيب الذين هم أهل مدين، وكذا ألم يأتهم خبر المدائن التي ائتفكت فانقلبت رأسًا على عقب وهم قوم لوط، إذ قال فجعلنا عاليها سافلها

وأنصرنا عليها حجارة من سجيل منضود لقد تركت لهؤلاء الظالمين المكذبين آثارٌ تدل عليهم وعلى ما حلَّ بهم، كما قال تعالى في شأن سفينة نوح التي أنجى الله عليها أهل الإيمان ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

وكما قال في شأن مدائن قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وكما قال في شأن ديار ثمود ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦] بطريق يمر عليها المارة فيرون ما حل بها من الدمار والهلاك، وغير هؤلاء كثير. لقد جاءت هذه الأمم رسلُ الله تخدرها وتذكرها فما آمنوا ولا اتعظوا لا اعتبروا فحل بهم من ثم العقاب والنكال والدمار وما كان الله ليظاعهم إذ أنزل بهم ما أنزل، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، بخسو حقها بتكذيبهم فأنزلوا أنفسهم أسوأ المنازل، وكان من حق أنفسهم عليهم أن يؤمنوها من العذاب ولكنهم ظلموها بكفرهم وتكذيبهم ومن ثم بإحلال العقاب بهم.

وبنحو هذا قال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين يُسِرُّون الكفرَ بالله، وينهون عن الإيمان به وبرسوله، ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يقول: خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم، حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا، ماذا حلّ بهم من عقوبتنا؟

ثم بين جل ثناؤه مَنْ أولئك الأمم التي قال لهؤلاء المنافقين ألم يأتهم نَبأُهُم، فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، ولذلك خفض «القوم»، لأنه ترجم بهن عن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض.

ومعنى الكلام: ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر قوم نوح وصنيعي بهم، إذ

كذبوا رسولي نوحًا، وخالفوا أمري؟ ألم أغرقهم بالطوفان؟

﴿وَعَادٍ﴾، يقول: وخبر عاد، إذ عصوا رسولي هودًا، ألم أهلكهم بريح صرصر عاتية ؟، وخبر ثمود، إذ عصوا رسولي صالحًا، ألم أهلكهم بالرجفة، فأتركهم بأفنيتهم خمودًا؟، وخبر قوم إبراهيم، إذ عصوه وردُّوا عليه ما جاءهم به من عند الله من الحق، ألم أسلبهم النعمة، وأهلك ملكهم نمرود؟، وخبر أصحابِ مَدْين بن إبراهيم، ألم أهلكهم بعذاب يوم الظلة إذ كذبوا رسولي شعيبًا؟، وخبر المنقلبة بهم أرضُهم، فصار أعلاها أسفلها، إذ عصوا رسولي لوطًا، وكذبوا ما جاءهم به من عندي من الحق؟ يقول تعالى ذكره: أفأمن هؤلاء المنافقون الذين يستهزءون بالله وبآياته ورسوله، أن يُسْلك بهم في الانتقام منهم، وتعجيل الخزي والنكال لهم في الدنيا، سبيلُ أسلافهم من الأمم، ويحلّ بهم بتكذيبهم رسولي محمدًا ﷺ ما حلّ بهم في تكذيبهم رُسلنا، إذ أتتهم بالبينات.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾، قال: قوم لوط، انقلبت بهم أرضهم، فجعل عاليها سافلها.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: فإن كان عني بـ «المؤتفكات» قوم لوط، فكيف قيل: «المؤتفكات»، فجمعت ولم توحّد؟

قيل: إنها كانت قريات ثلاثًا، فجمعت لذلك، ولذلك جمعت بالتاء، على قول الله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة النجم: ٥٣].

فإن قال: وكيف قيل: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، وإنما كان المرسل إليهم واحدًا؟

قيل: معنى ذلك: أتى كل قرية من المؤتفكات رسولٌ يدعوهم إلى الله،

فتكون رُسل رسول الله ﷺ الذين بعثهم إليهم للدعاء إلى الله عن رسالته، رسلا إليهم، كما قالت العرب لقوم نسبوا إلى أبي فديك الخارجي: «الفُدَيْكات»، و«أبو فديك»، واحدٌ، ولكن أصحابه لما نسبوا إليه وهو رئيسهم، دعوا بذلك، ونسبوا إلى رئيسهم. فكذلك قوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

وقد يحتمل أن يقال معنى ذلك: أتت قوم نوح وعاد وثمود وسائر الأمم الذين ذكرهم الله في هذه الآية، رسلهم من الله بالبينات.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه: فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها، واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظلمًا من الله لهم، ولا وضعًا منه جل ثناؤه عقوبةً في غير من هو لها أهلٌ، لأن الله حكيم لا خلل في تدبيره، ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله، حتى أسخطوا عليهم ربهم، فحقت عليهم كلمة العذاب فعذِّبوا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ وَعَادٍ ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعقروا الناقة، ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله، ﴿ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف أصابتهم الرجفة

والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ ﴾ [النجم: ٥٣] أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى محذرا المنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة ﴿ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ ﴾ أي: قرى قوم لوط.

فكلهم ﴿ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ ﴾ أي: بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص اللّه علينا، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم

قوله ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.



موالاة أهل الإيمان لبعضهم وطاعتهم لله ورسوله

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾).

ج: المعنى – والله أعلم – والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أنصارُ لبعض وأعوان لبعض يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى ويناصر بعضهم بعضًا في الخير وكذا فإنهم يأمرون بالمعروف ويتهون عن المنكرون ويحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها، وكذا يؤدون الزكوات التي أفترضها الله عليهم كما أمرهم الله، ويطيعون الله ورسوله فيما أمرهم به، وكذا ينتهون عما نهى عنه الله ورسوله، أولئك الموصوفون بتلك الصفات سيرحمهم الله إن الله عزيز لا يُغلب ولا يحتاج إلى أن ينصره ناصر حكيم فيما يشرع وحكم في كل شيء يقول ويفعل وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأما ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾، وهم المصدقون بالله ورسوله وآيات كتابه، فإن صفتهم: أن بعضهم أنصارُ بعض وأعوانهم، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، يقول: يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به من عند الله، [﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾...]، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، يقول: ويؤدُّون الصلاة المفروضة، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، يقول: ويعطون الزكاة المفروضةَ أهلَها، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾، فيأتمرون لأمر الله ورسوله، وينتهون عما نهياهم عنه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، الذين سيرحمهم الله، فينقذهم من عذابه، ويدخلهم جنته، لا أهل

النفاق والتكذيب بالله ورسوله، الناهون عن المعروف، الآمرون بالمنكر، القابضون أيديهم عن أداء حقّ الله من أموالهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾، يقول: إن الله ذو عزة في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيته وكفره به، لا يمنعه من الانتقام منه مانع، ولا ينصره منه ناصر، ﴿حَكِيمٌ﴾، في انتقامه منهم، وفي جميع أفعاله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر [الله] تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح (١): «**المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضا**» وشبك بين أصابعه وفي الصحيح أيضا (٢): «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

---

(١) البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف. وقال في المنافقين ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ لأن قلوبهم مختلفة ولكن يقسم بعضهم إلى بعض في الحكم.

وقوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك. ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك. وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين. وقد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سورة «المائدة» و«آل عمران» والحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تقدم في أول «البقرة» القول فيه. وقال ابن عباس: هي الصلوات الخمس، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة. ابن عطية: والمدح عندي بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرائض.

وقوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما سن لهم. والسين في قوله: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مدخلة في الوعد مهلة لتكون النفوس تتنعم برجائه؛ وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة.

﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة اللّه ورسوله على الدوام.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.



س: ما المراد بـ(جَنَّٰتٍ تَجْرِى).

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن عدن إقامة وجنات عدن أي جنات إقامة لا تحول عنها كما قال تعالى: (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾) [الكهف: ١٠٨].

الثاني: أن (عدن) اسم لجنة معينة وقيل قصر في الجنة وقيل مدينة في الجنة.



جزاء أهل الإيمان

س: وضح معنى الآية الكريمة (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وعد الله أهل الإيمان رجالاً ونساء أن

يدخلهم جنات إقامة يقيمون فيها ولا يخرجون منها بل يستمتعون فيها بكل ما تشتهين الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وهذه الجنات، تجرء من تحتها الأنهار، (أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى)، وفوق ذلك، وأجل من ذلك، وأعظم من ذلك كله رضوان الله عليهم ونفوسهم مطمئنة بذلك، وذلك الرضوان، وهذا النعيم هو الفوز الذي لا أكبر فوزٌ ولا يعلوه فوز فذلك هو الفوز العظيم رضوان الله ودخول الجنان جعلنا الله من أهل ذلك كله آمين وبنحو هذا التأوي قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله، وأقرُّوا به وبما جاء به من عند الله، من الرجال والنساء، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، يقول: بساتين تجري تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: لابثين فيها أبدًا، مقيمين لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، يقول: ومنازل يسكنونها طيبةً.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، فإنه يعني: وهذه المساكن الطيبة التي وصفها جل ثناؤه، ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

و«في» من صلة ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾.

وقيل: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، لأنها بساتين خلد وإقامة، لا يظعَنُ منها أحدٌ.

وقيل: إنما قيل لها ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، لأنها دارُ الله التي استخلصها لنفسه، ولمن شاء من خلقه، من قول العرب: «عَدَنَ فلان بأرض كذا»، إذا أقام بها وخلد بها، ومنه «المَعْدِن»، ويقال: «هو في معدِن صدق»، يعني به: أنه في أصلٍ ثابت.

وأورد الطبري آثارًا فيها مقالٌ ثم قال: وقال آخرون: معنى ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ جنات أعناب وكروم وقال آخرون: هي اسمٌ لبُطنان الجنة ووسطها وأورد بسندٍ صحيح عن ابن مسعود ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بطنان الجنة، وفسَّرة الأعمشي بقوله: وسطها وقال آخرون: ﴿عَدۡنٍ﴾ اسمٌ لقصر. وقيل: مدينة في الجنة، وقيل: اسم نهر.

وقال الطبري أيضًا:

وأما قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾، فإن معناه: ورضى الله عنهم أكبر من ذلك كله، وبذلك جاء الخبر عن رسول الله ﷺ.

وأورد حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ! فيقولون: لبّيك ربَّنَا وسعْدَيك ! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربّ، وأيُّ شيء أفضل من ذلك! قال: أحِلّ عليكم رضوَاني، فلا اسخط عليكم بعده أبدًا**»(١).

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، هذه الأشياء التي وعدت المؤمنين والمؤمنات، ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، يقول: هو الظفر العظيم، والنجاء الجسيم، لأنهم ظفروا بكرامة الأبد، ونَجوْا من الهوان في سَقَر، فهو الفوز العظيم الذي لا شيء أعظم منه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدا، ﴿وَمَسَٰكِنَ

(١) سنده عن الطبري فيه مقال، لكن الخبر ثابت صحيح وسيأتي إن شاء الله.

طَيِّبَةً ﴾ أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين[(١)] من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**».

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَة من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفة، طولها ستون ميلا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضا**» أخرجاه[(٢)].

وفي الصحيحين أيضا، عن أبي هريرة[(٣)] قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها**». قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراؤون الكوكب في السماء**». أخرجاه في الصحيحين [(٤)].

وقال:

ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكانٌ يقال له: «الوسيلة» لقربه من

(١) البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).
(٢) البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).
(٣) البخاري (٢٧٩٠)، ومسلم (٢٨٣٨).
(٤) البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠).

العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة.

وأورد بعض الأحاديث ثم قال:

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك، رَحِمَهُ اللَّهُ، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله، عَزَّ وَجَلَّ، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا**» أخرجاه من حديث مالك(١).

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

فإن قيل: لم يكن الرضوان أكبر من النعيم؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب.

والثاني: أن الموجب للنعيم الرضوان والموجب ثمرة الموجب فهو الأصل.

وقال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من

---

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

الخيرات والبركات إلا اللّه تعالى.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يبغون عنها حِولا ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ﴾ قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد اللّه المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن اللّه تعالى قد أعد لهم غرفا في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها.

﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿ أَكْبَرُۚ ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات.

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل اللّه أن يجعلنا معهم بجوده.



س: وضح معنى قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾).

ج: هذا أمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ بمجاهدة الكفار أهل الجحود الذي يجحدون وحدانية الله ﷻ ويكذبون رسله ويحاربون أولياءه، وكذا بمجاهدة أهل النفاق الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، يأمر الله ﷻ بمجاهدة

هؤلاء وأولئك، وكذا يأمر بالشدة عليهم في القول والفعل والنظر وغير ذلك، وكل منهم بحسبه في ذلك، وكلٌّ يُردع بالطريقة التي تُجدي فيه وتنجح، ويخبر الله ﷻ بأن مأوى هؤلاء جهنم فهي مصيرهم الذي يصيرون إليه، وبئس ذلك المصير وبنحو هذا قال العلماء:

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾، بالسيف والسلاح، ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

واختلف أهل التأويل في صفة «الجهاد» الذي أمر الله نبيه به في المنافقين.

فقال بعضهم: أمره بجهادهم باليد واللسان، وبكل ما أطاق جهادَهم به.

وقال آخرون: بل أمره بجهادهم باللسان.

وقال آخرون: بل أمره بجهادهم باللسان.

وقال آخرون: بل أمره بإقامة الحدود عليهم واختار الطبري ما نقله عن ابن مسعود (١) من أن الله أمر نبيه ﷺ من جهاد المنافقين بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، يقول تعالى ذكره: واشدد عليهم بالجهاد والقتال والإرْهاب.

وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، يقول: ومساكنهم جهنم، وهي مثواهم ومأواهم، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾، يقول: وبئس المكان الذي يُصَار إليه جهنَّمُ.

هذا، وقد أورد الطبري على نفسه سؤالاً وأجاب عليه فقال:

---

(١) وفي سنده عن ابن مسعود مقال عند الطبري.

فإن قال قائل: فكيف تركهم ﷺ مقيمين بين أظهُرِ أصحابه، مع علمه بهم؟

قيل: إن الله تعالى ذكره إنما أمر بقتال من أظهرَ منهم كلمةَ الكفر، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك. وأمّا مَنْ إذا اطُّلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأُخِذ بها، أنكرها ورجع عنها وقال: «إني مسلم»، فإن حكم الله في كلّ من أظهر الإسلام بلسانه، أن يحقِنَ بذلك له دمه وماله، وإن كان معتقدًا غير ذلك، وتوكَّل هو جلّ ثناؤه بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحثَ عن السرائر. فلذلك كان النبيّ ﷺ، مع علمه بهم وإطْلاع الله إياه على ضمائرهم واعتقاد صُدورهم، كان يُقِرّهم بين أظهر الصحابة، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من قد ناصبَه الحرب على الشرك بالله، لأن أحدهم كان إذا اطُّلِع عليه أنه قد قال قولا كفر فيه بالله، ثم أخذ به أنكره وأظهر الإسلام بلسانه. فلم يكن ﷺ يأخذه إلا بما أظهر له من قوله، عند حضوره إياه وعزمه على إمضاء الحكم فيه، دون ما سلف من قولٍ كان نطقَ به قبل ذلك، ودون اعتقاد ضميرِه الذي لم يبح الله لأحَدٍ الأخذ به في الحكم، وتولَّى الأخذَ به هو دون خلقه.

أما الحافظ ابن كثير فقد أورد أقوالاً: في كيفية جهاد المنافقين، وإن كان في سند الآثار التي أتى بها فقال فلذا أضربت عن إيرادها، فمن الأقوال جهادهم بالسيف ومنها جهادهم باللسان، ومنها جهادهم بإقامة الحدود عليهم، قال ابن كثير:

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ ...) الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيها أمته من بعده ثم نقل عن ابن العربي: أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة وأما

بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامنا لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين.

قال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الغلظ: نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه. وليس ذلك في اللسان ؛ فإن النبي ﷺ قال: «**إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها**». ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ومنه قول النسوة لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ومعنى الغلظ خشونة الجانب. فهي ضد قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥]. ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]. وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح.

وقال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان.

ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا.

﴿وَ﴾ أما في الآخرة، فـ ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.



(٧٠٢) أحمر
أسود

س: هل ورد لقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ...﴾ الآية. سبب نزول صحيح؟

ج: أورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسبابًا لنزولها لا تخلوا من مقال فمنها ما أورد بسندٍ ضعيف عن هشام بن عروة عن أبيه(١) (يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ) قال: نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، قال: «**إن كان ما جاء به محمد حقًّا، لنحن أشرُّ من الحُمُر!**»، فقال له ابن امرأته: والله، يا عدو الله، لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعةٌ، وأؤاخذ بخطيئتك! فدعا النبي ﷺ الجلاس، فقال: «**يا جُلاس، أقلت كذا وكذا؟**» فحلف ما قال، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ ﴾.

ومن وجهٍ آخر ضعيف أيضًا عن هشام بن عروة، عن أبيه(٢) قال: نزلت هذه الآية: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ ﴾، في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصْعَب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقًّا لنحن أشرُّ من حُمُرنا هذه التي نحن عليها! فقال مصعب: أما والله، يا عدو الله، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلتَ! فأتيتُ النبيَّ ﷺ، وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن، أو تصيبني قارعة، أو أن أُخْلَط [بخطيئته]، قلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أُخْلَط بخطيئته، أو تصيبني قارعة، ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال له: يا جلاس، أقلت الذي قال مصعب؟ قال: فحلف،

(١) وفضلاً عن الضعف فهذا وذاك مرسلان.
(٢) وفضلاً عن الضعف فهذا وذاك مرسلان.

فـأنزل الله تبـارك وتعـالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾، الآية.

وبسندٍ فيه مقال عن مجاهد: ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾، قال أحدهم: «لئن كان ما يقول محمد حقًّا لنحن شر من الحمير»! فقال له رجل من المؤمنين: أن ما قال لحقٌّ، ولأنت شر من حمار! قال: فهمَّ المنافقون بقتله، فذلك قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم قال، حدثنا عبد الله بن رجاء قال، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظلّ شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه. فلم يلبث أن طلَع رجل أزرقُ، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا، حتى تجاوَز عنهم، فأنزل الله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾، ثم نعتهم جميعًا، إلى آخر الآية.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة، ولكن مرسل فقتادة تابعي، قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾، إلى قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾، قال: ذكر لنا أنّ رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة، والآخر من غِفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، وظهر الغفاريّ على الجهنيّ، فقال عبد الله بن أبيّ للأوس: انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك»، وقال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]، فسعى بها رجل من المسلمين إلى نبيّ الله ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾.



تكذيب الله ﷻ لأهل النفاق

س: وضح معنى قوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أهل النفاق هؤلاء، ولما بلغت رسول الله ﷺ المقالات الشنيعة التي قالوها من السخرية والاستهزاء بالدين وبالرسول الأمين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يقسمون ويحلفون أيمانا كاذبة أنهم ما قالوا هذا الذي نقل عنهم من السخرية والاستهزاء والطعن في الدين وكلمات الكفر التي قالوها فكذبهم الله ﷻ بقوله: (وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ) أي: الكلمة التي كفروا بها وخروجوا بها من الإسلام، وهموا بفعل أشياء لم يُنوِّلهم الله إياها كقتل رسول الله ﷺ، أو قتل بعض المسلمين، أو محاولة إرجاع أقوام إلى الكفر إلى غير ذلك من سئ الأفعال التي يريدونها ويطعمون فيها، ولكن ذهب سعيهم وخاب، وضل عملهم وبطل وسلَّم إليه رسوله ﷺ والمؤمنين فلم يظفر أهل الكفر بمرادهم ولم يدركوا ما أضمروه من الشر في نفوسهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ فحاصل معناه أن أهل النفاق هؤلاء ما نالهم من الإسلام ومن الرسول عليه الصلاة والسلام، بل ومن ربهم إلا الخير، فما وجدوا شيئًا يعيبون به هذا الدين، إلا أنهم كانوا فقراء فأغناهم الله، فهل هذا عيبٌ يا أولي الألباب، ويا أصحاب العقول؟!! لقد كان من الواجب أن يشكر هذا المعروف لله ويقابل بتوحيد الله والإيمان

به والإقرار بكتابه وبرسوله، ولكن فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ثم إن الله ﷻ يذكرهم بالتوبة والرجوع إلى الله كما هو الشأن والحال حتى لا يبقى لأحدٍ عذرٌ فيقول تعالى: (فَإِن يَتُوبُواْ) فإن يرجع هؤلاء إلى الإيمان والإسلام وطيب الكلام ويطلبوا من الله مغفرة ذنوبهم لكن هذا خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، (وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ) يعرضوا عن الإيمان والإسلام وطيب الكلام يعذبهم الله عذابًا مؤلمًا موجعًا (فِي ٱلدُّنۡيَا) بقتلهم وأسرهم وسبيهم وفي الآخرة بالنار، والعياذ بالله، وما لهم في الأرض من وليٍّ يتولاهم، ولا نصير ينصرهم وبنحو هذا قال العلماء.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ أي: إذا قالوا قولا كقول من قال منهم ﴿ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ﴾ والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول.

فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون باللّه ما قالوا.

قال تعالى مكذبا لهم: ﴿ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ ﴾ فإسلامهم السابق -وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر -فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ ﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول اللّه ﷺ في غزوة تبوك، فقص اللّه عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم.

﴿ وَ ﴾ الحال أنهم ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ ﴾ وعابوا من رسول اللّه ﷺ ﴿ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب

الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنيا لهم بعد الفقر، وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه، ويؤمنوا به ويجلوه؟» فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية.

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ ﴾ لأن التوبة، أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ ﴾ عن التوبة والإنابة ﴿ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة اللّه لدينه، وإعزار نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة، في عذاب السعير.

﴿ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية اللّه تعالى، فَثَمَّ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن أورد أسباب النزول التي ذكرتها:

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنّهم يحلفون بالله كذبًا على كلمة كُفْر تكلموا بها أنهم لم يقولوها. وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة: أن الجلاس قاله، وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي ابن سلول، والقول ما ذكر قتادة عنه أنه قال. ولا علم لنا بأيّ ذلك من أيٍّ، إذ كان لا خبر بأحدهما يوجب الحجة، ويُتوصَّل به إلى يقين العلم به، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ ﴾.

وأما قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في الذي كان همَّ بذلك، وما الشيء الذي كان هم به.

[فقال بعضهم: هو رجل من المنافقين، وكان الذي همَّ به]، قتلَ ابن امرأته الذي سمع منه ما قال، وخشي أن يفشيه عليه.

وقال آخرون: كان الذي همَّ، رجلا من قريش، والذي همّ به، قتلَ رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: الذي همّ، عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان همُّه الذي لم ينله، قوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، من قول قتادة وقد ذكرناه.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ذكر لنا أن المنافق الذي ذكر الله عنه أنه قال كلمة الكفر، كان فقيرًا فأغناه الله بأن قُتِل له مولًى، فأعطاه رسول الله ديتَه. فلما قال ما قال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾، يقول: ما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئًا،، ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قِيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك، خيرًا لهم من النفاق، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾، يقول: وإن يدبروا عن التوبة، فيأتوها ويصرُّوا على كفرهم،، ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يقول: يعذبهم عذابًا موجعًا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذبهم في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يقول: وما لهؤلاء المنافقين إن عذبهم الله عاجل الدنيا، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾، يواليه على منعه من عقاب الله، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصره من الله فينقذه من عقابه. وقد كانوا أهل عز ومنعة بعشائرهم وقومهم، يمتنعون بهم من أرادهم بسوء، فأخبر جل ثناؤه أن الذين كانوا

يمنعونهم ممن أرادهم بسوء من عشائرهم وحلفائهم، لا يمنعونهم من الله ولا ينصرونهم منه، إن احتاجوا إلى نصرهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ قال النقاش: تكذيبهم بما وعد الله من الفتح. وقيل: ﴿كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ قول الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشر من الحمير. وقول عبدالله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال القشيري: كلمة الكفر سب النبي ﷺ والطعن في الإسلام. ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ أي بعد الحكم بإسلامهم. فدل هذا على أن المنافقين كفار، وفي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣] دليل قاطع.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(١)] عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ وَأَرْبَعَةٌ**» لَمْ أَحْفَظْ مَا قَالَ شُعْبَةُ فِيهِمْ[(٢)].

قلت: هذا، وقد أخرج البخاري في صحيحه[(٣)] من طريق زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، وَلَا مِنْ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ - فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: إِنَّكُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ تُخْبِرُونَا فَلَا نَدْرِي، فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا؟ قَالَ: أُولَئِكَ الْفُسَّاقُ أَجَلْ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةٌ، أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ الْمَاءَ الْبَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ.

---

(١) مسلم (٢٧٧٩).

(٢) قائل ذلك الراوي عن شعبة، وهو أسود بن عامر.

(٣) البخاري (٤٦٥٨).

(٧٠٩) أحمر
أسود

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للأنصار: «**ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟**» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج: ٨] وكما قال، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله**».

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرًا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: بالقتل والهم والغم، ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيرا، ولا يدفع عنهم شرا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين ما وجدوا شيئًا ينقمونه أي يعيبونه وينتقدونه إلا أن الله تفضل عليهم فأغناهم بما فتح على نبيه ﷺ من الخير والبركة.

والمعنى أنه لا يوجد شيء يحتمل أن يعاب أو ينقم بوجه من الوجوه، والآية كقوله: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج: ٨]

(٧١٠) أحمر
أسود

وقوله: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ [الحج: ٤٠].

ونظير ذلك من كلام العرب: قول نابغة ذبيان:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر:

ما نقموا من أمية إلا ... أنهم يضربون إن غضبوا

وقول الآخر:

فما بك في من عيب فإني ... جبان الكلب مهزول الفصيل



(٧١١) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟
يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن
يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن
يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ
لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾
فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا
وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾
وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟
وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾)

[التوبة: ٧٥-٨٤].

(٧١٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿عَـٰهَدَ ٱللَّهَ - ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ - وَتَوَلَّوا - مُّعْرِضُونَ - فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ - سِرَّهُمْ - وَنَجْوَىٰهُمْ - يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ - لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ - بِمَقْعَدِهِمْ - خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ - يَفْقَهُونَ - ٱلْخَـٰلِفِينَ - وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.
ج:

الكلمة	معناها
﴿عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾	أعطى عهدًا وميثاقًا
﴿ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾	رزقنا الله مالًا
﴿وَتَوَلَّوا﴾	انصرفوا ناقضين العهد
﴿مُّعْرِضُونَ﴾	معرضون عن الوفاء وعن الدين
﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾	أسكن الله قلوبهم نفاقًا أورثهم البخل نفاقًا في قلوبهم
﴿سِرَّهُمْ﴾	ما أضمروه في نفوسهم ولم يبيحوا به لأحدٍ
﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾	ما يتناجون به فيما بينهم
﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾	يعلم كل غائبة في السماء والأرض، يعلم ما فات وما هو آت، وما كان وما سيكون، وما هو كائن.
﴿يَلْمِزُونَ﴾	يعيبون ويطعنون ويذُمُّون
﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾	المتطوعين بالصدقات
﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾	الذين لا يجدون إلا القليل يتصدقون به لا يجدون إلى ما في وسعهم يتصدقون به

(٧١٣) أحمر
أسود

﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾	بمقامهم في المدينة وعدم سفرهم
﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾	مخالفة لرسول الله وعنادًا له، متخلفين عن مصاحبة رسول الله ﷺ
﴿يَفۡقَهُونَ﴾	يفهمون
﴿ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾	المتخلفين عن الغزو مع رسول الله من الرجال من أهل النفاق
﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾	ولا تدعو له ولا تستغفر له عند القبر



(٧١٤) أحمر
أسود

س: هل صح أن الآية الكريمة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ ...﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري وأنه قال لرسول الله ﷺ: الله أن يرزقني مالا! فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدِّي شكره، خير من كثير لا تطيقه! قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: أما ترضى أن تكون مثل نبيِّ الله، فوالذي نفسي بيده، لو شئتُ أن تسيرَ معي الجبال ذهبًا وفضة لسارت! قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالا لأعطينّ كلّ ذي حق حقه ! فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبه مالا! قال: فاتَّخذ غنمًا، فنمت كما ينمو الدُّود، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها، فنزل واديًا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت، فتنحّى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقَّى الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة! فأخبروه بأمره، فقال: يا ويْحَ ثعلبة ! يا ويح ثعلبه ! يا ويح ثعلبة! قال: وأنزل الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣] الآية، ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، رجلا من جهينة، ورجلا من سليم، وكتب لهما كيفَ يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: مرَّا بثعلبة، وبفلان، رجل من بني سليم، فخذا صدقاتهما ! فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! ما أدري ما هذا ! **الحديث إلى آخره**(١).

ج: هذا لم يصح، وقد أخرجه الطبري وغيره بسندٍ ضعيف جدًّا، وقد تكلم عددٌ كبير جدًّا في هذ الحديث وتضعيفه، وأُلفت رسائل وكتب في

(١) الطبري (١٧٠٠٢)، وفي سنده معان بن رفاعة، وهو ضعيف جدًّا.

شأنه منها كتاب ثعلبة ابن حاطب الصحابي المفترى عليه، ومنها كتاب الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب.

وغير ذلك من الكتب[(١)].

وقد ضعف القصة شيخنا الشيخ مقبل بن هادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم جم غفير.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ؛ حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم. وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين نبتل بن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير.



العهد هل يُعدُّ يمينًا

س: هل العهد يُعدُّ يمينًا تُكّفر أم ماذا؟

ج: في هذه المسألة بعض الاختلاف بين أهل العلم، والظاهر والله تعالى أعلم أنها تُكّفر إذا حنث فيها الشخص وكان منعقدًا لنية، والله تعالى أعلم.

أما عن الأدلة المستدل بها في هذا الصدد على كونها يمينًا فمنها ما يلي:

١- قوله تعالى: (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) [النحل: ٩١].

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ.. ﴾ الآية، وسبب نزولها ما أخرجه البخاري وغيره من حديث عبد الله بن

(١) أما الأول فلمؤلفه عداب الحمش، والثاني (الشهاب الثاقب) لسليم الهلالي.

مسعود رضي الله عنه[(١)] عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ: أَخِيهِ- لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، قَالَ سُلَيْمَانُ فِي حَدِيثِهِ: فَمَرَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ عَبْدُ اللهِ؟ قَالُوا لَهُ، فَقَالَ الْأَشْعَثُ: نَزَلَتْ فِيَّ وَفِي صَاحِبٍ لِي فِي بِئْرٍ كَانَتْ بَيْنَنَا».

وأدلة أُخر على هذا المنوال.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال سحنون في المدونة[(٢)]:

«قلت: أرأيت قوله: «على عهد الله» أو «ميثاق الله» وقوله: «وميثاق الله وعهد الله» أيكون هذا في الوجهين جميعًا في قول مالك أيمانًا؟ قال: نعم...» اهـ.

قال الإمام الشافعي[(٣)] رحمه الله:

« وإذا قال على عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ وَكَفَالَتُهُ ثُمَّ حَنِث فَلَيْسَ بِيَمِينٍ إلَّا أَنْ ينوى بها يَمِينًا وَكَذَلِكَ لَيْسَتْ بِيَمِينٍ لو تَكَلَّمَ بها لَا يَنْوِي يَمِينًا فَلَيْسَ بِيَمِينٍ بِشَيْءٍ من قِبَلِ أَنَّ لِلَّهِ عليه عَهْدًا أَنْ يؤدى فَرَائِضَهُ...». اهـ.

قال السرخسي في المبسوط[(٤)]:

لو قال: عهد الله علي، فالعهد يمين، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ معناه: إذا حلفتم بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ

---

(١) البخاري (٦٦٥٩).
(٢) المدونة (٢/ ٣٠).
(٣) الأم (٧/ ٨٨).
(٤) المبسوط (٧/ ٢٣).

تَوۡكِيدِهَا ﴾.

قال الخرقي المغني مع الشرح[(١)]:

مسألة. قال: (أو بالعهد﴾. قال ابن قدامة:

«وجملته أنه إذا حلف بالعهد أو قال: وعهد الله وكفالته. فذلك يمين يجب تكفيرها إذا حنث فيها، وبهذا قال الحسن وطاووس والشعبي والحارث العكلي وقتادة والحكم والأوزاعي ومالك...». اهـ.

قال ابن قدامة في شرح الكلام المتقدم:

«ولنا أن عهد الله يحتمل كلامه الذي أمرنا به ونهانا كقوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ وكلامه قديم صفة له ويحتمل أنه استحقاقه لما تعبدنا به وقد ثبت له عرف الإستعمال فيجب أن يكون يمينا بإطلاقه كما لو قال: وكلام الله إذا ثبت هذا فإنه إن قال علي عهد الله وميثاقه لأفعلن أو قال وعهد الله وميثاقه لأفعلن فهو يمين وإن قال والعهد والميثاق لأفعلن ونوى عهد الله كان يمينا لأنه نوى الحلف بصفة من صفات الله تعالى وإن أطلق فقال القاضي فيه روايتان إحداهما: يكون يمينا لأن لام التعريف إن كانت للعهد يجب أن تنصرف إلى عهد الله لأنه الذي عهدت اليمين به وإن كانت للاستغراق دخل فيه ذلك والثانية: لا يكون يمينا لأنه يحتمل غير ما وجبت به الكفارة ولم يصرفه إلى ذلك بنيته فلا تجب الكفارة لأن الأصل عدمها ». اهـ.

وقال ابن حجر[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ (فتح الباري) معلقًا على الاستدلال بالآيتين اللتين قدمنا ذكرهما:

وَيُسْتَفَاد مِنْ الْآيَة أَنَّ الْعَهْد غَيْر الْيَمِين لِعَطْفِ الْيَمِين عَلَيْهِ ، فَفِيهِ حُجَّة

---

(١) الخرقي (المغنى مع الشرح الكبير) (١١/ ١٩٦).
(٢) الفتح (١١/ ٥٥٨).

عَلَى مَنْ اِحْتَجَّ بِهَا بِأَنَّ الْعَهْد يَمِين. اهـ، وأما الآية الثانية وهو قوله: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١] لَا يَلْزَم مِنْ عَطْف الْأَيْمَان عَلَى الْعَهْد أَنْ يَكُون الْعَهْد يَمِينًا بَلْ هُوَ كَالْآيَةِ السَّابِقَة.

وفي مسائل أحمد لابن هانئ(١):

سألت أبا عبد الله قلت: رجل عاهد الله ﷻ أن لا يأكل من قرابه شيئًا وهو يحتاج إليهم. قال: أحب أن يتقرب بأكثر من كفارة يمين.



أهل النفاق ينقضون العهود مع الله

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾؟

ج: المعنى إجمالًا، والله أعلم، ومن أهل النفاق فريقٌ عاهد الله، أعطى ربَّه عهودًا ومواثيقًا أمام الخلق، قائلًا لئن آتاني الله من فضله من رزقه لئن رزقني الله أموالًا لأتصدقن منها ولأبذلن منها في طاعة الله ورسوله، ولأدخلن بذلك في عداد الصالحين المنفقين، فلما رزقهم الله ووسع عليهم وأعطاهم من المال ما أرادوا وفوق ما أرادوا بخلوا بالمال وأمسكوه ولم ينفقوا كما وعدوا، ولم يعطوا فقيرًا ولا مسكينًا، وانصرفوا عن أوامر الله ورسوله وأعرضوا عن إيتاء الفقراء والمساكين أي تولوا عن الدين وهم لا يلتفتون إلى عهد ولا إلى ميثاق فهذا الصنيع الذي صنعوه من الإعراض ونقض الميثاق تسبب لهم في نفاقٍ سكن قلوبهم لا يفارقهم هذا النفاق إلى يوم يلقون نفاقهم وجزاء نفاقهم يوم القيامة بسبب إخلاف الوعود ونقض المواثيق وبسبب كذبهم الذي كذبوا.

(١) ابن هانئ.

هذا، وقد قال بعض أهل العلم إن قوله تعالى: (فَأَعْقَبَهُمْ) أي أقعبهم الله نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقون ربهم ﷻ يوم القيامة. وهذا قول قوي أيضًا.

وهذه بعض أقوال العلماء في عموم ما ذُكر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم، ﴿مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ﴾، يقول: أعطى الله عهدًا، ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾، يقول: لئن أعطانا الله من فضله ورزقنا مالا ووسَّع علينا من عنده، ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، يقول: لنخرجن الصدقة من ذلك المال الذي رزقنا ربُّنا، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يقول: ولنعملنّ فيها بعَمَل أهل الصلاح بأموالهم، من صلة الرحم به، وإنفاقه في سبيل الله. يقول الله تبارك وتعالى: فرزقهم الله وأتاهم من فضله، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾، بفضل الله الذي آتاهم، فلم يصدّقوا منه، ولم يصلوا منه قرابةً، ولم ينفقوا منه في حق الله، ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾، يقول: وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدوه الله، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، عنه، ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله، ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، ببخلهم بحق الله الذي فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله، وإخلافهم الوعد الذي وعدُوا الله، ونقضهم عهدَه في قلوبهم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، من الصدقة والنفقة في سبيله، ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، في قيلهم، وحَرَمهم التوبة منه، لأنه جل ثناؤه اشترط في نفاقهم أنَّه أعقبهموه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم وخروجهم من الدنيا.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

في هذه الآية، الإبانةُ من الله جل ثناؤه عن علامةِ أهل النفاق، أعني في قولـــــه: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

(٧٢٠) أحمر
أسود

وأورد بسندٍ صحيح عن عبد الله (١): اعتبروا المنافق بثلاثٍ: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدَر، وأنزل الله تصديقَ ذلك في كتابه: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَـئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ ﴾، إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله، عَزَّ وَجَلَّ، يوم القيامة، عياذا بالله من ذلك.

ثم قال:

وقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**» (٢) وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أي أعطاهم. ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾ أي بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير، وبالوفاء بما ضمنوا والتزموا. وقد مضى البخل في «آل عمران». ﴿وَتَوَلَّواْ ﴾ أي عن طاعة الله. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الإسلام، أي مظهرون للإعراض عنه.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ مفعولان أي أعقبهم الله تعالى نفاقا في قلوبهم. وقيل: أي أعقبهم البخل نفاقا ؛ ولهذا قال: ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ

(١) هو ابن عمرو.
(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

يَلۡقَوۡنَهُۥ ﴾ في موضع خفض ؛ أي يلقون بخلهم، أي جزاء بخلهم ؛ كما يقال: أنت تلقي غدا عملك. وقيل: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ ﴾ أي يلقون الله. وفي هذا دليل على أنه مات منافقا. وهو يبعد أن يكون المنزل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبي ﷺ قال لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدها. ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿نِفَاقًا ﴾ النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر. فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية. قال النبي ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**» خرجه البخاري.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى اللّه عهده وميثاقه ﴿ نِفَاقًا ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا اللّه عليه، عاقبهم ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ مستمرا ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه اللّه بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف**».

فهذا المنافق الذي وعد اللّه وعاهده، لئن أعطاه اللّه من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن، وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف. ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع، بقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها اللّه تعالى.



س: نقض العهود والمواثيق بسبب قسوة في القلب ونفاقًا في القلب، وانصرافًا في القلب، وانصرافًا عن الحق، دلل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: (ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم).

وقوله تعالى: (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ).

وقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ).

إلى غير ذلك من الآيات.



س: وضح معنى قوله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾).

ج: هذا، والله تعالى أعلم توبيخ لأهل النفاق يقول تعالى لهؤلاء الذين أخلفوا العهود ونقضوا المواثيق وبعد أن أغناهم الله من فضله بخلوا به وقولوا

(٧٢٣) أحمر
أسود

وهم معرضون، يقول تعالى: ألم يعلم هؤلاء أن الله ﷻ يعلم ما يسرونه في أنفسهم، وما يتناجون به فيما بينهم، وألم يعلموا أن الله ﷻ يعلم كل غائبة في السموات والأرض، ويعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًّا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهرًا، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ﴾، الذي يسرُّونه في أنفسهم، من الكفر به وبرسوله، ﴿وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، يقول: ﴿وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله، وذكرِهم بغير ما ينبغي أن يُذكروا به، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلَّها بهم، وسطوته أن يوقعها بهم، على كفرهم بالله وبرسوله، وعيبهم للإسلام وأهله، فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، يقول: ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسّهم، مما أكنّته نفوسهم، فلم يظهرْ على جوارحهم الظاهرة، فينهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويزجرهم عن إضمار غير ما يبدونه، وإظهار خلاف ما يعتقدونه؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.



س: هل صح لهذه الآية الكريمة ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ...﴾ سبب نزول؟

ج: نعم، قد صح لها سبب نزول، وهو ما أخرجه البخاري ومسلم [(١)]، من حديث أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الْآيَةَ.



س: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ معطوف على من؟

ج: معطوف على قوله تعالى: ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ والمعنى أن أهل النفاق يسخرون من الصنفين يسخرون من المتطوعين، ويسخرون من المتصدقين بالقليل الذي في وسعهم، وهم المعنيون بقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾. والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

ج: هذا، والله تعالى أعلم، مزيدُ بيان لأحوال أهل النفاق وأوصافهم، قال تعالى: (ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ) أي يطعنون ويعيبون في (ٱلْمُطَّوِّعِينَ) المتطوعين بالصدقات من المؤمنين، أي أن من صفات أهل النفاق أنهم لا

(١) البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

يسلم منهم ولا من ألسنتهم ولا من طعنهم أحدٌ من المسلمين فإذا تصدق مؤمن بمبلغ كبير قالوا: ما تصدق إلا مراءاةً وسمعة، وإذا كان أحد المؤمنين فقيرًا، قالوا: إن الله غني عن صدقته.

فقوله: (وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ) أي ويطعنون في الذين لا يجدون إلا القليل فيتصدقوا به أي أن أهل النفاق يطعنون فيمن تصدَّق بالقليل، فيسخرون من المتصدقين بمالٍ قليل ويقولون: ليته ما تصدق، إن الله غني عن درهمه وديناره، ما يجدي الدرهم والدينار الذي تصدق به فيسخرون من المتصدق بالقليل لفقره، فكان جزاءًا لهم أن يسخر الله منهم كما سخروا من عباده، وأن يُعدَّ لهم أليم العذاب يوم القيامة، وهو العذاب بالنار، ذلكم العذاب المؤلم الموجع والله أعلم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذين يلمزون المطوّعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة، بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم، ويطعنون فيها عليهم بقولهم: «إنما تصدقوا به رياءً وسُمْعة، ولم يريدوا وجه الله» ، ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدَّقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقصونهم ويقولون: «لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيًّا!» سخريةً منهم بهم، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول: ولهم من عند الله يوم القيامة عذابٌ موجع مؤلم.

وذكر أن المعنيّ بقوله: ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي الأنصاري ، وأن المعنيّ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، أبو عقيل الأراشيّ، أخو بني أنيف.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾، فإن معناه: المتطوعين، أدغمت التاء في الطاء، فصارت طاء مشددة، كما قيل: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [سورة البقرة: ١٥٨]، يعني: يتطوّع.

وأما «الجهد»، فإن للعرب فيه لغتين. يقال: «أعطاني من جُهْده»، بضم الجيم، وذلك فيما ذكر، لغة أهل الحجاز ، ومن «جَهْدِه» بفتح الجيم، وذلك لغة نجد.

وعلى الضم قراءة الأمصار، وذلك هو الاختيار عندنا، لإجماع الحجة من القرأة عليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا.

وأورد أثر ابن مسعود المتقدم في سبب النزول:

وكذا أورد من وجوه متعددة أن عبد الرحمن بن عوف أتى إلى رسول الله ﷺ بمبلغ كبير من ذهب إلى رسول الله ﷺ فلمزه أهل النفاق، وكأنها تثبت بمجموعها إلى عبد الرحمن بن عوف (أي أنه المتصدق بالكثير)

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما [لأن الجزاء من جنس العمل].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والجهد: شيء قليل يعيش به المقل. والجُهد والجَهد بمعنى واحد. وقد تقدم. و ﴿يَلۡمِزُونَ﴾ يعيبون. وقد تقدم. و ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرعا من غير أن يجب عليهم. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض عطف على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه. ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾ عطف على ﴿يَلۡمِزُونَ﴾. ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ خبر الابتداء، وهو دعاء عليهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أيضا من مخازي المنافقين، فكانوا -قبحهم اللّه- لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا إلا قالوا وطعنوا بغيا وعدوانا، فلما حثَّ اللّه ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكثر، ومنهم المقل، فيلمزون المكثر منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن اللّه غني عن صدقة هذا، فأنزل اللّه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ﴾ أي: يعيبون ويطعنون ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فيقولون: مراءون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿ و ﴾ يلمزون ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: اللّه غني عن صدقاتهم ﴿ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ﴾.

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم، واللّه يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[النور: ١٩].

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر باللّه تعالى وبغض للدين.

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع اللّه وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي[هو] إعانته، وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «اللّه غني عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل، فإن اللّه غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فاللّه -وإن كان غنيا عنهم- فهم فقراء إليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ [الزلزلة: ٧] وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن سخر اللّه منهم، ولهم عذاب أليم.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠ ﴾.

ج: هذا، والله تعالى أعلم، بيان لأمرٍ من الأمور، وهو أن الاستغفار لأهل النفاق لن يجدي ولن ينفع بشيء ما داموا مصرين على نفاقهم ما دامت قلوبهم منعقدة على الكفر بالله ورسوله والسخرية من أولياء الله ومن المتصدقين

المحسنين، فيقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أي فإن ذلك لن يجدي ولن ينفع، و﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ للدلالة على أن المبالغة أيضًا في الاستغفار لن تجدي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي عدم الغفران لهم ﴿بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأنهم جحدوا وحدانية الله ﷻ وكذبوا رسوله ولم يؤمنوا به، والله لا يوفق لطاعته ولا للإيمان به أهل الفسق أهل الخروج عن الطاعة والخروج عن الاستقامة والإيمان.

هذا، وقد ورد في هذا الصدد ما أخرجه البخاري (١) في صحيحه من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ**». فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ**» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ادع الله لهؤلاء المنافقين، الذين وصفت صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة، أو لا تدع لهم بها.

وهذا كلام خرج مخرج الأمر، وتأويله الخبر، ومعناه: إن استغفرت لهم، يا محمد، أو لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم.

---

(١) البخاري (٤٦٧١).

وقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾، يقول: إن تسأل لهم أن تُسْتر عليهم ذنوبهم بالعفو منه لهم عنها، وترك فضيحتهم بها، فلن يستر الله عليهم، ولن يعفو لهم عنها، ولكنه يفضحهم بها على رءوس الأشهاد يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، يقول جل ثناؤه: هذا الفعل من الله بهم، وهو ترك عفوه لهم عن ذنوبهم، من أحل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله، من آثر الكفر به والخروج عن طاعته، على الإيمان به وبرسوله.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه حين نزلت هذه الآية قال: «**لأزيدنّ في الاستغفار لهم على سبعين مرة**»، رجاءً منه أن يغفر الله لهم، فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة المنافقون: ٦].

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددًا من الأحاديث والآثار في هذا العدد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سبب نزولها: أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا يا رسول الله استغفر لنا فنزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ: سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين لعل الله يغفر لهم فنزل قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] قاله أبو صالح عن ابن عباس

وظاهر قوله: استغفر لهم الأمر وليس كذلك إنما المعنى إن استغفرت وإن لم تستغفر لا يغفر لهم فهو كقوله: ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ وقد سبق شرح هذا المعنى هناك هذا قول المحققين وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على السبعين رجي لهم الغفران ثم نسخت بقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

فإن قيل: كيف جاز أن يستغفر لهم وقد أخبر بأنهم كفروا.

فالجواب: أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام ولا يجوز أن يقال علم كفرهم ثم استغفر.

فإن قيل: ما معنى حصر العدد بسبعين؟

فالجواب: أن العرب تستكثر في الآحاد من سبعة وفي العشرات من سبعين.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة اللّه لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفا، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم اللّه تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد مخالفةً لأمر رسول الله ﷺ وهذا رأي كثيرين في هذا المقام.

الثاني: خلف رسول الله أي بعد خروج رسول الله ﷺ.

قال ابن الجوزي في زاد المسير.

وفي قوله ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه بعد رسول الله ﷺ قاله أبو عبيدة.

والثاني: أن معناه مخالفة رسول الله ﷺ وهو منصوب لأنه مفعول له فالمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ قاله الزجاج وقرأ ابن مسعود وابن يعمر والأعمش وابن أبي عبلة خلف رسول الله ومعناها أنهم تأخروا عن الجهاد.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿خِلَٰفَ﴾، مصدر من قول القائل: «خالف فلان فلانًا فهو يخالفه خِلافًا»، فلذلك جاء مصدره على تقدير «فِعال»، كما يقال: «قاتله فهو يقاتله قتالا»، ولو كان مصدرًا من «خَلَفه» لكانت القراءة: «بمقعدهم خَلْفَ رسول الله»، لأن مصدر: «خلفه»، «خلفٌ» لا «خِلاف»، ولكنه على ما بينت من أنه مصدر: «خالف»، فقرئ: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وهي القراءة التي عليها قرأة الأمصار، وهي الصواب عندنا.

وقد تأول بعضهم ذلك بمعنى: «بعد رسول الله ﷺ»، واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

عَقَبَ الرَّبِيعُ خِلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا

قلت (مصطفى): وانظر كلام الطبري الآتي في تفسير الآية إجمالًا إن

شاء الله.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فرح المخلفون عن الغزو مع رسول الله ﷺ بجلوسهم في المدينة بعد سفر رسول الله ﷺ، وفرحوا بمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ وتخلفهم عنه، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم فينفقونها لنصرة دين الله، وكذا كرهوا أن يجاهدوا بأنفسهم لنصرة دين الله ولإعلاء كلمته، بل وسعوا في صد الناس عن الخير وعن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ أي لا تخرجوا مع رسول الله ﷺ فالجو حار، والحرارة شديدة فقل لهؤلاء يا رسول الله وأبلغهم أن نار جهنم أشدُّ حرًا مما يذكرونه من حر الدنيا.

قل لهم: إن نار جهنم التي ستدخلونها بخلافكم أمر رسول الله ﷺ أشد حرًّا من نار الدنيا لو كنتم تفقهون وتعقلون.

ثم توبيخ لهم وتهديد بعد التوبيخ فليضحكوا مستهزئين كما هو شأنهم، فليضحكوا في الدنيا ساخرين مستهزئين فسيبكون بكاء لا ينقطع في النار، والعياذ بالله، وذلك جزاء صنيعهم السيء الذي صنعوه في الحياة الدنيا من الكفر والإجرام والسخرية والاستهزاء والصد عن سبيل الله.

وهذه أقوال بعض العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فرح الذين خلَّفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به

وجهاد أعدائه، ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، يقول: بجلوسهم في منازلهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، يقول: على الخلاف لرسول الله في جلوسه ومقعده. وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنَّفْر إلى جهاد أعداء الله، فخالفوا أمْرَه وجلسوا في منازلهم.

وقوله: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول تعالى ذكره: وكره هؤلاء المخلفون أن يغزُوا الكفار بأموالهم وأنفسهم، ﴿في سبيل الله﴾، يعني: في دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه، ميلا إلى الدعة والخفض، وإيثارًا للراحة على التعب والمشقة، وشحًّا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، في حرّ شديدٍ، فقال المنافقون بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾، فقال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ لهم، يا محمد، ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾، التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله، ﴿أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾، من هذا الحرّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه. يقول: الذي هو أشد حرًا، أحرى أن يُحذر ويُتَّقى من الذي هو أقلهما أذًى، ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾، يقول: لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظَه، ويتدبَّرون آي كتابه، ولكنهم لا يفقهون عن الله، فهم يحذرون من الحرّ أقله مكروهًا وأخفَّه أذًى، ويواقعون أشدَّه مكروهًا وأعظمه على من يصلاه بلاءً.

وقال الطبري:

يقول تعالى ذكره: فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، فليضحكوا فرحين قليلا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ولَهْوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيبكون طويلا في جهنم مكانَ ضحكهم القليل في الدنيا، ﴿جَزَآءَۢ﴾، يقول: ثوابًا منا لهم على معصيتهم، بتركهم النفر إذ استنفروا إلى عدوّهم، وقعودهم في منازلهم خلافَ رسول الله، ﴿بِمَا كَانُواْ

يَكۡسِبُونَ ﴾، يقول: بما كانوا يجترحون من الذنوب.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي رزين: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾، قال يقول الله تبارك وتعالى: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع. فذلك الكثير.

وبإسناد صحيح عن الربيع بن خثيم: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا ﴾، قال: في الدنيا، ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾، قال: في الآخرة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذامًّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ ﴾ معه ﴿ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ ﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ ﴾ ؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ ﴾ قال الله تعالى لرسوله: ﴿ قُلۡ ﴾ لهم: ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرّٗاۚ ﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**نار بني آدم التي يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم**» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «**إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا**» أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به[(١)].

وقال الإمام أحمد[(٢)]: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد**» وهذا أيضا

---

(١) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، ومالك (٢/ ٩٩٤ الموطأ).

(٢) أحمد (٢/ ٢٤٤).

إسناده صحيح

وأورد بعض الأحاديث والآثار في هذا الصدد ومنها حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه**» (١).

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي بقعودهم. قعد قعودا ومقعدا؛ أي جلس. وأقعده غيره؛ عن الجوهري. والمخلف المتروك؛ أي خلفهم الله وثبطهم، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لما علموا تثاقلهم عن الجهاد؛ قولان، وكان هذا في غزوة تبوك. ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مفعول من أجله، وإن شئت كان مصدرا. والخلاف المخالفة. ومن قرأ ﴿خَلْفَ رَسُولِ اللهِ﴾ أراد التأخر عن الجهاد. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض ذلك. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قل لهم يا محمد نار جهنم. ﴿أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ ابتداء

---

(١) مسلم (٢١٣).

وخبر. ﴿حَرًّا﴾نصب على البيان ؛ أي من ترك أمر الله تعرض لتلك النار.

وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾ أمر، معناه معنى التهديد وليس أمرا والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها. قال الحسن: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ في جهنم. وقيل: هو أمر بمعنى الخبر. أي إنهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا.﴿جَزَآءَۢ﴾مفعول من أجله ؛ أي للجزاء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي قوله ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ قولان:

أحدهما: أنه قول بعضهم لبعض قاله ابن اسحاق ومقاتل.

والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين ذكره الماوردي وإنما قالوا هذا لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ لمن خالف أمر الله.

وقوله: ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ معناه يعلمون. قال ابن فارس: الفقه العلم بالشيء. تقول فقهت الحديث أفقهه؛ وكل علم بشيء: فقه. ثم اختص به علم الشريعة، فقيل لكل عالم بها: فقيه. قال المصنف: وقال شيخنا علي بن عبيد الله: الفقه في إطلاق اللغة: الفهم، وفي عرف الشريعة: عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين، بنحو التحليل، والتحريم، والإيجاب، والإجزاء، والصحة، والفساد، والغرم، والضمان، وغير ذلك. وبعضهم يختار أن يقال: الفقه: فهم الشيء. وبعضهم يختار أن يقال علم الشيء.

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه: التهديد.

وفي قلة ضحكهم وجهان:

أحدهما: أن الضحك في الدنيا لكثرة حزنها وهمومها قليل وضحكهم فيه أقل لما يتوجه إليهم من الوعيد.

والثاني: أنهم إنما يضحكون في الدنيا وبقاؤها قليل ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة.

قال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى مبينا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا -ولو لعذر- حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل اللّه وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي يقي منه الظلال، ويذهبه البكر والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لما آثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيبكون كثيرا في عذاب أليم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.



(٧٣٩) أحمر
أسود

س: ما مدى صحة هذا الحديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»؟

ج: هذا الحديث ثابت صحيح أخرجه البخاري ومسلم [(١)] في صحيحيهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فإن ردَّك الله سالمًا يا رسول الله من غزوتك هذه، ومن سفرك هذا فاستئذنوك للجهاد معك حيث يغنمون غنيمة سهلةً قريبةً، فقل لهؤلاء الذين تخلفوا عنك في المدينة وتركوا الخروج معك في الغزوة البعيدة وأرادوا الخروج للغنائم القريبة وليس لوجه الله، فقل لهم: لن تخرجوا معي أبدًا في أي غزوة من الغزوات، ولن تقاتلوا معي عدوًا إنكم رضيتم بالقعود والتخلف عني أول مرة حينما دعوتكم للخروج معي إلى تبوك فقلتم إن الجو حار شديد الحرارة، فالآن اقعدوا مع الخالفين من أهل النفاق.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فإن ردّك الله، يا محمد، إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، معك في أخرى غيرها، ﴿فَقُل﴾ لهم، ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ

(١) البخاري (٦٦٣١)، ومسلم (٩٠١).

مَرَّةٍ﴾، وذلك عند خروج النبي ﷺ إلى تبوك، ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾، يقول: فاقعدوا مع الذين قعدوا من المنافقين خلاف رسول الله ﷺ، لأنكم منهم، فاقتدوا بهديهم، واعملوا مثل الذي عملوا من معصية الله، فإن الله قد سخط عليكم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا ﴿ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى، ﴿ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ ﴾ أي: تعزيرا لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: ﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة: ﴿ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾ أي: مع النساء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي ردك من غزوة تبوك إلى المدينة ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ﴾ من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر وإنما قال ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ﴾ لأنه ليس كل من تخلف عن تبوك كان منافقا ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ ﴾ معك إلى الغزو ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا ﴾ إلى غزاة ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ ﴾ عني ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ حين لم تخرجوا إلى تبوك وذكر الماوردي في قوله ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ قولين:

أحدهما: أول مرة دعيتم. **والثاني**: قبل استئذانكم.

فأما الخالفون فقال أبو عبيدة: الخالف الذي خلف بعد شاخص فقعد في رحله وهو الذي يتخلف عن القوم.

وفي المراد بالخالفين قولان:

أحدهما: أنهم الرجال الذين تخلفوا لأعذار قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم النساء والصبيان قاله الحسن وقتادة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا ﴾ إلى قوله ﴿ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾.

عاقب الله في هذه الآية الكريمة: المتخلفين عن غزوة تبوك بأنهم لا يؤذن لهم في الخروج مع نبيه، ولا القتال معه ﷺ لأن شؤم المخالفة يؤدي إلى فوات الخير الكثير.

وقد جاء مثل هذا في آيات أخر كقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ [الفتح: ١٥] إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية إلى غير ذلك من الآيات. والخالف هو الذي يتخلف عن الرجال في الغزو فيبقى مع النساء والصبيان

وقال السعدي في تفسيره:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿ فَقُل ﴾ لهم عقوبة ﴿ لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ فسيغني

(٧٤٢) أحمر
أسود

اللّه عنكم.

﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ وهذا كما قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخا لهم، وعارا عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعلهم.



س: وضح سبب نزول قوله تعالى: (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾).

ج: أما سبب نزولها فهو ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث (١) ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ، وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ» قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ آية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾.

وأخرج البخاري من حديث حَدَّثَنِي ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ،

(١) البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٧٧٤).

وَأَمَرَهُ أَنْ يُكَفِّنَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِثَوْبِهِ فَقَالَ: تُصَلِّي عَلَيْهِ وَهُوَ مُنَافِقٌ، وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَ: «**إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ أَوْ أَخْبَرَنِي اللهُ فَقَالَ**: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فَقَالَ: سَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ. قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (١).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ج: هذا نهي من الله ﷻ لرسوله ﷺ والمؤمنون لرسولهم تبع، نهيٌ ألا يصلي على أحد من أهل النفاق ولا يقم على قبره داعيًا له مستغفرًا له، فلا استغفار ولا دعاء لهؤلاء المنافقين، ذلك لأنهم كفروا بالله، جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنكروا أن يكون رسولًا من عند الله واستمر بهم هذا الحال حتى ماتوا على كفرهم وضلالهم وفسقهم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولا تصلِّ، يا محمد، على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبدًا، ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، يقول: ولا تتولَّ دفنه وتقبيره.

من قول القائل: «قام فلان بأمر فلان»، إذا كفاه أمره.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، يقول: إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله، وماتوا

(١) البخاري (٤٦٧٢)، ومسلم (٢٤٠٠).

وهم خارجون من الإسلام، مفارقون أمرَ الله ونهيه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ من المنافقين ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة.

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ومن كان كافرا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه.



س: هل يجوز للمسلم أن يشيع جنازة مشرك؟

ج: لا أعلم مانعًا من ذلك، لكن لا يصلي عليه، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ أما تشييع جنازته فلا مانع منه، وقد ذهب إلى جواز ذلك كثيرٌ من أهل العلم، فقد ورد من طرق عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (تحسن بمجموعها) أنه قال لما مات أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن عمك الضال قد مات فقال لي: «اذهب فواره»[(١)].

آخر من طريق الأجلح عن الشعبي بنحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة أيضًا بسندٍ صحيح إلى ضرار بن مرة عن سعيد بن جبير قال: مات رجل نصراني وله ابنُ مسلم فلم يتبعه، فقال ابن عباس: كان ينبغي له أن يتبعه ويدفنه ويستغفر له في حياته[(٢)].

(١) ابن أبي شيبة في المصنف (١١٩٦٢)، وله شاهد.
(٢) المصنف (١١٩٦٩).

وأخرج ابن أبي شيبة أيضًا من وجهين عن الشعبي فيهما مقال، لكن يُحسنان بالمجموع قال: ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية فشهدها أصحاب محمد ﷺ[(١)].

وأخرج ابن أبي شيبة بسندٍ فيه مقال يسير عن ابن عمر، وقد سئل عن الرجل المسلم يتبع أمه النصرانية تموت، قال: يتبعها ويمشي أمامها[(٢)].

وقال ابن المنذر في الأوسط[(٣)]: واختلفوا في غسل الكافر ودفنه فكان مالك يقول: لا يغسل المسلم والده إذا مات كافرًا، ولا يتبعه ولا يدخل في قبره إلا أن يخشى أن يضيع فيواريه، وكان الشافعي يقول: لا بأس أن يغسل المسلم ذا قرابته من المشركين ويتبعه ويدفنه، وبه قال أبو ثور وأصحاب الرأي..

قلت (مصطفى): أما الغسل فلا أعلم له دليلًا، ومن ثم فقد تُعقب هذا القول، قال ابن المنذر: قال أبو بكر: ليس في غسل من خالف الإسلام سنة يجب اتباعها، والحديث الذي احتج به الشافعي منقطع لا تقوم به حجة.

قلت (مصطفى): وقد ورد في السير في جنازة النصراني حديث لكن ضعيف الإسناد، فيه جاء ثابت بن قيس ابن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أمي توفيت وهي نصرانية وهو يحب أن يحضرها فقال النبي ﷺ: «**اركب دابتك وسر أمامها فإنك إذا كنت أمامها لم تكن معها**».

أبو معشر ضعيف[(٤)] (وهو أحد رجال الإسناد).

---

(١) المصنف (١١٩٦٤).
(٢) المصنف (١١٩٦٨).
(٣) ابن المنذر في الأوسط (٥/ ٣٤١، ٣٤٢).
(٤) سنن الدارقطني (٢/ ٧٥).

هذا وبالله التوفيق.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ
أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ
رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾
لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

[التوبة: ٨٥-٩٠]

(٧٤٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ - أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ - ذَرۡنَا - ٱلۡخَوَالِفِ - وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ - ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ - ٱلۡمُعَذِّرُونَ - كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾	تخرج أرواحهم من أجسادهم
﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾	الأغنياء أصحاب الأموال
﴿ذَرۡنَا﴾	اتركنا
﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾	النساء – خساس (جمع خسيس) الناس وأدنياؤهم
﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾	ختم على قلوبهم
﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾	النساء الحسان – نعيم الآخرة عمومًا، وقيل: كل خير في الدنيا والآخرة
﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾	المعتذرون المبالغون في الاعتذارات (سواء كانت مقبولة أو غير مقبولة) وقيل: المعذرون الذين لهم أعذار مقبولة
﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾	جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأنكروا رسالته



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، ولا تغتر يا رسول الله بأموال هؤلاء المنافقين، ولا تعجب بأولادهم وحسنهم وجمالهم، فكل ذلك وبالٌ عليهم فكم من شخصٍ رُزق مالًا، وماله عذابٌ عليهم وكم من شخصٍ رُزق أولادًا، وأولاده نكال عليه، فربنا يريد أن يعذبهم بهذه الأموال في الحياة الدنيا، ففي جمعها عذاب وفي إنفاقهم لها عذاب، وفي حفظهم لها عذاب، وأولادهم لهم فتنة وسبب لعذابهم ويريد الله أن يعذبهم بالأموال والأولاد ويتمادى بهم ذلك إلى الموت عل الكفر فتخرج أرواحهم من أجسادهم وهم كفار.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تعجبك، يا محمد، أموالُ هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره، من أجل كثرة ماله وولده، فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات،، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾، يقول: وليموت فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذلك حسرة عليه عند موته، ووبالا عليه حينئذٍ، ووبالا عليه في الآخرة، بموته جاحدًا توحيدَ الله، ونبوةَ نبيه محمد ﷺ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: لا تغتر بما أعطاهم اللّه في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾

فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن اللّه والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم أنه إذا أُنزلت عليك يا رسول الله سورة من كتاب الله فيها أمرٌ بمزيد من الإيمان، وفيها أمر بالجهاد مع رسول الله ﷺ استأذنك من لا عذر لهم في التخلف من هؤلاء المنافقين الأغنياء، وقالوا: اتركنا نكن مع القاعدين في المدينة، رضوا على أنفسهم بأن يكونوا مع النساء، وكذا مع خساس الناس وأدنيائهم وخُتم على قلوبهم فلا يصل إليها إيمان، ولا يفهمون عن الله المراد، ولا يفهمون ما ينفعهم ولا يضرهم.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل عليك، يا محمد، سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، يقول: صدِّقوا بالله، ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، يقول: استأذنك ذوو الغنى والمال منهم في التخلف عنك، والقعود في أهله، ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا﴾، يقول: وقالوا لك: دعنا، نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر.

وقال في تأويل قوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: رضي هؤلاء المنافقون ، الذين إذا قيل لهم: آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله، استأذنك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك لقتال أعداء الله من المشركين ، أن يكونوا في منازلهم، كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهنّ وبيوتهنّ، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، عن الله مواعظه، فيتعظون بها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال [الله] تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أفي السّلم أعيارًا جفاءً وَغلْظَةً ... وَفي الحَرْب أشباهُ النّسَاءِ العَوارِكِ

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢٠-٢١]

وقوله: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرةٌ لهم فيجتنبوه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان باللّه والجهاد في سبيل اللّه.

﴿ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم اللّه بأموال وبنين، أفلا يشكرون اللّه ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود

﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

قال تعالى ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال. يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فاللّه سيغني عنهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: (لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾).

(٧٥٣) أحمر
أسود

ج: بعد أن بين الله ﷻ أحوال أهل النفاق وأعمالهم وبعض ما حل بهم بيَّن ﷻ صفات أهل الفضل والإيمان وأعمالهم فقال تعالى: لكن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، ليسوا كأهل النفاق المتخلفين عن اغلجهاد، بل إنهم جاهدوا بأموالهم، بذلوها مرضاة لله ولإعلاء كلمته، وكذا جاهدوا بأنفسهم فرضوا بالقتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فهؤلاء لهم الخيرات في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالمغانم وطمأنينة النفس والقلب والإيمان والرضا، وفي الآخرة بصنوف النعيم فيها من النساء الحسان وما تشتهيه الأنفس من الطعام والشراب، وما به تلذ الأعين، وأولئك هم المفلحون الذين فازوا بمطلوبهم، وهو الجنة ورضوان الله عليهم ونجوا من مرهوبهم، وهو النار وسخط الله عليهم، هؤلاء أعدَّ الله لهم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها لا يتحولون عنها، وذلك هو الفوز، الظفر العظيم أعظم الظفر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لم يجاهد هؤلاء المنافقون الذين اقتصصت قصصهم المشركين، لكن الرسول محمد ﷺ والذين صدقوا الله ورسوله معه، هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم واتعبوا في قتالهم أنفسهم وبذلوها، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾، يقول: وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾، وهي خيرات الآخرة، وذلك: نساؤها، وجناتها، ونعيمها.

واحدتها «خَيْرَة»، كما قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاتِ ... رَبَلاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ المَلِكَاتِ

و«الخيرة»، من كل شيء، الفاضلة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، يقول: وأولئك هم المخلدون في الجنات، الباقون فيها، الفائزون بها.

وقال في تأويل قوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: أعد الله لرسوله محمد ﷺ وللذين آمنوا معه، ﴿جَنَّٰتٖ﴾، وهي البساتين، تجري من تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: لابثين فيها، لا يموتون فيها، ولا يظعنون عنها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، يقول: ذلك النجاء العظيم، والحظّ الجزيل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بيَّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ ﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وللمفسرين في المراد بالخيرات ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الفاضلات من كل شيء. قاله أبو عبيدة. **والثاني:** الجواري الفاضلات. قاله المبرد. **والثالث:** غنائم الدنيا ومنافع الجهاد ذكره الماوردي.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ ﴾ غير

متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فتبا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧] وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩].



س: في قوله تعالى: (ٱلْمُعَذِّرُونَ) قراءتان ذكرهما العلماء، وضحهما، مع إيضاح معانيهما.

ج: القراءة الأولى هي: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بفتح العين وتشديد الذال مع كسرها.

والقراءة الثانية: (المُعْذَرون) بتسكين العين وفتح الذال بلا تشديد.

والقراءة الأولى: وهي التي في المصحف عليها أكثر أهل العلم، وهي تحتمل معنيين.

أحدهما: الذين لهم عذر صحيح مقبول.

الثاني: الكاذب في اعتذاره.

أما القراءة الثانية بالتخفيف فالمراد بها أهل العذر، الذين أتوا بأعذارٍ صحيحه.

قال ابن كثير: وهذا القول (يعني بالتخفيف) هو الأظهر في معنى الآية لأن الله قال بعد هذا (وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ).

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

والمعذرون: الذين يأتون بالعذر الصحيح؛ فبان من هذا الكلام أن لهم عذرا على قراءة من خفف وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد فيه قولان:

قال المفسرون: جاء هؤلاء ليؤذن لهم في التخلف عن تبوك، فأذن لهم رسول الله ﷺ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جرأة على الله تعالى.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد أن أورد أقوالًا: وبعدُ، فإن الذي عليه من القراءة قرأة الأمصار، التشديد في «الذال»، أعني من قوله: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾، ففي ذلك دليلٌ على صحة تأويل من تأوله بمعنى الاعتذار، لأن القوم الذين وُصفوا بذلك لم يكلفوا أمرًا عَذَّرُوا فيه، وانما كانوا فرقتين: إما مجتهد طائع، وإما منافق فاسقٌ، لأمر الله مخالف. فليس في الفريقين موصوفٌ بالتعذير في الشخوص مع رسول الله ﷺ، وإنما هو معذّر مبالغٌ، أو معتَذِر.

فإذا كان ذلك كذلك، وكانت الحجة من القرأة مجمعة على تشديد «الذال» من « المعذرين »، عُلم أن معناه ما وصفناه من التأويل.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وجاء المعتذرون من الأعراب يقدمون اعتذاراتهم عن التخلف ويبينوا سبب ذلك سواء كان اعتذارهم بحقٍ أو بباطل، أما الذين كذبوا الله ورسوله فجحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله ﷺ فقعدوا في بيوتهم لم يأتوا لاعتذارٍ ولم يُبالوا به، ثم توعدهم الله بأليم العذاب فقال سيصيب الذين كفروا منهم (من هؤلاء القاعدين) عذاب أليم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَجَآءَ﴾، رسولَ الله ﷺ، ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، في التخلف، ﴿وَقَعَدَ﴾، عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقالوا الكذب، واعتذرُوا بالباطل منهم.

يقول تعالى ذكره: سيُصيب الذين جحدوا توحيد الله ونبوة نبيه محمد ﷺ منهم، عذابٌ أليم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بَيَّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا اللّه ورسوله منهم، فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ
﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ

(٧٥٩) أحمر
أسود

ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ
ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التوبة: ٩١-٩٩].

س: وضح معنى ما يلي:
﴿حَرَجٌ - لِتَحۡمِلَهُمۡ - لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ - تَوَلَّواْ - ٱلۡخَوَالِفِ - لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ - عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ - رِجۡسٌۖ - وَمَأۡوَىٰهُمۡ - مَغۡرَمٗا - وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ - دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ - قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿حَرَجٌ﴾	إثم
﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾	لتعطيهم شيئًا يركبونه كي يخرجوا معك للغزو في سبيل الله
﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾	لا أجد رواحل (إبل – خيل) تركبونها للخروج للغزو
﴿تَوَلَّواْ﴾	انصروا عنك
﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾	النساء
﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾	لن نصدقكم في دعواكم الإيمان وفي اعتذاراتكم
﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾	عالم ما غاب من الأمور وما ظهر عالم بالظواهر والبواطن
﴿رِجۡسٌۖ﴾	نجس في اعتقادهم ونواياهم، فمعتقدهم خبيث ونواياهم خبيثة، وكذا في أعمالهم فأعمالهم سيئة مُشينة

(٧٦١) أحمر
أسود

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾	مصيرهم الذي يصيرون إليه ومستقرهم الذي يستقرون فيه
﴿مَغْرَمًا﴾	غرامات تؤدي (لا يرجوا ثوابها)
﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ﴾	ينتظر حلول المصائب بكم
﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾	عليهم دائرة الشر والهزيمة والعذاب والبلاء، وهذا دعاء عليهم وإخبار بمآلهم
﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾	شيئًا يتقربون به إلى الله وعملًا صالحًا يقربهم فيه ﷻ



(٧٦٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى (وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ...).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وليس هناك إثمٌ على أصحابك الفقراء الذين جاءوك طالبين منك أن تعطيهم دابةً تحملهم يركبونها للخروج إلى الجهاد، كفرسٍ أو جمل أو غير ذلك، فلم تجد لهم دابة تحملهم، فحزنوا لذلك حزنًا شديدًا من قلوبهم، وانذرف الدمع من عيونهم، فانصرفوا عنك وهم يبكون حزنًا لفقرهم الذي كان سببًا في صدهم عن الغزو معك وقد ورد في هذا الباب حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في الإيمان.



س: فيمن نزل قوله تعالى: (وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ..)؟

ج: أخرج الطبري بسندٍ صحيح عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر الكلاعي قالا، دخلنا على عرباض بن سارية، وهو الذي أُنزل فيه (وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ).



بعض أصحاب الأعذار

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: (لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾).

ج: هذه، والله أعلم، تبين أصحاب الأعذار الذين تُقبل أعذارهم في التخلف عن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺن وترفع عنهم الحرج، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ الذين ليست لهم قدرة على السفر والجهاد

لضعف أبدانهم، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الذين حل بهم مرضٌ يحول بينهم وبين خروجهم للغزو، وكذا ليس على الفقراء الذين ليست عندهم نفقة للتجهز للغزو ولا للأسفار، ليس على هؤلاء إثم إذا تخلفوا، وذلك إذا قدموا النصح لله ورسوله، ولم يغشوا ولم يكتموا نصيحة تنفع، فهؤلاء المحسنون الذين قدموا النصح ليس هناك طريق لعقوبتهم ولا سبب لإنزال عقوبة بهم فالطرق إلى ذلك مسدودة.

وكذا ليس هاك إثم على الذين جاءوك يسألونك دابة تحملهم للغزو والجهاد والسفر فلم يجدوا عندك، وقلت لهم ليس عندي من الدواب ما أحملكم عليه لسفركم للغزو والجهاد فانصرفوا من عندك، باكين أعينهم تذرف دموعًا حزنًا منهم على فقرهم، لكونهم لم يجدوا ما يتجهزون به للغزو في سبيل الله وصحبة رسول الله ﷺ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلَّغ بها إلى مغزاه، ﴿حَرَجٌ﴾، وهو الإثم، يقول: ليس عليهم إثم، إذا نصحوا لله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، يقول: ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلّفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به، طريقٌ يتطرّق عليه فيعاقب من قبله، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يقول: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها، ﴿رَّحِيمٌ﴾، بهم، أن يعاقبهم عليها.

وقال في تأويل قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ

أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: ولا سبيل أيضًا على النفر الذين إذا ما جاءوك، لتحملهم، يسألونك الحُمْلان، ليبلغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداءِ الله معك، يا محمد، قلت لهم: لا أجد حَمُولةً أحملكم عليها، ﴿تَوَلَّواْ﴾، يقول: أدبروا عنك،، ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾، وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحمَّلون به للجهادِ في سبيل الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حَرَج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الآية. أصل في سقوط التكليف عن العاجز؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل، وتارة إلى بدل هو غرم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النور: ٦١]. وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه**». قالوا: يا

رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال: «حبسهم العذر». فبينت هذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعذورين، وهم قوم عرف عذرهم كأرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون ؛ فقال: ليس على هؤلاء حرج. ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه قال العلماء: فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ النصح إخلاص العمل من الغش. ومنه التوبة النصوح. قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص. ونصح له القول أي أخلصه له. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» ثلاثا. قلنا لمن ؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**». قال العلماء: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص والرغبة في محابّه والبعد من مساخطه. والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ. وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيه، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به. والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم، إرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم. والنصح للعامة: ترك معاداتهم، وإرشادهم وحب الصالحين منهم، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم. وفي الحديث الصحيح «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم**

مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ ﴾.

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحمى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ أي: لا يجدون زادا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا للّه ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم -بإحسانهم فيما عليهم من حقوق اللّه وحقوق العباد- أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في [نفسه] أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرط، أن عليه الضمان.

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ومن مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئا ﴿قُلۡتَ ﴾ لهم معتذرا: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا

يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره اللّه عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير، واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.



س: هل من حديث يُواس به من أراد خيرًا وحيل بينه وبين فعل الخير هذا؟

ج: نعم هناك أحاديث، وليست حديثًا واحدًا، من ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»(١).

وكذا قول النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٢).



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، إنما الطريق للعقوبة، إنما هو على الذين يستأذنونك في التخلف ولا عذر لهم في التخلف فهم أغنياء يستطيعون تجهيز أنفسهم للغزو، وهم أيضًا أقوياء وليسوا بالمرضى ولا بالضعفاء، ولكنهم فقط رضوا بأن يبقوا بالمدينة مع النساء، وختم الله على قلوبهم لخبث نواياهم وسوء معتقدهم، فهم لا يعلمون ما الذي ينفعهم، وما الذي يضرهم.

---

(١) البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١).
(٢) مسلم (١٩٠٩).

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خِلافَك، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوّةٍ وطاقةٍ للجهاد والغزو، نفاقًا وشكًّا في وعد الله ووعيده، ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾، يقول: رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء ، وهن ﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾، خلف الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك،، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي العقوبة والمأثم. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ والمراد المنافقون. كرر ذكرهم للتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين يستأذنوك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رَضُواْ﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

(٧٦٩) أحمر
أسود

﴿ و ﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن اللّه طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ عقوبة لهم، على ما اقترفوا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، يعتذر إليك يا رسول الله وإلى المؤمنين، يعتذر أهل النفاق إليكم بالاعتذارات الباطلة وبالأكاذيب إذا رجعتم من غزوتكم إلى مدينتكم، فقل لهم لا تعتذروا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم فقد تبين لنا من قبل كذبكم وافتراؤكم وتقوُّلكم، وقد أخبرنا الله ﷻ بما أنزله على رسولنا أخباركم على حقيقتها وسيرى الله عملكم ورسوله، وذلك فيما هو آت من الدنيا، وسيرى صدقكم من كذبكم، وصالح عملكم من سيئه، كما قال في سورة الفتح للمخلفين من الأعراب ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، وكأن قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فيه فتح لباب التوبة أمامهم، وكأن المعنى وسيرى الله ﷻ أعمالكم وتوبتكم من عدمها فأحسنوا العمل، وأخلصوا لله في توبتكم فإن عملكم سيظهر في الدنيا ويظهر استجابتكم من عدمه ثم ترجعون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون، ويعلم ما تكن صدوركم وما تعلنون وسيخبركم بأعمالكم التي عملتموها وتصرفاتكم التي تصرفتموها.

(٧٧٠) أحمر
أسود

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يعتذر إليكم، أيها المؤمنون بالله، هؤلاء المتخلفون خلاف رسول الله ﷺ، التاركون جهاد المشركين معكم من المنافقين، بالأباطيل والكذب، إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم، ﴿قُل﴾، لهم، يا محمد،، ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾، يقول: لن نصدِّقكم على ما تقولون، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، يقول: قد أخبرنا الله من أخباركم، وأعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، يقول: وسيرى الله ورسوله فيما بعدُ عملكم، أتتوبون من نفاقكم، أم تقيمون عليه؟، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يقول: ثم ترجعون بعد مماتكم، ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يعني: الذي يعلم السرَّ والعلانية، الذي لا يخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فيخبركم بأعمالكم كلها سيِّئها وحسنها، فيجازيكم بها: الحسنَ منها بالحسن، والسيئَ منها بالسيئ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سـ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزاتكم.

﴿ قُل ﴾ لهم ﴿ لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ ﴾ وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر اللّه عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر اللّه الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

وأعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهرا وباطنا، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر اللّه بها في حق المنافقين.



س: وضح معنى قوله تعالى: (سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، سيحلف لكم أهلُ النفاق يا أهل الإيمان، سيحلفون لكم إيمانًا مغلظة بالله ﷻ كي ينالوا رضاكم كي تتركوهم ولا

تؤنبونهم ولا توبخونهم، سيحلفون لكم عند رجوعكم من أجل ذلك، كي لا تلوموهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ أهملوهم، لا تنشغلوا بهم اتركوهم محتقرين لهم مزدرين لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ خبثاء المعتقد، سيئوا العمل، فلا معتقد صحيح، ولا عمل صحيح، ومصيرهم الذي يصيرون إليه جهنم جزاء أعمالهم السيئة، وكسبهم السيء، إنهم سيستمرون في الأيمان وسيكثرون منها لإرضائكم، فلا ترضوا عنهم، وإن رضتم عنهم يا أهل الإيمان فلن ينفعهم رضاكم عنهم لأن الله علم منهم ما لم تعلموان والله لا يرضى عن القوم الفاسقين الخارجين عن الطاعة المقيمين عليها.

وكأن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ فيه فتح لباب التوبة، فلم يقل فإن الله لا يرضى عنهم، وذلك حتى لا ييأس يائس من رحمة الله، ولا يقنط منها قانط.

وبنحو الذي ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: سيحلف، أيها المؤمنون بالله، لكم هؤلاء المنافقون الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، يعني: إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾، فلا تؤنبوهم، ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه للمؤمنين: فدعوا تأنيبهم، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، يقول: إنهم نجس، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، يقول: ومصيرهم إلى جهنم، وهي مسكنهم الذي يأوُونه في الآخرة، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، يقول: ثوابًا بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله.

وأورد من حديث كعب بن مالك، وهو في الصحيح وسيأتي، أنه (أي كعب ابن مالك) قال لما قال:

لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك، جلس للناس. فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وصَدَقته حديثي. فقال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطُّ، بعد أن هداني للإسلام، أعظمَ في نفسي من صدْق رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي، شرَّ ما قال لأحد: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾).

يقول تعالى ذكره: يحلف لكم، أيها المؤمنون بالله، هؤلاء المنافقون، اعتذارًا بالباطل والكذب، ﴿لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، يقول: فإن أنتم، أيها المؤمنون، رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم، إذ كنتم لا تعلمون صِدْقهم من كذبهم، فإن رضاكم عنهم غيرُ نافعهم عند الله، لأن الله يعلم من سرائر أمرهم ما لا تعلمون، ومن خفيّ اعتقادهم ما تجهلون، وأنهم على الكفر بالله......... يعني أنهم الخارجون من الإيمان إلى الكفر بالله، ومن الطاعة إلى المعصية.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤَنِّبُوهم،

﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ احتقارا لهم، ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾ أي: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة «فُوَيسقة» لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌ﴾ أي: إنهم قذر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم، ﴿وَ﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: ولهم أيضا هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئا.

﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: فلا ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن ترضوا عن من لم يرض اللّه عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: «فإن اللّه لا يرضى عنهم» ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن اللّه يتوب عليهم، ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن اللّه لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه،

وهو خروجهم عن ما رضيه اللّه لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي.

وحاصل ما ذكره اللّه أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذارا في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حبا ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام للّه تعالى في قوله: ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية للّه، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا للّه عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.



خصال الأعراب وشدة كفرهم ونفاقهم

س: وضح معنى قوله تعالى: (ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، الأعراب وهم سكان البادية ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من كفار أهل المدينة ومنافقي أهل المدينة، أو بصفة أعم أشد كفرًا ونفاقًا من أهل القرى المستقرة، وذلك لأنهم جمعوا بين الكفر والجهل، وكذا جمعوا بين النفاق والجهل، أما كفار أهل المدينة فلقربهم في المسكن من رسول الله ﷺ ومن الصحابة رضوان الله عليهم، فاستفادوا من هديهم الظاهر، وإن لم يؤمنوا، لكنهم حاولوا التخلق بأخلاق المؤمنين ظاهرًا، فالمرء يتأثر بجليسه، وكما قال القائل: إن النصراني الذي يعيش في بلاد المسلمين يختلف عن

(٧٧٦) أحمر
أسود

النصراني الذي يعيش في روسيا مثلًا، فالذي يعيش في بلاد المسلمين يستحي إذا قيل له ابنتك ارتكبت الفاحشة، ويغضب لذلك، أما الذي يعيش في روسيا مثلًا فلا يلتفت ولا يبالي.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي وهم جديرون بأن يكونوا جهلة لكونهم بعيدين عن العلم الشرعي والهدي النبوي، فهم جديرون بأن يكونوا جهلة بحدود الله وبأوامر الله وبسنن الله ﷻ وفرائضه التي أنزل على رسوله ﷺ، والله عليم بالعباد وبأحوالهم، وعليم بكل شيء، حكيم فيما يشرع وحكيم فيما يُنزل، وحكيم في كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الأعراب أشدُّ جحودًا لتوحيد الله، وأشدّ نفاقًا، من أهل الحضر في القرى والأمصار. وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك، لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوبًا، وأقلُّ علمًا بحقوق الله.

وقوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وله﴾، يقول: وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وذلك فيما قال قتادة: السُّنن.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، قال: هم أقل علمًا بالسُّنن.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بمن يعلم حدودَ ما أنزل على رسوله، والمنافق من خلقه، والكافرِ منهم، لا يخفى عليه منهم أحد، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره إياهم، وفي حلمه عن عقابهم، مع علمه بسرائرهم وخِداعهم أولياءَه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني فقال زيد: ما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمالَ؟ فقال زيد بن صوحان صدق الله: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾.

وأورد حديث ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «**من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن**»(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «**لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفي أو أنصاري، أو دَوْسِيّ**»(٢)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب: لما في طباع الأعراب من الجفاء.

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٢٠)، وأحمد (١/ ٣٥٧) وغيرهم، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، وفي رواية على الشك، وسنده فيه مقالٌ.

(٢) له شواهد يصحح بها، أخرجه الترمذي (٣٩٤٥)، وأحمد (٧٩١٨)، وابن حبان (٦٣٨٣) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

وأورد الحافظ ابن كثير أيضًا حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «**وأَمْلكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة؟**»(١). وقال ابن نمير: «**من قلبك الرحمة**».

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ أصله أشدد؛ وقد تقدم. ﴿كُفْرًا﴾ نصب على البيان. ﴿وَنِفَاقًا﴾ عطف عليه. ﴿وَأَجْدَرُ﴾ عطف على أشد، ومعناه أخلق؛ يقال: فلان جدير بكذا أي خليق به، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجديرون. وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء. فقوله: هو أجدر بكذا أي أقرب إليه وأحق به. ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾ أي بألا يعلموا. والعرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عربي بين العروبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصيح أعاريب. والنسبة إلى الأعراب أعرابي لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأنباط جمعا لنبط؛ وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الخلص منهم، وأخذ من لفظه وأكد به؛ كقولك: ليل لائل. وربما قالوا: العرب العرباء. وتعرب أي تشبه بالعرب. وتعرب بعد هجرته أي صار أعرابيا. والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلص، وكذلك المتعربة، والعربية هي هذه اللغة. ويعرب بن قحطان أول من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كلهم. والعُرب والعَرب واحد؛

---

(١) مسلم (٢٣١٧).

مثل العجم والعجم. والعريب تصغير العرب ؛ قال الشاعر:

ومكن الضباب طعام العريب ولا تشتهيه نفوس العجم

إنما صغرهم تعظيما ؛ كما قال: أنا جذيلها المحك، وعذيقها المرجب كله عن الجوهري. وحكى القشيري وجمع العربي العرب، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب. والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح، والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسميت العرب عربا لأن ولد إسماعيل نشؤوا من عربة وهي من تهامة فنسبوا إليها. وأقامت قريش بعربة وهي مكة، وانتشر سائر العرب في جزيرتها.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله، فيحدث لهم -بسبب هذا العلم- تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشح فيها.



خصال الأعراب وشدة كفرهم ونفاقهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٩٨﴾.

ج: هذا، والله أعلم، بيان لحال بعض الأعراب، فهم في جملتهم كما بيَّن الله سبحانه وتعالى أشد كفرًا ونفاقًا من كفار أهل المدينة ومنافقيها، ومنهم من يعتبر الصدقات التي يخرجها والنفقات التي يُلزم بها، يعتبر كل ذلك غرامات عليه مُلزم بدفعها، ولو أنه خُيِّر وكان بمحض إرادته ما أنفق شيئًا ولا أخرج شيئًا، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾، فهو إن أنفق، لا يحتسب أجرًا ولا يرجو ثوابًا من الله ﷻ، بل ينفق ما يتقى به اللوم، ويتقي به العقاب، وفي ذلك الوقت فإنه يتمنى أن لو جاء يوم لا ينفق فيه هذه النفقات، يتمنى أن لو جاء يوم تحلُّ بكم فيه المصائب والبلايا ينتظر حلول المصائب بكم وأن يُدال عليكم عدوكم، فعلى هؤلاء المتربصين بكم ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي أن عذاب الله محيط بهم وهذا دعاء عليهم وإخبار بمآلهم أي ودائرة السوء منعكسة عليهم.

وما يتمنونه لكم حالٌ بهم، والله سميع لأقوال عباده ودعائهم، عليم بنواياهم، وما انطوت عليه صدورهم، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يَعُدُّ نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده، ﴿مَغۡرَمٗا﴾، يعني: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، يقول: وينتظرون بكم الدوائر، أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهٍ ومجيء محبوب، وغلبة عدوٍّ لكم. يقول الله تعالى ذكره: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾، يقول: جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون، ولا

بكم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، لدعاء الداعين، ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبيرهم، وما هو بهم نازلٌ من عقاب الله، وما هم إليه صائرون من أليم عقابه.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قول الله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتِّقاءَ أن يُغْزَوْا أو يُحارَبوا أو يقاتلوا، ويرون نفقتهم مغرمًا. ألا تراه يقول: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾؟

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغۡرَمٗا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ ﴿مَن﴾ في موضع رفع بالابتداء. ﴿مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ مفعولان؛ والتقدير ينفقه، فحذفت الهاء لطول الاسم. ﴿مَغۡرَمٗا﴾ معناه غرما وخسرانا؛ وأصله لزوم الشيء؛ ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥] أي لازما، أي يرون ما ينفقونه في جهاد وصدقة غرما ولا يرجون عليه ثوابا. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ التربص الانتظار؛ وقد تقدم. والدوائر جمع دائرة، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية، أي يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة وخبث القلب. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفي الفتح، وفتحها الباقون. وأجمعوا على فتح السين في قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ [مريم: ٢٨]. والفرق بينهما أن السُّوء

بالضم المكروه. قال الأخفش: أي عليهم دائرة الهزيمة والشر. وقال الفراء: أي عليهم دائرة العذاب والبلاء. قالا: ولا يجوز امرأ سُوء بالضم ؛ كما لا يقال: هو امرؤ عذاب ولا شر. وحكي عن محمد بن يزيد قال: السَوء بالفتح الرداءة. قال سيبويه: مررت برجل صدق، ومعناه برجل صلاح. وليس من صدق اللسان، ولو كان من صدق اللسان لما قلت: مررت بثوب صدق. ومررت برجل سوء ليس هو من سُؤته، وإنما معناه مررت برجل فساد. وقال الفراء: السوء بالفتح مصدر سؤته سوءا ومساءة وسوائية. قال غيره: والفعل منه ساء يسوء. والسوء بالضم اسم لا مصدر ؛ وهو كقولك: عليهم دائرة البلاء والمكروه.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فمنهم ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل اللّه وغير ذلك، ﴿مَغْرَمًا ﴾ أي: يراها خسارة ونقصا، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه اللّه، ولا يكاد يؤديها إلا كرها.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم فعليهم دائرة السوء.

وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال، من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين.



س: وضح معنى قوله تعالى: (﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾).

ج: هذا والله أعلم، بيان لحال فريق آخر من الأعراب، فالأعراب، وإن كان في جملتهم أشد كفرًا ونفاقًا من كفار القرى ومنافقي القرى إلا أن منهم أيضا من هو مؤمن بالله، مصدق بوحدانية الله ﷻ، وأنه لا شريك له، وكذا مصدقٌ بالثواب والعقاب يوم القيامة على الوجه الذي أخبر الله ﷻ، وهو مع إيمانه هذا يعتبر النفقة التي ينفقها قربةً يتقرب بها إلى الله ﷻ فيحتسبها عند الله ويرجو ثوابها، وكذا يعتبر دعوات الرسول ﷺ له من أقرب القربات التي يبتغي أجرها وثوابها، وذلك أنه إذا أنفق ودعا له رسول الله ﷺ، كما قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

وكان صلوات الله وسلامه عليه إذا أتاه قوم بصدقتهم صلى عليهم، كما في الحديث «**اللهم صل على آل أبي أوفى**».

فالأعراب المؤمنون يتخذون صلوات رسول الله عليهم قربة من القربات التي تقربهم من الله ﷻ فيسعدون بدعاء رسول الله ﷺ لهم وبصلاته عليهمن فيبشرهم الله ﷻ ويخبرهم بأن الأمر كما احتسبتم من الأجر، وكما رجوتم من الثواب، فيقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي صلوات الرسول ونفقاتهم التي ينفقون طاعة لله واحتسابًا ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ من الله ﷻ.

ويبشرهم الله ﷻ بأنه ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قيل في عداد عباده الذين رحمهم، وقيل في الجنة ويستغفر الله لهم ذنوبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ ذو ستر على عباده العصاة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين، إذ أكرمهم بجنته وسلمهم من النار ولم يؤاخذهم بذنوبهم ورحيم بهم في عموم أحوالهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يصدِّق الله ويقرّ بوحدانيته، وبالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب، وينوي بما ينفق من نفقة في جهاد المشركين، وفي سفره مع رسول الله ﷺ ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، و(القربات) جمع «قربة»، وهو ما قرَّبه من رضى الله ومحبته، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾، يعني بذلك: ويبتغي بنفقة ما ينفق، مع طلب قربته من الله، دعاءَ الرسول واستغفارَه له.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، يقول تعالى ذكره: ألا إنّ صلوات الرسول قربة لهم من الله.

وقد يحتمل أن يكون معناه: ألا إنّ نفقته التي ينفقها كذلك، قربةٌ لهم عند الله، ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، يقول: سيدخلهم الله فيمن رحمه فأدخله برحمته الجنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾، لما اجترموا، ﴿رَّحِيمٞ﴾، بهم مع توبتهم وإصلاحهم أن يعذبهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ استغفاره ودعاؤه. والصلاة تقع على ضروب؛

فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣] والصلاة من الملائكة الدعاء، وكذلك هي من النبي ﷺ ؛ كما قال: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة. ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أي تقربهم من رحمة الله، يعني نفقاتهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بل منهم ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان.

﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه اللّه تعالى والقرب منه ﴿ و ﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ ﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبينا لنفع صلوات الرسول: ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ ﴾ تقربهم إلى اللّه، وتنمي أموالهم وتحل فيها البركة.

﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ ﴾ في جملة عباده الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم اللّه على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر اللّه، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن اللّه ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرا ونفاقا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم

أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل اللّه على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها -إن كانت مأمور بها، أو تركها إن كانت محظورة- ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنما، ولا تكون مغرما.



(٧٨٧) أحمر
أسود

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ
سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ
وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾

[التوبة: ١٠٠-١٠٦].

(٧٨٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ - ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ - مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ -تُطَهِّرُهُمۡ - وَتُزَكِّيهِم بِهَا - وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ- سَكَنٞ لَّهُمۡۗ - يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ - مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾	المسارعون إلى الدخول في الإسلام في أوائل البعثة من الصحابة، وقيل غير ذلك، وسيأتي
﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾	ساروا على نهجهم في الإيمان والعمل الصالح
﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾	ثبتوا عليه ولم يتوبوا منه
﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾	تزيل عنهم الوسخ وشح النفس وأثر المعاصي
﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾	تسمو بهم إلى معالى الأمور، وإلى الدرجات العُلا، وترفعهم عن أهل الخسَّة والنفاق
﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾	ادع لهم
﴿سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾	وقارٌ لهم وسكينة لهم رحمة لهم – هدوء لهم
﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾	يفتح باب التوبة لمن أراد الرجوع يقبل رجوع وتابوا وأنابوا
﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾	مؤخرون لقضاء الله فيهم ولأمره في شأنهم بما يشاء



س: من أول الصحابة إسلامًا؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: أنه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالث: أنه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرابع: أنها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفصَّل بعض أهل العلم فقال: أول الرجال أبو بكر، وأول الصبيان علي، وأول الموالي زيدٌ، وأول النساء، خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.



السابقون الأولون

س: من المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم الذين أسلموا في أوائل بعثة النبي ﷺ، فيدخل فيهم أبو بكر وعلي وزيد بن حارثة وخديجة وغيرهم.

الثاني: أنهم الذين أسلموا قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.

الثالث: انهم الذين صلوا مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين (إلى بيت المقدس وإلى الكعبة) أي أسلموا قبل تحويل القبلة.

الرابع: الذين أسلموا قبل بدر.

الخامس: الذين أسلموا قبل بيعة الرضوان.

السادس: الذين أسلموا قبل فتح مكة، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾.

السابع: أنهم الصحابة عمومًا.

(٧٩٠) أحمر
أسود

والله تعالى أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، والسابقون الأولون إلى الإسلام من المهاجرين من مكة إلى المدينة، ومن غيرها من البلاد إلى المدينة، وكذا السابقون الأولون من الأنصار الذين بادروا إلى الإسلام وسبقوا إليه، ويدخل فيهم المبايعون عند العقبة، وكذا الذين ساروا على درب هؤلاء في الإيمان والعمل الصالح ممن جاءوا بعدهم، هؤلاء جميعًا يخبر الله ﷻ بأنه رضي عنهم لإيمانهم، وجميل فعالهم وصلاحهم واستقامتهم وحسن استجابتهم، ورضوا عن الله ﷻ، رضوا به ربًّا وبدينه الإسلام دينًا وبنبيه رسولًا، ورضوا أيضا بجزائه الذي جازاهم به وأعده لهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها أبدًا، وذلك، أي رضا الله ﷻ عنهم وإدخالهم الجنة الفوز العظيم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولا إلى الإيمان بالله ورسوله، ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾، الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، يقول: والذين سَلَكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلبَ رضا الله،

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

واختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

فقال بعضهم: هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، أو أدْركوا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن الشعبي قال – في شأن السابقين الأولين – المهاجرون الأولون الذين شهدوا بيعة الرضوان.

وفي رواية عنه عن الشعبي قال: (المهاجرون الأولون)، من كان قبل البيعة إلى البيعة، فهم المهاجرون الأوّلون، ومن كان بعد البيعة، فليس من المهاجرين الأولين.

وفي بعض الروايات، وهي بيعة الحديبية.

قال الطبري:

وقال آخرون: بل هم الذين صلوا القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وأورد الطبري ذلك عن غير واحد من أهل العلم.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الذين اتبعوا المهاجرون الأولين والأنصار بإحسان، فهم الذين أسلموا لله إسلامَهم، وسلكوا منهاجهم في الهجرة والنصرة وأعمال الخير.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى الكلام: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيّه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه ، ورضي عنه السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، يدخلونها، ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، لابثين فيها، ﴿أَبَدًا﴾، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(٧٩٢) أحمر
أسود

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم، عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبُّون من رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

السابقون هم الذين سبقوا هذة الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين اللّه.

﴿ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر: ٨].

﴿وَ﴾ من ﴿ الأنصارِ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴾[الحشر: ٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء، هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من اللّه.

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية التي تساق إلى سَقْيِ الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ﴾ لا يبغون عنها حولا ولا يطلبون منها بدلا لأنهم مهما تمنوه، أدركوه، ومهما أرادوه، وجدوه.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فيهم ستة أقوال:

أحدها: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ قاله أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة.

والثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان وهي الحديبية قاله الشعبي.

والثالث: أنهم أهل بدر قاله عطاء بن أبي رباح.

والرابع: أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ حصل لهم السبق بصحبته.

قال محمد بن كعب القرظي: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب لهم الجنة محسنهم ومسيئهم في قوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

والخامس: أنهم السابقون بالموت والشهادة سبقوا إلى ثواب الله تعالى وذكره الماوردي.

والسادس: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ذكره القاضي أبو يعلى.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ من قال: إن السابقين جميع الصحابة، جعل هؤلاء تابعي الصحابة، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ.

(٧٩٤) أحمر
أسود

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: والذين اتبعوهم باحسان إلى أن تقوم الساعة. ومن قال: هم المتقدمون من الصحابة، قال: هؤلاء تبعوهم في طريقهم، واقتدوا بهم في أفعالهم، ففضل أولئك بالسبق وإن كانت الصحبة حاصلة للكل. وقال عطاء: اتباعهم إياهم باحسان: أنهم يذكرون محاسنهم ويترحمون عليهم.

وقال أيضًا:

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ يعم الكل. قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به.



الوعيد الشديد لأهل النفاق

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾، ما المراد بالمرتين، ومتى العذاب العظيم؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المرة الأولى في الدنيا بما يُصيبهم فيها من قتل وأسر وسبي، وجوع وخوف ومرض وغير ذلك.

والمرة الثانية في القبر والعذاب العظيم يوم القيامة.

الثاني: أن المرتين كلتاهما في الدنيا، عذاب في الدنيا بالقتل والأسر، والثاني بالجوع والمرض والخوف.

والعذاب العظيم في الآخرة بالنار.

وهنالك أقوال أخر اجتزأت منها بالذي ذكرت، والله أعلم.



(٧٩٥) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾).

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وممن حولكم يا أهل الإسلام حول مدينة رسول الله ﷺ التي أنتم فيها ساكنون، منافقون من الأعراب، وكذا في أوساطكم في المدينة أقوام من أهل النفاق وهؤلاء وأولئك مردوا على النفاق ثبتوا عليه ولم يتوبوا منه، والتزموه دينًا، فقوله مردوا على النفاق عائدة على منافقي الأعراب ومنافقي أهل المدينة على السواء، فيكون المعنى وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة أيضًا، وهؤلاء وأولئك مردوا على النفاق.

وإن قال قائل إن قوله ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ عائدٌ على منافقي المدينة فله وجهٌ وهؤلاء، وأولئك لا تعلمهم يا رسول الله بل الله ﷻ يعلمهم، وسيعذبهم مرتين مرة في الدنيا ومرة في القبر، وقيل المرتين في الدنيا، وقد تقدم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة إلى عذاب عظيم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون، ومن أهل مدينتكم أيضًا أمثالهم أقوامٌ منافقون.

وقوله: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، يقول: مرَنُوا عليه ودَرِبوا به.

ومنه: «شيطانٌ مارد، ومَرِيد»، وهو الخبيث العاتي. ومنه قيل: «تمرَّد فلان على ربه»، أي: عتَا، ومرنَ على معصيته واعتادها.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى

﴿ٱلنِّفَاقِ﴾، قال: أقاموا عليه، لم يتوبوا كما تابَ الآخرون.

قال الطبري في قوله تعالى:

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، يقول لنبيه محمد ﷺ: لا تعلم، يا محمد، أنت هؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة، ولكنا نحن نعلمهم.

وقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، يقول: سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر.

ثم اختلف أهل التأويل في التي في الدنيا، ما هي؟

فقال بعضهم: هي فضيحتهم، فضحهم الله بكشف أمورهم، وتبيين سرائرهم للناس على لسان رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: ما يصيبهم من السبي والقتل والجوع والخوف في الدنيا.

وقال آخرون: معنى ذلك: سنعذبهم عذابًا في الدنيا، وعذابًا في الآخرة.

وقال آخرون: كان عذابهم إحدى المرتين، مصائبَهم في أموالهم وأولادهم، والمرة الأخرى في جهنم.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، قال: أما عذابٌ في الدنيا، فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، [سورة التوبة: ٥٥]، بالمصائب فيهم، هي لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر. قال: وعذاب في الآخرة، في النار، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، الحدود، والأخرى: عذابُ القبر.

وأورد الطبري أقوالًا أُخر ثم قال:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذِّب

هؤلاء الذين مَرَدوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلا يوصِّل به إلى علم صفة ذينك العذابين، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأيِّ ذلك من أيٍّ. غير أن في قوله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، دلالة على أن العذاب في المرَّتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهل المدينة أيضا منافقون ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ الآية[محمد:٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا، وإن كان يراه صباحا ومساء.

وقال السعدي في تفسيره:

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أيضا منافقون ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغيانا.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما للّه في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره.

قال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾.

صرح في هذه الآية الكريمة أن من الأعراب، ومن أهل الميدنة، منافقين لا يعلمهم رسول اله ﷺ، وذكر تعالى نظير ذلك عن نوح في قوله عنه. ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الشعراء: ١١٢] الآية.

وذكر نظيره عن شعيب - عليهم كلهم صلوات الله وسلامه - في قوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٦] اهـ.

وقد أطلع الله نبيه على بعض المنافقين كما تقدم في الآيات الماضية، وقد أخبر صاحبه حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، بشيء من ذلك، كما هو معلوم.



الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وآخرون غير الذين ذكرناهم من منافقي الأعراب ومن أهل المدينة، الذين مردوا على النفاق، آخرون غير هؤلاء اعترفوا بذنوبهم وأقروا بها وطلبوا من الله أن يغفرها لهم، وهؤلاء لهم أعمالٌ صالحة، ولكن لهم أعمال سيئة أيضًا، فصدر منهم عمل صالح ومن هذا العمل الصالح توبتهم ورجوعهم إلى الله، وصدر منهم عمل سيء من المعاصي، والتي منها التخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ فهؤلاء عسى الله أن يتوب

عليهم، أي سيتوب الله عليهم، فإن عسى من الله واجب، أي أوجبه الله على نفسه، كما قال بعض العلماء: إن الله ﴿غَفُورٌ﴾ ذو مغفرة للذنوب وستر عليها ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين التائبين.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ومنهم ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، يقول: أقرُّوا بذنوبهم، ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾، يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيئ: اعترافهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السيئ: هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ، حين خرج غازيًا، وتركهم الجهادَ مع المسلمين.

ثم قال في قوله تعالى:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، يقول: لعل الله أن يتوب عليهم، ﴿عَسَى﴾ من الله واجب، وإنما معناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب على ما وصفت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، يقول: إن الله ذو صفح وعفو لمن تاب عن ذنوبه، وساترٌ له عليها ، ﴿رَّحِيمٌ﴾، به أن يعذبه بها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما بَيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغَزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكا، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين رَبِّهم، ولهم أعمال أخرَ صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية -وإن كانت نزلت في أناس معينين -إلا أنها عامة في كل

المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

وأورد ما أخرجه البخاري[(١)] من حديث سَمُرَة بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «**أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولَبِن فضة، فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت رَاء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا أما القوم الذين كانوا شَطر منهم حَسَن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، فتجاوز الله عنهم**».

وقال ابن الجوزي في (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ قال ابن جرير: وضع الواو مكان الباء والمعنى بآخر سيء كما تقول: خلطت الماء واللبن.

وفي ذلك العمل قولان:

أحدهما: أن العمل الصالح ما سبق من جهادهم والسيء التأخر عن الجهاد قاله السدي.

والثاني: أن العمل الصالح توبتهم والسيء تخلفهم ذكره الفراء وفي قوله عسى قولان:

أحدهما: أنه واجب من الله تعالى قاله ابن عباس.

والثاني: أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق وذلك يصد عن اللهو والإهمال.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد

(١) البخاري (٤٦٧٤).

الإسلامية، ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر اللّه لهم، فهؤلاء ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. **والثاني**: قبولها بعد وقوعها منهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ اللّه الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية، دلت على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصرا على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ..﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقف لها على سبب نزول بسندٍ صحيح، وإن كان كثير من المفسرين ذكروا أنها نزلت في أبي لبابة ووردت بذلك عدة آثار لا يخلو سند كل واحدٍ منها من ضعف، منها ما أخرجه الطبري بسنده إلى الزهري (١) قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية، فقال: والله لا أحلّ نفسي منها، ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا، حتى أموت أو يتوب الله عليّ ! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعامًا ولا شرابًا، حتى خرّ مغشيا عليه، قال: ثم تاب الله عليه، ثم قيل له: قد تيب عليك يا أبا لبابة! فقال: والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو يحلني ! قال: فجاء النبي ﷺ فحله بيده. ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إنّ من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله! قال: يجزيك يا أبا لبابة الثلث.



س: هل ورد عن رسول الله شيء فيمن خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؟

ج: أخرج البخاري (٢) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى من أحد منكم من رؤيا، فذكر الحديث وفيه أنه ﷺ قال: « **أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا..**» فذكر الحديث وفيه:

«**فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَا أَحْسَنَ. قَالَ: قَالَا لِي: ارْقَ، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا، فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ،**

---

(١) وهذا مرسل، ومراسيل الزهري ضعيفة.
(٢) البخاري (٧٠٤٧).

فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَ: قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ، قَالَ: وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

.. فذكر الحديث وفيه: «وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرٌ قَبِيحًا فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ».



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ سبب نزول؟

ج: لا أعلم لها سبب نزول بسندٍ صحيح، وإنما كل ما وقفت عليه من أسانيد بأسباب نزول ضعيفةٌ ولا تصح، فمن ذلك ما أخرجه الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قال: جاءوا بأموالهم ، يعني أبا لبابة وأصحابه ، حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا، واستغفر لنا ! قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا! فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: استغفر لهم.

وبسندٍ ضعيف عن سعيد بن جبير [(١)] قال: الذين ربطوا أنفسهم بالسواري حين عفا عنهم: يا نبيّ الله؛ طهِّر أموالنا ! فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، وكان الثلاثة إذا اشتكى أحدهم اشتكى الآخران مثله، وكان عَمِي منهم اثنان، فلم يزل الآخر يدعو حتى عَمِي.

---

(١) ومع ذلك فهو مرسل.

(٨٠٤) أحمر
أسود

وبسندٍ حسن عن قتادة[(١)] قال: الأربعة: جدُّ بن قيس، وأبو لبابة، وحرام، وأوس، هم الذين قيل فيهم: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾، أي وقارٌ لهم، وكانوا وعدوا من أنفسهم أن ينفقوا ويجاهدوا ويتصدَّقوا.

وبسندٍ صحيح[(٢)] عن ابن زيد في قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾، قال: هؤلاء ناسٌ من المنافقين ممن كان تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، اعترفوا بالنفاق، وقالوا: يا رسول الله، قد ارتبنا ونافقنا وشككنا، ولكن توبةٌ جديدة، وصدقةٌ نخرجها من أموالنا ! فقال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، بعد ما قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾، [سورة التوبة: ٨٤].



س: هل الصدقة المذكورة في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ صدقة فرض أم نفل؟

ج: ليس في الآية الكريمة ما يدل على شيء بعينه، والأولى إطلاقها، أي أنها تشمل الفرض والنفل، والله أعلم.



من فوائد الصدقة

س: وضح معنى قوله تعالى: (خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، خذ يا رسول الله من أصحابك من المؤمنين بك صدقة (قيل: صدقة الفرض وقيل صدقة تجود بها نفوسهم غير صدقة

(١) لكنه مرسل.
(٢) ولكنه مرسل.

الفرض) والأولى التعميم، تطهرهم، تطهر بها أموالهم لأنها إذا بقيت في الأموال تلوثت الأموال، وكذا بأخذك الصدقة تطهر أصحابك من الذنوب والمعاصي، فإنهم إذا لم يدفعوها تلوثت قلوبهم وتدنسوا بسبب الذنب الناشئ عن منع الصدقة وكذا بأخذك الصدقة منهم ترفعهم عن أهل الخسة وأهل النفاق، وتسمو بأنفسهم إلى المعالي في الإيمان والفضائل ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ادع الله لهم إذا أتوك بالصدقة، وذلك كما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا أتاه قوم بصدقتهم، كان يقبلها منهم، ويُصل عليهم كما في الحديث اللهم صل على آل أبي أوفى [(١)]، وذلك لما أتاه أبو أوفى بصدقته، ومن هنا أخذ بعض العلماء أن من يقبض الصدقة من قوم يستحب له أن يدعوا لهم.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي إن دعاءك يا رسول الله طمأنينة لقلوبهم ووقار وسكينة تحل بهم فإنهم يسعدوا بدعائك لهم، وكذلك فإن الله ﷻ يكرمهم بدعائك لهم وينزل عليهم مزيدًا من السكينة والوقار والإيمان، والله سميع بالأقوال، وبكل شيء (عليم) بما انطوت عليه النفوس، وكذا عليم بكل شيء.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها، ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾، من دنس ذنوبهم، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، يقول: وتنمِّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم منها، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، يقول: إن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم،

(١) وسيأتي إن شاء الله.

بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم، ولغير ذلك من كلام خلقه، ﴿عَلِيمٌ﴾، بما تطلب بهم بدعائك ربّك لهم، وبغير ذلك من أمور عباده.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحًا وآخر سيئا؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصًا برسول الله ﷺ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يُؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عِقالا -وفي رواية: عَناقًا -يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه(١).

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللهم صَل على آل أبي أوفى**»(٢).

ثم قال:

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾: قرأ بعضهم: «صلواتك» على الجمع، وآخرون قرءوا: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ على الإفراد.

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار.

(١) البخاري (١٤٠٠، ١٤٥٧).

(٢) البخاري(١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي: لدعائك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

قال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، آمرا له بما يطهر المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً ﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة.

﴿ وَتُزَكِّيهِم ﴾ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم.

﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموما وخصوصا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم.

﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول.

﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمتثل لأمر اللّه، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرَّك.

ففي هذه الآية، دلالة على وجوب الزكاة، في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب اللّه فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة، مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية

(٨٠٨) أحمر
أسود

بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي، أن يكون جهرا، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، ألم يعلم هؤلاء المذنبون وغيرهم من الذين تخلفوا عن الغزو معك، وغيرهم كذلك ألم يعلموا أن الله ﷻ يقبل رجوع من رجعوا إليه واستقاموا على طريقته، وندموا على ما فرطوا في جنبه، وعلى ما قصروا في امتثال أمره، فالله ﷻ يقبل توبتهم، ويقبل توبة التائبين عمومًا كما قد وردت بذلك الآيات والأحاديث، وكذا فإنه سبحانه يتقبل الصدقات التي طابت بها نفوس فاعليها ومؤديها وقد جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، وفيه قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنْ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»(١).

أما قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فمعناه، وأن الله كثير التوبة على

(١) البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

التائبين، يفتح لهم دومًا أبوابها. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره، أخبر به المؤمنين به: أن قبول توبة من تاب من المنافقين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليسا إلى نبيّ الله ﷺ، وأن نبيَّ الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه، وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه ﷺ، وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمدًا إنما يفعل ما يفعل من تركٍ وإطلاقٍ وأخذِ صدقةٍ وغير ذلك من أفعاله بأمر الله. فقال جل ثناؤه: ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع المؤمنين، الموثقو أنفسهم بالسواري، القائلون: «لا نُطلق أنفسنا حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا»، السَّائلو رسولِ الله ﷺ أخذَ صدقة أموالهم، أنَّ ذلك ليس إلى محمد، وأن ذلك إلى الله، وأن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردُّها، ويأخذ صدقة من تصدَّق منهم أو يردُّها عليه دون محمد، فيوجِّهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصدَ وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له، ويريدوه بصدقتهم، ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم؟ ، يقول: المراجع لعبيده إلى العفو عنه إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل

أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ﷺ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: أما علموا سعة رحمة اللّه وعموم كرمه وأنه ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر.

﴿ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ منهم أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية مرارا. ولا يمل اللّه من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم.

﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.



الحث على صالح العمل

س: وضح معنى قوله تعالى: (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، وقل يا رسول الله لهؤلاء جميعًا اعملوا على طريقتكم التي أنتم عليها مقيمون فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وهذا في الدنيا وسترجعوا إلى الله ﷻ الذي يعلم السر وأخفى، والذي يعلم ما غاب وما ظهر، والذي يعلم ما تبدون وما تكتمون سترجعون إليه يوم القيامة فينبئكم بما كنتم تعملون في الدنيا.

هذا، وفي قوله تعالى: (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟) ولمن توجَّه الخطاب أقوال:

أحدها: أن هذا الخطاب موجه لأهل النفاق وأهل الكفر، وذلك على سبيل التهديد، كما قال تعالى: (وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ).

وكما في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

الثاني: أنه موجهٌ إلى من أظهر التوبة والإنابة، فقل لهؤلاء اعملوا وسيظهر لنا أمركم إن وجدنا خيرًا حمدناه لكم، وإن وجدنا شرًّا عاملناكم بمقتضاه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾.

الثالث: أنه موجه للمؤمنين، وحث لهم على الاجتهاد في العبادة والعمل.

الرابع: أنه عام للجميع. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَقُلِ ﴾، يا محمد، لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك، ﴿ ٱعْمَلُواْ ﴾، لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه، ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾، يقول: فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا، ﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾، يوم القيامة، إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، يقول: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصًا، وما منه رياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿ ٱعْمَلُواْ ﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى.

﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا بـد أن يتبـين عملكـم ويتضـح، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن اللّه مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

ج: المعنى، والله أعلم، وآخرون من الذين تخلفوا عن الخروج للغزو معك غير الذين ذُكر حالهم ممن تقدموا، مؤخرون ومؤجلون لقضاء الله فيهم ولأمر الله فيهم، إما يعذبهم، وهذا والله إن لم يتوبوا، وإما يتوب عليهم إن تفضل عليهم بالعفو، أو تابوا إلى الله، والله عليهم بنفوس العباد وبأحوالهم يعلم من يستحق التوبة ممن يستحق العذاب، وعليم بكل شيء حكيم فيما يشرع، وحكيم فيما يفعل، وحكيم في كل شيء.

وبنحوه قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم لعدوّكم، أيها المؤمنون، آخرون.

ورفع قوله: ﴿آخرون﴾، عطفًا على قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾.

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ ﴾، يعني: مُرْجئون لأمر الله وَقضائه.

يقال منه: «أرجأته أرجئه إرجاء وهو مرجَأ»، بالهمز وترك الهمز، وهما

لغتان معناهما واحد. وقد قرأت القرأة بهما جميعا.

وقيل: عُني بهؤلاء الآخرين، نفرٌ ممن كان تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فندموا على ما فعلوا، ولم يعتذروا إلى رسول الله ﷺ عند مقدمه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجأ الله أمرهم إلى أن صحَّت توبتهم، فتاب عليهم وعفا عنهم.

وأما قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾، فإنه يعني: إما أن يحجزهم الله عن التوبة بخذلانه، فيعذبهم بذنوبهم التي ماتوا عليها في الآخرة، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: وإما يوفقهم للتوبة فيتوبوا من ذنوبهم، فيغفر لهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: والله ذو علم بأمرهم وما هم صائرون إليه من التوبة والمقام على الذنب، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيرهم وتدبير من سواهم من خلقه، لا يدخل حكمه خَلَلٌ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن عباس ومجاهدُ وعِكْرِمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل

بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المخلفين مؤخرون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين للّه ورسوله، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم



(٨١٥) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ
يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ
أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ
خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ
أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ ﴾

[التوبة: ١٠٧-١١٠].

(٨١٦) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ضِرَارًا - وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ - ٱلْحُسْنَىٰ - أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ - تَقُومَ فِيهِ - يَتَطَهَّرُوا۟ - ٱلْمُطَّهِّرِينَ - شَفَا جُرُفٍ هَارٍ - رِيبَةً - تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ضِرَارًا﴾	مضاراةً لأهل الإسلام – كيدًا وتآمرًا
﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾	انتظارًا – استقبالًا لعدو الله
﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾	الجنة والثواب
﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾	وبناه المتقون – أسسه من يبتغي به وجه الله
﴿تَقُومَ فِيهِ﴾	تصلي فيه
﴿يَتَطَهَّرُوا۟﴾	يزيلوا أثر النجاسة بالماء – يستنجون بالماء
﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾	المطهرين من الأحداث
﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾	حافة بئرٍ تجرفه السيول فتنهار به في نار جهنم
﴿رِيبَةً﴾	شكًا – نفاقًا – ارتيابًا
﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾	يموتوا – أو يتقطعوا ندمًا



(٨١٧) أحمر
أسود

قصة مسجد الضرار

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾.

ج: هذا، والله تعالى أعلم بيانٌ لصنيع سيء للإضلال عن سبيل الله، ولحرب الإسلام وأهله ولتفريق جماعة المسلمين، صنيعٌ صنعه فريق من أهل النفاق، قاموا ببناء مسجدٍ، وهذا في ظاهره عملٌ صالح، وأظهروا لرسول الله ﷺ أنهم بنوه للصلاة فيه وخاصة في الليالي الباردة ولاشاتية، وللضعفة منهم ولأصحاب الأعذار وغيرهم، وأيضًا لكون مسجد النبي ﷺ بعيدٌ عنهم، هكذا أظهروا لرسول الله ﷺ، والله عليم بنواياهم فهم في حقيقة الأمر ما بنوه لذلك إنما بنوه للإضرار بالإسلام وأهله، بنوه للإضرار برسول الله ﷺ وأهل الإيمان، لتفريق جماعة المسلمين، بنوه في أطراف المدنية ناحية الشام انتظار للكافر المنافق أبي عامر، والذي يقال له أبو عامر الراهب الذي تنصر وخرج هاربًا إلى بلاد الروم وبدأ يعد العدة هنالك للانقضاض على المسلمين، ويجهز ما استطاع للفتك برسولهم الأمين ﷺ فأشار على فريق من أهل النفاق من أمثاله أن يبنوا مسجدًا في أطراف المدينة لانتظاره هنالك كي يُتمم مساعيه الشيطانية التي يكيد بها للإسلام وأهله فهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي أن الذين بنوا هذا المسجد مسجد الضرار بنوه انتظارًا لأبي عامر الراهب الذي حارب الله ورسوله أثناء وجوده بالمدينة قبل سفره وخروجه منها ثم إن أهل النفاق هؤلاء، وكما هو شأنهم وكما هي عادتهم أقسموا الأيمان الكاذبة لتبرير عملهم وموقفهم وبنائهم المسجد، فقالوا بعد قسمهم ما أردنا إلا الحسنى، أي ما أردنا بعملنا هذا إلا الجنة ووجه

الله ﷻ والمحافظة على الصلوات، فكذبهم الله في قولهم وادعائهم إذ قال: والله يشهد إنهم لكاذبون في أيمانهم وفي دعواهم.

هذا مجمل ما ورد في هذه الآيات، وقد وردت بعض الآثار في هذا الصدد، وإن كان في كل من مفاريدها ضعف، ولكنها ولها طرق كثيرة، تشير إلى هذا المعنى الذي ذكرته، وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

أورد الطبري بسندٍ فيه ضعف عن الزهري، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: أقبل رسول الله ﷺ ، يعني: من تبوك ، حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجة والليلة المطِيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ! فقال: إني على جناح سفر وحال شُغْل – أو كما قال رسول الله ﷺ – ولو قَدْ قَدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلَّينا لكمً فيه. فلما نزل بذي أوان، أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي – أو أخاه: عاصم بن عدي – أخا بني العجلان فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ! فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنْظِرني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي ! فدخل [إلى] أهله، فأخذ سَعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقاه وهدماه، وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾، إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا خِذَام بن خالد، من بني عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن

زيد ، ومعتب بن قشير، من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر، من بني ضبيعة بن زيد ، وعباد بن حنيف، أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف ، وجارية بن عامر، وابناه: مجمع بن جارية، وزيد بن جارية، ونبتل بن الحارث، وهم من بني ضبيعة ، وبَحْزَج، وهو إلى بني ضبيعة ، وبجاد بن عثمان، وهو من بني ضبيعة ، ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية، رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

وكما أسلفنا فسنده ضعيف.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل الكلام: والذين ابتنوا مسجدًا ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله لمحادّتهم بذلك رسولَ الله ﷺ، ويفرِّقوا به المؤمنين، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا، ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، يقول: وإعدادًا له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله، ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزَّب الأحزاب - يعني: حزّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ - فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النَّصْر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضِّرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك. وهذا معنى قول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، يقول جل ثناؤه: وليحلفن بانوه: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ببنائناه، إلا الرفق بالمسلمين، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المصير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه،

وتلك هي الفعلة الحسنة، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، في حلفهم ذلك، وقيلهم: «ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى!»، ولكنهم بنوه يريدون ببنائه السُّوآى، ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لأبي عامر الفاسق.

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، الآية، عمد ناسٌ من أهل النفاق، فابتنوا مسجدًا بقباء، ليضاهوا به مسجد رسول الله ﷺ، ثم بعثوا إلى رسول الله ليصلِّي فيه. ذكر لنا أنه دعا بقميصه ليأتيهم، حتى أطلعه الله على ذلك ، وأما قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فإنه كان رجلا يقال له: «أبو عامر»، فرّ من المسلمين فلحق بالمشركين، فقتلوه بإسلامه. قال: إذا جاء صلى فيه، فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾، الآية.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾، قال: مسجد قباء، كانوا يصلون فيه كلهم. وكان رجل من رؤساء المنافقين يقال له: «أبو عامر»، أبو: «حنظلة غسيل الملائكة»، و«صيفي»، [واحق]. وكان هؤلاء الثلاثة من خيار المسلمين، فخرج أبو عامر هاربًا هو وابن عبد ياليل، من ثقيف، وعلقمة بن علاثة، من قيس، من رسول الله ﷺ حتى لحقوا بصاحب الروم. فأما علقمة وابن عبد ياليل، فرجعا فبايعا النبي ﷺ وأسلما. وأما أبو عامر، فتنصر وأقام. قال: وبنى ناسٌ من المنافقين مسجد الضرار لأبي عامر، قالوا: «حتى يأتي أبو عامر يصلي فيه»، وتفريقًا بين المؤمنين، يفرقون به جماعتهم، لأنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء. وجاءوا يخدعون النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ربما جاء السيلُ، فيقطع بيننا وبين الوادي، ويحول بيننا وبين القوم، ونصلي في

مسجدنا، فإذا ذهب السيل صلينا معهم ! قال: وبنوه على النفاق. قال: وانهار مسجدهم على عهد رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهبُ»، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكُسِرت ربَاعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله

وسلامه عليه في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدمُ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»(١).

فلما قفل، عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة.

وقوله: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي: ما أردناه ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِرارا لمسجد قُباء، وكفرا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: «الراهب» لعنه الله.

(١) في سنده مقال.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا ﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿ وَكُفۡرٗا ﴾ أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿ وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿ وَإِرۡصَادٗا ﴾ أي: إعدادا ﴿ لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ أي: إعانة للمحاربين للّه ورسوله، الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبدا في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول اللّه ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وممالأة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد ﴿ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ ﴾ في بنائنا إياه ﴿ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾ أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فشهادة اللّه عليهم أصدق من حلفهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَكُفۡرٗا ﴾ لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قباء ولا لمسجد النبي ﷺ كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله ابن العربي. وقيل: ﴿وَكُفۡرٗا ﴾ أي بالنبي ﷺ وبما جاء به؛ قاله القشيري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي يفرقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبي ﷺ. وهذا يدلك على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة

بفعل الديانة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد.

وتفطن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من هذه الآية فقال: لا تصلي جماعتان في مسجد واحد بإمامين ؛ خلافا لسائر العلماء. وقد روي عن الشافعي المنع ؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول: من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام، وخفي ذلك عليهم. قال ابن العربي: وهذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قدما منهم في الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني أبا عامر الراهب؛ وسمي بذلك لأنه كان يتعبد ويلتمس العلم فمات كافرا بقنسرين بدعوة النبي ﷺ ؛ فإنه كان قال للنبي ﷺ: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين. فلما انهزمت هوازن خرج إلى الورم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال: استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا مسجدا فإني ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمدا من المدينة ؛ فبنوا مسجد الضرار. وأبو عامر هذا هو والد حنظلة غسيل الملائكة. والإرصاد: الانتظار ؛ تقول: أرصدت كذا إذا أعددته مرتقبا له به. قال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر. وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت. وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بناء مسجد الضرار. ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهي الرفق بالمسلمين كما ذكروا لذي العلة والحاجة. وهذا يدل على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات، ولذلك قال: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: يعلم خُبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وإذا كان المسجد الذي يتخذ للعبادة وحض

الشرع على بنائه فقال: «**من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة**» يهدم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره، فما ظنك بسواه بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم. وذلك كمن بنى فرنا أو رحى أو حفر بئرا أو غير ذلك مما يدخل به الضرر على الغير. وضابط هذا الباب: أن من أدخل على أخيه ضررا منع. فإن أدخل على أخيه ضررا بفعل ما كان له فعله في ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل ؛ فإن كان تركه أكبر ضررا من الضرر الداخل على الفاعل قطع أكبر الضررين وأعظمهما حرمة في الأصول. مثال ذلك: رجل فتح كوة في منزله يطلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء في بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار في حوائجهن، ومعلوم أن الإطلاع على العورات محرم وقد ورد النهي فيه فلحرمه الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفي غلقه عليه ضرر لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين، إذ لم يكن بد من قطع أحدهما وهكذا الحكم في هذا الباب، خلافا للشافعي ومن قال بقوله. قال أصحاب الشافعي: لو حفر رجل في ملكه بئرا وحفر آخر في ملكه بئرا يسرق منها ماء البئر الأولة جاز ؛ لأن كل واحد منهما حفر في ملكه فلا يمنع من ذلك. ومثله عندهم: لو حفر إلى جنب بئر جاره كنيفا يفسده عليه لم يكن له منعه ؛ لأنه تصرف في ملكه. والقرآن والسنة يردان هذا القول. وبالله التوفيق.

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه، كدخان الفرن والحمام وغبار الأندر والدود المتولد من الزبل المبسوط في الرحاب، وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشي تماديه. وأما ما كان ساعة خفيفة مثل نفض الثياب والحصر عند الأبواب ؛ فإن هذا مما لا غنى بالناس عنه، وليس مما يستحق به شيء ؛ فنفي الضرر في منع مثل هذا أعظم وأكبر من الصبر على ذلك ساعة خفيفة. وللجار على جاره في أدب السنة أن يصبر على

أذاه على ما يقدر كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه.

ومما يدخل في هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبي أويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عرض لها، يعني مسا من الجن، فكانت إذا أصابها زوجها وأجنبت أودنا منها يشتد ذلك بها. فقال مالك: لا أرى أن يقربها، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها.



فساقٌ وأبناؤهم صالحون

س: كم من شخصٍ فاسق وكافر وأبناؤه من أهل الفضل والصلاح، اذكر شيئًا في هذا الصدد؟

ج: من هذا ما يلي:

عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين ولكن ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبي من أهل الإيمان والفضل والصلاح.

عتبة بن ربيعة رأس من رؤوس الكفر، وهو من المبارزين يوم بدر من أهل الكفر، ولكن ولده أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة من أهل الإيمان والفضل، وكان شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ.

أبو عامر الراهب، فاسق، كافر، ولكن ابنه حنظلة غسيل الملائكة.

وقبل هؤلاء آزر، وهو كافر معاند، ولكن ابنه إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن.

وغير هؤلاء كثير كثير كثير.

فهذا حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله ولا يُعيَّر شخص بأبيه الكافر أو المنافق، ما دام هو على الإيمان والصلاح، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. والله أعلم.



س: وضح معنى قولـه تعـالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾.

ج: هذا، والله تعالى أعلم، نهيٌ عن الصلاة في مسجد الضرار الذي ابتناه أهل النفاق للصد عن سبيل الله وللكيد للإسلام وأهله لما ابتناه أهله أتوا رسول الله ﷺ كي يصلي فيه، فيتخذوا من صلاة رسول الله ﷺ إقرارًا منه لهم على صنيعهم، فيلبسون بذلك على المسلمين، فأطلع الله ﷻ، ولله الحمد، أطلع نبيه ﷺ على صنيعهم السيء الذي صنعوه، وعلى نواياهم، ما انطوت عليه قلوبهم، ونهاه أن يصلي في هذا المسجد فقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تقم فيه مصليًا ولا تدخله من الأصل، إنما الذي تدخله وتصلي فيه، وهو أحق بذلك مسجدٌ أسس على التقوى، أسسه بانيه أول ما أسسه متقيًا الله في تأسيسه مبتغيًا به وبتأسيسه وجه الله مُريدًا بتأسيسه توحيد الله، واتقاء الشرك به، هذا الذي يُصلي فيه فهو الأحق بأن تصلي فيه، ففيه رجال من أهل الفضل (أهل الصلاح يحبون أن يتطهروا من القاذورات وكذا من الشركيات، وكذا من النفاق، والله يحب من هذا شأنه، يحب المتطهرين من القاذورات، وقد ورد أن أهل هذا المسجد، أهل قباء كانوا يستنجون بالماء، فجاء هذا الثناء في شأنهم، وكذا فإن ربنا يحب المتطهرين من الشرك والنفاق.

وهذه أقوال بعض أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تقم، يا محمد، في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون، ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله. ثم أقسم جل ثناؤه فقال: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ﴾، أنت، ﴿فِيهِ﴾.

يعني بقوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾، ابتدئ أساسه وأصله على تقوى الله وطاعته، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، ابتدئ في بنائه، ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، يقول: أولى أن تقوم فيه مصلِّيًا.

وقيل: معنى قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، مبدأ أول يوم كما تقول العرب: «لم أره من يوم كذا»، بمعنى: مبدؤه، و«من أول يوم»، يراد به: من أول الأيام، كقول القائل: «لقيت كلَّ رجل»، بمعنى كل الرجال.

وقال آخرون: بل عنى بذلك مسجد قباء.

قال الطبري:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو مسجد الرسول ﷺ، لصحة الخبَر بذلك عن رسول الله ﷺ.

وأورد الطبري الآثار بذلك، وقال:

في تأويل قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾.

يقول تعالى ذكره: في حاضري المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، رجال يحبُّون أن ينظفوا مقاعدَهم بالماء إذا أتوا الغائط، والله يحبّ المتطهّرين بالماء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ﴾ نهي من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تَبَع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدا.

ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعا لكلمة المؤمنين ومَعقلا وموئلا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء.

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا:

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده:

حدثنا أبو نُعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أبيّ بن كعب: أن النبي ﷺ قال: «**المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا**». تفرد به أحمد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ ﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارا أبدا. فاللّه يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين للّه، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديما في هذا عريقا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ ﴾ وتتعبد، وتذكر اللّه تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم اللّه بقوله: ﴿ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ ﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد، مع رسول اللّه ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة اللّه ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.



المسجد المؤسس على التقوى

س: ما المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه مسجد رسول الله ﷺ وذلك لوجود النص بذلك، فقد أخرج مسلم من طريق أبي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: قَالَ أَبِي: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ. ثُمَّ قَالَ: «**هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا**» (لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ) قَالَ: فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ أَبَاكَ هَكَذَا يَذْكُرُهُ[1].

والثاني: أنه مسجد قباء، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ﴾.

وقد ورد في ذلك ما سيأتي قريبًا من استنجاء أهل قباء بالماء.

ولا يمنع أن يكون المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد رسول الله ﷺ لوجود النص بذلك، ولكن هذا لا يعني أن غيره لم يؤسس على التقوى فكلا المسجدين أُسس على التقوى، وبالله التوفيق،

---

(١) مسلم (١٣٩٨).

والعلم عند الله.



فضل مسجد قباء

س: اذكر بعض الوارد في فضل مسجد قباء.

ج: من ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري (١) ومسلم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء، راكبًا وماشيًا.

وفي رواية عند مسلم فيصلي فيه ركعتين وفي بعض الروايات. من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كان النبي ﷺ يأتي قباء كل سبتٍ ماشيًا وراكبًا وكان عبد الله رضي الله عنه يفعله (٢).

وقد ورد في الباب حديث في أسانيده مقال، ألا وهو صلاة في مسجد قباء تعدل عمرة، وفي كل أسانيده ضعف (٣).



وجه الثناء على أهل المسجد المؤسس على التقوى

س: ما الصنيع الذي صنعه أهل المسجد الذي أسس على التقوى حتى أثنى عليهم هذا الثناء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾؟

ج: ورد في ذلك أنهم كانوا يستنجون بالماء، أخرج الإمام أحمد (٤) بسندٍ

(١) البخاري (١١٩٤)، ومسلم (١٣٩٩).

(٢) البخاري (١١٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٩٨١)، والنسائي (٦٦٩)، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة (٧٦١٠)، (١٦٤١)، وغيرهم.

(٤) أحمد (٦/ ٦) بسندٍ فيه شهر بن حوشب وفيه ضعف، لكن للحديث شواهد يُحسن بها، وإن كانت= = لا تخلو نم مقال هي الأخرى، انظر ابن خزيمة (١/ ٨٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠٠٧٩)، والطبري (١٧٢٢٧)، والجزء الذي يحسن هو المتعلق بالاستنجاء.

حسن لشواهده من حديث محمد بن عبد الله بن سلام، قال: قدم رسول الله ﷺ يعني قباءً، فقال: «إن الله ﷻ قد أثنى عليكم في الطهور خيرًا أفلا تخبروني؟»، يعني قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾. فقالوا: يا رسول الله، إنا نجد مكتوبًا علينا في التوراة الاستنجاء بالماء.



حبُّ الله ﷻ للمتطهرين ظاهرًا وباطنًا

س: ربنا ﷻ يحب المتطهرين من الذنوب والمتطهرين من النجاسات، دلِّل على ذلك.

ج: نعم الله يحب المتطهرين من الذنوب، وهم التوابون المستغفرون، فباستغفارهم تتطهر قلوبهم، وبردهم المظالم تتطهر قلوبهم، وكذا يحب المتطهرين من النجاسات، فهكذا يحب الله طهارة الظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: (أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩).

ج: هذه تحتمل معنيين، ومردهما إلى بعضهما، والله أعلم.

المعنى الأول: آلمسجد الذي أسسه المتقون الذين يبتغون بتأسيسه رضا الله ﷻ عنهم بأعمالهم وتأسيسهم المسجد، خير أم المسجد الذي أسسه أهل كفر وأهل نفاق يبتغون به الشقاق والعناد، أسسوه وليس له أساس، أسسوه على حافة بئر ليست مبطنة بالأحجار وليست قوية يأتيه السيل فيجرف

المسجد فينهار بمن فيه في البئر، ولكن أي بئر؟! إنها نهار جهنم والعياذ بالله.

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ فمعنا والله لا يوفق لطاعته أهل الظلم ما داموا قائمين على ظلمهم وقائمين على ظفرهم، لا يوفقهم وقد كتبت عليهم الشقاوة.

والوجه الثاني: آلمتقون الذين أسسوا المسجد يبتغون بذلك مرضاة الله أولى أن تُصلي معهم وأن تواليهم أم أهل النفاق الذين يؤسسون المساجد مضارةً لأهل الإسلام وكيدًا لأهله؟!

فهؤلاء أهل النفاق يؤسسون مسجدهم على غير أساس من التقى والصلاح، يؤسسون مسجدهم على حافة بئر غير مبطنة ولا مبنية، تأتيهم السيول فتجرفهم بمسجدهم في البئر تجرفهم ومسجدهم في نار جهنم، والله لا يوفق لطاعته ومرضاته والإيمان به أهل الظلم القائمين على ظلمهم الذين كُتبت عليهم الشقاوة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: طرف حَفِيرة مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذًا: أيُّ هؤلاء الذين بنوا المساجد خير، أيها الناس، عندكم: الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتقاء الله، بطاعتهم في بنائه، وأداء فرائضه ورضًى من الله لبنائهم ما بنوه من ذلك، وفعلهم ما فعلوه، خيرٌ، أم الذين

ابتدأوا بناءَ مسجدهم على شفا جُرفٍ هارٍ؟

يعني بقوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾، على حرف جُرُف.

و«الجرف»، من الركايا، ما لم يُبْنَ له جُولٌ[1].

(هار﴾، يعني متهوِّر. وإنما هو «هائر»، ولكنه قلب، فأخرت ياؤها فقيل: «هارٍ»، كما قيل: «هو شاكي السلاح»، و«شائك»، وأصله من «هار يهور فهو هائر»، وقيل: «هو من هارَ يهار»، إذا انهدم. ومن جعله من هذه اللغة قال: «هِرْت يا جرف»، ومن جعله «من هار يهور»، قال: «هُرْت يا جرف».

قال أبو جعفر: وإنما هذا مَثَلٌ. يقول تعالى ذكره: أيّ هذين الفريقين خير؟ وأيّ هذين البناءين أثبت؟ أمَن ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله، وعلمٍ منه بأن بناءه لله طاعة، والله به راضٍ، أم من ابتدأه بنفاق وضلال، وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه، فيهدمه، كما يأتي البناءُ على جرف ركيَّةٍ لا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، ثَرِيّةِ التراب متناثرة، لا تُلْبثه السيول أن تهدمه وتنثره؟

يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، يعني فانتثر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق للرشاد في أفعاله، من كان بانيًا بناءه في غير حقه وموضعه، ومن كان منافقًا مخالفًا بفعله أمرَ الله وأمرَ رسوله.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟

---

(١) يعني البطانة المحيطة بجوانبه من الأحجار.

رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾، لا يزال ريبة في قلوبهم راضين بما صنعوا، كما حُبِّب العجل في قلوب أصحاب موسى. وقرأ: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة: ٩٣] قال: حبَّه، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾، قال: لا يزال ذلك في قلوبهم حتى يموتوا ، يعني المنافقين.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل انهار الجرف ؛ كأنه قال: فانهار الجرف بالبنيان في النار ؛ لأن الجرف مذكر. ويجوز أن يكون الضمير في به يعود على «من» وهو الباني ؛ والتقدير: فانهار من أسس بنيانه على غير تقوى. وهذه الآية ضرب مثل لهم، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق. وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها. والشفا: الشفير. وأشفى على كذا أي دنا منه.

وفي هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه، ويخبر عنه بقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] على أحد الوجهين. ويخبر عنه أيضا بقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [الكهف: ٤٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَٰنٍ ﴾ بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا ﴾ أي: على طرف ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

أورد ابن الجوزي قراءتين في قوله: ﴿أَسَّسَ﴾ إحداهما بضم الألف (أُسس) والأخرى بفتحها (أَسس).

وكذا أورد قراءتين في قوله: ﴿جُرُفٍ﴾.

إحداهما: (جُرُف) بضم الراء.

والثانية: (جُرْف) بتسكين الراء.

وقال: والتأسيس إحكام أس البناء، وهو أصله، والمعنى المؤسس بنيانه متقيًا يخاف الله ويرجو رضوانه خير أو المؤسس بنيانه غير متق.

وقال: وقال ابن قتيبة: المعنى على حرف جرف هائر، والجرف: ما يتجرف بالسيول من الأودية والهائر: الساقط منه، ومنه تهوَّر البناء وانهار إذا سقط.

وقال:

قوله تعالى: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ﴾ أي بالباني ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ قال الزجاج: وهذا مثل والمعنى أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها وقال قتادة ذكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة فرؤي فيها الدخان قال جابر رأيت المسجد الذي بني ضرارا يخرج منه الدخان.



النفاق يلازم أهل مسجد الضرار

س: وضح معنى قوله تعالى: (لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾).

ج: المعنى، والله أعلم، أن هذا البنيان – مسجد الضرار – الذي بناه هؤلاء المنافقون – وشكًا وارتيابًا ونفاقًا أكثر مما كانوا فيه، ذلك لأنهم بنوه يبتغون به الكيد للإسلام وأهله فزادهم الله زيغًا إلى زيغهم وانصرافًا إلى انصرافهم

وكفرًا إلى كفرهم ونفاقًا إلى نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وكما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ إلى غير ذلك.

فهذا النفاق وهذا الشك وذاك الارتياب دخل قلوبهم وازداد وتمكن منها بعد بنائهم المسجد، عقوبة من الله لهم، وانتقامًا منهم، ولا يزال هذا النفاق يصاحبهم إلى أن تقطع قلوبهم بالموت، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ ..﴾.

وقيل: إلا أن تقطع قلوبهم تحسرًا وندامةً على ما صنعوا، وتوبةً وإنابةً إلى الله ﷻ حتى يزيحه الله عنهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لا يزال بنيان هؤلاء الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا، ﴿رِيبَةٗ﴾، يقول: لا يزال مسجدهم الذي بنوه، ﴿رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، يعني: شكًّا ونفاقًا في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحْسنين، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، يعني: إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بما عليه هؤلاء المنافقون

الذين بنوا مسجد الضرار، من شكهم في دينهم، وما قصدوا في بنائهموه وأرادوه، وما إليه صائرٌ أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم، ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: شكا، وريبا ماكثا في قلوبهم، ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو اللّه عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم، ونفاقا إلى نفاقهم.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه.

﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فللّه الحمد.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ﴾ يعني: مسجد الضرار ﴿ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: شكا ونفاقا لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه قاله ابن عباس وابن زيد.

والثاني: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه قاله ابن السائب ومقاتل.

والثالث: أن المعنى لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا في قلوبهم قاله السدي والمبرد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ الأكثرون إلا وهو حرف استثناء وقرأ يعقوب إلى أن فجعله حرف جر وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو

والكسائي وأبو بكر عن عاصم تقطع بضم التاء وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم تقطع بفتح التاء ثم في المعنى قولان:

أحدهما: إلا أن يموتوا قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة في آخرين.

والثاني: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم ذكره الزجاج.



بعض المستفاد من قصة مسجد الضرار

س: اذكر بعض الفوائد المستنبطة من قصة مسجد الضرار.

أورد السعدي رحمه الله في تفسيره طائفة من ذلك فقال:

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلا تغيره النية، فينقلب منهيا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن اللّه علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة للّه ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في

مسجد « قباء» حتى قال اللّه فيه:

﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ ﴾.

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية للّه، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى اللّه ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره اللّه له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، واللّه لا يهدي القوم الظالمين.



قال الله تعالى:

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ
ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا
فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ
فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١
ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ
ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ
لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ
لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦ ﴾

[التوبة: ١١١-١١٦].

(٨٤٢) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ - وَٱلْإِنجِيلِ - فَٱسْتَبْشِرُواْ - ٱلتَّٰٓئِبُونَ - ٱلْعَٰبِدُونَ - ٱلْحَٰمِدُونَ - ٱلسَّٰٓئِحُونَ - ٱلرَّٰكِعُونَ - ٱلسَّٰجِدُونَ - ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ - وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ - وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ - أُوْلِي قُرْبَىٰ - تَبَيَّنَ لَهُمْ - مَّوْعِدَةٍ - لَأَوَّٰهٌ - حَلِيمٌ - لِيُضِلَّ قَوْمًا - مَّا يَتَّقُونَ - وَلِيٍّ - نَصِيرٍ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾	الكتاب الذي أُنزل على نبي الله موسى عليه السلام
﴿وَٱلْإِنجِيلِ﴾	الكتاب الذي أُنزل على نبي الله عيسى عليه السلام
﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾	فيبشر بعضكم بعضًا – فافحروا واسعدوا
﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾	الرجّاعون عن الشرك، والبراء من النفاق، التائبون من الذنوب كلها، الراجعون إلى الله وإلى طاعته وإلى الاستقامة عن أمره تابوا من الشر وبرءوا من النفاق
﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾	الذين ذلّت نفوسهم وخضعت لله عز وجل فرقًا منه وطاعة له وحجته له فاجتهدوا في طاعته – الخاضعون
﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾	الذين يحمدون الله على الخير والشر، في كل أحيانهم
﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾	الصائمون
﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾	الراكعون في صلاتهم
﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾	الساجدون في صلاتهم

(٨٤٣) أحمر
أسود

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾	المؤدون لفرائض الله ولما أوجبه عليهم، المنتهون عما نهاهم الله عنه
﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾	انصرف مُعرضًا مُتعاليًا
﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾	صممًا – ثقلًا
﴿أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾	جبالًا لإرسائها
(تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾	لئلا تميل
﴿مَّوۡعِدَةٖ﴾	فرَّق ونشر
﴿لَأَوَّٰهٌ﴾	حسن
﴿حَلِيمٞ﴾	ذهاب عن الحق ظاهر – ذهاب عن الحق في طريق مظهر لمن تأمله أن ساكهه ضآل
﴿لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾	المصدقين بوحدانية الله – المصدقين بوعد الله ووعيده، وبكل ما أخبر الله به والمصدقين لرسله كذلك



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾؟

ج: المعنى– والله أعلم – أن الله ﷻ يُخبر عباده بأنه اشترى منهم أموالهم وأنفسهم، إن هم بذلوا من أموالهم لنصرة دين الله ولإعلاء كلمة الله وإن هم بذلوا أنفسهم لذلك، فقاتلوا أعداء الله فقتلوا أهل الكفر وقلتهم أهل الكفر، إن هم فعلوا ذلك فثمن ذلك الجنة، التي لهم فيها ما تشتهيه الأ،فس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وقد وعد الله ﷻ هذا الوعدة في كتبه التي انزلها على رسله وعد الله بذلك في التوراة والأنجيل والقرآن، التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام فيها هذا الوعد، وكذا الإنجيل الذي آتاه الله عيسى عليه السلام وكذا القرآن، فكل من آمن بالله وصدق المرسلين وجاهد بنفسه وبماله فله الجنة، وعدًا حقًّا من الله ﷻ، وليس هناك من هو أولى بالعهد من الله ﷻ فافرحوا بذلك يا أهل الإيمان وليبشر بعضكم بعضًا بذلك استبشروا بالجنة ثمنًا عظيمًا لأموالكم وأنفسكم التي بذلتموها لنصرة دين الله ﷻ، وذلك هو أعظم فوز على الإطلاق، ذلك هو الفوز العظيم.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: إن الله ابتاعَ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة، ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، يقول: وعدهم الجنة جل ثناؤه، وعدًا عليه حقًّا أن يوفِّي لهم به، في كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وَفَوا بما عاهدوا الله، فقاتلوا في سبيله ونصرةِ دينه أعداءَه، فقَتَلوا وقُتِلوا، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ

ٱللَّهِۚ﴾، يقول جل ثناؤه: ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله ، ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾، يقول ذلك للمؤمنين: فاستبشروا، أيها المؤمنون، الذين صَدَقوا الله فيما عاهدوا، ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم به، فإن ذلك هو الفوز العظيم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ ﴾ أي: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «**وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة**»[(١)].

وقوله: ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾ [أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما

(١) البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦).

عاهد عليه من الله] فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام. و«وعدا» و«حقا» مصدران موكدان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي لا أحد أو في بعهده من الله. وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد، ولا يتضمن وفاء البارئ بالكل ؛ فأما وعده فللجميع، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وببعض الذنوب وفي بعض الأحوال. وقد تقدم هذا المعنى مستوفى.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ﴾ أي أظهروا السرور بذلك. والبشارة إظهار السرور في البشرة. وقد تقدم. وقال الحسن: والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة. ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي الظفر بالجنة والخلود فيها.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وقوله: ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ يدل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال وَوُعِدوا عليه الجنة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى خبرا صدقا، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾

فهي المثمن والسلعة المبيعة.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا للّه نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه فـ ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من اللّه مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ ﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم اللّه، ﴿ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضا، ويحث بعضكم بعضا.

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من اللّه الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو اللّه جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب اللّه الكبار المنزلة على أفضل الخلق.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

ج: من العلماء من قال إن هذه الآية متصلة بما قبلها في العنى فإن سألت من هؤلاء الذين اشترى الله منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة، وما صفاتهم وما أتاهم لهم فجواب سؤالك هم التائبون العابدون.

ومن العلماء من قال هذه الآية مستقلة في معناها عما قبلهان والمعنى بشر المؤمنين الذين من صفاتهم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱللَّهِ..﴾.

أما عن معنى الآية:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: الرجَّاعون إلى الله ﷻ بعد ذنوبهم، وبعد ابتعادهم عن طريقه، المستغفرون من ذنوبهم.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾: الخاضعون لله المطيعون له الذين ذلَّت له نفوسهم مع محبةٍ منهم لربهم، وامتثال لأوامره واجتنابه لنواهيه.

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾: لله على كل أحوالهم في سرائرهم وضرائهم.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: فهم الصائمون.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾: في صلواتهم.

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: بالحكمة والموعظة الحسنة، ووفق كتاب ربهم ﷻ وسنة نبيهم ﷺ.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾: المقيمون لأوامره والذين لا يرتكبون ما نهى عنه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: بجنات النعيم وبرضوانه من رب العالمين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين أنفسهم وأموالهم ، ولكنه رفع، إذ كان مبتدأ به بعد تمام أخرى مثلها. والعرب تفعل ذلك.

وقال في معنى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾، الراجعون مما كرهه الله وسخطه إلى ما يحبُّه ويرضاه.

وأما قوله: ﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾، فهم الذين ذلُّوا خشيةً لله وتواضعًا له، فجدُّوا في خدمته.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾، قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم.

وقال: وقوله: ﴿ٱلۡحَـٰمِدُونَ﴾، فإنهم الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير وشر.

وقال: وأما قوله: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾، فإنهم الصائمون.

وقال: قوله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾، يعني المصلين، الراكعين في صلاتهم، الساجدين فيها.

وأما قوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، فإنه يعني أنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم، واتباع الرشد والهدى، والعمل، وينهونهم عن المنكر، وذلك نهيهم الناسَ عن كل فعل وقول نهى الله عباده عنه.

وأما قوله: ﴿وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾، فإنه يعني: المؤدّون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه، الذين لا يضيعون شيئًا ألزمهم العملَ به، ولا يرتكبون شيئًا نهاهم عن ارتكابه.

وأما قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإنه يعني: وبشّر المصدِّقين بما وعدهم الله إذا هم وفَّوا الله بعهده، أنه مُوفٍّ لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخَصّ الأقوال الحمد؛ فلهذا قال: ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيامُ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَـٰٓئِحَـٰتٍ﴾ [التحريم: ٥] أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من اللّه بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ أي: المتصفون بالعبودية للّه، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ للّه في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما

للّه عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على اللّه بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة اللّه ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود.

﴿ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ وهي جميع ما نهى اللّه ورسوله عنه.

﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل اللّه على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلا وتركا.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفا، وعملا بمقتضاه.



س: هل ورد عن رسول الله ﷺ حديث صحيح في تفسير السائحين بالصائمين؟

ج: ورد في ذلك أخبار لا تخلو من مقال، منها ما أخرجه الطبري بسندٍ

(٨٥٢) أحمر
أسود

صحيح عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن «السائحين» فقال: هم الصائمون.

وهذا مرسل.

وأخرج الطبري أيضًا من حديث أبي هريرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هم الصائمون.

لكن أعل هذا بالوقف.

فقد أخرجه الطبري من وجهٍ أصح موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا، وقد ورد في هذا الصدد حديث آخر بلفظ: «**سياحة أمتى الجهاد في سبيل الله**».

وقد صح عن عددٍ من أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم أن ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هم الصائمون.

روي ذلك بإسنادٍ حسن عن ابن مسعود وغيره عند الطبري وغيره.



س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾.

ج: سبب نزولها ما أخرجه البخاري ومسلم[١] في صحيحيهما من طريق سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ. جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَمِّ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ

(١) البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ** فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**».



النهي عن الاستغفار للمشركين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ما كان ينبغي، وما كان يحلُّ وما كان يجوز للنبي ﷺ ولا لذين آمنوا أن يطلبوا من الله ﷻ المغفرة لأهل الشرك، ولو كان هؤلاء المشركون من أقربائهم، وذلك من بعد ما ظهر لأهل الإيمان أن أهل الشرك هم أصحاب الجحيم إن هم ماتوا على شركهم ولم يتوبوا منه قبل الممات.

هذان وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ للعلماء فيه أقوال: أحدها: أ، هذا التبين يكون إذا مات المشرك على شركه، فحينئذ لا يُصلى عليه ولا يستغفر له، ولا يقبر في مقابر المسلمين،...إلى غير ذلك من متبوعات الموت على الكفر، والعياذ بالله.

والثاني: أن هذا التبين يكون يوم القيامة إذا عُلم آنذاك أن هذا المشرك من أهل النار فلا يستغفر له، والظاهر، والله أعلم، ما قدمته من أن قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: من بعد ما تبين للمسلمين أن أهل الشرك هم أهل النار، وهذا العلم يتأتى بمعرفة أحوالهم في الدنيا وبالظاهر الذي ماتوا عليه، فما داموا على شركهم في الدنيا فلا يستغفر لهم، وكذا إذا ماتوا على الشرك لا يستغفر لهم ولا يُصلى عليهم كذلك.

أما الدعاء للمشركين الأحياء بالهداية فجائز وستأتي أدلته إن شاء الله.

هذا، وإن احتج محتج بأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وكان أبوه مشركًا، فجواب ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان قد وعد أباه وعدًا بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم: ٤٧] وذلك قبل أن يعلم من حاله أن أباه سيموت على الكفر، فلما ظهر له بموت أبيه على الكفر، ولا يمنع أيضًا أن يكون إضافة إلى ما ذكر، إخبار الله عز وجل إبرهيم عليه السلام أن أبا إبراهيم عدو لله، فحينئذٍ تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه ولم يعد للاستغفار له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: كثير الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل والتخشع لله عز وجل وقيل: معناه رحيم.

وقوله: ﴿حَلِيمٞ﴾أي: لا يُعاجل بالعقوبة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ما كان ينبغي للنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به، ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾، يقول: أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين

يستغفرون لهم، ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، ذوي قرابة لهم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، يقول: من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله. فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك؟ فلم يكن استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه. فلما تبين له وعلم أنه لله عدوٌّ، خلاه وتركه، وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمرَه عليه، فتبرأ منه حين تبين له أمره.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، فإن أهل العلم اختلفوا في السبب الذي أنزل فيه.

فقال بعضهم: أنزل من أجل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يستغفرون لموتاهم المشركين، ظنًّا منهم أنّ إبراهيم خليل الرحمن قد فعل ذلك، حين أنزل الله قوله خبراً عن إبراهيم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾، ومعناه: إلا من بعد موعدة، كما يقال: «ما كان هذا الأمر إلا عن سبب كذا»، بمعنى: من بعد ذلك السبب، أو من أجله. فكذلك قوله: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾، من أجل موعدة وبعدها.

وقد تأوّل قوم قولَ الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، الآية، أنّ النهي من الله عن الاستغفار للمشركين بعد مماتهم، لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾. وقالوا: ذلك لا

يتبينه أحدٌ إلا بأن يموت على كفره، وأما وهو حيٌّ فلا سبيل إلى علم ذلك، فللمؤمنين أن يستغفروا لهم.

وقال آخرون: الاستغفار في هذا الموضع بمعنى الصلاة[1].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد دللنا على أن معنى «الاستغفار»: مسألة العبد ربَّه غفرَ الذنوب. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت مسألة العبد ربَّه ذلك قد تكون في الصلاة وفي غير الصلاة، لم يكن أحد القولين اللذين ذكرنا فاسدًا، لأن الله عمَّ بالنهي عن الاستغفار للمشرك، بعد ما تبين له أنه من أصحاب الجحيم، ولم يخصص عن ذلك حالا أباح فيها الاستغفار له.

وأما قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، فإن معناه: ما قد بيَّنتُ، من أنه: من بعد ما يعلمون بموته كافرًا أنه من أهل النار.

وقيل: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، لأنهم سكانها وأهلها الكائنون فيها، كما يقال لسكان الدار: «هؤلاء أصحاب هذه الدار»، بمعنى: سكانها.

وقال الطبري:

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾.

قال بعضهم: معناه: فلما تبين له بموته مشركًا بالله، تبرأ منه، وترك الاستغفار له.

وقال آخرون: معناه: فلما تبين له في الآخرة. وذلك أن أباه يتعلَّق به إذا أرادَ أن يجوز الصراط فيمرّ به عليه، حتى إذا كاد أن يجاوزه، حانت من إبراهيم التفاتةٌ، فإذا هو بأبيه في صورة قِرْد أو ضَبُع، فيخلِّي عنه ويتبرأ منه حينئذ.

(١) يعنون الصلاة على الميت.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ الله، وهو خبره عن إبراهيم أنه لما تبين له أن أباه لله عدوٌّ، يبرأ منه، وذلك حال علمه ويقينه أنه لله عدوٌّ، وهو به مشرك، وهو حالُ موته على شركه.

وقال في تأويل قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في «الأوّاه».

فقال بعضهم: هو الدعَّاء.

وأورد بإسنادٍ حسن عن عبد الله (ابن مسعود) : «الأوّاه»، الدعّاء.

وقال آخرون: بل هو الرحيم.

وقال آخرون: بل هو الموقن.

وقال آخرون: هي كلمة بالحبشة، معناها: المؤمن.

وقال آخرون: هو المسبِّح، الكثير الذكر لله.

وقال آخرون: هو الذي يكثر تلاوة القرآن.

وقال آخرون: هو من التأوُّه.

وقال آخرون: معناه أنه فقيهٌ.

وقال آخرون: هو المتضرع الخاشع.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القولُ الذي قاله عبد الله بن مسعود، الذي رواه عنه زرٌّ: أنه الدعَّاء.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الله ذكر ذلك، ووصف به إبراهيم خليله صلوات الله عليه، بعد وصفه إياه بالدعاء والاستغفار لأبيه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ

تَبَرَّأَ مِنْهُۚ ﴾، وترك الدعاء والاستغفار له. ثم قال: إن إبراهيم لدعَّاء لربه، شاكٍ له، حليمٌ عمن سبَّه وناله بالمكروه. وذلك أنه صلوات الله عليه وعد أباه بالاستغفار له، ودعاءَ الله له بالمغفرة، عند وعيد أبيه إياه، وتهدُّده له بالشتم، بعد ما ردَّ عليه نصيحته في الله وقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦ ﴾، فقال له صلوات الله عليه، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨ ﴾، [مريم: ٤٦-٤٨]. فوفى لأبيه بالاستغفار له، حتى تبيَّن له أنه عدو لله، فوصفه الله بأنه دَعّاء لربه، حليم عمن سَفِه عليه.

وأصله من «التأوّه»، وهو التضرع والمسألة بالحزن والإشفاق.

ولأن معنى ذلك: «توجَّع، وتحزّن، وتضرع»، اختلف أهل التأويل فيه الاختلافَ الذي ذكرتُ. فقال من قال: معناه «الرحمة»: أن ذلك كان من إبراهيم على وجه الرِّقة على أبيه، والرحمة له، ولغيره من الناس.

وقال آخرون: إنما كان ذلك منه لصحة يقينه، وحسن معرفته بعظمة الله، وتواضعه له.

وقال آخرون: كان لصحة إيمانه بربِّه.

وقال آخرون: كان ذلك منه عند تلاوته تنزيل الله أحد الذي أنزله عليه.

وقال آخرون: كان ذلك منه عند ذكر رَبِّه.

وكلُّ ذلك عائد إلى ما قلتُ، وتَقَارَبَ معنى بعض ذلك من بعض، لأن الحزين المتضرِّع إلى ربه، الخاشع له بقلبه، ينوبه ذلك عند مسألته ربَّه، ودعائه إياه في حاجاته، وتعتوره هذه الخلال التي وجَّه المفسرون إليها تأويل قول الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ الآية.

لم يبين هنا هذه الموعدة التي وعدها إياه، ولكنه بينها في سورة « مريم » بقوله: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم: ٤٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضا فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه اللّه، ويعادوا من عاداه اللّه، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ في قوله ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو للّه، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ موافقة لربه وتأدبا معه.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ أي: رجَّاع إلى اللّه في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه.

﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه، من

الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ وهو يقول له: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ ﴾.

فعليكم أن تقتدوا به، وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة: ٤] كما نبهكم اللّه عليها وعلى غيرها.



س: هل يجوز الاستغفار للمشركين؟

ج: لا يجوز ذلك، وذلك لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ...﴾.

ولقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم في صحيحه: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي**».



الدعاء للمشركين بالهداية

س: هل يجوز الدعاء للمشركين بالهداية وهم أحياء؟

ج: نعم يجوز الدعاء لهم بالهداية.

أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى الرَسُولِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**».

وأخرج مسلم[2] أيضًا من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى

---

(١) البخاري (مع الفتح ١١/ ١٩٦)، ومسلم (١٦/ ٧٧).

(٢) مسلم (مع النوو ١٦/ ٥١)، وأحمد (٢/ ٣٢٠).

(٨٦١) أحمر
أسود

الْإِسْلَام وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَام فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتْ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا.



س: هل يجوز الدعاء للمشرك الحي بالمغفرة؟

ج: لم أقف على شيء صريح يجوِّز ذلك، والظاهر لي، والله أعلم، عدم جواز الدعاء له بالمغفرة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

أما إذا تاب من شركه فيجوز الدعاء له آنذاك قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾.

[الأنفال: ٣٨]

أما الوارد عن رسول الله ﷺ: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**».

فالصحيح أن قائله ليس رسول الله ﷺ إنما يحكي نبيًّا من الأنبياء عليهم السلام.

وكذا فإنه محتمل أن يغفر له ما صدر منه من ضربهم له، ويحتمل أن يكون منسوخًا كذلك، وذلك لكوني لم أقف على شيء صريح يفيد أن النبي ﷺ

استغفر للمشركين الأحياء.

بل لقد قال تعالى في شأن التأسي بإبراهيم عليه السلام: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة: ٤].

أي: لا تتأسوا بإبراهيم عليه السلام في قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ والله أعلم.



من أدلة العذر بالجهل

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؟

ج: المعنى – والله أعلم – وما كان الله عز وجل يعاقب قومًا بإضلالهم عن طريق الحق والصواب حتى يبين لهم الأمور التي يجب أن يحذروها ويوضحها لهم، فإن هم اقترفوا المحرمات ووقعوا في المحذور عن عمد وقصد عاقبهم ربنا بالإضلال عن الطريق المستقيم.

كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]

وكما قال في شأ، أقوام آخرين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ...﴾ [الصف: ٥]

إلى غير ذلك.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وما كان الله ليقضي عليكم، في استغفاركم لموتاكم

المشركين، بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدَّم إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاء عنه. فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهيّ، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائنٍ مطيعًا أو عاصيًا فيما لم يؤمَرْ به ولم ينه عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم من الاستغفار لموتاكم المشركين، من الجزع على ما سلف منكم من الاستغفار لهم قبل تقدمه إليكم بالنهي عنه، وبغير ذلك من سرائر أموركم وأمور عباده وظواهرها، فبيَّن لكم حلمه في ذلك عليكم، ليضع عنكم ثِقَل الوَجْد بذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوما بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾ إلى ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾.

يعني أن اللّه تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد، في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ

﴿يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.



س: قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ يتخذ ماذا؟

ج: قيل يتخذ طريق الله هزوًا، أي: ويتخذ سبيل الله هزوا، أي: استهزاء وسخرية فإذا دعاه أحد إلى طريق الله سخر منه ومنها، وقيل: ويتخذ آيات الله هزوًا.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة: قال: بِحَسْب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحقّ، وما يضرّ على ما ينفع، ويتخذها هزوا يستهزئ بها ويكذّب بها. وهما من أن يكونا من ذكر سبيل الله أشبه عندي لقربهما منها، وإن كان القول الآخر غير بعيد من الصواب، واتخاذه ذلك هزوا هو استهزاؤه به.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – إن الله ﷻ مالك السموات والأرض، وله الملك بينهما وله الأمر بينهما، فله الخلق وله الأمر يفعل فيهما ما يشاء يوقضي فيهما بما يريد لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، فامتثلوا أمر ربكم وانتهوا عما نهاكم عنه فليس لكم غير الله

وليٌ يتولاكم ولا نصير ينصركم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الله، أيها الناس له سلطان السماوات والأرض وملكهما، وكل من دونه من الملوك فعبيده ومماليكه، بيده حياتهم وموتهم، يحيي من يشاء منهم، ويميت من يشاء منهم، فلا تجزعوا، أيها المؤمنون، من قتال من كفر بي من الملوك، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة، أو غيرهم، واغزوهم وجاهدوهم في طاعتي، فإني المعزُّ من أشاء منهم ومنكم، والمذلُّ من أشاء.

وهذا حضٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين على قتال كلّ من كفر به من المماليك، وإغراءٌ منه لهم بحربهم.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يقول: وما لكم من أحد هو لكم حليفٌ من دون الله يظاهركم عليه، إن أنتم خالفتم أمرَ الله فعاقبكم على خلافكم أمرَه، يستنقذكم من عقابه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، ينصركم منه إن أراد بكم سوءًا. يقول: فبالله فثقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، تقاتلون في سبيله فَتَقْتُلُون وتُقْتَلُون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السماوات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ ﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده؟!!

فلهذا قال: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو ﴿ نَصِيرٖ ﴾ يدفع عنكم المضار.



(٨٦٧) أحمر
أسود

قال الله تعالى:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ
فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ
لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟
بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا
مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا
يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾
۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ
طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

[التوبة: ١١٧-١٢٢].

(٨٦٨) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:
﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ - يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ - رَءُوفٌ - خُلِّفُوا۟ - ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ - وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ - ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ - لِيَتُوبُوٓا۟ - ٱلْأَعْرَابِ - وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ - ظَمَأٌ - نَصَبٌ - مَخْمَصَةٌ - فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ - وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا - وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا - وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا - لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً - لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ - يَحْذَرُونَ﴾؟
ج:

الكلمة	معناها
﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾	وقت الشدة، وهو زمن الغزوة كله، ووقتها كله منذ أن خرجوا إلى رجوعهم
﴿يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾	يميل قلوب فريق منهم عن الإيمان والهدى إلى الضلال والشقاء
﴿رَءُوفٌ﴾	ذو رأفةٍ
﴿خُلِّفُوا۟﴾	تأخرت توبة الله عليهم وأرجأ أمرهم، وقيل: تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ
﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾	ضاقت عليهم طرائق التصرف، لا يدرون كيف يتصرفون ولا إلى أين يذهبون بما فيها من اتساع أصابها كرب شديد وهمٌّ وغمٌّ
﴿ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾	لا مفر من الله إلا إلى الله
﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾	ليرجعوا عما صنعوه من التخلف، وليستغفروا الله عما بدر منهم

(٨٦٩) أحمر
أسود

﴿ ٱلۡأَعۡرَابِ ﴾	سكان البوادي
﴿ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ﴾	لا يبخلوا بأنفسهم وتقديمها للقتل في سبيل الله ونصرة رسول الله ﷺ لا يبخلوا بأنفسهم ولا يضنوا بها عن تقديمها للقتل في سبيل الله
﴿ ظَمَأٞ ﴾	عطش
﴿ نَصَبٞ ﴾	تعب
﴿ مَخۡمَصَةٞ ﴾	مجاعة
﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	لإعلاء كلمة الله
﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾	لا ينزلون منزلًا – ولا يخطو من خطوات
﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا ﴾	لا يصيبون العدو بهزيمة من قتل وسبي ونحو ذلك
﴿ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا ﴾	لا يمرون بوادي من الأودية ولا يجتازونه
﴿ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ ﴾	ليخرجوا كلهم جميعًا (للغزو أو للعلم الشرعي)
﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾	ليستبصروا في دينهم وليعلموا أحكامه
﴿ يَحۡذَرُونَ ﴾	يتقون الحرام، ويخافون النيران



توبة الله ﷻ على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار

س: ما الذي صنعه النبي ﷺ حتى قال الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ وما الذي صنعه أهل المهاجرون والأنصار؟

ج: من العلماء من قال: إن قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ على إذنه للمنافقين في التخلف كما قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ أما الذي صنعه المهاجرون والأنصار، فقد همَّ بعضهم بالرجو والتخلف عن رسول الله ﷺ، وقلَّ صبر بعضهم على الشدة التي كانت في هذه الغزوة، والله أعلم.



س: ما المراد بساعة العسرة؟

ج: المراد – والله أعلم – زمن الغزوة كله، فقد كانت في حرٍّ شديد، وقلةٍ من الزاد، وقلةٍ من الظهر (أي: الإبل والخيل والبغال التي تحمل المسافرين) وكان السفر بعيدًا، والماء قليلًا، فكانت حقًّا ساعة عسرة كما قال الله تبارك وتعالى.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – لقد منَّ الله برحمته وعفوه وتفضل على نبيه ﷺ وعلى المهاجرين والأنصار بمغفرته ورزقهم حسن الإنابة إليه وعاد عليهم بالتخفيف بعد أن كان الأمر عليهم شديدًا وعاد عليهم برحمته بعد أن فعل البعض ما يوجب العذاب، فرجع الله عليهم جميعًا برحمته وعفوه وتخفيفه

عليهم.

أما رسول الله ﷺ فوجه التوبة عليه لأنه كان قد أذن لأهل النفاق في التخلف وقبل منهم الأعذار، وليست هي في حقيقة الأمربأعذار قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ أما المهاجرون والأنصار فقد كاد بعضهم أن يرجع إلى المدينة من شدة السفر ومشقته.

أما ساعة العسرة فهي زمن الغزوة الشديدة، غزوة تبوك، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق إلى الباطل، وعن الإيمان إلى الغي والشر والفساد، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ رجع عليهم بالتخفيف بعد الأمر الشديد، ورجع عليهم بنمةٍ عظيمة، وهي تثبيت قلوبهم حتى يرجعوا عما همت به نفوسهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، بل رفق بهم حتى رجعوا إلى رشدهم وصوابهم، إنه بهم ذو رأفة ورحمة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته، نبيّه محمدًا ﷺ، والمهاجرين ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله، الذين اتبعوا رَسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء ، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾، يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه ، ﴿ثم تاب عليهم)، يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم ، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبَهم ذلك لما نالهم في

سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم ، ﴿رَّحِيمٌ﴾، أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلَوْا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾، الآية، الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قِبَل الشأم في لهَبَانِ الحرّ على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقّان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم، يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوهم.

وبإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب رحمة الله عليه في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا! قال: تحب ذلك؟ قال: نعم! فرفع يديه، فلم يَرْجِعهما حتى قالت السماء، فأظلّت، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها، جاوزت العسكر.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار على أقوال فقال ابن عباس: كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود دليله قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه. وقيل: توبة الله

عليهم استنقاذهم من شدة العسرة. وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحال الأولى. وقال أهل المعاني: إنما ذكر النبي ﷺ في التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذكر معهم كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي في وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها. وقيل: ساعة العسرة أشد الساعات التي مرت بهم في تلك الغزاة. والعسرة صعوبة الأمر. قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء. قال الحسن: كانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة المنتنة وكان النفر يخرجون ما معهم - إلا التمرات - بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم.

وقال القرطبي أيضًا:

واختلف في معنى تزيغ، فقيل: تتلف بالجهد والمشقة والشدة. وقال ابن عباس: تعدل - أي تميل - عن الحق في الممانعة والنصرة. وقيل: من بعد ما هم فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به وقيل: هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وكذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم.

وقال كذلك:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ فقيل: معنى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي وفقهم للتوبة ليتوبوا. وقيل: المعنى تاب عليهم ؛ أي فسح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا. وقيل: تاب عليهم ليثبتوا على التوبة. وقيل: المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم. وبالجملة فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا ؛ دليله قوله عليه السلام: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له".

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال المفسرون: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف. وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين، ذُكر معهم كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ قال الزجاج: هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك، والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة، لأن الساعة تقع على كل الزمان، وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديدٌ، والقوم في ضيقة شديدة، كان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه، وكانوا في فقر، فربما اقتسم التمرة اثنان، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم كاد يزيغ بالياء وقرأ الباقون بالتاء وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: تميل إلى التخلف عنه، وهم ناس من المسلمين هموا بذلك، ثم لحقوه. قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها ولم تزغ عن الإيمان. قاله الزجاج.

والثالث: أن القلوب كادت تزيغ تلفا بالجهد والشدة ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ كرر ذكر التوبة لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم فقدم ذكر التوبة فضلا منه ثم ذكر ذنبه ثم أعاد ذكر التوبة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ محمد ﷺ ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك» وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا اللّه تعالى، وقاموا بذلك ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن اللّه ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين، كان كفرا، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة، التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.



الثلاثة الذين خُلِّفوا وقصتهم

س: من هم الثلاثة الذين خلفوا؟

ج: هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وقيل: ابن ربيعة.



س: اذكر قصة الثلاثة الذين خُلفوا كما جاءت في الصحيحين مع بيان سبب نزول الآية: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ أَنفُسُهُمْ ..﴾؟

ج: أخرج البخاري ومسلم[١] في صحيحيهما من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ. إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ. وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ. إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ. حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ، عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ[٢]، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ[٣]، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ[٤] فِي النَّاسِ مِنْهَا، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا[٥]، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ[٦]، لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ[٧] فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمْ[٨]

---

(١) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) (ليلة العقبة) هي الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار فيها على الإسلام. وأن يؤوه وينصروه. وهي العقبة التي في طرف منى، التي يضاف إليها جمرة العقبة. وكانت بيعة العقبة مرتين، في سنتين. في السنة الأولى كانوا اثنى عشر، وفي الثانية سبعين. كلهم من الأنصار رضي الله عنهم.

(٣) (تواثقنا على الإسلام) أي: تبايعنا عليه وتعاهدنا.

(٤) (وإن كانت بدرأذكر) أي: أشهر عند الناس بالفضيلة.

(٥) (ومفازا) أي: برية طويلة قليلة الماء، يخاف فيها الهلاك.

(٦) (فجلا للمسلمين أمرهم) أي: كشفه وبينه وأوضحه. وعرّفهم ذلك على وجهه من غير تورية. يقال: جلوت الشيء كشفته.

(٧) (ليتأهبوا أهبة غزوهم) أي: ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم ذلك.

(٨) (فأخبرهم بوجههم) أي: بمقصدهم.

الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ (يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ). قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ[١]، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنْ اللهِ ﷻ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ[٢]، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ، وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي، حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَادِيًا، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ، وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ[٣]، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ[٤]، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى بَلَغَ تَبُوكًا[٥] فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «**مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ**»، قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ[٦] فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) (فقل رجل يريد أن يتغيب...إلخ) قال القاضي: هكذا هو جميع نسخ مسلم. وصوابه: إلا يظن أن ذلك سيخفى له. بزيادة إلا. وكذا رواه البخاري.

(٢) (فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ) أي: أميل.

(٣) (وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ) أي: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

(٤) (مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ) أي: مُتهمًا به.

(٥) (حَتَّى بَلَغَ تَبُوكًا) هو في أكثر النسخ: تبوكًا، بالنصب. وكذا هو في نسخ البخاري. وكأنه صرفها لإرادة الموقع، دون البقعة.

(٦) (وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ) أي: جانبيه. وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا[(١)] يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ[(٢)] فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ»[(٣)] فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ[(٤)].

فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا[(٥)] مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي[(٦)] فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا[(٧)] زَاحَ[(٨)] عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ[(٩)]، وَصَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى

---

(١) (مُبَيِّضًا) هو لابس البياض. ويقال: هم المبيِّضة والمسوِّدة، أي: لابسو البياض والسواد.

(٢) (يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ) أي: يتحرك وينهض والسراب هو ما يظهر للإنسا نفي الهواجر، وفي البراري كأنه ماء.

(٣) (كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ) قيل: معناه أنت أبو خيثمة. قال ثعلب: العرب تقول: كن زيدًا، أي: أنت زيد. قال القاضي عياض: والأشبه عندي أن كن هنا للتحقق والوجود. أي: لتوجد، يا هذا الشخص، أبا خيثمة حقيقة. وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب. وهو معنى قول صاحب التحرير: تقديره اللهم اجعله أبا خيثمة.

(٤) (لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ) أي: عابوه واحتقروه.

(٥) (تَوَجَّهَ قَافِلًا) أي: راجعًا.

(٦) (حَضَرَنِي بَثِّي) هو أشد الحزن.

(٧) (أَظَلَّ قَادِمًا) أي: اقبل ودنا قدومه كأنه ألقي علي ظله.

(٨) (زَاحَ) أي: زال.

(٩) (فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ) أي: عزمت عليه. يقال: أجمع أمره وعلى أمره، وعزم عليه، بمعنى.

(٨٧٩) أحمر
أسود

جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي: «**مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا[١]. وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ[٢] اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ[٣] إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللهِ[٤]. وَاللهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ**» فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ.

قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي[٥] حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَأُكَذِّبَ نَفْسِي قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ[٦]، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي

(١) (أُعْطِيتُ جَدَلًا) أي: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة، بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إلي، إذا أردت.

(٢) (لَيُوشِكَنَّ) أي: ليسرعن.

(٣) (تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ) أي: تغضب.

(٤) (إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللهِ) أي: أن يعقبني الله خيرًا، وأن يثنيني عليه.

(٥) (يُؤَنِّبُونَنِي) أي: يلومونني أشد اللوم.

(٦) (الْعَامِرِيُّ) هكذا هو في جميع نسخ مسلم: العامريّ. وأنكره العلماء وقالوا: هو غلط إنما صوابه العَمْري. من بني عمرو بن عوف. وكذا ذكره البخاري. وكذا نسبه محمد بن إسحاق وابن عبد البر، وغيرهما من الأئمة. قال القاضي: هو الصواب.

قَالَ: وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا، أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ[(١)]، مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ.

قَالَ: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ[(٢)]، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا[(٣)] وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ[(٤)] فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ[(٥)] جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! أَنْشُدُكَ بِاللهِ[(٦)] هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ[(٧)]، مِمَّنْ قَدِمَ

---

(١) (أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ) قال القاضي: هو بالرفع، وموضعه نصب على الاختصاص. قال سيبويه، نقلًا عن العرب: اللهم اغفر لنا، أيتها العصابة، وهذا مثله.

(٢) (فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ) معناه: تغيّر عليّ كل شيء. حتى الأرض، فإنها توحشت عليّ وصارت كأنها أرض لم أعرفها، بتوحشها عليّ.

(٣) (فَاسْتَكَانَا) أي: خضعا.

(٤) (أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ) أي: أصغرهم سنًّا وأقواهم.

(٥) (حَتَّى تَسَوَّرْتُ) معنى: تسوّرته علوته وصعدت سوره، وهو أعلاه.

(٦) (أَنْشُدُكَ بِاللهِ) أي: أسألك بالله، وأصله من النشيد، وهو الصوت.

(٧) (نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ) أي: النبط والأنباط والنبيط، وهم فلاحو العجم.

بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ[١]، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ[٢]. قَالَ: فَقُلْتُ: حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَامَمْتُ[٣] بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا[٤] بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ[٥] إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ قَالَ: فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ: فَقُلْتُ: لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ: لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا قَالَ: فَقَالَ لِي: بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ قَالَ: فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا

---

(١) (مَضْيَعَةٍ) فيها لغتان: إحداهما مضيعة، والثانية مضيعة. أي مضع حال يضيع فيه حقك.

(٢) (نُوَاسِكَ) وفي بعض النسخ: نواسيك، بزيادة ياء. وهو صحيح، أي: ونحن نواسيك، وقطعه عن جواب الأمر، ومعناه تشاركك فيما عندنا.

(٣) (فَتَيَامَمْتُ) هكذا هو في جميع النسخ ببلادنا، وهي لغة في تيممت. ومعناها قصدت.

(٤) (فَسَجَرْتُهَا) أي: أحرقتها. وأنث الضمير؛ لأنه أراد معنى الكتاب، وهو الصحيفة.

(٥) (وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ) أي: أبطأ.

(٨٨٢) أحمر
أسود

جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ ﷻ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ[١] سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَي عَلَى سَلْعٍ[٢] يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

قَالَ: فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ[٣] بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى الْجَبَلَ فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ[٤] رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا[٥] يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ قَالَ: فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ وَيَقُولُ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**» قَالَ: فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ فَقَالَ: «**لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ

---

(١) (وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) أي: بما اتسعت. ومعناه: ضاقت علي الأرض مع أنها متسعة. والرحب السعة.

(٢) (أَوْفَي عَلَى سَلْعٍ) أي: سعده وارتفع عليه. وسلع جبل بالمدينة معرفو.

(٣) (فَآذَنَ... النَّاسَ) أي: أعلمهم.

(٤) (أَتَأَمَّمُ) أي: أقصد.

(٥) (فَوْجًا فَوْجًا) الفوج الجماعة.

(٨٨٣) أحمر
أسود

مَالِي[(١)] صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ، قَالَ: وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ قَالَ: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ[(٢)] فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ بِهِ وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيَ.

قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قَالَ كَعْبٌ: وَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ[(٣)] فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِنَّ اللهَ قَالَ: لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ وَقَالَ اللهُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

---

(١) (أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي) أي: أخرج منه وأتصدق به.

(٢) (أَبْلَاهُ اللهُ) أي: أنعم عليه. والبلاء والإبلاء يكون في الخير والشر. لكن إذا اطلق، كان للشر غالبًا. فإذا أريد الخير، قيد كما قيده هنا، فقال: أحسن مما أبلاني.

(٣) (أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ) هكذا هو في جميع نسخ مسلم، وكثير من روايات البخاري. قال العلماء: لفظ لا في قوله: أن لا أكون، زائدة. ومعناه: أن أكون كذبته. كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

قَالَ كَعْبٌ كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا[1] حَتَّى قَضَى فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ ﷻ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عَنْ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.



س: وضح معنى الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

ج: المعنى –والله أعلم– ولقد رجع الله برحمته وعفوه على الثلاثة الذين تأخرت توبة الله عنهم ولم يغدروا عند أول اعتذروه، أي لم يُقبل منهم اعتذارهم وأُرجأ أمرهم إلى الله، فهذه الآية فيها بيان فضل الله على هؤلاء الثلاثة، وإعلام من الله ﷻ أنه قبل رجوعهم إليه ورجع عليهم برحمته بعد أن كانوا يستحقون العذاب بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، أما هؤلاء الثلاثة فهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ومعنى قوله: ﴿خُلِّفُوا۟﴾ أي: تأخرت التوبة عليهم، وأرجأ أمرهم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لم يدروا إلى أي مكانٍ من الأرض، يذهبوا إليه مع أن الأرض متسعة، للنعم الذي أصابهم وللهم الذي نالهم والندم الشديد الذي اعتراهم وضاقت عليهم نفوسهم بسببه، فليست قلوبهم براضية بالكفر وليست نفوسهم بمتحملة لهجران المسلمين لهم، وليسوا بمحتملين ابتعادهم عن

---

(١) (وإرجاؤه أَمْرَنَا) أي: تأخيره.

رسول الله ﷺ وعن المسلمين، ولكن ماذا مع هذه الهموم والأحزان، وأي شيء يستحق الأحزان أعظم من هجران رسول الله والمؤمنين لهم، وتخلف توبة الله عليهم أنه حقًّا النكد والهم والبلاء!!

فكل متاع الدنيا زائل، وكل حزنٍ فيها منتهى إلا أن يعلم الشخص أن الله ﷻ ليس براضٍ عنه، وكذا رسول الله ﷺ يهجره، وكذا المسلمون، فهذا البلاء حقيقة وهذا الذي لا تطيب معه احياة، ولا يحلو معه العيش، ولا تسعد نفسه في وجوده فخفًّا إنهم ضاقت عليهم أنفسهم، ولكن ما السبيل؟! وما طريق النجاة؟! وما المخرج؟!! إنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فحينئذٍ يحسن العبد الالتجاء إلى الله ويسأله كشف الضر وإزالة ابلاء معترفًا بذنبه ومُقرًّا بتقصيره ونادمًا أشد الندم على ما فرط في جنب الله وقصَّر، وقد أيقن هؤلاء الثلاثة بذلك، أيقنوا أن الفرج من عند الله، وأنه سبحانه الذي يكشف الضرَّ ويجيب المضطر، ويأتي باليسر بعد العسر وبالفرج بعد الكرب، أيقنوا بكل ذلك فأحسنوا اللجوء إلى الله واجتهدوا في دعائه ورجائه وسؤاله فقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ لا أحد يلجؤون إليه لكشف ما بهم إلا الله لن يكشف عنهم ما أ،زل الله بهم إلا الله.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ثم رجع عليهم برحمته وفضله وفتنة وكرمه كي وهداهم إلى طريقه وإلى الندم على ما فرطوا، وأخبر بتوبته عليهم في آيات أنزلها من السماء على رسوله ﷺ حتى يرجعوا إلى الله وحتى يخالطوا المسلمين، وحتى يقبلهم رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير الرجوع بالفضل على العباد بعد أن فعلوا ما هو سبب لحرمانهم من هذا الفضل.

الرحيم بعباده المؤمنين لا يحملهم فوق طاقتهم ولا يغتر بهم مع إنابتهم،

وكذا رحيم بتجاوزه عنهم وعدم مؤاخذتهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾، وهؤلاء الثلاثة الذين وصفهم الله في هذه الآية بما وصفهم به فيما قيل، هم الآخرون الذين قال جل ثناؤه: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [سورة التوبة: ١٠٦]، فتاب عليهم عز ذكره وتفضل عليهم.

فتأويل الكلام إذًا: ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمَّن تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله ﷺ

وأورد الطبري بإسنادٍ حسن عن قتادة: أما قوله: ﴿خُلِّفُوا۟﴾، فخلِّفوا عن التوبة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾، يقول: بسعتها، غمًّا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾، بما نالهم من الوَجْد والكرْب بذلك، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ ﴾، يقول: وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجأون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء، بتخلفهم خِلافَ رسول الله ﷺ، ينجيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله، ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينيبوا إليه، ويرجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، يقول: إن الله هو الوهّاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفقُ من أحبَّ توفيقه منهم لما يرضيه عنه، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾، بهم، أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبةَ والإنابةَ ولا يتوب عليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي بما اتسعت يقال: منزل رحب ورحيب ورحاب. و﴿مَا﴾ مصدرية ؛ أي ضاقت عليهم الأرض برحبها، لأنهم كانوا مهجورين لا يعاملون ولا يكلمون. وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا. ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي ضاقت صدورهم بالهم والوحشة، وبما لقوه من الصحابة من الجفوة. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي تيقنوا أن لا ملجأ يلجؤون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه. قال أبو بكر الوراق. التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه ؛ كتوبة كعب وصاحبيه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبدأ بالتوبة منه. قال أبو زيد: غلطت في أربعة أشياء: في الابتداء مع الله تعالى، ظننت أني أحبه فإذا هو أحبني ؛ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضي عني ؛ قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]. وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب علي ؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾. وقيل: المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة ؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [النساء: ١٣٦] وقيل: أي فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم ؛ قال جل وعز: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠].

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي: ضاقت مع سعتها وذلك أن المسلمين منعوا من معاملتهم وكلامهم وأمروا باعتزال أزواجهم وكان النبي

ﷺ معرضا عنهم ﴿ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ بالهم والغم ﴿ وَظَنُّوٓاْ ﴾ أي: أيقنوا ﴿ أَن لَّا مَلۡجَأَ ﴾ أي: لا معتصم من الله ومن عذابه إلا هو ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أعاد التوبة تأكيدا ﴿ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ قال ابن عباس: ليستقيموا وقال غيره وفقهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يبطلها وسئل بعضهم عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الارض وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب وصاحبيه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ و ﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ عن الخروج مع المسلمين، في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك" وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة، في الصحاح والسنن.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ﴾ حزنوا حزنا عظيما، و ﴿ ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا اللّه ورضا رسوله على كل شيء.

﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا اللّه وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا باللّه ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب اللّه عليهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل

على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.



س: اذكر بعض الفوائد المستنبطة من حديث الثلاثة الذين خلفوا؟

ج: قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (شرح مسلم):

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي حَدِيث كَعْب هَذَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فَوَائِد كَثِيرَة:

إِحْدَاهَا: إِبَاحَة الْغَنِيمَة لِهَذِهِ الْأُمَّة ؛ لِقَوْلِهِ: خَرَجُوا يُرِيدُونَ عِير قُرَيْش.

الثَّانِيَة: فَضِيلَة أَهْل بَدْر وَأَهْل الْعَقَبَة.

الثَّالِثَة: جَوَاز الْحَلِف مِنْ غَيْر اِسْتِحْلَاف فِي غَيْر الدَّعْوَى عِنْد الْقَاضِي.

الرَّابِعَة: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِأَمِيرِ الْجَيْش إِذَا أَرَادَ غَزْوَة أَنْ يُوَرِّي بِغَيْرِهَا ، لِئَلَّا يَسْبِقهُ الْجَوَاسِيس وَنَحْوهمْ بِالتَّحْذِيرِ ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ سُفْرَة بَعِيدَة ، فَيُسْتَحَبّ أَنْ يُعَرِّفهُمْ الْبُعْد لِيَتَأَهَّبُوا.

الْخَامِسَة: التَّأَسُّف عَلَى مَا فَاتَ مِنْ الْخَيْر ، وَتَمَنِّي الْمُتَأَسِّف أَنَّهُ كَانَ فَعَلَهُ ، لِقَوْلِهِ: فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْت.

السَّادِسَة: رَدُّ غِيبَة الْمُسْلِم لِقَوْلِ مُعَاذ: بِئْسَ مَا قُلْت.

السَّابِعَة: فَضِيلَة الصِّدْق وَمُلَازَمَته ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَشَقَّة ، فَإِنَّ عَاقِبَته خَيْر ، وَإِنَّ الصِّدْق يَهْدِي إِلَى الْبِرّ ، وَالْبِرّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّة ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح.

الثَّامِنَة: اِسْتِحْبَاب صَلَاة الْقَادِم مِنْ سَفَر رَكْعَتَيْنِ فِي مَسْجِد مَحَلَّته أَوَّل قُدُومه قَبْل كُلّ شَيْء.

التَّاسِعَة: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ لِلْقَادِمِ مِنْ سَفَر إِذَا كَانَ مَشْهُورًا يَقْصِدهُ النَّاس لِسَلَامٍ عَلَيْهِ ، أَنْ يَقْعُد لَهُمْ فِي مَجْلِس بَارِز ، هَيِّن الْوُصُول إِلَيْهِ.

الْعَاشِرَة: الْحُكْم بِالظَّاهِرِ ، وَاَللَّه يَتَوَلَّى السَّرَائِر ، وَقَبُول مَعَاذِير الْمُنَافِقِين

وَنَحْوهِمْ ، مَا لَمْ يَتَرَتَّب عَلَى ذَلِكَ مَفْسَدَة.

الْحَادِيَة عَشَرَ: اِسْتِحْبَاب هِجْرَان أَهْل الْبِدَع وَالْمَعَاصِي الظَّاهِرَة ، وَتَرْك السَّلَام عَلَيْهِمْ ، وَمُقَاطَعَتهمْ تَحْقِيرًا لَهُمْ وَزَجْرًا.

الثَّانِيَة عَشَرَ: اِسْتِحْبَاب بُكَائِهِ عَلَى نَفْسه إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ مَعْصِيَة. الثَّالِثَة عَشَرَ: أَنَّ مُسَارَقَة النَّظَر فِي الصَّلَاة وَالِالْتِفَات لَا يُبْطِلهَا.

الرَّابِعَة عَشَرَ: أَنَّ السَّلَام يُسَمَّى كَلَامًا ، وَكَذَلِكَ رَدُّ السَّلَام ، وَأَنَّ مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّم إِنْسَانًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَام ، يَحْنَث.

الْخَامِسَة عَشَرَ: وُجُوب إِيثَار طَاعَة الله وَرَسُوله ﷺ عَلَى مَوَدَّة الصَّدِيق وَالْقَرِيب وَغَيْرهمَا ، كَمَا فَعَلَ أَبُو قَتَادَة حِين سَلَّمَ عَلَيْهِ كَعْب ، فَلَمْ يَرُدّ عَلَيْهِ حِين نَهَى عَنْ كَلَامه.

السَّادِسَة عَشَرَ: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ لَا يُكَلِّم إِنْسَانًا فَتَكَلَّمَ ، وَلَمْ يَقْصِد كَلَامه بَلْ قَصَدَ غَيْره ، فَسَمِعَ الْمَحْلُوف عَلَيْهِ لَمْ يَحْنَث الْحَالِف ؛ لِقَوْلِهِ: الله أَعْلَم: فَإِنَّهُ مَحْمُول عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْصِد كَلَامه كَمَا سَبَقَ.

السَّابِعَة عَشَرَ: جَوَاز إِحْرَاق وَرَقَة فِيهَا ذِكْر الله تَعَالَى لِمَصْلَحَةٍ ، كَمَا فَعَلَ عُثْمَان وَالصَّحَابَة رضي الله عنهم بِالْمَصَاحِفِ الَّتِي هِيَ غَيْر مُصْحَفِهِ الَّذِي أَجْمَعَتْ الصَّحَابَة عَلَيْهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ صِيَانَة ، فَهِيَ حَاجَة وَمَوْضِع الدَّلَالَة مِنْ حَدِيث كَعْب ، أَنَّهُ أَحْرَقَ الْوَرَقَة ، وَفِيهَا: لَمْ يَجْعَلك الله بِدَارِ هَوَان.

الثَّامِنَة عَشَرَ: إِخْفَاء مَا يُخَاف مِنْ إِظْهَاره مَفْسَدَة وَإِتْلَاف.

التَّاسِعَة عَشَرَ: أَنَّ قَوْله لِامْرَأَتِهِ: اِلْحَقِي بِأَهْلِك لَيْسَ بِصَرِيحِ طَلَاق ، وَلَا يَقَع بِهِ شَيْء إِذَا لَمْ يَنْوِ.

الْعِشْرُونَ: جَوَاز خِدْمَة الْمَرْأَة زَوْجهَا بِرِضَاهَا ، وَذَلِكَ جَائِز لَهُ بِالْإِجْمَاعِ ، فَأَمَّا إِلْزَامهَا بِذَلِكَ فَلَا.

الْحَادِيَة وَالْعِشْرُونَ: اِسْتِحْبَاب الْكِنَايَات فِي أَلْفَاظ الِاسْتِمْتَاع بِالنِّسَاءِ وَنَحْوهَا.

الثَّانِيَة وَالْعِشْرُونَ: الْوَرَع وَالِاحْتِيَاط بِمُجَانَبَةِ مَا يُخَاف مِنْهُ الْوُقُوع فِي مَنْهِيّ عَنْهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِن فِي خِدْمَة اِمْرَأَته لَهُ، وَعَلَّلَ بِأَنَّهُ شَابّ، أَيْ لَا يَأْمَن مُوَاقَعَتهَا، وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا.

الثَّالِثَة وَالْعِشْرُونَ: اِسْتِحْبَاب سُجُود الشُّكْر عِنْد تَجَدُّد نِعْمَة ظَاهِرَة، أَوْ اِنْدِفَاع بَلِيَّة ظَاهِرَة، وَهُوَ مَذْهَب الشَّافِعِيّ وَطَائِفَة، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَة وَطَائِفَة: لَا يُشْرَع.

الرَّابِعَة وَالْعِشْرُونَ: اِسْتِحْبَاب التَّبْشِير بِالْخَيْر.

الْخَامِسَة وَالْعِشْرُونَ: اِسْتِحْبَاب تَهْنِئَة مَنْ رَزَقَهُ الله خَيْرًا ظَاهِرًا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ شَرًّا ظَاهِرًا.

السَّادِسَة وَالْعِشْرُونَ: اِسْتِحْبَاب إِكْرَام الْمُبَشِّر بِخُلْعَةٍ أَوْ نَحْوهَا.

السَّابِعَة وَالْعِشْرُونَ: أَنَّهُ يَجُوز تَخْصِيص الْيَمِين بِالنِّيَّةِ، فَإِذَا حَلَفَ لَا مَال لَهُ وَنَوَى نَوْعًا لَمْ يَحْنَث بِنَوْعٍ مِنْ الْمَال غَيْره، وَإِذَا حَلَفَ لَا يَأْكُل، وَنَوَى خُبْزًا، لَمْ يَحْنَث بِاللَّحْمِ وَالتَّمْر وَسَائِر الْمَأْكُول، وَلَا يَحْنَث إِلَّا بِذَلِكَ النَّوْع، وَكَذَلِكَ لَوْ حَلَفَ لَا يُكَلِّم زَيْدًا، وَنَوَى كَلَامًا مَخْصُوصًا لَمْ يَحْنَث بِتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ غَيْر ذَلِكَ الْكَلَام الْمَخْصُوص، وَهَذَا كُلّه مُتَّفَق عَلَيْهِ عِنْد أَصْحَابنَا، وَدَلِيله مِنْ هَذَا الْحَدِيث قَوْله فِي الثَّوْبَيْنِ: وَالله مَا أَمْلِك غَيْرهمَا، ثُمَّ قَالَ بَعْده فِي سَاعَة: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِع مِنْ مَالِي صَدَقَة، ثُمَّ قَالَ: فَإِنِّي أَمْسِك سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَر.

الثَّامِنَة وَالْعِشْرُونَ: جَوَاز الْعَارِيَة.

التَّاسِعَة وَالْعِشْرُونَ: جَوَاز اِسْتِعَارَة الثِّيَاب لِلُّبْسِ.

الثَّلَاثُونَ: اِسْتِحْبَاب اِجْتِمَاع النَّاس عِنْد إِمَامهمْ وَكَبِيرهمْ فِي الْأُمُور الْمُهِمَّة

مِنْ بِشَارَة وَمَشُورَة وَغَيْرهمَا.

الْحَادِيَة وَالثَّلَاثُونَ: اِسْتِحْبَاب الْقِيَام لِلْوَارِدِ إِكْرَامًا لَهُ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْل الْفَضْل بِأَيِّ نَوْع كَانَ ، وَقَدْ جَاءَتْ بِهِ أَحَادِيث جَمَعْتهَا فِي جُزْء مُسْتَقِلّ بِالتَّرْخِيصِ فِيهِ ، وَالْجَوَاب عَمَّا يُظَنّ بِهِ مُخَالِفًا لِذَلِكَ.

الثَّانِيَة وَالثَّلَاثُونَ: اِسْتِحْبَاب الْمُصَافَحَة عِنْد التَّلَاقِي وَهِيَ سُنَّة بِلَا خِلَاف.

الثَّالِثَة وَالثَّلَاثُونَ: اِسْتِحْبَاب سُرُور الْإِمَام وَكَبِير الْقَوْم بِمَا يَسُرّ أَصْحَابه وَأَتْبَاعه.

الرَّابِعَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَة ظَاهِرَة ، أَوْ اِنْدَفَعَتْ عَنْهُ كُرْبَة ظَاهِرَة أَنْ يَتَصَدَّق بِشَيْءٍ صَالِح مِنْ مَاله شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْسَانه، وَقَدْ ذَكَرَ أَصْحَابنَا أَنَّهُ يُسْتَحَبّ لَهُ سُجُود الشُّكْر وَالصَّدَقَة جَمِيعًا ، وَقَدْ اِجْتَمَعَا فِي هَذَا الْحَدِيث.

الْخَامِسَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ لِمَنْ خَافَ أَلَّا يَصْبِر عَلَى الْإِضَاقَة أَلَّا يَتَصَدَّق بِجَمِيعِ مَاله ، بَلْ ذَلِكَ مَكْرُوه لَهُ.

السَّادِسَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ لِمَنْ رَأَى مَنْ يُرِيد أَنْ يَتَصَدَّق بِكُلِّ مَاله وَيَخَاف عَلَيْهِ أَلَّا يَصْبِر عَلَى الْإِضَاقَة أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَيُشِير عَلَيْهِ بِبَعْضِهِ.

السَّابِعَة وَالثَّلَاثُونَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ لِمَنْ تَابَ بِسَبَبٍ مِنْ الْخَيْر أَنْ يُحَافِظ عَلَى ذَلِكَ السَّبَب ، فَهُوَ أَبْلَغ فِي تَعْظِيم حُرُمَات الله ، كَمَا فَعَلَ كَعْب فِي الصِّدْق ، وَالله أَعْلَم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة اللّه على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن اللّه جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة اللّه على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقا تاما، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف اللّه بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿ خُلِّفُوا ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُتّ في قبول عذرهم، أو في رده وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن اللّه تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الآية.



س: هل هنا رابط بين قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ وبين قصة الثلاثة الذين خلفوا؟

ج: نعم الرابط ظاهرٌ وواضحٌ، والله تعالى أعلم فصدق الحديث كان سببًا في توبة الله ﷻ على كعب بن مالك وصاحبيه.

والكذب كان سببًا في أن قيل لأهله ما قيل إذ الله قال: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ...﴾ فهذه عقوبة من كذب واعتذر بالباطل. والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – يا أهل الإيمان اجعلوا بينكم وبين الله وقاية، ودومًا كونوا حذرين من غضب الله وعقابه واسلكوا سبيل أهل الصدق واليقين، اسلكوا سبيل الصادقين في نواياهم والصادقين في أقوالهم وأفعالهم اسكلوا الطرق التي يدخلكم الله بها في عداد الصالحين الصادقين فلا تكذبوا على رسول الله ولا تغشوه ولا تخادعوه بل اصدقوه الحديث إذا حدثتموه كما فعل الثلاثة الذين خلفوا، وصدقوا عندما سئلوا عن سبب التخلف فأكرمهم الله بصدقهم، وأنزل توبته عليهم في آيات تتلى في المحاريب وتحفظ في الصدور، وتدرس في الكتاتيب والمجامع.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين، معرِّفَهم سبيل النجاة من عقابه، والخلاصِ من أليم عذابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بالله ورسوله ، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وراقبوه بأداء فرائضه، وتجنب حدوده ، ﴿وَكُونُواْ﴾، في الدنيا، من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة ، ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في الجنة. يعني: مع من صَدَق اللهَ الإيمانَ به، فحقَّق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذِّب قيلَهم فعلُهم.

وإنما معنى الكلام: وكونوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النساء: ٦٩].

وإنما قلنا ذلك معنى الكلام، لأن كون المنافق مع المؤمنين غيرُ نافعه بأيّ

وجوه الكون كان معهم، إن لم يكن عاملا عملهم. وإذا عمل عملهم فهو منهم، وإذا كان منهم، كان وجْهُ الكلام أن يقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ولتوجيه الكلام إلى ما وجَّهنا من تأويله، فسَّر ذلك من فسَّره من أهل التأويل بأن قال: معناه: وكونوا مع أبي بكر وعمر، أو: مع النبي ﷺ، والمهاجرين رحمة الله عليهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، أي: مع سعتها، فسدّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا.

وأورد ابن كثير ما أخرجه البخاري ومسلم وأحمد[1] **من حديث ابن مسعود، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال:** قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا**».

(١) أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين. قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقا لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي مع الذين خرجوا مع النبي ﷺ لا مع المنافقين. أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة. وقيل: هم المراد بقوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ - الآية إلى قوله - أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقيل: هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقيل: هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السقيفة إن الله سمانا الصادقين

فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] الآية، ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر: ٩] الآية. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم. قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ومتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب. وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ باللّه، وبما أمر اللّه بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى اللّه تعالى، باجتناب ما نهى اللّه عنه والبعد عنه.

﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية.



وفضل الجهاد في سبيل الله والغزو

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ما كان ينبغي، وما كان يجوز لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ وما كان يجوز ولا ينبغي لمن حولهم من الأعراب وهم سكان البوادي المجاورون للمدينة، ما كان لهؤلاء ولا لأولئك أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ لما دعاهم للخروج إلى غزوة تبوك وإلى غيرها، وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه أن يضنُّوا بأنفسهم عن نصرته ويضنوا بأموالهم عن نصرته وكذا لا يضنوا بأوقاتهم عن نصرته، أي: ما كان

لهم أن يؤثروا راحة أنفسهم ويقدمون ذلك على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وما كان لهم أن يُقدموا ملاذ أنفسهم على راحة، وكذا ما كان لهم أن يبخلوا بأموالهم عن نصرته وتجهيز الغزاة معه، وذلك لأن كل شيء يلقونه من العطش والتعب والجوع، إذا كان في سبيل الله فهو مكتوب مسطرٌ محفوظ.

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عدم التخلف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ لكونهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ ولا مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله ولنصرة دينه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ لا ينزلون منزلًا ولا تطأ أقدامهم مكانًا يغيظ الكفار نزول أهل الإسلام فيه، وكذا لا يغنمون من عدوٍ غنيمة، ولا يسلبون من عدوٍ مالًا ولا يقتلون من عدوٍ نفسًا إلا كتب لهم بكل ذلك أجر وثواب، ثواب العمل الصالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين، لا يذهب بثواب العمل الصالح الذي عمله أهل الإحسان والتوحيد وكذا فإنهم ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ لا يبذلون أي مالٍ لنصرة دين الله، وفي سبيل الله قلَّ هذا المال أو كثر، وكذا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: لا يسافرون سفرًا يمرون فيه بوادٍ من الأودية إلا كتب لهم ما مشوه من خطى، وما أنفقوه من نفقة ليجزيهم الله يوم القيامة أجرًا الأجر وأعظمه، أجرًا أحسن من عملهم وأفضل من عملهم، وقيل: أجرًا على أفضل أعمالهم التي عملوها ويكفر عنهم السيئات التي ارتكبوها. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، سُكّان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهم من أهل الإيمان به، أن يتخلفوا في أهاليهم ولا دارٍ لهم، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صحبته في سفره والجهاد معه، ومعاونته على ما يعانيه في

غزوه ذلك. يقول: إنه لم يكن لهم هذا ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾، من أجل أنهم، وبسبب أنهم ، ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾، في سفرهم إذا كانوا معه ، ﴿ظَمَأٌ﴾، وهو العطش ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾، يقول: ولا تعب ، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: ولا مجاعة في إقامة دين الله ونصرته، وهدْم مَنَار الكفر ، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾، يعني: أرضًا، يقول: ولا يطأون أرضًا ، ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾، وطؤهم إياها ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾، يقول: ولا يصيبون من عدوّ الله وعَدُوّهم شيئًا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم ، إلا كتب الله لهم بذلك كله، ثوابَ عمل صالح قد ارتضاه ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، يقول: إن الله لا يدع محسنًا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، أن يجازيه على إحسانه، ويثيبه على صالح عمله. فلذلك كتبَ لمن فعل ذلك من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ما ذكر في هذه الآية، الثوابَ على كلّ ما فعل، فلم يضيِّع له أجرَ فعله ذلك.

قال الطبري: وقد بينا معنى (المخمصة)، وأنها المجاعة.

(وأما النيل) فهو مصدر من قول القائل (نالني ينالني)، و(نلت الشيء فهو منيل).

ثم قال:

في تأويل قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، وسائر ما ذكر ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، في سبيل الله ، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾، مع رسول الله في غزوه ، ﴿وَادِيًا﴾ إلا كتب لهم أجر عملهم ذلك، جزاءً لهم عليه، كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم

التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، الآية، قال: ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بُعْدًا إلا ازدادوا من الله قربًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي: المجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلا يُرهبُ عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلا ولا كثيرا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ها هنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرْقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا -يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذا**»[١].

وأورد له شاهدًا فيه ضعف أيضًا من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبي ﷺ جيش العسرة قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضَرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم". يرددها مرارا[٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقد تقدم. ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ ﴾ في موضع رفع اسم كان. وهذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها؛ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. والمعنى: ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا؛ فإن النفير كان فيهم، بخلاف غيرهم فإنهم لن يستنفروا؛ في قول بعضهم. ويحتمل أن يكون الاستنفار في كل

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (زوائد المسند٤/ ٧٥)، والترمذي (٣٧٠١) بسندٍ ضعيف، فيه فرقد أبو طلحة وهو ضعيف.

(٢) زوائد المسند (٥/ ٦٣)، والترمذي (٣٧٠١)، وفي سنده مقال.

مسلم، وخصى هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم، وأنهم أحق بذلك من غيرهم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة ورسول الله ﷺ في المشقة. يقال: رغبت عن كذا أي ترفعت عنه. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي عطش. وقرأ عبيد بن عمير ﴿ظَمَآءٌ﴾ بالمد. وهما لغتان مثل خطأ وخطاء. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ عطف، أي تعب، ولا زائدة للتوكيد. وكذا ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي مجاعة. وأصله ضمور البطن؛ ومنه رجل خميص وامرأة خمصانة. وقد تقدم. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعته. ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ أي أرضا. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي بوطئهم إياها، وهو في موضع نصب لأنه نعت للموطئ، أي غائظا. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي قتلا وهزيمة. وأصله من نلت الشيء أنال أي أصبت. قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه؛ وليس هو من التناول، إنما التناول من نلته العطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، من الواو والنيل من الياء، تقول: نلته فأنا نائل، أي أدركته.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى -حاثا لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم-: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ، بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته

والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: المجاهدين في سبيل اللّه ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مجاعة.

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء على أوطانهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها للّه، ونصحوا فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل اللّه، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.



س: ما مدى صحة هذا الحديث: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا شاركوكم الأجر حبسهم المرض»، وما لفظه بالضبط؟

ج: نعم صحيح، أخرجه البخاري ومسلم[1] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وفيه: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**».

وفي رواية في البخاري: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**».

(١) البخاري (٤٤٢٣)، ومسلم (١٩١١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الحديث بعد إيراده في تفسير الآيات المذكورة:

فأعطى ﷺ للمعذور من الأجر مثل ما أعطى للقوي العامل. وقد قال بعض الناس: إنما يكون الأجر للمعذور غير مضاعف، ويضاعف للعامل المباشر. قال ابن العربي: وهذا تحكم على الله تعالى وتضييق لسعة رحمته، وقد عاب بعض الناس فقال: إنهم يعطون الثواب مضاعفا قطعا، ونحن لا نقطع بالتضعيف في موضع فإنه مبني على مقدار النيات، وهذا أمر مغيب، والذي يقطع به أن هناك تضعيفا وربك أعلم بمن يستحقه.

قلت: الظاهر من الأحاديث والآي المساواة في الأجر ؛ منها قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**» وقوله: «**من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها**». وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وبدليل أن النية الصادقة هي أصل الأعمال، فإذا صحت في فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بعد في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه.

قلت (مصطفى): وأورد القرطبي حديثًا ضعيفًا وهو نية المؤمن خير من عمله.



س: هل هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنفُسُهُمْ .﴾ منسوخة؟

ج: ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية الكريمة منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾. قالوا: فلما كان في المسلمين قلة لم

يكن لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ، فلما كثر المسلمون نُسخ الحكم بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾.

وقال آخرون من أهل العلم: لا نسخ في الآية الكريمة، وإنما إذا استنفر الإمام قومًا وجب على القوم النفير، فيكون قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ إذا دعاهم للجهاد واستنفرهم للخروج، والله أعلم.

وهذه بعض الأقوال في ذلك:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية.

فقال بعضهم: هي محكمة، وإنما كان ذلك لرسول الله ﷺ خاصة، لم يكن لأحدٍ أن يتخلف إذا غزا خِلافَه فيقعد عنه، إلا من كان ذا عُذْرٍ. فأما غيره من الأئمة والولاة، فإن لمن شاء من المؤمنين أن يتخلَّف خلافه، إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، هذا إذا غزا نبيُّ الله بنفسه، فليس لأحد أن يتخلف. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: لولا أن أشقَّ على أمتي ما تخلَّفت خلف سريّة تغزو في سبيل الله، لكني لا أجد سَعةً، فأنطلق بهم معي، ويشقّ علي - أو: أكره - أن أدعهم بعدي.

وقال آخرون هذه الآية: نزلت وفي أهل الإسلام قلة، فلما كثروا نسخها الله، وأباح التخلف لمن شاء، فقال: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

ابن زيد في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن

رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، قال: هذا حين كان الإسلام قليلا فلما كثر الإسلام بعدُ قال: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾، إلى آخر الآية.

قال أبو جعفر[١]: والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾، [سورة التوبة: ٩٠]. ثم قال جل ثناؤه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾، الذين تخلفوا عن رسول الله، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه، أن يتخلفوا خِلافَه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه. وذلك أن رسول الله ﷺ كان ندب في غزوته تلك كلَّ من أطاق النهوض معه إلى الشخوص، إلا من أذن له، أو أمره بالمقام بعده. فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلُّف. فعدّد جل ثناؤه من تخلف منهم، فأظهر نفاقَ من كان تخلُّفه منهم نفاقًا، وعذر من كان تخلفه لعُذْرٍ، وتاب على من كان تخلُّفه تفريطًا من غير شك ولا ارتياب في أمر الله، إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل. فأما التخلف عنه في حال استغنائه، فلم يكن محظورًا، إذا لم يكن عن كراهةٍ منه ﷺ ذلك. وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم. فليس بفرضٍ على جميعهم النهوضُ معه، إلا في حال حاجته إليهم، لما لا بُدَّ للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذ طاعته.

وإذا كان ذلك معنى الآية، لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخةً للأخرى، إذ لم تكن إحداهما نافيةً حكم الأخرى من كل وجوهه، ولا جاء خبر يوجِّه الحجة بأن إحداهما ناسخة للأخرى.

---

(١) هو الطبري.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال شيخنا علي بن عبيد الله: اختلف المفسرون في هذه الآية، فقالت طائفة: كان في أول الأمر لا يجوز التخلف عن رسول الله ﷺ حين كان الجهاد يلزم الكل؛ ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾؛ وقالت طائفة: فرض الله تعالى على جميع المؤمنين في زمان النبي ﷺ ممن لا عذر له الخروج معه لشيئين:

أحدهما: أنه من الواجب عليهم أن يقوه بأنفسهم.

والثاني: أنه إذا خرج الرسول فقد خرج الدين كله فأمروا بالتظاهر لئلا يقل العدد وهذا الحكم باق إلى وقتنا فلو خرج أمير المؤمنين إلى الجهاد وجب على عامة المسلمين متابعته لما ذكرنا فعلى هذا الآية محكمة، قال أبو سليمان: لكل آية وجهها وليس للنسخ على إهدى الآيتين طريق.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ وأن حكمها كان حين كان المسلمون في قلة، فلما كثروا نسخت وأباح الله التخلف لمن شاء؛ قاله ابن زيد. وقال مجاهد: بعث ﷺ قوما إلى البوادي ليعلموا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا؛ فأنزل الله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾. وقال قتادة: كان هذا خاصا بالنبي ﷺ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر؛ فأما غيره من الأئمة الولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. وقول ثالث: أنها محكمة؛ قال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك والفزاري والسبيعي وسعيد بن عبدالعزيز يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها.

قلت: قول قتادة حسن؛ بدليل غزاة تبوك، والله أعلم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾؟

ج: هذه الآية الكريمة فيها وجوه من التأويل أسوق بعضها، وبالله التوفيق، وهو جل ذكره أعلم بتأويل كتابه.

الوجه الأول: وما كان المؤمنون ليخرجوا إلى الغزو كلهم، ويتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة، إنما تخرج للغزو من كل فرقة منهم طائفة تغزو، وتبقى طائفة أخرى مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، تستبصر في دينها وتتعلم أمورالشريعة، وهؤلاء وأولئك إذا رجعوا إلى أهاليهم وأقوامهم أنذروهم عذاب الله ونقمة الله لعل القوم يحذرون عذاب الله ونقمته.

فإن قال قائل: إن الذين بقوا مع رسول الله ﷺ في المدينة تفقوا في الدين مع رسول الله ﷺ أما الذين خرجوا للغزو فما وجه إنذارهم لقومهم؟

فجواب ذلك: أنهم ينذروا قومهم عقوبة الكفر والمخالفات، ويحذرونهم أن يُصيبهم مثل ما أصاب أهل الكفر الذي حلَّت بهم الهزائم، وأذلهم الله بعد عزةٍ كانوا فيها، وسُبيت نساؤهم وغُنمت أموالهم، ويخبرونهم بنصر الله ﷻ لأتباع نبيه ﷺ، ويخبرونهم بشاجعة أهل الإيمان في القتال، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله، وهذا أمرٌ لم يعهده أهل الجاهلية من قبل.

الوجه الثاني: وما كان المؤمنون لينفروا إلى رسول الله ﷺ كلهم لتعلم دينهم ويتركوا أسرهم تضيع، بل ينفر إلى رسول الله ﷺ للتعلم منه فريقٌ ويبقى فريقٌ فيتفقه الذين نفروا إلى رسول الله ﷺ وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

الوجه الثالث: وما كان المسلمون كلهم ليخرجوا للغزو مع رسول الله ﷺ

ويتركوا بلادهم – إلا إذا دعاهم رسول الله ﷺ للخروج – إنما تخرج طائفة من كل فرقة مع رسول الله ﷺ تتعلم من هديه في الغزوات وتستفيد من سمته وتتدبر وتتأمل سيرته، وكيف وأن الله ﷻ يؤيده وينصره ويكبت عدوه، وكذا تستفيد من فقهه في الأسفار، وتتعلم منه الأحكام، لتعلم كل ذلك قومها إذا رجعت إلى قومها لعل الأقوام يحذرون عذاب الله وعقابه في الدنيا وكذا يحذرون العذاب الأخروي.

وهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك.

قال الطبري رحمه الله تعالى بعد أن ذكر معنى (كافة) وأن معناها: جميعًا قال موردًا عدة أقوال:

فقال بعضهم: وهو نَفْرٌ كان من قوم كانوا بالبادية، بعثهم رسول الله ﷺ يعلمون الناس الإسلام، فلما نزل قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾، انصرفوا عن البادية إلى النبي ﷺ، خشية أن يكونوا ممن تخلف عنه، وممن عُنِي بالآية. فأنزل الله في ذلك عذرهم بقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾، وكره انصرافَ جميعهم من البادية إلى المدينة.

وأورد من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد[1]: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾، قال: ناسٌ من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودَعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا! فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

(١) وهو مرسل، وفي سنده مقال.

طَآئِفَةٌ ﴾، يبتغون الخير ، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾، وليسمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم ، ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾، الناس كلهم ، ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

وقال آخرون: معنى ذلك: وما كان المؤمنون لينفروا جميعًا إلى عدوّهم، ويتركوا نبيهم ﷺ وحده

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾، قال: ليذهبوا كلهم ، فلولا نفر من كل حي وقبيلة طائفة، وتخلف طائفة ، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾، ليتفقه المتخلفون مع النبي ﷺ في الدين ، ولينذر المتخلفون النافرين إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

وأورد بإسناد ضعيف عن ابن عباس، قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا، ويتركوا النبي ﷺ وحده ، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾، يعني عصبة، يعني السرايا، ولا يتسرَّوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن، تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: «**إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآنا، وقد تعلمناه**». فيمكث السرايا يتعلَّمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخر، فذلك قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾، يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيه، ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون.

وبإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾، إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾، قال: هذا إذا بعث نبيُّ الله الجيوش، أمرهم أن لا يُعَرُّوا نبيه، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ما هؤلاء الذين نفروا بمؤمنين، ولو كانوا مؤمنين لم ينفر جميعهم، ولكنهم منافقون. ولو كانوا صادقين أنهم مؤمنون،

لنفر بعضٌ ليتفقه في الدين، ولينذر قومه إذا رجع إليهم.

وأورد بإسناد ضعيف أيضا عن ابن عباس قوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾، فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضَر بالسِّنين أجدبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقْبل بأسرها حتى يحلُّوا بالمدينة من الجهْد، ويعتلُّوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيَّقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم، وأنزل الله يخبر رسول الله ﷺ أنهم ليسوا مؤمنين، فردّهم رسول الله عشائرهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

وأورد الطبري أقوالًا أُخر، ثم قال: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: تأويلُه: وما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا رسول الله ﷺ وحده، وأن الله نهى بهذه الآية المؤمنين به أن يخرجوا في غزو وجهادٍ وغير ذلك من أمورهم، ويدعوا رسول الله ﷺ وحيدًا. ولكن عليهم إذا سَرَّى رسول الله سرية أن ينفر معها من كل قبيلة من قبائل العرب ، وهي الفرقة ، ﴿طَآئِفَةٌ ﴾، وذلك من الواحد إلى ما بلغ من العدد، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾، يقول: فهلا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفة؟

وعلل الطبري سبب هذا الاختيار ثم قال:

وأما قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾، فإن أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: ليتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهلَ دينه وأصحابَ رسوله، على أهل عداوته والكفر به، فيفقه بذلك من مُعاينته حقيقةَ علم أمر الإسلام وظهوره على الأديان، من لم يكن فقهه، ولينذروا قومهم فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا وعاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك ، إذا هم رجعوا

إليهم من غزوهم ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، يقول: لعل قومهم، إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله، حذرًا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرَهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وأورد طائفة من الآثار التي أوردها الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهي أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدم ؛ إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع، وما تجدد نزول على النبي ﷺ. وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ [التوبة: ٣٩] وللآية التي قبلها ؛ على قول مجاهد وابن زيد.

وقال: هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم. ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه. وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان. ويدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب والسنن.

وقال: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ قال الأخفش: أي فهلا نفر. ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ الطائفة في اللغة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين، وللواحد على معنى نفس طائفة. وقد تقدم أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] رجل واحد. ولا شك أن المراد هنا جماعة لوجهين؛ أحدهما عقلا، والآخر لغة. أما العقل فلأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب، وأما اللغة فقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ فجاء بضمير الجماعة.

وقال أيضًا:

قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ الضمير في ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾، ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للمقيمين مع النبي ﷺ؛ قاله قتادة ومجاهد. وقال الحسن: هما للفرقة النافرة؛ واختاره الطبري. ومعنى ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي يتبصروا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين. ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ من الكفار. ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، وأنهم لا يدان لهم بقتالهم وقتال النبي ﷺ؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار.

(٩١٤) أحمر
أسود

قلت: قول مجاهد وقتادة أبين، أي لتتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله ﷺ عن النفور في السرايا. وهذا يقتضي الحث على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام؛ إذ ليس ذلك في قوة الكلام، وإنما لزم طلب العلم بأدلته؛ قاله أبو بكر بن العربي.

قال البن الجوزي في زاد المسير:

واختلف المفسرون في المراد بهذا النفير على قولين:

أحدهما: أنه النفير إلى العدو، فالمعنى: ما كان لهم أن ينفروا بأجمعهم بل تنفر طائفة وتبقى مع النبي ﷺ طائفة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يعني الفرقة القاعدين فاذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن أو تجدد أمر أعلموهم به وأنذروهم به إذا رجعوا إليهم وهذا المعنى مروي عن ابن عباس.

والثاني: أنه النفير إلى رسول الله ﷺ، بل تنفر منهم طائفة ليتفقه هؤلاء الذين ينفرون، ولينذروا قومهم المتخلفين، هذا قول الحسن وهو أشبه بظاهر الآية فعلى القول الأول يكون نفير هذه الطائفة مع رسول الله ﷺ إن خرج إلى غزاة أو مع سراياه وعلى القول الثاني يكون نفير الطائفة إلى رسول الله لاقتباس العلم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: -منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم- ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ أي: جميعا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا

لفاتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ أي: القاعدون ﴿فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي. ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علما، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره، الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه اللّه علما ومنحه فهما.

وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.



قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ
غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ
أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ
١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ
وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ
مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ
صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ
رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم
بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾

[التوبة: ١٢٣-١٢٩]

(٩١٧) أحمر
أسود

س: اذكر معاني هذه:

﴿ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ - غِلْظَةً - يَسْتَبْشِرُونَ - مَّرَضٌ - رِجْسًا - يُفْتَنُونَ - يَذَّكَّرُونَ - ٱنصَرَفُواْ - لَّا يَفْقَهُونَ - عَزِيزٌ عَلَيْهِ - مَا عَنِتُّمْ - رَءُوفٌ - تَوَلَّوْاْ - حَسْبِيَ ٱللَّهُ - عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ - وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾	القريبون منكم ومن دياركم والكفار الذين يسكنون بلادًا قريبين من بلادكم
﴿ غِلْظَةً ﴾	شدة
﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾	يفرحون – يبشر بعضهم بعضا
﴿ مَّرَضٌ ﴾	شك – نفاق – ريب
﴿ رِجْسًا ﴾	كفرًا – شكًّا – ارتيابًا – نفاقًا
﴿ يُفْتَنُونَ ﴾	يختبرون
﴿يَذَّكَّرُونَ ﴾	يتعظون – يعتبرون
﴿ٱنصَرَفُواْ﴾	أعرضوا عن الإيمان
﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾	لا يفهمون – لا يريدون فهمًا
﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾	شاق عليه
﴿مَا عَنِتُّمْ﴾	عنتكم – ما يصيبكم من مشقة وعذاب
﴿رَءُوفٌ﴾	ذو رأفة

(٩١٨) أحمر
أسود

﴿تَوَلَّوْا﴾	أعرضوا وانصرفوا
﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾	كافيني الله
﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾	عليه اعتمدت
﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾	صاحب العرش العظيم، والعرش سرير الملك



قتال الكفار الأقرب فالأقرب

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – يا أهل الإيمان قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله أهل الكفر والجحود الأقرب إليكم منهم فالأقرب، يعني: الأقرب من بلادكم فالأقرب، أي: ابدءوا بقتال الكفار المجاورين لبلادكم الأُقرب منهم ثم الذي يليه، إلا إذا دعت الحاجة والمصلحة إلى غير ذلك، أو كانت بينكم وبين الأقرب منكم عهود ومواثيق. فحينئذٍ نتخطاهم إلى غيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ أي: شدة في القتال، وفي الألفاظ، وشجاعة وثباتًا، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يا أهل الإيمان، أن الله معكم ما دمتم متقين لله موحدين له قائمين بأمره ومنتهين عن نهيه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بَعُد منهم. يقول لهم: ابدأوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا، دون الأبعد فالأبعد. وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ، الروم، لأنهم كانوا سكان الشأم يومئذ، والشأم كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية، قتالُ من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم، ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم، لزمهم عونهم ونصرهم، لأن المسلمين يدٌ على من سواهم.

ولصحة كون ذلك كذلك، تأوّل كلُّ من تأوّل هذه الآية، أنّ معناها إيجاب

الفرض على أهل كل ناحية قتالَ من وليهم من الأعداء.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، فإن معناه: وليجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم، ﴿فِيكُمْ﴾، أي: منكم شدةً عليهم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، يقول: وأيقنوا، عند قتالكم إياهم، أن الله معكم، وهو ناصركم عليهم، فإن اتقيتم الله وخفتموه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

سبحانه عرفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي شدة وقوة وحمية.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا أيضا إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من اللّه تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى اللّه، يعنكم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى

حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته، عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجَّة الوداع. ثم عاجلته المنية، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوما، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر، رضي الله عنه وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم. ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَةِ الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيّه من بعده، وولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعدًا وقُربا. ففرقها على الوجه

الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار. على خلافة أمير المؤمنين [أبي عمرو] عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسى الإسلام [بجلاله] رياسة حلة سابغة. وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ ﴾ [أي: وليجد الكفار منكم غلظة] عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا الضَّحوك القتَّال**»، يعني: أنه ضَحُوك في وجه وليه، قَتَّال لهامة عدوه(١).

وقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل

---

(١) لا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ.

الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.



زيادة إيمان المؤمنين
بنزول القرآن وزيادة أهل الضلال ضلالا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – وإذا ما أنزت عليك يا رسول الله سورة من عند الله ﴿فَمِنۡهُم﴾ قيل من أهل النفاق، وقيل: أُبهم القائل وقد يكون من أهل النفاق وقد يكون من غيرهم. ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ هذه الآية التي نزلت إيمانًا، فأهل النفاق يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية، وأهل الإيمان يقولون ذلك تيمنًا وتفاؤلًا واستبشارًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

أما زيادة إيمانهم فوجهها أنهم لما أنزلت السورة آمنوا بها وامتثوا ما فيها

فأكرمهم الله بزيادة إيمانهم وطمأنينة قلوبهم فكلما نزلة آيةٌ وسورةٌ ازدادوا إيمانًا وتصديقًا فزادهم الله إيمانًا إلى إيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧].

وكذا فإنهم يعملون بالآيات فيزيدهم الله توفيقًا كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

ويزدادوا يقينًا إذا سمعوا الآيات تتلى وترق لها قلوبهم وتخضع لها جوارحهم وتنذرف لها دموعهم، فكل ذلك يزيدهم الله به هدى، فإذا نزلت الآية الكريمة والسورة المباركة، وكل آيات القرآن كريمة وكل سورة مباركة، فإذا نزلت السورة بشر بعضهم بعضًا وفرحوا بنزولها.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ وهم أهل النفاق الذين في قلوبهم شك وارتياب وتردد ونفاق، بل وكفرٌ كذلك فزادتهم الآية الكريمة، والسورة لامباركة ﴿رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ شكًّا إلى شكهم ونفاقًا إلى نفاقهم، وذلك لأنهم لما عاندوا وخالفوا عاقبهم الله بأن زادهم ضلالًا إلى ضلالهم وغيًّا إلى غيهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨-١٠].

وقوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: استمر بهم الرجس والشك والنفاق حتى ماتوا على كفرهم وضلالهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول: أيها الناس، أيكم زادته هذه السورة إيمانًا؟ يقول: تصديقًا بالله وبآياته. يقول الله: ﴿فَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، من الذين قيل لهم ذلك، ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾، السورة التي أنزلت، ﴿إِيمَـٰنًا﴾، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين.

فإن قال قائل: أو ليس «الإيمان»، في كلام العرب، التصديق والإقرارُ؟

قيل: بلى!

فإن قيل: فكيف زادتهم السورة تصديقًا وإقرارًا؟

قيل: زادتهم إيمانًا حين نزلت، لأنهم قبل أن تنزل السورة لم يكن لزمهم فرضُ الإقرار بها والعمل بها بعينها، إلا في جملة إيمانهم بأن كل ما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله فحقٌّ. فلما أنزل الله السورة، لزمهم فرض الإقرار بأنها بعينها من عند الله، ووجب عليهم فرض الإيمان بما فيها من أحكام الله وحدوده وفرائضه، فكان ذلك هو الزيادة التي زادتهم نزول السورة حين نزلت من الإيمان والتصديق بها.

و يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، نفاق وشك في دين الله، فإن السورة التي أنزلت، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدّقوا، فكان ذلك زيادة شكٍّ حادثةٍ في تنزيل الله، لزمهم الإيمان به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نَتْنٍ من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من النتن والنفاق. وذلك معنى قوله:(فزادتهم رجسا إلى رجسهم)، ﴿وَمَاتُوا۟﴾، يعني: هؤلاء المنافقين أنهم هلكوا، ﴿وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، يعني: وهم كافرون بالله وآياته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ ؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول «شرح البخاري» رحمه الله، ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: مبينا حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ ﴾ فيها الأمر، والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ ﴾ أي: حصل الاستفهام، لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى -مبينا الحال الواقعة-: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ بالعلم بها، وفهمها، واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿ وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضا بما من اللّه عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات اللّه، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

(٩٢٧) أحمر
أسود

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك ونفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أي: مرضا إلى مرضهم، وشكا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿ وَ ﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات اللّه وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.



س: آيات القرآن الكريم تنزل فيزداد بها المؤمن إيمانًا والكافر ضلالًا اذكر ما يدل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت: ٤٤].



الابتلاءات لإرجاع الناس لدينهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – أولا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يبتلون في كل

عام مرة أو مرتين لإرجاعهم عن غيِّهم وشرهم وفسادهم، وكفرهم ونفاقهم، يبتليهم الله ﷻ بأمراض وأسقام، وبتسلط عدوهم عليهم، وبضرٍّ في أموالهم إلى غير ذلك من صور الابتلاءات، وكل ذلك لإرجاعهم إلى دينهم، ولكنهم لا يرجعون ولا يستغفرون ولا يتعظون ولا يعتبرون.

هذا، وقد تقدمت في مواطن عدة أدلة على أن الله ﷻ يبتلي العباد لإرجاعهم إلى طريق وصراطه المستقيم قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٦٨﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]

إلى غير ذلك من الآيات.

ثم هذه بعض أقوال العلم في الآية المذكورة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذلك بعد أن أورد قراءتين في قوله: (يرون) إحداهما بالتاء (أفلا ترون) والأخرى بالياء ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ وصوَّب قراءة من قرأ بالياء ثم قال:

قال أبو جعفر: اختلفت القرأة في قراءه قوله:(أولا يرون).

فقرأته عامة قرأة الأمصار: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾، بالياء، بمعنى: أو لا يرى هؤلاء الذين في قلوبهم مرضُ النفاق؟

وقرأ ذلك حمزة: (أَوَ لا تَرَوْنَ)، بالتاء، بمعنى: أو لا ترون أنتم، أيها المؤمنون، أنهم يفتنون؟

قال أبو جعفر: والصواب عندنا من القراءة في ذلك، الياءُ، على وجه

التوبيخ من الله لهم، لإجماع الحجة من قرأة الأمصار عليه، وصحة معناه.

فتأويل الكلام إذًا: أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يختبرهم في كل عام مرة أو مرتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرة، وفي بعضها مرتين، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، يقول: ثم هم مع البلاء الذي يحلّ بهم من الله، والاختبار الذي يعرض لهم، لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، ولا هم يتذكرون بما يرون من حجج الله ويعاينون من آياته، فيتعظوا بها، ولكنهم مصرُّون على نفاقهم؟

واختلف أهل التأويل في معنى «الفتنة» التي ذكر الله في هذا الموضع أن هؤلاء المنافقين يفتنون بها.

فقال بعضهم: ذلك اختبارُ الله إياهم بالقحط والشدة.

وقال آخرون: بل معناه: أنهم يختبرون بالغزو والجهاد.

وقال آخرون: بل معناه: أنهم يختبرون بما يُشيع المشركون من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه، فيفتتن بذلك الذين في قلوبهم مرض.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله عجَّب عبادَه المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبَّخ المنافقين في أنفسهم بقلّة تذكرهم، وسوء تنبههم لمواعظ الله التي يعظهم بها. وجائزٌ أن تكون تلك المواعظُ الشدائدَ التي ينزلها بهم من الجوع والقحط، وجائزٌ أن تكون ما يريهم من نُصرة رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم، وجائزٌ أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم، بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه، ولا خبر يوجب صحةَ بعض ذلك دون بعض، من الوجه الذي يجب التسليم له. ولا قول في ذلك أولى بالصواب من

التسليم لظاهر قول الله وهو: أو لا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين، بما يكون زاجرًا لهم، ثم لا ينزجرون ولا يتعظون؟

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال تعالى -موبخا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق-: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم -كما هي سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ يعني المنافقين وقرأ حمزة أولا ترون بالتاء على الخطاب للمؤمنين وفي معنى ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ ثمانية أقوال:

أحدها: يكذبون كذبة أو كذبتين يضلون بها، قاله حذيفة بن اليمان.

والثاني: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: يبتلون بالغزو في سبيل الله، قاله الحسن وقتادة.

والرابع: يفتنون بالسنة والجوع، قاله مجاهد.

والخامس: بالأوجاع والأمراض، قاله عطية.

والسادس: ينقضون عهدهم مرة أو مرتين، قاله يمان.

والسابع: يكفرون وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبي ﷺ بما تكلموا به إذ خلوا علموا أنه نبي ثم يأتيهم الشيطان فيقول إنما بلغه هذا عنكم فيشركون، قاله مقاتل بن سليمان.

والثامن: يفضحون باظهار نفاقهم، قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون ويتعظون.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – وإذا ما أنزلت سورة عليك يا رسول الله وسمعها المنافقون، وكانوا فيما بينهم فأرادوا أن يطعنوا في الآية أو يسخروا منها ومن نزولها، نظر بعضهم إلى بعض قبل أن يتكلموا فيها بطعنٍ وعيب خشية أن ينقل قولهم إلى رسول الله ﷺ ثم قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحدٍ غيركم فقالوا ما قالوه في شأن السورة المباركة طعنًا وذمًّا وعيبًا وانتقاصًا ثم انصرفوا عن الحق إلى الباطل وعن الإيمان واليقين إلى الكفر والشك والتكذيب ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاء عليهم، وقيل: إخبار بما أحلَّه الله بهم من العقاب، وذلك لكونهم لم يتدبروا آيات الله ولم يتفهموها، ولم يقبلوا عليها ولم يعيروها اهتمامًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، من القرآن، فيها عيبُ هؤلاء المنافقين الذين وصفَ جل ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله ﷺ، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، فتناظروا، ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معايبهم. ثم ابتدأ جل ثناؤه قوله:

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، فقال: صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوبَ هؤلاء المنافقين، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكبارًا، ونفاقا.

واختلف أهل العربية في الجالب حرفَ الاستفهام.

فقال بعض نحويي البصرة، قال: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، كأنه قال: «قال بعضهم لبعض»، لأن نظرهم في هذا المكان كان إيماءً وشبيهًا به، والله أعلم.

وقال بعض نحويي الكوفة: إنما هو: وإذا ما أنزلت سورة قال بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد؟

وقال آخر منهم: هذا «النظر» ليس معناه «القول»، ولكنه النظر الذي يجلب الاستفهام، كقول العرب: «تناظروا أيهم أعلم»، و«اجتمعوا أيهم أفقه»، أي: اجتمعوا لينظروا، فهذا الذي يجلب الاستفهام.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ، ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي: تَلَفَّتُوا، ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ ﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وقال تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المعارج:٣٦، ٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يمينا وشمالا هروبا من

الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥]، ﴿ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شده عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ ﴿مَآ﴾ صلة، والمراد المنافقون؛ أي إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآنا أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرعب على جهة التقرير؛ يقول: هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد؛ وذلك جهل منهم بنبوته عليه السلام، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه. وقيل إن ﴿نَّظَرَ﴾ في هذه الآية بمعنى أنبأ. وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿نَّظَرَ﴾ في هذه الآية موضع قال.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ أي انصرفوا عن طريق الاهتداء. وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لإيمانهم؛ فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء، ولم يسمعوا قراءة النبي ﷺ سماع من يتدبره وينظر في آياته؛ ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢]. ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن،

أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجدده وينميه، ليكون دائما في صعود.

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ إلى ﴿ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾.

يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ ﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم اللّه بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ فقها ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره، من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ [محمد: ٢٠].



من تعمد الضلال زاده الله ضلالاً

س: من أعرض عن ذكر الله وانصرف عن توحيده وشرعه زاده الله ضلالًا وانصرافًا دلِّل على ذلك؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾.

و قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥].

و قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ

(٩٣٥) أحمر
أسود

كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].



س: في قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ ردٌّ على القدرية، وضح ذلك؟

ج: إيضاحه فميا ذكره القرطبي إذ قال:

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالبها ومقلبها ؛ ردا على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحكمهم، يتصرفون بمشيئتهم ويحكمون بإراداتهم واختيارهم ؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب: ما أبين هذا في الرد على القدرية ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]. وقوله ﷻ لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول.



س: قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من المعني به؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: منكم أيها العرب.

الثاني: منكم أيها البشر.

وثمَّ أقوال أُخر.



(٩٣٦) أحمر
أسود

حرص رسول الله ﷺ على هداية أمته

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – لقد جاءكم أيها البشر رسول من أنفسكم، ليس بملكٍ، بل بشرٌ مثلكم حتى تفهمون مراده وتعقلون ما يقول.

ثم هو من العرب أيضًا، من نكاحٍ صحيح ليس من سفاح تعرفون أيها العرب ولا تنكرونه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شاق عليه ما يحل بكم من المشقة، فيما يحزنكم يؤلمه، وما أنتم فيه من الضلال الذي يجلب لكم العذاب يؤلمه ويحزنه، يعزُّ عليه عنتكم، يتألم لتألمكم يا أهل الإيمان، ويحزن لحزنكم وكذا يشق عليه إعراض قومه عن الإيمان فهذا الذي يسبب لهم العذاب، فيحزن لإعراض قومه عن الإيمان حريصٌ على هدايتكم يبذل ما استطاع لهدايتكم ذو رحمة ورقة ورأفة بأهل الإيمان.

وبنحو هذا قال أهل التأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للعرب: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾، أيها القوم، رسول الله إليكم، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، تعرفونه، لا من غيركم، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، يقول: حريص على هُدَى ضُلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾: أي رفيق، ﴿رَّحِيمٌ﴾.

وأورد بسندٍ صحيح عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ....﴾.

قال: لم يصبه شيء من شركٍ في ولادته، وفي رواية: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية(١).

قال الطبري:

وأما قوله:(عزيز عليه ما عنتم)، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: ما ضللتم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: عزيز عليه عَنت مؤمنكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ ابن عباس. وذلك أن الله عمَّ بالخبر عن نبيّ الله أنه عزيز عليه ما عنتَ قومَه، ولم يخصص أهل الإيمان به. فكان ﷺ كما جاء الخبرُ من الله به، عزيزٌ عليه عَنَتُ جمعهم.

هذا، وقد طرح الطبري سؤالًا وأجاب عليه فقط:

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يوصف ﷺ بأنه كان عزيزًا عليه عنت جميعهم، وهو يقتل كافرهم ويسبي ذراريهم ويسلبهم أموالهم، وأجاب بقوله:

قيل: إن إسلامهم، لو كانوا أسلموا، كان أحبَّ إليه من إقامتهم على كفرهم وتكذيبهم إياه، حتى يستحقوا ذلك من الله. وإنما وصفه الله جل ثناؤه بأنه عزيزٌ عليه عنتهم، لأنه كان عزيزًا عليه أن يأتوا ما يُعنتهم، وذلك أن يضلُّوا فيستوجبوا العنت من الله بالقتل والسبي.

وأما ﴿مَا﴾ التي في قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، فإنه رفع بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾،

(١) يعني بذلك أنه ﷺ أُخرج من نكاحٍ صحيح ليس من سفاح الجاهلية.

لأن معنى الكلام ما ذكرت: عزيز عليه عنتكم.

وأورد بسندٍ يصح عن قتادة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، حريص على ضالهم أن يهديه الله. وفي رواية: حريص على من لم يسلم أن يسلم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال:

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يَعْنَتُ أمته ويشق عليها.

وقال:

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧] وهكذا أمره تعالى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

والله أعلم والخطاب للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد

النعمة عليهم في ذلك ؛ إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه، وشرفوا به غابر الأيام. وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب. قال ابن عباس: ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبي ﷺ فكأنه قال: يا معشر العرب لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل. والقول الثاني أوكد للحجة أي هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتموا به.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها. وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم".

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدما على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره.



الحث على الاعتماد على الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

ج: هذا – والله تعالى أعلم – توجيه لرسول الله ﷺ من ربِّه ﷻ، والمعنى فإن أعرضوا عن الإيمان، ورضوا بالكفر عنه بديلًا، فقل يكفيني الله ﷻ ويحفظني، ويُسلمني، هو وحده الذي يكفيني ويعصمني ويحفظني لا إله إلا هو، لا معبود لي إلا الله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت، وهو رب العرش العظيم، وكذا فهو رب كل شيء ومليكك كل شيء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فإن تولى، يا محمد، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، يكفيني ربي، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لا معبود سواه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، الذي يملك كلَّ ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده.

وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم، الخبرَ عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه، لأن ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه «ذو العرش» دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه في سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ [المزمل: ٩].

﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وَقَدَره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي إن اعرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التي من الله عليهم بها فقل حسبي الله أي كافي الله تعالى. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت وإليه فوضت جميع أموري. ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ خص العرش لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ما ذكره. وقراءة العامة بخفض ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ نعتا للعرش.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ فَإِن ﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي: الله كافيَّ في جميع ما أهمني، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، كان ربا لما دونه من باب أولى وأحرى.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قرأ الجمهور بضم الفاء، وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن، ومحبوب، عن أبي عمرو بفتحها وفي المضمونة أربعة أقوال.

أحدها: من جميع العرب، قاله ابن عباس، وقال ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسوله الله ﷺ.

والثاني: ممن تعرفون، قاله قتادة.

والثالث: من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قاله جعفر الصادق.

الرابع: بشر مثلكم فهو آكد للحجة لأنكم تفقهون عمن هو مثلكم، قاله الزجاج وفي المفتوحة ثلاثة أقوال:

أحدها: أفضلكم خلقا، **والثاني:** أشرفكم نسبا، **والثالث:** أكثركم طاعة لله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: شديد عليه ما شق عليكم، رواه الضحاك عن ابن عباس، قال الزجاج: شديد عليه عنتكم، والعنت لقاء الشدة.

والثاني: شديد عليه ما آثمكم، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ قال الحسن: حريص عليكم أن تؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال ابن عباس: سماه باسمين من أسمائه، وقال أبو عبيدة: رؤوف فعول من الرأفة وهي أرق من الرحمة ويقال: رؤف وأنشد:

ترى للمؤمنين عليك حقا   كفعل الوالد الرؤف الرحيم

وقيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين.

آخر آية نزلت من القرآن

س: هل ورد شيء في أن آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؟

ج: نعم ورد ما يفيد ذلك بما يحسن بمجموع طرقه فقد أخرج عبد الله بن أحمد[١] في زوائد المسند من حديث أُبي بن كعب قال: آخر آية نزلت في القرآن، هذه الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة.

وفي سنده مقال لكن له طريق آخر عند عبد الله بن أحمد أيضًا[٢] بسنده إلى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْقُرْآنَ فِي مَصَاحِفَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَكَانَ رِجَالٌ يَكْتُبُونَ وَيُمْلِي عَلَيْهِمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾. فظَنُّوا أَنَّ هَذَا آخِرُ مَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ، فَقَالَ لَهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم أَقْرَأَنِي بَعْدَهَا آيَتَيْنِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ: هَذَا آخِرُ مَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ فَخُتِمَ بِمَا فُتِحَ بِهِ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعند البخاري[٣] من حديث زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ: مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي

---

(١) (٢/ ٣٣٨).
(٢) المسند (٥/ ١٣٤).
(٣) المسند (٥/ ١٣٤).

أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلَا نَتَّهِمُكَ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعْ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنْ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنْ الرِّقَاعِ، وَالْأَكْتَافِ، وَالْعُسُبِ، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا، مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى آخِرِهِمَا. وَكَانَتْ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ.



(٩٤٥) أحمر
أسود